

GOVERNMENT OF INDIA

ARCHAEOLOGICAL SURVEY OF INDIA

CENTRAL
ARCHAEOLOGICAL
LIBRARY

ACCESSION NO. 39388

CALL No. 923.262/962.

٢٩١٨٨

الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

ذكرى البطل الفاتح

ابراهيم باشا

١٨٤٨ - ١٩٤٨

39355

١٥٢٥٤

35386

مجموعة أبحاث ودراسات لتاريخه
تنشرها الجمعية بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته

١٤٥٥

١٤٥٥

البياتمة
مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٤٨



البطل الفاتح ابراهيم باشا

GEIICAB

... ..

... ..

923.262/ 961

المحتويات

صفحة

- كلمة حضرة صاحب المعالي الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى باشا ... (هـ)
» » » السعادة محمد طاهر باشا ... (ح)
مقدمة الكتاب : ابراهيم باشا وبناء النهضة المصرية لحضرة صاحب العزة
الأستاذ شفيق غربال بك ... (ط)

القسم الأول - التاريخ السياسى

- ابراهيم باشا فى بلاد العرب للدكتور عبد الحميد البطريق ... ٣
» » » اليونان للأستاذ محمد أحمد حسونه بك ... ٣٣
جهود ابراهيم باشا فى خدمة الزراعة والصناعة والتجارة للدكتور
أحمد أحمد الحتة ... ٧٩
إدارة الشام الدكتور أسد رستم ... ١٠٧

القسم الثانى - التاريخ الحربى

- الجيش الذى قاده ابراهيم باشا للبكاشى عبد الرحمن زكى ... ١٣١
حرب كريت والمورة للبكاشى أحمد فهم بيومى ... ٢١١
حملة الشام الأولى والثانية للبكاشى عبد الرحمن زكى ... ٢٨١

كلمة حضرة صاحب المعالى

الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى باشا

وزير المعارف العمومية

تهيات للجمعية الملكية للدراسات التاريخية مناسبة من أكرم المناسبات لتتقدم
بباكورة أعمالها للناس . ويشرفنى ويسعدنى أن أقدم لهذه الباكورة الصالحة .
ولعل الجمعية لا تجد مناسبة أكرم من ذكرى انقضاء مائة من الأعوام على وفاة
إبراهيم ، بطل مصر العظيم ، للتقدم بأول ثمرة من ثمار جهودها الموفقة المباركة .
وإنى لأذكر اليوم الذى توج فيه مرسوم إنشاء الجمعية بالتوقيع الملكى الكريم ،
وأذكر معه ماخالج القلوب من أمانى رحبية ، وما طاف بالنفوس من آمال واسعة ،
تعلقت جميعا بهذه الجمعية الكريمة التى ضمت فىمن ضمنه الأفاضل من رجال التاريخ
فى مصر ، وقد صحت عزيمتهم على أن تتألف جهودهم ، وتتكافل قواهم ، لينشروا
على الناس تاريخ مصر القومى القريب والبعيد ، مكتوبا بأقلام جمعت إلى الدقة
التاريخية ، والأمانة العلمية ، قوة التحليل ، وروعة العرض ، وحرارة الإيمان بالوطن .
وها قد بدت تبشير تؤذن بأن ما كان أمنية بالأمس أصبح اليوم حقيقة واقعة .
وها نحن نشهد عملا جليلا بدأت به الجمعية أعمالها . وقد اكتمل لها التوفيق ،
فعمدت إلى صفحة من أروع صفحات التاريخ المصرى الحديث فنشرتها ،
وإلى بطل من أعظم أبطال مصر الحديثة فألقت ضوئا قويا على سيرته المجيدة ،
وهى حافلة بالعظام ، مليئة بالمفاخر ، بطل ألقت الأحداث فى يديه القويتين أقدار
البلاد ، فأدار دفتها ، وسار بالسفينة بين الأمواج الصاخبة والعواصف الهوجاء ،
حتى قادها الى بر الأمان . وها نحن نقرأ فصولا ممتعة فى تاريخ إبراهيم ، ديجها يراع
طائفة من كبار المؤرخين ، وكل فصل حوى تاريخ حقبة من حياة هذا الرجل العظيم .
فاذا أنت بدأت فى قراءة الفصل الأول من هذا التاريخ الزاخر بالأعاج لا تكاد

قرونا . ولولا تألب الدول الغربية بالأمس ، كما هي تتألب اليوم ، لأعاد للعرب مجدهم القديم ، ولجئد الامبراطورية العربية شاححة المجد ، عالية الأركان .

فاذا ذكرنا ابراهيم بعد مائة عام من وفاته ، فلائن روحه العربية الجبارة هي التي تسيطر اليوم على تفكيرنا ، وتملك علينا عقولنا ، وتوجه الأمة العربية الى طريق الوحدة ، وتقودها نحو المجد والظفر .

وقبل أن يكون ابراهيم بطلا عربيا ، كان رجلا عظيما . وقبل هذا وذاك كان إنسانا وفيما .

كان ابراهيم رجلا عظيما . فقد أثبت منذ الحملة الوهابية ، وهو في مقتبل شبابه وفي مطلع مجده الحربى ، أنه جد خبير بسياسة الرجال ، وأن عقله الجبار أكبر بكثير من سنه الغضة ، وأن السر في عظمته هو نفس السر في عظمة أبطال التاريخ جميعا : إرادة قوية تدك الحصون ، وعزيمة من حديد تهد الجبال ، وصبر على المكارة لا ينفذ ، وثبات على الشدائد لا يتزعزع .

وكان ابراهيم إنسانا وفيما . ولعل أروع صفحة في تاريخ ابراهيم هو شعوره النبيل نحو أبيه العظيم : حب قوى ، وإخلاص عميق ، ووفاء نادر . ولم يرو التاريخ سيرة رجلين عظيمين ، ربطتهما أواصر الدم ، وجمع بين قلبيهما الوفاء والحب ، ووثقت من صلاتهما الذكريات المحيدة ، واقترن مجد الواحد بالآخر دون أن يفض منه أو ينتقص من مكانته ، مثل ما روى من سيرة محمد على الكبير ومن سيرة ابراهيم العظيم . لقد سعى الخصوم بالقطيعة بين الولد وأبيه ، ولكن حب محمد على لولده ، ووفاء ابراهيم لأبيه ، كل هذا كان عاصما للوالد والولد ، فبقى حب كل منهما للآخر خالدا على الدهر ، وبقى إخلاص كل منهما للآخر ثابتا لا يتزعزع . وكان هذا مثلا فذا لا ينقل التاريخ له نظيرا .

فسلام على ابراهيم البطل العربى . وسلام على ابراهيم الرجل العظيم . وسلام على ابراهيم الانسان الوفى .

تصبر حتى تأتى على آخر فصل فيه ، وأنت تنتقل من ناحية الى ناحية فى تاريخ رجل وسعت عظمته أن يكون القائد المظفر ، والسياسى المحنك ، والإدارى الحازم ، والمصلح الحكيم . كل هذا فى أسلوب علمى رصين ، يأخذك منه دقة التحليل ، وأمانة العرض ، وسمو المعنى ، وإشراق الديباجة ، وسلاسة اللفظ . فلا تملك إلا أن تحمد للجمعية ما قدمت ، وللكتاب الذين ساهموا فى صنع هذا الأثر الجليل ما بذلوا من جهد موفق ، وما قاموا به من عمل مشكور .



وبعد فلا يسعنى ، وأنا أقدم لكتاب تذكارى فى تاريخ إبراهيم ، إلا أن أحيى ، ولو فى كلمة موجزة ، هذا البطل العظيم . وها قد مضى على وفاته مائة من الأعوام وذكره لا تزال النفوس بها مغمورة ، والقلوب بها عامرة . بل إن ذكره لتجدد كل يوم فى هذه الحقبة من التاريخ التى نعيش فيها الآن ، ونحن نرى الجيوش المصرية المظفرة تخوض المعارك مرفوعة الأعلام فى سبيل المجد العربى ، وفى سبيل الوحدة العربية . فنتحن اليوم ، وبعد قرن كامل ، نحاول تجديد أيام إبراهيم ، وهو البطل الذى عمل للاستقلال العربى بعد أن زال هذا الاستقلال ، وللوحدة العربية بعد أن انقرط عقد هذه الوحدة . فما أشبه الليلة بالبارحة ...

بدأ إبراهيم مجده العسكرى فى الصحارى العربية . وأتم هذا المجد فى الوديان والسهول العربية . اذا لم يكن إبراهيم عربى المولد ، فإنه عربى النشأة والموطن ، عربى اللغة والعاطفة ، عربى المجد والعظمة ، ”أتى مصر طفلاً فغيرت شمسها دمه بغيرى عربياً“ .

جاء إبراهيم فى عصر كانت الأمة العربية فيه قد نسيت نفسها ، فانحلت ووابطها ، واندكت صروح مجدها ، وعثرت ولج بها العثار . فقاد جيشاً مصرياً عربياً الى مواطن العزة والمجد ، وحرر البلاد العربية من نير شديد الوطأة ، وايقظ الوعى العربى من سبات عميق ، وأطلق الروح العربية من عقالها التى رسفت فيه

مُقدِّمةُ الكتاب

ابراهيم باشا وبناء النهضة المصرية

للاستاذ محمد شفيق غربال بك

وكيل وزارة المعارف ونائب رئيس الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

هذا الكتاب تحية إعجاب ووفاء وتقدير، يقدمها لمقام البطل الفاتح ابراهيم المؤرخون من مصر ولبنان . وهم بذلك يساهمون في احتفال مواطنيهم بذكراه المحيية .

ففى مثل هذا الشهر من عام ١٨٤٨ انتقل الى مصر ابراهيم باشا الى دار البقاء ، بعد أن سجل لبلاده نصرا عظيما فى صفحة الخلود . وحقق على مصر النهضة الوفية أن تحيى ذكرى مفاسخه ومآثره، وأن تشيد بها الآن وعلى مرّ السنين . وليكن رائدها فى هذا وأمثاله تلك الحكمة الرائعة الماثورة عن مايكها الراحل « فؤاد الأول » :

“ لا يفقه شعب ما سرّ مستقبله قبل أن يتنبه شعور ”

“ الاحترام فيه لما آتى أجداده ويدرك ما أثر أبطاله . ”

“ فهنا وهنا فقط يستطيع أن يبلغ ذروة الرقى . ”

وكتابنا هذا ثمرة من ثمرات غرس فؤاد الأول . فقد أمر بجمع ما بقى من وثائق عصرى محمد على الكبير والخديو اسماعيل ، ورسم بأن تعدّ الإعداد الفنى الذى تتطلبه الدراسة العلمية ، وبث فى حفظتها من روحه السمحة . وبدأت بذلك من فيضه نهضة تاريخية ، ترى آثارها فيما نشر وفيما سينشر من الدراسات التاريخية القيمة .

كلمة حضرة صاحب السعادة محمد طاهر باشا رئيس الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

انقضت مائة عام على وفاة رجل اختاره القدر ليكون المنفذ لمشروعات والده العظيم محمد على الكبير مما كان قد يصل بالحدود المصرية وتخومها إلى ما سجله لها تاريخها المجيد في سابق الأزمان .

فوفاء لتلك الذكرى المحيطة تقدم الجمعية الملكية للدراسات التاريخية للرأى العام المصرى والشرقى هذا الكتاب الذى يبحث فى تاريخ حياة إبراهيم وجيل أعماله ليرى القارئ فيه صورة بارزة لشخصيته الفذة التى جمعت مع قدرة القائد العظيم كفاية الإدارة والنظام .

انتهزت جمعيتنا تلك الفرصة المحيطة السانحة لتبرز أقول مجهود لأعمالها وهو هذا المؤلف فأحيت فيه شخصية خالدة فى التاريخ بعظيم أعمالها الجليلة ورخاء مواهبها وبغزارة شعورها بما يوحى اليها من المعرفة بالموجب وأدائه على الوجه الأكمل حتى جعل له أبعد الأثر وأفعله فى عصور آبائنا وعصرنا بل ولعصور أبنائنا .

فلتتخذ حياة القائد العظيم إبراهيم مثلاً تقتدى به ونبراساً نسير على هديه لنصل بعده إلى عصر الإصلاح الاجتماعى والوعى الصحيح القومى الذى نتوق إليه ونسوق ركبنا الى الحصول عليه .

وبما أن الأقدار التى يعجز الإنسان عن إدراك كنهها قد حرمت إبراهيم من أن يرى ثمر كفاحه فان ذكره باقية لنا تدفعنا إلى الأمام وتثبت فىنا روح العمل بشجاعة ورجولة خليفة بذكره لمواصلة الجّد نحو المجد والنصر .

وكان إشارة يد تمثاله القائم فى عاصمة بلدنا العزيز وفى الميدان المسمى باسمه ترشد أبناء وأحفاد من قادهم إلى المجد إلى طريق الواجب والتضحية .

”إنى حين هيئت لى الأسباب لدرس المحفوظات الملكية تركت لى معها الحزبية التامة لأصل إلى ما أريد منها، وأستقل فى وضع دراساتى فيها دون قيد أو شرط . وهذا منتهى ما بلغ اليه العلم من الحزبية على ممر العصور“ .

* * *

وأن الشهادة التى تشهد بها أوراق المحفوظات الملكية المصرية لما يستطيع القارئ أن يطمئن إليه كل الاطمئنان . فهى أقوال المسؤولين من رجال الإدارة وقد دُوت فى زمن وقوعها . ولم يقصد بها قائلوها أية مصلحة شخصية أو دعاية عمومية لأنها كانت سرية أو على الأقل غير مباحة للجمهور .

ولعل أهم ما كشفت عنه الأوراق صورة دقيقة جلية لشخصية ابراهيم فى أدوار حياته ، منذ أيام الصبا عند قدومه لمصر بعد أن استتب الأمر فيها لأبيه فدور الشباب إلى الكهولة ؛ وهى شخصية إنسان موهوب ، تنمو وترعرع فى يد أب عبقري ، وفى وطن خلىق بالأبطال ، وفى ساعة من الزمان حقيقة البطولة .

وما كان ابراهيم إلا المثل الكامل لتلك الصفوة من الرجال التى عمل محمد على عملا متواصلا على تنشئتها وتربيتها وتكوينها . وكانوا جميعا على اختلاف أصولهم يتفقون معا فى شىء واحد ، فى أنه لهم هو ولى النعم . تعهدهم بالتعليم ، وقلدهم المناصب ، وعهد إليهم بخططه ، ونفث فيهم من همته وآماله ، وأنعم عليهم ورفع قدرهم . وقد وضع علاقته بهم لا على أساس السيد والمسود بل على أساس آخر: علاقة الأب بأبنائه . يأخذهم باللين أحيانا وبالشدّة أحيانا أخرى ، كما يأخذ الأب أبناءه باللين والشدّة . وهذه أوامره الحكومية قل أن تجد لها شبيها فى أوامر الحكومات ، فكانت فى جمعها للنصح والترغيب والترهيب وضرب الأمثال والإشارة إلى أن منفعة الرعية أو مجد الوطن متوقف على ما نيط بعمل الحكومة أداؤه صورة صادقة لشخصية هذا العاهل الكريم . وهذه أيضا طريقته الإدارية ، جعل لكل شأن من الشؤون العامة ديوانا . وكان لا يتخذ قرارا فى مسألة ما

وكان الملك فؤاد الأول في أحاديثه مع المؤرخين يرسم لهم الخطة المثلى للبحث التاريخي . إذ كان يؤمن بأن إظهار الحقيقة هو الغاية الأولى للتؤرخ ، كما أنه كان موقنا بأنه كلما ازداد الباحث تعمقا في درس الأصول التاريخية لعصر "الوالد الأكبر" — كما كانت تحلوه تسمية جده العظيم — كلما ازداد إعجابا بشخصية المصلح الكبير وأعماله ، إعجابا يقوم على الفهم الصحيح .

وأن هذا الفهم الصحيح لا يتسنى إلا بالرجوع للأصول .

وأن المؤرخ ليحمد الله على وفرتها ، وذلك أن طريقة محمد علي في الحكم والإدارة استلزمت قدرا كبيرا من المضابط والمحاضر والخلاصات واليوميات والتقارير ، يتمكن المؤرخ بواسطتها من تتبع المسألة الواحدة من العامل الصغير للجلس الكبير ومقر السلطان ، ومن القرية النائية لمسند الولاية ، وهذه هي مادة التاريخ .

وأن كل ما في هذه المادة لله قيمته . والمتعسف من المؤرخين هو الذي يعدّ نافها ما لا يتعلق بالسياسة العليا وما لم يصدر إلى السلاطين أو ممثلي السلاطين . فإن دفترا من دفاتر المحفوظات يدلنا على أرزاق الجند وطعامهم ولباسهم هو وثيقة لها خطرها ، ولا يستطيع كتابة تاريخ الجيش المصرى إلا بها وبمبيلاتهما . وقس على ذلك سائر الشؤون .

وفصول كتابنا هذا تقوم على الوثائق الأصلية ، وبصفة خاصة على الأوراق التي استخلصها الدكتور أسد رستم — مؤرخ العلاقات بين مصر والشام في عهد العزيز محمد علي — من المحفوظات الملكية بقصر عابدين العامر ونشرها برعاية حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أعزه الله تعالى ، في أربعة مجلدات ضخمة . وأن مؤلفي هذا الكتاب ليهزم الفخر أن يصدر مؤلفهم هذا في عهد الفاروق الزاهر ، منشىء الجمعية الملكية للدراسات التاريخية وحافظها وراعيها ، حفظه الله ورعاه . وهم جميعا يؤمنون على قول أحدهم ، الدكتور أسد رستم :

أن نأسى — نحن المصريين — أن القدر لم يتح لإبراهيم أن يخلف أباه بعد أن تشرب روحه وأخلاقه ، وتعلق بخطه ومراميه وآماله ، وعاونته في بناء النهضة المصرية زهاء خمسين عاما .

ولئن كان من سعد الطالع أن كان لمحمد على إبراهيم ، فقد كان من سعد إبراهيم القائد العسكرى أن كان وراءه محمد على . وأى قائد لم يشك تدخل الإداريين والسياسيين وتحذث الناس فيما لا يفهمون وتحكم البعيدين عن مواطن القتال في الخطط والأعمال الحربية ؟ لقد شكوا جميعا اللهم إلا أولئك الذين جمعوا بين الملك والقيادة . وكم هم ؟ لقد شكى إبراهيم أيضا ، ولكن المنصف لا يسعه إلا أن يعد شكواه نتيجة لوهن البدن والأعصاب من فرط ما اقى وما لاقى . فكان في الواقع حرا في وضع خطه ، طليقا في تصرفه ، تلي حكومة أبيه كل ما يطلب من مال ورجال وعتاد .

أجل . لقد كان محمد على سعيدا حقاً بإبراهيم وكان إبراهيم سعيداً حقاً بأبيه .

في سنة ١٨٠٥ ، قبل محمد على اجتماع كلمة الناس عليه وتولى باشوية مصر . ولكنه قبلها على أن يسير فيها على منهج من وضعه .

وقد أدرك منذ اللحظة الأولى أنه لم يتول أمر باشوية ، بل جلس على عرش مملكة عظيمة ، كل ما حوله فيها يشهد بما كان لملوكها ، وأن عناية الله سألته حكم أمة واحدة يدرّ نيلها الفيض العميم . كما أدرك بالفكر الثاقب الذي وهبه الله أن لا بد لحكم مصر من انتهاز مناهج جديدة ، وهدته مواهبه السياسية لسياسة جديدة يحقق بها رجاء الناس فيه ، فيصون أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ويرتقي بهم درجات إلى ما لم يكونوا يسمفون . ورأى أن ذلك لا يحتمل التأجيل وأن إعزاز مصر والإسلام يتطلب العمل السريع : القوة التي تصون الكرامة ، قوة الحديد والعلم والمال .

إلا بعد أن يستمع لآراء المجلس المختص بها . ذلك لأنه لم يكن حاكما فحسب ، بل كان طوال مدته مربيا ومكونا للرجال . تحدث مرة إلى رؤسائهم في اجتماع تاريخي فقال : ”إن المماشة والموافقة في الأمور المضرة بالمصلحة والأصول الموضوعية من أعظم الجرائم فيجب الاجتناب عن ذلك . حتى إذا كنت أمر أحدكم شفاها أو تحريرا بقولي له أجر المادة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض على“ وذكري وأفادني شفاها أو تحريرا بأن المادة المذكورة مضرة فهذا يكون منه عين ممنونتي الزائدة“ .

وشاء سعد الطالع أن يحقق ابراهيم في نفسه وفي أعماله كل ما كان أبوه يأمله ويرجوه . كره ما كان يكرهه أبوه ، فكان يمتك « الشعوذة والغفلة والرخاوة والغرض والضعف والحماة » ، ونشأ وعاش صريحا جادا مترفعا عن الدنيا مقدسا للنظام « على أساس الانصاف والانسانية واليكاسة والعدالة والاجتهاد والغيرة » . لا يأنف من أن يتعلم ما لم يكن يعلم ، فوقف وقفة الجندي في « طابور » التعليم وجلس جلسة التلميذ ، وخالط واستعلم واستمع الى أحاديث الكتب وأقوال الرجال . يشارك في وضع الخطط ، ويقوم بالتنفيذ ، « لا يماشي ولا يوافق » على ما لا يراه غير محقق للمصلحة العامة . بل يقول ما يراه . وقد يتمسك برأيه ويصر إصرارا بلغ في بعض الأحيان أنه طلب الإعفاء من الرياسة مع البقاء مؤديا للواجب في صفوف الجنود . ترك الراحة وتحمل المشاق ، وتجلبد لبث العدل وتشييد العمران للأعقاب والأخلاف .

لقد تجلت عظمة ابراهيم في فن القيادة العسكرية ، ولكن فم تختلف صفات القائد الكبير عن صفات الحاكم القدير ؟ إن صفات العزم والحزم والتدبير والجد وسعة الأفق وحسن التصرف وإدراك العواقب ولطف الحيلة ودقة فهم الطبيعة البشرية والإحسان الى المحسن ومؤاخذة المقصر ، كل هذه من مستلزمات النبوغ في فني الحرب والحكم . لقد تجلت هذه الصفات في ابراهيم قائدا ، أفلا يحق لنا

وكان إبراهيم في عمله هذا خشنا خشونة الإجراء كله . ولكن لم يكن هذا إلا وسيلة الخروج من الفوضى والمقر والضعف إلى النظام واليسر والقوة ، فإن الفساد القديم أدى إلى فقر الجميع ، حكاما ومحكومين ، وإلى وجود نوع من الحكومة لا تملك مالا يمكنها من أن تنشئ قوة حربية نظامية أو تظهر ترعة أو تصون جسرا .

وقد أكسب إبراهيم عمله الأول في الإدارة المالية خبرة بشئون الفلاحة المصرية تكاد تبلغ خبرة أبيه بها . وعمل في خدمة الزراعة المصرية في ممتلكاته الخاصة وفي مداولات مجالس المشورة التي تولى رياستها فيما بين فترات الجهاد أعمالا تناولها الدكتور أحمد الحتة في فصل خاص من فصول هذا الكتاب . بل وكثون لنفسه في السياسة المالية — وبخاصة ما تعلق منها بالأموال على الأراضي الزراعية آراء تخالف ما كان عليه العمل جاريا . قال في رسالة لوالده ، تاريخها غاية بجمادي الآخرة سنة ١٢٥٥ (٩ سبتمبر سنة ١٨٣٩) : " حين فكر محمد علي في تخفيض عام في المصروفات لإيجاد الموازنة بين الإيراد والمصروف : " وتستدعي الحالة أن يعاد النظر في شئون مصر كلها لتنظيمها من جديد فإنني وإن كنت واقفا على أحوال المديرية من قبل إلا أنني اكتسبت معرفة تامة في شئون الفلاح منذ أن التزمت القرى لكي أختبر الوسائل المؤدية إلى عمار مصر بنفسى ... وقد دفعت لتكاليف هذه القرى التي التزمتها ما كسبته منذ خمس وثلاثين سنة وما زال على كثير منها أي أنني دفعت لأجل أموال الأتبان الكائنة في مديرية الغربية وبقاياها لسنة ٤٥ مبلغ ثلاثين مليون قرش ونصف مليون ومع ذلك على مليون قرش ونصف مليون عن أموال هذه السنة وبقاياها وكيف إذن يطبق الفلاح هذه التكاليف الباهظة وكيف يقوم بتسديدها ... ويظهر جليا مما ذكرت ما هو عليه الفلاح من سوء الحال ، وهذا ما يجعلني أظن أن الأولى تأجيل موضوع تخفيض المصروفات إلى حين انتهاء مسائلنا [مسألة العلاقة بالدولة العثمانية] ثم نطلب الدفاتر من الدواوين كلها ديوانا ديوانا ومن المديرية مديرية فيبحث فيها بحثا شاملا وتنظم شئون مصر كلها

ولقد عرف محمد على أيضا السياسة الكبرى في طور عنيف من أطوارها : عصر الثورة الفرنسية والفتوح النابليونية ، ففي حقبة قصيرة من أحقاب الزمان تجمع الشيء الكثير من العناصر الأساسية في تشكيل العلاقات بين الأمم : تسخير قوى الإنتاج وتنظيمها وتنسيقها وتوجيهها لتحقيق غايات قومية ، خريطة أوروبا تطوى وتُنشر ، مبادئ هدامة ، عروش تقوِّض وأخرى تقام ، التفوق البحري البريطاني ، تدخل روسيا في شؤون أوروبا ، العالم العثماني تحت رحمة الأقدار . بهرته الحركة وصادف ذلك هوى في نفس مشرَّبة طموحة . فعول على أن تكون ديدنه . واعتزم أن يكون دائما البادئ ، لا المنتظر .

وكان مما لا بد منه في أول الأمر أن يقيم بناء الحكومة على أساس جديد . إن مصر لابد أن تتولى أمورها سلطة عامة واحدة . فإن تجزئة السلطان وتشتيته السائدين قبل أيامه أدبوا إلى انعدام فكرة الحكومة انعداماً يكاد يكون تاماً فتج عن ذلك تكوين العصابات الخاصة المسلحة ، ونتج عن ذلك إهمال المرافق العامة ، ونتج عن ذلك أن كل من يستطيع وضع يده على أموال عامة يفعل ذلك دون تردد ، بل ونتج نوع من التفكير يعتبر أن الحكومة ماهي إلا مشاركة ومقاسمة في الأرزاق وإن شئت قل نهبا .

وإذا شئنا أن نجمل وصف مراحل إنشاء السلطة العامة على يد محمد على وأعوانه قلنا إن المراحل الأولى كانت مراحل الكشف والضبط والتحقيق والتصفية وبخاصة في أمور الالتزامات ، أما المراحل الثانية فكان فيها الانتقال من الالتزام إلى الحجر — ثم يأتي بعد ذلك دور تحويل الحجر إلى وسيلة قوية للإنتاج الحديد ، للثورة الاقتصادية المصرية .

وقد بدأ إبراهيم حياته العامة في مرحلة الكشف والضبط والتحقيق والتصفية . بدأها وهو لا يزال بعد فتي غض الإهاب ، فقام بالفحص في الصعيد وشارك في العملية الكبرى : عملية فك الزمام التاريخية .

إظهار قوتكم القاهرة وعظمتكم الخديوية الباهرة بتشديد الحصار عليهم من البر والبحر وضرب القلعة بالقنابل والمدافع من كل الجهات حتى يذوقوا مرارة الموت“ .
[المحفوظات : المجلد الأول ص ١٣٦ ، ١٣٧]

وعندما توقع نشوب الحرب مع الأتراك العثمانيين من جديد كتب لابن أخيه عباس ، وقد كان محمد على غائبا عن مصر يتفقد أحوال السودان ”يا ولدى الباشا ، لو طوعت [للترك] أنفسهم للنهوض والقيام فلن نكون دونهم ، ولن يسبقونا بإذن الله وكرمه ما دامت أرواحنا في أبداننا وحتى لا يبقى منا فرد واحد وليحفظن الله مصر كما حفظها حتى الآن “ .
[المحفوظات : المجلد الثالث ص ٤٧٧]

وهذه الثقة بالنفس ، وهذا الشهم العالى ، وهذا الاطمئنان التام مردها لأمرين : للحكومة وراء ظهره ، وللبندى الذى يقوده .

لقد حل محمد على الكبير مشكلة تكوين القوة العسكرية على الوجه الذى أوجدهته الديمقراطية الفرنسية وليدة الثورة الفرنسية ، أى التجنيد العام . وسوى بذلك أمرا استعصى على الحكومة الاسلامية . لقد عمدت الحكومات القديمة الى استخدام أهل المناطق الجذباء أحيانا وإلى جمع العبيد بيضا وسودا أحيانا أخرى . حاولت الحكومة الاسلامية هذا الحل أو ذاك . وكان سراضطرابها وتزعزع كرسيا ونفاذ مواردها . وجال فكر محمد على فى المشكلة واهتدى إلى اقتباس الحل الذى يتفق مع مقتضيات العصر الحديد . واستخدم للتدريب ضباطا أوروبين ، وأنشأ معاهد الدراسات العسكرية ، وتكون بذلك الجيش المصرى . كتب محمد على إلى ناظر الجهادية : ”إن مؤسسة الجهادية هذه ، أعزها الله ، لهى فى حد ذاتها نعمة جلية وأمنية بلغ من شرف قدرها أنى مازلت منذ عشر سنين متعللا برجاء إدراكها ، قائلا أكون لى أنا الآخر سعادة نيلها ! بل ما فتئت ألقى بنفسى وأولادى وعيالى وبعرضى ومالى وبذلك العدد الكبير من أتباعى وأصدقائى الذين هم غرس

على ضوء ما يؤخذ منها من المعلومات ، ومع هذا كله فالرأى الأعلى لمولانا فإنه أدرى
منى فى الشئون كلها“ .

[أسدرسم : المحفوظات الملكية المصرية المجلد الرابع ، ص ٢١٨ — ٢١٩]

وكون إبراهيم أيضا لنفسه آراء فى سياسة التعليم ، فترع الى أن يتخذ من التعليم
أجدى الوسائل للارتقاء بالشعب ، واهتم بصفة خاصة عندما حمل عن أبيه عبء
الحكم بافتتاح مكاتب لتعليم الناس أطلقوا عليها اسم ”مكاتب الملة“ ، على نحو ما كان
موجودا فى ذلك الوقت فى فرنسا وانجلترا لتعليم أبناء الشعب ”من أقرب طريق
وفى أقصر وقت“ . فلمكاتب الملة غرض جديد غير غرض المدارس الابتدائية ،
فليس الغرض منها إعداد التلاميذ للدراسة التجهيزية . بل الغرض منها توفير قسط
من الثقافة لسواد الشعب . ولكن هذه الحركة المبشرة بالخير ماتت بموت إبراهيم .
[أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم : ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٤١٤]

* * *

وكان قلب إبراهيم — على نحو ما رأينا — يفيض عطفًا على عامة الشعب ،
ولا بدع فقد خالط وعاشر أشرف ممثلى الشعب المصرى : الفلاح والجندى ، وخبر
عن قرب ما يستطيعه الفلاح المصرى والجندى المصرى .

كتب لأبيه فى أثناء حصار عكا ، عندما أذيع أن السلطان قد جيش الجيوش
لدفع الجيش المصرى عن أسوارها : ”ومهما بعثوا من القواد العظام والجيوش
الحرارة فلا يعقل أن يرسلوا أو يستحصلوا على أقوى وأشجع من عبدكم المخلص
إبراهيم ، ومهما بجشوا فلا يمكنهم أن يعثروا على مثل جنود العرب الذين أقودهم أنا“ .
[المحفوظات الملكية المصرية المجلد الأول ص ٢٠٦]

وكتب اليه أيضا أثناء الحصار عندما أشير عليه باستعمال النقود لإغراء الحامية
بالسليم : ”إنى بفضل عظمتكم وجلادتكم الخديوية أرى من العار على أن أبذل
النقود فى سبيل قلعة خربة كهذه ... [وليس من وسيلة لاستمالة الحامية] سوى

على أغا ناظر الساجانة وقوله في محفل الاستقبال : ” صار الفلاحون العمى عساكر ،
مهما كانوا لا يكونون مثل عساكرنا الترك . وعليه فاضربوه مائة نبوت على إيلته
وينفى وإن عاد يصاب “ . هذا ما حدث لعلى أغا عندما أخذته النعرة القومية .
وعندما تخرج الأمر بين مصر والدول الكبرى وتحمس الناس في الحاضرتين —
القاهرة والاسكندرية — لدفع العدوان عن وطنهم وألغوا « حرسا وطنيا » أسند
محمد على لرؤسائهم — وهم من ” أبناء البلد “ — رتبا عسكرية نظامية . ولم يكن
محمد على أو إبراهيم الرجل الذى يغمط للصيريين حقا أو يطوى لهم فضلا .

✱ ✱

ولم تكن القوة في نظر محمد على إلا وسيلة لا غاية ، لم تكن إلا آلة العيش الكريم .
فقد كان بطبعه كارها لسفك الدماء ، مؤثرا الاعتدال . استعرض الشيخ رفاة —
أحد بناء النهضة المصرية — حروب محمد على وانتهى الى الملاحظة الدقيقة وهى
أن تلك الحروب ” لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود . إذ كان
جل مقصود تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود “ .

أجل . لقد رسم محمد على لنفسه منذ الأيام الأولى مشروع إحياء العالم العثمانى
وسار في تنفيذه بخطى ثابتة متتدة . رأى محمد على السلامة فى الوحدة لا فى التجزئة ،
والقوة والرفاهية فى إدارة عقل واحد لملك متنوع الموارد ، متنوع السكان ، يملك
أقصر الطرق بين الغرب والشرق .

وفى فترة توازن القوى التى تلت معاهدة تلس (١٨٠٦ — ١٨١٢) ، وخلف
سواحل البحار العربية التى كانت تكون الحدود المبهمة للعالم العثمانى كانت أعمال
محمد على الأولى لإحياء القوة العثمانية .

وكانت الدولة منذ أن عجزت عن إقصاء البرتغاليين ومن جاء بعدهم من رجال
البحر والتجارة الأوروبيين عن البحار العربية ، ومنذ أن تخلت عن بلاد اليمن
فى منتصف القرن السابع عشر . قد تركت (فيما عدا الاهتمام الذى لا غنى لها عنه

يدى وثمرة تعهدى ألقى بكل أولئك فى المهالك وأعرضهم للضمار والأخطار آملا
فى إحداث هذا السلك الجهادى “ . [المخطوطات . المجلد الأول ص ٩٥]

اندمج إبراهيم فى هذا السلك الجهادى اندماجا تاما ، جسما وروحا ، من أول
الأمر . لحق به متعلما — وهو القائد المظفر فى الجزيرة العربية . وقاده من نصر
إلى نصر بين السهل والحزن فى المورة وفلسطين ولبنان وسوريا والأناضول .
وتفصيل هذا كله فى الفصول التى وضعها الأستاذ محمد أحمد حسونه بك والضابطان
أحمد فهم بيومى وعبد الرحمن زكى . وان الجمعية لتغبط أن جمعت المدنيين
والعسكريين من المؤثرين لخدمة التاريخ القومى .

و إن ما ذاع عن حرمان المصريين من مناصب القيادة فى الجيش والأسطول
لمصريتهم لهُو وهم يحتاج أمره إلى تبديد . فلم يعرف جيش من جيوش العالم
فى ذلك الوقت حتى جيوش الثورة الفرنسية شيوع خطة الترقية من تحت السلاح
(كما فى الإصطلاح) إلى رتب القيادة . ولا تعرفها الجيوش الأجنبية فى وقتنا
الحاضر إلا فى حدود ضيقة جدا نسبيا ، وهذا على الرغم من شيوع التعليم فى جنود
الزمن الحاضر . والحال أن ضباط الجيوش الأوروبية فى وقت محمد على وفى وقتنا
الحالى ينتمون للطبقة الوسطى . إذا تحققنا ذلك وعرفنا أن ذوى اليسار من أهل
مصر لم يقبلوا بعد فى عهد محمد على على اختيار العسكرية لأبنائهم بسبب ابتعادهم
عنها قرونا عديدة أدركنا لم خلت وظائف القيادة فى الجيش المصرى فى عهده من
المصريين — وأن لا أساس لما زعموه من تعصبه للترك عليهم . بل أن كبار رجال
العسكرية الأوروبيين كثيرا ما عبروا له ولإبراهيم عن رأيهم بأن أضعف ما فى جيشه
ضباطه غير المصريين . وشاركهم فى هذا رأى مؤرخ الجيش المصرى الجنرال فيجان
ونسب ضعف الضباط إلى عدم إقبال أبناء الطبقة الوسطى إذ ذاك على احتراف
العسكرية . وإنا نقرأ فى أمر من أوامر الباشا أصدره إلى محافظ دمياط “ بأنه علم
بالاحتفالات التى قوبل بها آلاى حسين بك من الأهالى والقناصل وبما تفوّه به

وتجد تفصيل تاريخ ابراهيم في الجزيرة العربية في الفصل الذى عقده الدكتور عبد الحميد البطريق لهذا الموضوع .

وقد تلت انتصارات ابراهيم سنوات استقرار واستعداد فى مناطق النفوذ المصرى من الجزيرة العربية ، وقف فيها التقدم نحو الشرق الى الخليج الفارسى ونحو الجنوب الى اليمن امران : اوقطما انتظار تأليف قوات عسكرية نظامية وأما الثانى فاستخدامه قواته غير النظامية فى فتوح أخرى أوحث بها سياسة البحر الأحمر إذ هى ألصق بها . فقصده للفتوح فى المناطق الممتدة خلف ما عرفناه باسم ولاية الحبش أو ما يعرفه المحدثون باسم فتوح السودان . وكان نصيب ابراهيم فيها ضئيلا .

* * *

عمل محمد على فى الأقطار العربية فى الجزيرة وفى السودان طليقا من كل قيد ، لا دخل لحكومة السلطان فى خططه ومشروعاته . ثم حدث أن قام اليونان بثورتهم وتحركت جيوش السلطنة وأساطيلها وجيوش محمد على وأساطيله لقمع تلك الثورة ، وبدأ بذلك فصل جديد فى سياسة محمد على ، فصل يمكنه من أن يتبين أمرين أساسيين : الأول مدى إمكان التعاون بينه وبين حكومة السلطنة فى إحياء القوة العثمانية ، والثانى موقف الدول الأوروبية منه ومن حكومة السلطنة .

وجه محمد على نحو بلاد اليونان الحملة الكبرى بقيادة ابراهيم : جيشه المصرى الحديد وأسطوله الأول . وكانت لأسطوله منازلات مع الأسطول اليونانى خرج منها سالبا واستطاع أن ينزل وجنوده بلاد المورة . وسار ابراهيم من نصر الى نصر الى أن تم له اكتساح بلاد المورة وانتقل منها الى الأقطار اليونانية شمالها . واتهمه المتخربصون بأنه عمل على استئصال الأمة اليونانية وتطهير أرضها قضا وقضيضا لينزل بها عربا أو سودا مسلمين . وقد دفع عنه المؤرخون المحدثون هذه الفرية . وشرحوا أن فى مثل حرب المورة (أى فى الحرب ضد ثورة قومية) يصعب على القائد أو يستحيل عليه أن يفرق فى عملياته الحربية بين أعدائه المحاربين من الجنود وأعدائه المحاربين من غير الجنود .

بالحجاز) شئون البحار العربية ومناطقها لأهلها وللاستعمار الأوروبي . فنمت أنواع مختلفة من السلطان العربى فى مناطق الخليج الفارسى وسواحل الجزيرة الجنوبية وسواحل المحيط الهندى والبحر الأحمر . وانعزلت تلك الشياخات والامارات والسلطنات عن الحياة العثمانية واضطرت الى تدير معاشها وتسوية علاقاتها بالأمم الأوروبية البحرية على مختلف الأوضاع .

وكان لحكومة السلطنة نوع مبهم من حقوق السيادة تباشرها من أربع قواعد، من ولاية جدّة وتلحق بها ولاية الحبش الممتدة امتدادا لا يمكن تحديده على ما نعرفه الآن بسواحل السودان المصرى وارىترية والصومال الفرنسى ومن مصر ودمشق وبغداد . وقد عملت الدولة من قواعدها الأربع على أن تبقى البحار العربية بركا أسنة لا على أن تكون شريانا من شرايين التجارة العالمية .

وقام محمد على أول الأمر بتأمين الحجاز . وما إن تم له ذلك حتى انفتح أمامه ميدان فسيح الأرجاء خلىق ببذل الهمة وبالنظرة النافذة وبالأمل الواسع . فالبحار العربية ومناطقها أجزاء أساسية من العالم العثمانى ، أهملها السلاطين إهمالا معيبا وهى شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، وقد تصلبت ، ولا بد من أن يجرى فيها الدم من جديد ، وخلف تلك السواحل فى أفريقية أجزاء من دار الاسلام ، مشتتة فاترة الحياة ، ولا بد من وصلها ببعض وبالعالم العثمانى ومن جعل ذلك العالم وحدة حية .

وتولى ابراهيم القيام بهذه المهمة فى إحدى مراحلها الخطيرة . وكان هذا أول عهده الحقيقى بالقيادة العسكرية المستقلة . وأداها أداء فيه كل الدلالة على ما سيقوم به فى المستقبل . كتب القنصل الانجليزى بمصر ، (هنرى صولت) ، فى رسالة من القاهرة فى أوائل ١٨١٧ : ”لقد دلت معاملة ابراهيم للقبائل البدوية على امتلاكه ثلاث ميزات تبشر بالفوز فى النهاية : حزم فى معاملة أعدائه ، سخاء فى البذل ، وفاء بالعهد“ .

فهل تصوّر لها كيانا سياسيا أو ما نسميه وحدة عربية؟ سؤال كبير؛ إن أجبنا عنه سلبا عدونا الصواب ونسبنا اليه قلة إدراك لعناصر وروابط بارزة : لغة واحدة وإرث ثقافي مشترك ومصالح مشتركة وبالنسبة للحياة الاقتصادية العالمية كتلة واحدة . وإن أجبنا عنه إيجابا عدونا الصواب أيضا بعض الشيء ونسبنا لعصر سابق ما هو ، على وجه التحقيق — من خلق العصور اللوحي . وقد لانعدو الصواب إن قلنا إن محمد على أدرك الفكرة في عمومها وأنها مما يمكن التشييد عليه في حالة الانفصال عن السلطنة وهذا ما لم يكن قد قرره بعد ، بل ترك تقريره تبعا لظروف الحال . إن حتمت تلك الظروف التقسيم أمكنه أن ينقض ما حدث في القرن السادس عشر وبناء العالم العربي من جديد . ولكنه لم يكن قد يؤس بعد من مستقبل الوحدة العثمانية وإن كان قد يؤس من السلطنة .

هذا عن محمد على ، وماذا عن ابراهيم؟ تدل الوثائق على أنه استحث والده على اتخاذ خطة الهجوم على الولايات السورية في سنة ١٨٣١ . كما تدل أيضا على أنه كان أسرع منه لتصور الوحدة العربية . بل وتحدث عنها . والثابت أيضا أن انتصاراته المتوالية على الجيوش التركية دفعته — كما هو معروف — للنصح بمواصلة الهجوم حتى مقر السلطنة .

لم يقبل محمد على أن يفعل ذلك ولا يسع الباحث المنصف إلا أن يعترف بأن رأيه كان الأصوب .

وبدأت فترة عاد فيها الاتصال التاريخي بين مصر والشام في ظل حكومة واحدة وقد عقد الدكتور أسد رستم فصلا قويا لموضوع إدارة الشام : روحها وهيكلها وآثارها . وأنه لما تغتبط له الجمعية الملكية للدراسة التاريخية أن يتولى كتابة هذا الفصل مؤرخ لبناني ممتاز ، استطاع أن يفى الموضوع حقه ، وأن يبين ما للادارة الإبراهيمية للشام وما عليها . أو ليس هذا في ذاته دالا على أن ما بنى ابراهيم لم يذهب هباء وأن البذرة التي بذرها نمت وترعرعت شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء؟

ولما ظهر للآوروبيين أن لهيب الحرية اليونانية سوف ينطفئ في بحر من الدماء تحركت الدول للعمل الإيجابي الذي حاولت تجنبه زمنا . وانتهى التدخل بكارثة تحطيم الأسطولين المصري والعثماني في خليج نوارين وبتزول جيش فرنسي في المورة وإعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية . وأمر محمد علي ابنه بالانسحاب والعودة .

ومضت الثورة اليونانية بعبرها . وبأن لمحمد علي أن حكومة السلطان تفهم العمل معه على وجه استغلاله الى أقصى حدود الاستغلال ، وليتها كانت تحسن ذلك فهو لا يكره إطاعة حكومة عليا رشيدة تعمل على بلوغ أهداف العزة والكرامة والرفاهية . ولكن ماذا أثبت السلطان ورجاله في أزمة نوارين وفيما قبلها وبعدها ؟ لقد أثبتوا عجزا كبيرا . وبأن له أيضا أن الدول العظمى قد تتحد ، وبأن له ثالثا أنه لكي يساوم ينبغي أن يكون بيديه ما يساوم به . فقل وثقه بإمكان وضع سياسة مشتركة بين القاهرة والقسطنطينية ، وزاد إيمانا بأن محمودا ورجاله يسرون قدما نحو الهاوية . فأحب أن يتخذ العدة للمستقبل ، وأن يتخذ الضمانات اللازمة .

وهذه الضمانات حسية ومعنوية : توطيد النفوذ المعنوي في العالم العثماني ولدى الحكومات الأوروبية بالمضى في سياسته العمرانية ، ونشر حكمه المباشر في أقطار أخرى من العالم العثماني يقيه ملكها شر حكومة السلطنة ، ويعطيه ملكها الموقع الآمن والموارد التي يستطيع بها أن يكون على حال من القوة تمنع عنه أطماع الطامعين .

وما هي تلك الأقطار ؟ الولايات الشامية الأربع : حلب وطرابلس ودمشق وصيدا وبعض المناطق الساحلية في الجزيرة العربية على الخليج الفارسي والبحر الأحمر . هذا أكيد . والعراق والمناطق فيما بين الشام والأناضول ، هذا مما يترك للظروف . والأقطار — كما ترى — هي في الجملة مما يكون (على حد تعبير الوثائق) عربستان أو مانسميه دار العروبة .



محمد علی باشا الکبیر

وانقضت تلك الحقبة من الزمان بإرغام الجيش المصرى على الانسحاب من كل فتوحه . وهنا يستوقف قارئ الوثائق تبدل في المواقف . محمد على يتخذ الجرأة وإبراهيم يفضل التريث ، بل ونجده يفقد (حتى بعد انتصاره الرائع في نزيب) كل أمل في إمكان اكتساب طوائف أهل الشام لحكمه . قال العزيرى في كتاب لابراهيم : ” لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانية ولكنها ترمى الى إضعاف الطرفين كي يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الاسلامية بسهولة ، ولذا فان قبول تدخل هذه الدول خيانة لليلة ولتمام استقلالها . فبدلا من أن نقبل هذه الخيانة فنذكر باللعنة الى يوم القيامة أجدر بنا أن نموت في سبيل الدين ، فنشيد بذلك دنيانا وآخرتنا معا ، هذا إذا غلبونا ، وأما إذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا فحينئذ نجد في الدنيا اللجنة التي يبحث عنها الناس في الآخرة . فيدوى في الآفاق صدى بطولتنا وسمعتنا الطيبة ويذكرنا العالم بخير إلى يوم القيامة . هذا لا ريب فيه والله كفيل بعباده “ .

[المحفوظات المجلد الرابع ص ٢٨٦]

وقد لا يعدو المؤرخ الصواب إذا نسب موقف إبراهيم في الأيام الأخيرة في الشام لما أصابه من العلل والأمراض . كان آخرها ذلك اليرقان الحاد الذي لازمه أثناء مأساة الانسحاب نحو مصر .

والنقد سهل من بعيد ، وأجمل منه أن نبعث على البعد بتحية إعجاب وإجلال للشيخين الذين صمدا للجنة مرفوعى الرأس موفورى الكرامة . ذهبت فتوحهما واختفى أسطولهما وانكش جيشهما ولكنهما بقيا مهيبى الجانب ، عاليى الصيت ، يتألق من جبينهما جلال المشيب ونور المجد ، فمنعنا عن مصر في السنوات التي بقيت لهما أن تنزل الى ما قدره لها أصحاب تسوية سنة ١٨٤١ — الى مرتبة النيابات العثمانية الراكدة ومناطق المشروعات الاستغلالية الأوروبية ما

القسم الأول

التاريخ السياسي

ابراهيم باشا في بلاد العرب

الدكتور عبد الحميد البطريق

كانت الدولة العثمانية تحرص كل الحرص على أن تحتفظ بسيادتها على بلاد العرب، لما للندن المقدسة من مركز هام في العالم الإسلامي، لذلك وجهت عنايتها إلى القضاء على الحركة الوهابية وتدمير الدولة السعودية، تلك الدولة التي وسع سلطانها الحجاز ونجد وعسير، ثم انساب نحو حدود اليمن والخليج الفارسي، وهدد الشام والعراق.

وكانت خطة الدولة العثمانية التي رسمتها لنفسها عندما تقوم حركة استقلالية أو ثورة داخلية، أن تلقى عبء القضاء عليها على كاهل الولاة في الأقطار المجاورة، وهي في تكليفها هؤلاء الولاة بإرجاع سيادتها على بلاد العرب إنما كانت تهدف إلى غرضين: أولاً القضاء على الحركة الوهابية التي رأت فيها خطراً على سيادتها وسمعتها في الأقطار الإسلامية، وثانياً قد تكون هذه الحرب وسيلة لإضعاف هؤلاء الولاة واستنزاف مواردهم، حتى يظلوا ضعافاً خاضعين للدولة خضوعاً تاماً.

وقد أصابت الدولة السعودية الناشئة نجاحاً سريعاً في عهد عبد العزيز بن محمد ابن سعود (١٧٦٥ - ١٨٠٣ م)، وامتد نفوذه السياسي في نجد امتداداً هائلاً أملاك الدولة في الجزيرة العربية، ولكن غزواته وفتوحاته لم ترجع الباب العالي إلا عندما شرع عبد العزيز يهاجم العراق في نقاط مختلفة منذ عام ١٧٩٤، ولم يكن في وسع رجال الدولة العثمانية أن يتنبأوا بتلك الهجمات حتى يستعدوا لها، لأن النشاط الذي كان يصحب احتشاد السعوديين، والسرعة الخاطفة التي يغيرون بها على

فشل سليمان باشا والى بغداد فى القيام بأى عمل حاسم ضدّ السعوديين على الرغم من أن لديه ٣٥٠٠٠ جندى قد درّبهم مدرّبون أوروبيون على أحدث الأساليب الحربية ، وقد حاول سليمان باشا أن يصدّ السعوديين عندما وصلوا إلى قلعة (جفیر) القريبة من ساحل الفرات فلم يكن حظّه بأسعد من حظ كبتخداه على بك فانهزمت جيوشه ووجد الوهابيون أمامهم ثغرة يصلون منها إلى قضاء (سراج) ، ولم يأت عام ١٨١٠ حتى وصل جزء من القوّات السعودية إلى نقطة لا تبعد كثيرا عن بغداد ونشط مندوبو ابن سعود فى جمع الضرائب من الأماكن المحتلة .

أما فى ميدان الشام فقد توجهت أنظار السعوديين بعد أن سقطت المدينة المنوّرة فى أيديهم نحو الشمال ، فغزوا (الجوف) و (البتراء) وتقدّموا نحو (حوران) ولكنهم لم يتمكنوا من اكتساح سوريا فوقفوا عند أبوابها متربّصين ، ولم يستطع والى الشام أن يحى حدود بلاده ، وهكذا فشل كل من والى بغداد ووالى دمشق فى أن يحققا أمل السلطان فى أن يستطيع أحدهما أو كلاهما أن يقضى على الحركة السعودية لأنهما فشلا حتى فى حماية حدود ولايتهما .

عندئذ تبين مجلاء للسلطان محمود الثانى أن ليس هناك مناص من طلب العون من والى الذى شق طريقه إلى الولاية عن طريق الشعب الذى يحكمه وارتزع فرمان التولية من السلطان اتزاعا ، إذ ايس فى استطاعة أحد ولاة الدولة أن يقوم بتلك المهمة الخطيرة سوى محمد على الكبير .

اعتقد السلطان أنه إن استطاع أن يغرى محمد على بفتح بلاد العرب يكون ذلك كسبا للدولة على أى حال ، فإن انتصر محمد على فيها ونعمت وسينتصر باسم الدولة ، ولكنه فى الوقت ذاته لا بد أن يصاب بخسائر مادية شديدة لا يستطيع معها أن يرفع صوته مطالبا بالاستقلال ، وإذا هزم أو فشلت حملته فقد هبته وضاعت ميزته وإن يستطيع أن يواجه السلطان الذى تعود أن يثار من ولايته الناجحين حين يقلب لهم الدهر ظهر المجن .

أعدائهم أدهشت الدولة العثمانية ، وكان من الطبيعي أن نتجه أنظار الباب العالي أول الأمر إلى وإلى العراق ، تكلفه بصدّ تلك الغارات وإنحساد تلك الحركات ، فبالده أقرب الولايات العثمانية إلى الدرعية قلب الدولة السعودية الجديدة ، أضف إلى هذا أن سهولة المواصلات بينه وبين نجد عن طريق النهرين والخليج الفارسيّ تسهل له مهمته .

ولكن وإلى بغداد إذ ذاك ، كان يرى أن المهمة شاقة عويصة ، فقد كتب في أوائل عام ١٧٩٦ إلى الباب العالي يقول : ”إن الطريق من بغداد إلى الدرعية مجذب صحراويّ خالٍ من الماء ، مما يساعد السعوديين على الانتصار على جيوش الدولة ، التي تختلف عملياتها الحربية عن أساليب السعوديين في الحرب“ . ولكن هذه الأعذار لم ترق في أعين رجال السلطان ، فأرسل الباب العالي إلى وإلى بغداد الأوامر المشددة في عام ١٧٩٨ لكي يسير إلى الحسا لمحاربة عبد العزيز بن سعود ، بجمع الوالى جيشا من المرتزقة والبدو بقيادة الكتخدا على بك ، وسار هذا الجيش ميمما شبه الجزيرة ، ولقى في الطريق وأجتياز الصحراء متعاب وأهوالا ، حتى إذا ما أشرف على الحسا ، وجد نفسه في حالة لا يستطيع معها مجابهة القوّات السعودية ، فأسرع علىّ إلى طلب الصالح من عبد العزيز ، وقفل راجعا إلى بغداد راضيا من الغنيمة بالإياب ، وازداد السعوديون بذلك قوّة على قوّة ، وعظمت منزلتهم في أعين العرب ، ولم يعد سكان الجزيرة يعتبرون الأتراك قوّة لا تغلب .

وما بدأ القرن التاسع عشر إلا وزحف سعود بأمر أبيه إلى خارج الجزيرة ، فهاجم العراق واكتسح كربلاء ، وتسربت جموع من القوّات السعودية نحو ساحل الخليج الفارسيّ ، وضجت الدولة من تكرار اعتداءات الوهابيين ، فأخذت الأوامر تترى على ولايتها في البصرة وبغداد أن يقوموا بحملات لصدّ الغزاة ، ولا سيما أن السعوديين أصبحوا في مستهل عام ١٨٠٤ على أبواب الزبير ، القرية من نهر الفرات ، وصاروا بذلك يهدّدون البصرة نفسها .

طلب إلى الباب العالي أن تحال إليه ولاية الشام قبل أن تتحرك جيوشه إلى بلاد العرب لكي يسوق حملتين، إحداهما تخرج من مصر والأخرى من الشام، وبذلك يضمن نجاح المهمة الشاقة التي كلفه بها السلطان . وقد كان لهذا الطلب الجريء صدى العنيف في بلاط السلطان ، واتهمه أعداؤه وحاسدوه هناك بأنه يغلب مصالحه الشخصية وأطماعه الإقليمية على مصلحة الدولة ، وقالوا إن حملة يقوم بها الباشا أو ابنه إبراهيم من مصر، كفيلة بإرجاع بلاد العرب إلى حكم السلطان ، وقد ردّ محمد علي على أولئك الحاسدين من رجال الباب العالي في كتاب بعث به إلى وكيله محمد نجيب أفندي في الآستانة يقول فيه : ” إن ردتى على هؤلاء هو قصصة حكا المشهورة عندما بعث ابنه ليملأ البحيرة وصفعه على قفاه قبل أن يحملها منها إياه ألا يكسرهما ، ولما قيل لجحا لماذا تصفعه ولم يكسر البحيرة بعد، أجاب أنه يجب أن ينزه ويصفع أولا حتى لا يكسرها إذ ماذا يفيد الصفع بعد كسر البحيرة ^(١) ... “ وكتب له في خطاب آخر أن مصلحة الحجاز فقط هي التي دفعته إلى هذا الطلب وأن ليس له مطمع في غير مصر التي وصفها بأنها (القطر الذي يتحسر وزراء الدولة دون الوصول إليه) ^(٢) .

وأخيرا قرر محمد علي أن يغض الطرف مؤقتا عن تمسكه بمنحه ولاية الشام أو منحها لصديقه الموالي له (يوسف كنج باشا) ، بعد أن فهم من مقابلة وكيله نجيب أفندي للصدر الأعظم أن جميع طلباته لا يمكن النظر إليها بعين العطف والرعاية إلا بعد أن تقوم الحملة المصرية إلى الحجاز ، وأدرك من رسائل وكيله أن أعداءه في الآستانة يتربصون له وأنهم يقولون (لو أعطيت الدنيا إلى والى مصر ما ذهب لأجل الحرمين ولا أرسل أحدا من أولاده) لذلك عزم على تسير الحملة نهائيا بقيادة ولده طوسون على أن يتميز الفرص ليوهم الباب العالي أن نجاح الحملة يتوقف

(١) من محمد علي إلى نجيب أفندي : وثيقة رقم ٦٥ دفتر رقم ١ بتاريخ أول ربيع الأول سنة ١٢٢٦

(٢) من محمد علي إلى نجيب أفندي : وثيقة رقم ١١٨ دفتر رقم ١ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٢٨

تناسى السلطان ما بينه وبين محمد على من خلاف، وتطور هذا التناسى إلى التسامح والكرم، فتوالت الرسائل السلطانية على محمد على تتلقفه وتلاطفه وتلقبه بألقاب الشرف والمجد، فأثار هذا الإغراء وتلك الرسائل الريبة في نفس الباشا، وأخذ يفكر في المهمة قبل أن يقدم عليها، وفي الوقت نفسه، أراد أن يتنهر الفرصة لتحقيق أغراضه والتخلص من بعض التزاماته، وكان ماهرا في الرد على رسائل الباب العالي، وهى الرسائل التى كانت تحثه على الإسراع فى السير نحو بلاد العرب، إذ كان يردّ عليها برسائل من نوعها، يملؤها بالفاظ الخضوع والعبودية.

وانتهز محمد على هذه الفرصة لتحقيق استقلاله الداخلى بمصر، وتطلع إلى أن يجعل لنفسه مكانا خاصا قبل أن يقوم بمحملة فى بلاد العرب، فاقترح على الباب العالي بواسطة وكيله المقيم فى الآستانة أن تكون مصر ولاية ممتازة شأنها فى ذلك شأن ولاية الجزائر، وأوضح له أن هذا الإجراء ضرورى حتى تنتهى الحرب فى الجزائر، وتذرع فى طلبه هذا باضطراب الأحوال السياسية فى أوربا واحتمال تدخل الدولة العثمانية فى بعض الحروب، فإذا لم يكن لمصر مركزها الممتاز المستقل عن الدولة، فقد تقع فريسة حصار إحدى الدول المعادية لتركيا بينما تكون جيوش مصر مشغولة فى الجزيرة العربية، وضرب لذلك مثلا باحتمال محاصرة إنجلترا للوانى المصرية وبذلك تتعرض مصالح مصر التجارية للخطر، بل "وتتعطل أيضا مصالح الحرمين، وحيث أن تجارة مصر مع الخارج ضرورية لها فإن امتيازها يضمن حيادها ومصالحها الاقتصادية"^(١).

أما الغرض الأكبر الذى كان يرنو إليه محمد على من وراء القيام بمحملة فى بلاد العرب والذى يلوح لى من خلال دراساته للوثائق العديدة المحفوظة فى قصر عابدين العامر فهو طموحه إلى السيطرة على الشام قبل أن يقوم بأى حرب فى الجزائر، وقد

(١) من محمد على الى الصدر الأعظم : دفتر رقم ١ عابدين وثيقة رقم ٥٤ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٢٥ بالمحفوظات الملكية .

كان يبغيه محمد على ، فعزم على أن يسافر الى الحجاز ويتزل الى الميدان بنفسه ، إذ أنه كان حريصا تمام الحرص على ألا يفشل في حملة الحجاز وهو عالم بما يترتب على هذا الفشل من ضياع هيئته وفقد مركزه ، وتبدو لنا لهفته على نجاح هذه الحملة واعتزامه خوضها بنفسه منذ تفهقرت جيوش طوسون إلى ينبع من رسالتين أرسلهما متابعتين إلى كبار قواده وجنوده المرابطين في ينبع خشية أن تضعفهم الهزيمة فيقرروا الجلاء عن قلعة ينبع نفسها . قال لهم في رسالته الأولى ”عرض علينا وكننا في المويج أنكم عند وصولكم إلى مضيق الجديدة سد العدو ذلك المضيق ثلاثة أيام وثلاث ليال وأخيرا تفهقرتم ووصلتم (ينبع) فإن كان الخبر صحيحا فالنصر والهزيمة بيد الله يؤتيها من يشاء من عباده ، فيارفاقى ويا فترة عينى ، لا تأسفوا ولا تأسوا على ما فاتكم ولا تهنوا ولا تحزنوا ، فاليأس والضعف لا يليق بالرجال أما الشجاعة والبطولة فهما في إعادة الكرة على العدو والانتقام منه . لقد طالما شهدتم الحروب معى ، فأنتم جنود مصر الذين خاضوا غمار المعارك العديدة ، فكنا نهزم العدو طورا ، وهزمننا طورا آخر ، فلم تنكص على أعقابنا بل أعدنا الكرة وهاجمناه حتى دمرناه تدميرا ... إن لدى من المال والعدد والذخائر سارسلها إليكم فضلا عن أنى ربما قتت بنفسى إليكم ...^(١) وفي رسالته الثانية يؤكد لهم أنه سيقوم بنفسه فيقول ” يا رجالى القدمات . أتم أبنائى الذين ربيتهم منذ نعومة أظفارهم ، فعرفتم أنى شيخ المحاربين ، أفهل رأيتمونى خفت حربا ، أو تفهقرت أمام عدو ؟ إن أتم نكصتم على أعقابكم وخشيتم الحرب فدعوا حمل السلاح ، وكونوا طلابا في مدرسة ، أو دراويش في تكية ولن أتاخر عن الإنفاق عليكم . لماذا تخشون كثرة العدد وأتم متحصنون داخل قلعة حصينة مثل ينبع ... أثبتوا إذن كرجال واعلموا أنى بعد إتمام إرسال الجنود البرية والبحرية سأقوم بنفسى

(١) من محمد على إلى طوسون : وثيقة رقم ٢ محفوظة رقم (١) ذوات (٢١) ذى الحجة

على تسيير حملة أخرى من الشام يشرف عليها تمام الإشراف ، وفي الوقت الذى تحركت فيه جيوش طوسون نحو الحجاز أرسل محمد على يلح على وكيله فى الآستانة أن يقنع الباب العالى بأن نجاح الحملة يتوقف إلى حد كبير على قيام حملة أخرى من الشام ، ثم اتخذ من الضائقة التى وقع فيها ولده طوسون عندما ارتد بجيوشه إلى ينبع ، وعندما عجز عن اختراق مضيق (الصفراء) ذريعة لمعاودة طلبه فكتب إلى الصدر الأعظم يقول إن طوسون يجزم بأن المرور من مضيق (الصفراء) يحتاج إلى حملة تأتى من الشام ” وإلا فإن هذه الجيوش المصرية لا محالة تفقد قواها شيئا فشيئا حتى إذا ما وصلت منتهى المضيق هلكت عن آخرها “^(١).

أثبتت الأيام صدق ما جاء فى هذا الكتاب إذ عندما اضطر طوسون إلى أن يتجه نحو (الصفراء) التى تحصنت فيها الجيوش السعودية دخات جنوده مضيقا من الصخور الصلدة ، لا يزيد عرضه على أربعين مترا ويبلغ طوله مسيرة ساعة ونصف ، وكان الوهابيون فى عشرين ألف مقاتل بقيادة عبد الله وفيصل ابنى سعود ، فسدوا طريق المضيق فى منتصفه وانتشر فريق منهم بأعلى الروابي الصخرية التى تحف بجانب المضيق ، فاضطر طوسون إلى التقهقر فى عناء وشدة ، وقد أبدى طوسون فى تلك المعركة بطولة عظيمة إذ كان يخوض بنفسه صفوف الأعداء على رأس جماعة قليلة من فرسانه صارخا فى جنوده الذين فقدوا وعيهم وخارت قواهم ” أما منكم من يقتدى بقائده “ ولكن ضاعت صرخاته الحماسية هباء وسط أصوات حوافر الخيول التى تتهقرت هاربة بفرسانها وعاد طوسون إلى ينبع بعد أن فقد عددا كبيرا من خيرة جنوده .

ولسنا هنا بصدد ما تبع ذلك من حروب طوسون فى الحجاز ، بل حسبنا أن نذكر أنه استولى على مكة والمدينة وغيرهما ، ولكن حملته لم يقدر لها النجاح الذى

(١) من محمد على إلى الصدر الأعظم : وثيقة رقم ٨٠ دقر رقم ١ (المحفوظات الملكية بعبدين)

بتاريخ (٢٧ ذى الحجة ١٢٢٧) .

باسم السلطان^(١) ، أضف إلى ذلك أنه سمع بعودة نابليون من منفاه في جزيرة إلبا مما سيجعل الموقف الدولى فى خطر، وبذلك تصبح مصر مهددة بأطاع الدول ، وقد قابله إذ ذاك فى مكة صديقه المستشرق المؤرخ (بوركهاردت) ووصف شعور الباشا قائلا "لقد كان محمد على مهتما اهتماما عميقا بالحوادث التى تجرى فى أوربا وكان يعتقد أن إنجلترا سوف تسعى بعد سقوط نابليون إلى تدعيم سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط بالاستيلاء على مصر^(٢) . وقد قال الباشا لبوركاردت "إن السمك الكبير يتلع السمك الصغير ، وأنا أعرف أن إنجلترا تطمع فى مصر ، إننى صديق الانجليز ، ولكن حقيقة الواقع ، أن من بين كبار الدول من يعطيك من طرف اللسان حلاوة ، ولا يضمرك فى نفسه الإخلاص . وغاية ما أتمناه ألا ينتهز الانجليز فرصة غيابى فى المجاز لينقضوا على مصر ، أما لو كنت هناك ، فسيكون لى على الأقل شرف الدفاع عن ممتلكاتى " . وفى ٢٠ مايو سنة ١٨١٥ أبحر محمد على إلى مصر بعد أن سلم القيادة من جديد إلى ولده طوسون ، وجاءت بعد ذلك فترة ركود جنح فيها طوسون وعبد الله بن سعود الى السلم ، إذ اتفقا على أن يتخلى الوهابيون عن كل مطالبهم فى الأرض المقدسة على أن يترك المصريون لعبد الله كل ما استولوا عليه من مدن القصيم ، ولكن الفريقين كانا يعدان هذا الصلح أشبه شىء بهدنة لا يعرف أجلها ، فلا عجب إذا رأينا كلا منهما يستعد للعارك القادمة ، وكان أول ما فعله الباشا أن أختار ابنه البطل إبراهيم وألقى على كاهله مهمة اختراق قلب الجزيرة العربية ليصل الى الدرعية مهد الوهابيين .

كان إبراهيم إذ ذاك لا يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، صلب العود ، شديد البطش ، ثابتا فى عزمه ، متفانيا فى طاعة أبيه ، وقد ذكر المؤرخون أنه كان

(١) من ميست القنصل الانجليزى بمصر إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٥ يونيه سنة ١٨١٥ وثيقة محفوظة بوزارة الخارجية بلندن .

إلى الحجاز لأرى همتكم ، كونوا يدا واحدة وصلوا أوقاتكم الخمس فكانكم مكان صلاح واستغفار ، ينصركم الله ويثبت أقدامكم^(١) .

وقد حقق الباشا وعده فيما بعد ، ووصل إلى جدة في سبتمبر سنة ١٨١٣ ، وفي ٦ أكتوبر قصد إلى مكة ، وهناك أصدر الأوامر إلى جيشه في المدينة ليزحف إلى نجد ، وإلى جيشه في الطائف ليحتل ترابه ، وإلى جيشه الثالث ليذهب برا وبحرا إلى القنفذة لتأديب الخارجين من أهل عسير . ثم أخذ يضع قواعد الحكم المصري في الحجاز ويدرس نفسية البدو والحضر ، ويوزع المال والأرزاق على المحتاجين ، وعزل الشريف غالب أمير مكة لذبذبته بين السعوديين والأتراك ، وعين بدله الشريف يحيى أحد الموالين للحكم المصري ، ثم خفض رسوم الجمرك في جدة ليكسب محبة التجار وثقتهم ، وألغى الضرائب التي فرضها الشريف غالب أمير مكة ، وأصلح ما تحزب من قبور الآل والصحابة ، وأنشأ تكتين ، إحداهما في مكة والأخرى في المدينة والجملة فقد غنى بدعم أركان الحكم المصري في الحجاز ، ولكن بقي عليه أن يكال انتصاراته في الجزيرة العربية بفتح نجد ذاتها ، حتى يأمن على الحجاز من معاودة السعوديين فتحه من جديد ، على أن هذا الغرض الأساسي كان أملا لم يستطع الباشا أن يحققه بنفسه ، إذ وجد نفسه مضطرا إلى العودة إلى مصر على جناح السرعة ، موطدا العزم على أن يلقي عبء هذه المهمة الخطيرة على ولده الأكبر إبراهيم : أما أسباب عودة محمد علي إلى مصر فترجع إلى أن الباشا قد أمضى ما يقرب من عامين ببلاد العرب ، سمع أثناءها مختلف الإشاعات عما يبتهله السلطان ، الذي حاول أكثر من مرة أن يقصيه عن ولاية مصر ، وسمع أخيرا^(٢) "أن الاستعداد قائم على قدم وساق في تركيا لتنظيم حملة تحت قيادة قبطان باشا لمهاجمة الاسكندرية والاستيلاء على مصر

(١) من محمد علي إلى رؤساء الجيش : وثيقة رقم ٨٢ محفظة ٢ بحرا برا بتاريخ ١٥ محرم ١٢٢٧

(٢) راجع كتاب (محمد علي) من سلسلة أعلام الاسلام لصاحب الغزة شفيق غربال بك .

وفي ٣٠ سبتمبر وصلت سفن الحملة إلى ينبع ، وأقام في تلك البلدة عدة أيام استعرض فيها جيوشه ، واستقبل وفود القرى المجاورة والقبائل التي أقبلت تقدم له فروض الولاء والطاعة ، ثم انتقل إلى المدينة المنورة حيث استقبله شيخ الحرم النبوي وقاضي المدينة والأعيان والأشراف ، ثم توجه تولا إلى الحرم النبوي الشريف حيث صلى لله أربع ركعات ثم تقدم بتؤدة وخشوع نحو الضريح الشريف قائلا : ” السلام عليك يا محمد . السلام عليك يا رسول الله “ وطفق يدعو الله أن يجعل النصر حليفه ، وأن يوفقه في المهمة التي أتى من أجلها .

اعتمد إبراهيم في سياسته في بلاد العرب على ولاء القبائل التي سيخترق بلادها إلى نجد لأنه كان يعلم تمام العلم أنه في أشد الحاجة إلى معونتها لتأمين طريق الحملة ، لذلك كان حريصا على أن يبين لهم أنه إنما جاء إليهم ليعمل كصديق على ما فيه خيرهم ، وأنه ليس من الغزاة الفاتحين ، وأن الحكم المصري لم يأت ليأخذ منهم بل ليعطيهم ، وقد وصف الرحالة بلجريف ما أخذ به إبراهيم نفسه من مسالمة القبائل وتأمين الأهالي في قوله :

” كل دلو من الماء قدمها أحد إلى جيشه ، وكل ثمرة أكلها الجنود ، وكل عود من الحطب أوقدوها ، كان إبراهيم يدفع ثمنها في الحال ، وقد حرم على الجنود والضباط ألا يسيئوا إلى الأهالي العزل من السلاح ، وحرص كل الحرص على أن تنفذ أوامره بكل حزم ، فأخذت القرى واحدة إثر أخرى ، والقبائل قبيلة تلو قبيلة تقدم الطاعة للحكم المصري ، اللهم إلا أقلية ضئيلة كان دأبها الثورة والفتنة . وحتى هؤلاء لم يحاول إبراهيم أن يقسو عليهم بل تعمد أن يرأف بهم ويتغاضى عن هفواتهم^(١) “ .

أقام إبراهيم بالمدينة أسبوعين كاملين ثم اتخذ من (الحناكية) مركزا يوجه منه هجومه ، ولبث فيها كالصياد يراقب فرائسه ، فكان تارة يغير على البدو الذين لم

توفا إلى القيام على رأس الحملة الجديدة بعد أن استدعى محمد على ابنه طوسون لكي يعود إلى مصر،^(١) ووصلت أنباء قرب وصول إبراهيم إلى الحجاز فأخذ عبد الله يستعد استعدادا ضخما ويستنفر شيوخ نجد ومن تبعه من أرض الحجاز وعسير .

ومنذ أوائل عام ١٨١٦ كانت عيون الناظرين في مصر تقع خلال الأشهر الثمانية التالية على الجمال محملة بالأثقال من المؤن والذخائر ومهمات الجيش قاصدة السويس ، والسفن الصاعدة في النيل إلى قنا مشحونة بالمدافع والجند ، لتنقل بعد ذلك إلى موانئ البحر الأحمر حيث تجر إلى الجزيرة العربية ، وفي ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ ودّع إبراهيم باشا أسرته ورجال الحكومة وأعيان البلاد ، ولما دخل على والدته يودّعها قبلته وباركت عزيمته ، ثم ناطت برقبته عقدا من الجواهر سألته ألا ينتزعه إلا في الحجرة النبوية الشريفة هدية منها إلى الضريح الشريف ، فوعدها بالوفاء بهذا النذر .

وفي الثالث والعشرين من شهر سبتمبر أبحر إبراهيم بجملته من ميناء القصير مستصحبا معه عددا من الأوربيين ، نذكر منهم الضابط المهندس فيسيير Vaissière الذي خدم في جيش نابليون ، وألقت به حوادث عام ١٨١٥ على ضفاف النيل باحثا عن عمل في جيش محمد على الكبير ، ثم بعثة طيبة كان قوامها أربعة من الإيطاليين هم سكوتو Scoto وجنتيلي Gentili وتودسكيني Todeschini وسوشيو Socio . وهؤلاء الأوربيون كانوا على الأرجح أول من احترق نجد من الأجانب ، ولكنهم للأسف لم يتركوا مؤلفات أو مذكرات عن تجاربهم ومشاهداتهم في قلب الجزيرة .

(١) وصل طوسون إلى القاهرة في ٧ نوفمبر سنة ١٨١٥ ، وكان في استقباله كبار رجال الحاشية وقواد الجند وأعيان القاهرة وما استتب له المقام فيها حتى غادرها إلى الاسكندرية حيث كان أبوه مقبلا بها منذ ١٩ أكتوبر سنة ١٨١٥ فزاره ووالدته وهناك رأى لأول مرة ابنه عباس (عباس الأول فيما بعد) الذي رزق به أثناء تغيبه بالحجاز وكان يبلغ من العمر ذاك عامين ، وقد مات طوسون بعد ذلك بعدة أشهر .

وبعد أن أقام إبراهيم ستة أشهر في الحناكية، زحف في شتاء السنة التالية (٢٢ فبراير سنة ١٨١٧) إلى نجد، فوصل إلى (الرس) وحاصرها حتى سلمت بعد حصار طويل وقتال عنيف هلك أثناءه ثلاثة آلاف من رجاله ، وكادت تنفذ ذخائره ، لولا تذرعه بقوة الإرادة والعزم الحديدي ، حتى أن المؤرخين قد أجمعوا على أنه لو أن قائدا أقل من إبراهيم عزمًا وأضعف إيمانًا وأكثر جزأ أمام الحوادث إذا قلبت له ظهر المجن لغادر ميدان القتال هربًا ويأسًا ، وانقلب على عقبيه وعاد إلى الحجاز فورًا ، ولكن الكارثة التي نزلت به وبجيوشه زادته إصرارًا على إرادته وتمسكًا بتنفيذ رغبته ومضيا في عزمته ، على الرغم من أن الطبيعة حالفت عدوه ، إذ ثارت الزوابع والعواصف بشكل غير مألوف ، فهبت الريح الشديدة تسفي التراب والرمل وتنتزع المشارب والخيام ، وتسلب الإنسان والحيوان حرية التنفس والحركة ، وبدلاً من أن يقبع إبراهيم في مخبأ يتق به هذه الأخطار، امتطى جواده في يوم من هذه الأيام العصيبة وسار في ألف فارس فانقض على فريق من أعدائه ومزق شملهم وبث بذلك نشاطاً وحيوة في نفوس جنوده ، وكان سكان (الرس) قد سموا انتظار وصول المدد إليهم من عبد الله ولم تعد لهم طاقة برؤية الخراب الذي أخذ يسرى من بيت إلى بيت فعولوا وعلى رأسهم حاكمهم (محمد بن مزروع) على أن يطلبوا من إبراهيم هدية شريفة فكان لهم ما أرادوا ورفع عنهم الحصار على شرط قبول حامية مصرية في بلدتهم .

بعد أن سلمت (الرس) زحف إبراهيم إلى (عينه) حيث كان يربط بها عبد الله ، فسلمت البلدة وانسحب الزعيم السعودي إلى الدرعية حيث راح يستنفر أهل نجد كي يجتمعوا في العاصمة النجدية ليدافعوا عن مكانهم ومبادئهم ووطنهم ، أما جيش إبراهيم الظافر فقد استولى على بريده ثم شقرا وضمرا ثم سار إلى وادي حنيفة حتى أشرف على العاصمة العتيقة (الدرعية) في ٦ أبريل سنة ١٨١٨ ، أما الدرعية فتقع في الجزء الشرقي من قلب جزيرة العرب على مسافة ٨٠٠ كيلو متر من

تفلح معهم سياسة اللين أو المال، وتارة أخرى يفيض على شيوخهم بما حمله من هدايا وما أعدته لهم من منح مالية، فانضم إليه عدد كبير من شيوخ القبائل الشديدة البأس كقبائل حرب وعتيبة ومطير^(١)، وفي ١٩ يناير ١٨١٧ تلقى إبراهيم من القاهرة نبأ الانعام عليه من السلطان بلقب الباشوية ذات الأذنان الثلاثة فأوفدت^(٢) المدينة الوفود من كبارائها لتمنيته، وذهب الباشا معهم إلى المدينة حيث أقيمت الحفلات ومعالم الزينات ابتهاجا بهذه المناسبة وألبسه المفتي شارة الترقية وبعد هذا الاحتفال الذي رفع مكانته وألقى هيئته في النفوس عاد إلى معسكره في الحناكية ليبدا المهمة الخطيرة .

ولم يكن كل شيء هادئا في جيشه، إذ ظهر بين الأرثوود جماعة بدئوا حركة عصيان وتذمر، عندما تواترت الاشاعات بانقطاع الصلات السياسية بين روسيا والباب العالي، واعتقدوا أن مركزهم في الجيش أصبح حرجا، فأخذوا يطالبون بمرتباتهم، ولم يجد إبراهيم بدا من تسكين روعهم ودفع لهم حقوقهم، أضف الى ذلك أن حرارة الشمس نهارا والبرد الشديد ليلا ونذرة الماء الصالح للشرب وتفشى الحميات والدوسنتاريا، حمل الجند على التذمر وضعف العزيمة، ولم يستطع الأطباء الأوربيون على الرغم مما بذلوه من جهد أن يستأصلوا هذه الأمراض الفتاكة بسرعة، ولكن إبراهيم أبدى إزاء هذه الكوارث جلدا وصبرا عجيبين بثا روح الطمأنينة والرجاء في النفوس الجازعة القلقة . وجاءته الامدادات التي طلبها من أبيه فسد النقص وأعاد الأمل إلى جيشه .

(١) مما جذب العربان المواليين لعبد الله بن مسعود إلى الانحياز إلى إبراهيم، إكرامه منوى غانم ابن مضيان شيخ قبيلة حرب وغيره من الشيوخ ووعده بإياهم بعدم فرض الجزية وبأن يدفع لهم ثمن ما يؤدونه إلى الجيش من مؤن، أضف الى ذلك لقاءه الناس بالبشر والترحاب وسعة الصدر والسخاء .

(٢) الباشوية ذات الأذنان الثلاثة هي أعلى رتبة يمنحها السلطان لوزراء الدولة، وشارتها ثلاث خصل من شعر ذنب الخيل توضع فوق الرمح الذي يتقدم الباشا في الحفلات الرسمية، وهو تقليد عثماني قديم .

من الذخائر ، وألا يطلق أحدهم رصاصة إلا عندما يقترب العدو بحيث لا يخطئ أحد المرمى ، وأنذر كل من تحدّثه نفسه بالتقهقر بالاعدام ، وكان من عادة النجديين في الحرب أنهم إذا خرجوا للقاء أعدائهم قاموا بحركات سريعة واقتربوا منهم كاللح الخاطف بدلا من القيام بمناورات تستنزف ذخائر أعدائهم ، فلما اقتربوا من المراكز المصرية التي أغفلت أمر تقدمهم في أول الأمر ، تلقّتهم بمقذوفات المدافع فحصدتهم ولم ينج منهم إلا عدد قليل .

لازم جيش الدرعية بعد ذلك خطة الدفاع ، بينما استفاد إبراهيم من الوقت تصله أثناء الإمدادات من الرجال والعتاد ، وعنى إبراهيم بحالة الجرحى والمرضى ، وعاقته عنايته بأحوال جنوده عن التماس الراحة لنفسه ، فأخذ يشرف بنفسه على معالجتهم على أيدي أطبائه الأوربيين الذين لم يألوا جهدا في هذا السبيل ، حتى أن الطبيب (چنتيل) أصابته قنبلة في رجله أثناء ذهابه لإسعاف الجرحى ، فتولى بترها له زميله (تود سكينى) ، وقد زاره إبراهيم يصحبه فسيير وأظهر له من العطف والرعاية ما أدخل السكينى على قلبه .

تواردت الإمدادات على إبراهيم ، وبعث إليه والده محمد على برسول خاص (سليمان أغا الحركسى رئيس أغوات السراى) يحمل إليه بعض الارشادات ويفيده بأنه سوف يرسل إليه مددا بقيادة خليل باشا محافظ الاسكندرية ليعينه على فتح الدرعية .

وطلب إليه أبوه في رسالته التي حملها اليه الرسول ألا يداخله ريب أو تأثر بسبب إرسال خليل باشا لمعاونتته ، ولكن إبراهيم باشا ، الذى كان حريصا على إرضاء أبيه ومتفانيا في طاعته ، كتب إلى محمد على يقول : ” اطلعت على مضمون أمركم السامى وعلى ما تفضلتم بإشعارى فى متن هذا الأمر العالى من أنه لا يجوز أن يخطر لعبدكم شئ بسبب انتداب صاحب السعادة عبدكم خليل باشا لهذه الجهات بسبب حداثة سننى وأن يضطرب فكرى وأقول إن هذه المسألة ممكن إتمامها سواء انتدب المشار

ينبع ، وتتألف تلك العاصمة من خمسة أقسام صغيرة ، لكل قسم أبواب وأسوار خاصة تخللها الحصون والأبراج ، ومحيطها لا يقل عن اثني عشر كيلومترا ، وهي دائرة كان من الصعب حصرها بأقل من ٢٥٠٠٠ مقاتل أى بأربعة أضعاف جيش إبراهيم ، لذلك نجده يحشد قواه كلها فى نقطة واحدة للهجوم على حصن مقام على أكمة مرتفعة . وقد استمر حصار الدرعية خمسة أشهر وبضعة أيام ، تعددت أثناءها المعارك واشتدت الحملات ، وكلف الباشا المهندس الفرنسى (فسيير) بإنشاء المعاقل التى يحتوى بها الجنود المصريون ، ومع ذلك فقد لاقت الجيوش المصرية عنتا وأهوالا شديدة، وحدثت فى ٢١ يونيه نكبة كادت تقضى على كل أمل فى فتح الدرعية ، فقد حدث أن اشتبك السعوديون بالمصريين فى معركة قتل وجرح فيها عدد كبير من الضباط ممن امتازوا بالشجاعة والحدق ، فلما عاد البافون إلى المعسكر لالتماس الراحة بعد يوم رهيب قاتل ، هبت ريح السموم فحملت جذوة نار من موقد كان أحد الجند يطهى عليه طعامه ، وألقته على خيمة كبيرة منصوبة على ربوتين عاليتين وفيها مستودع القذائف وعدة براميل من البارود وعددا كبيرا من صناديق الخرطوش والقنابل ، فلما احترقت الخيمة اتصل اللهب بالذخائر فانفجرت كلها ، وتسبب عن الحريق احتراق مخازن القمح والشعير ، وضياح أرواح كثيرة من الجند وأصبح إبراهيم بلا مؤن ولا ذخيرة وسط الصحراء ، بعيدا عن مخازنه ومستودعاته الأساسية ، على أن إبراهيم تلقى تلك الكارثة بالصبر والثبات وسرعة البديهة وقوة الإرادة ومضاء العزيمة ، وكان أحد القواد يقود النقط الأمامية ، فبعث يستفسر من الباشا هل استطاع أن يستخلص شيئا من الذخائر؟ فكان جوابه : ”لقد فقدنا كل شيء إلا البسالة وسيوفنا فبالبسالة والسيوف نستطيع معاودة الهجوم والانتصار“ . أما الانفجار فكان له دوى هائل ، فهم منه المدافعون عن الدرعية أن كارثة ما قد حلت بالذخائر المصرية ، فخرج منهم عدد من المقاتلين يحسون النبض ، وأدرك إبراهيم حرج موقفه ووقف فى وسط جنوده يأمرهم بأن يرضنوا كل الضن بما تبقى معهم

وانتشرت في الحدائق المحيطة بالأحياء الأخرى ، فوهنت عزائم المدافعين ونظر عبد الله حوله فلم يجد من رجاله وحرسه الخاص سوى نفر ضئيل ، فحضر عبد الله قومه على المقاومة ، واستفز همتهم واستثار حميتهم ، ولكنهم أشاروا له على حث الطريف ، الذى دك عن آخره ، وعلا الصياح واشتد الصخب ، فلم يسع الزعيم السعودى إلا أن يطرق برأسه الى الأرض يأسا وحزنا ، واضطر الى إجابته الى ماطلبوه من الرضا بحكم القضاء والأمر الواقع ، وارتفعت راية التسليم تطلب الكف عن القتال .

وفى ٩ سبتمبر ١٨١٨ وصل رسول من طرف عبد الله الى خيمة ابراهيم ملتصقا بالنيابة عن أميره وقف إطلاق النار وتعيين موعد لمقابلة عبد الله ومفاوضته ، فأجابه ابراهيم الى طلبه ، وبعد ساعات حضر عبدالله يصحبه مائتان من حرسه ، فتلقاه ابراهيم بمظاهر الرعاية والاحترام ، وسأله لم ظل مصرا على المقاومة بينما كان جميع السكان قد أدركوا ألا فائدة من النضال ، فأجاب عبدالله : ” لقد انتهت الحرب الآن وكان ما هو كائن بقضاء الله وقدره ، وما غلبتنا جنودك ، ولكن الله هو المعز المذل “ وضعف صوت الأمير وهو ينطق بهذه الكلمات وانهمرت دموعه فعزاه ابراهيم وتلطف معه قائلا : ” إنه ما من بطل في العالم إلا وبه نقص وضعف ، وأن الكمال المطلق لله ، والانسان ليس معصوما من نوازل القدر “ . ولما طلب عبدالله الصلح ، أجابه ابراهيم إليه ثم أضاف قائلا : ” وإني لجاءك الحكم في شروطه وإنما هناك أمر لا تصرف لى فيه ألا وهو بقاءك في الدعية فإن الأوامر الصادرة الى تقضى بذهايك الى مصر “ فأطرق عبد الله هنيئة وطلب تأجيل إجابته عن ذلك الى الغد ، وفى الغد وفى الأمير بوعده ، وجاء موافقا على السفر الى مصر إذا ضمن ابراهيم له النجاة ، فقال له ابراهيم : ” إذا كنت لا أستطيع أن أتدخل فى إرادة الوالى فى مصر فإنى من باب أولى أعجز عن التدخل فى إرادة السلطان “ .

إليه أم لم ينتدب ، وإني أجيب بأن كلينا ، عبدكم و خليل باشا ، من غلمان أفندينا التي لا تعتق مما هو معلوم للجميع ، كما لا أشك في أن قدوم خليل باشا باعث على الافتخار لي ، لأنه أولا من أقاربي وثانيا فإن معاونته لي لا تقاس بمعاونة غيره ، وفضلا عن ذلك فإن صداقته لأفندينا أمر بدهي ، ومجيئه هنا يسهل المصلحة ولا يوجد لدى أي شك في أنه عند حضور المشار إليه ورؤساء العساكر تقوم بعناية الله المملك المتعال بالهجوم من خمس جهات فيتم الفتح والنصر ... وإذا كان أحد قد أنهى لأفندينا خلاف ذلك فإني أقول إن الله يعلم أني عبدكم صرت مسرورا وممنونا ، وبسطة يدي في الحال أدعو الله دعاء جزيلا لأفندينا إذ أن ورود عساكر كثيرة بهذه الدرجة في أول الأمر هو نخر عظيم لعبدكم كما أنه لو تم بعناية الله فتح الدرعية بالسيف لكان نخر ذلك أكثر مما إذا كان الفتح بالمحاصرة ... فإن شاء الله تعالى لدى حصول العلم لدولتكم بعبوديتي وكيفية الحال ، فإن الأمر مفوض لصاحب الدولة والمرحمة سيدي وولي نعمتي وسبب فيضي وراحتي في شأن التفضل بإبقاء حسن التوجهات السنوية التي استأنست بها وألفتها من زمن بعيد وقريب^(١) .

ذلك جانب من رسالة إبراهيم إلى أبيه تنطق بما يفيض به قلبه من حب وإخلاص ، وتدل على ما كان يحمله إبراهيم من نكران الذات بالنسبة لأبيه ، ولكنه في الوقت ذاته كان حريصا على ثقة أبيه في كفايته ومقدرته الحربية ، وغورا على مجده الحربي أن يهن أو يضعف أو يتخاذل بعد أن وضع أبوه كل ثقته فيه ، فعزم عزما صارما على أن يفتح الدرعية قبل أن يصل خليل باشا بإمداداته الكبيرة .

بدأ الهجوم ، وحمل إبراهيم على أهل الدرعية في متاريسهم وفي معاقلهم وفي أبراجهم وفي بيوتهم حملات شعواء استخدمت فيها المدافع الضخمة والشعل النارية والبنادق والسيوف ، ثم أحاطت جيوشه بالمدينة واحتلت حيا من أحيائها

(١) من إبراهيم باشا إلى والده : وثيقة رقم ٩٤ محفوظة رقم ٥ بتاريخ ٩ رمضان ١٢٣٣ بدار المحفوظات الملكية بعادين .

المؤرخين إنه لم يكن يفترق في شيء عن المصريين ذوى الثقافة الأوربية^(١) . ولما اكتمل تعليمه عينه محمد على كاتباً في الديوان الخديوى بمرتب لا بأس به^(٢) ، وقد ظهر فيما بعد أن الباشا كان يعده لمهمة خطيرة لم يحن أوانها إلا في عام ١٨٣٦ ، عندما عزم الباشا على أن يرسله في حملة أخرى إلى قلب الجزيرة ، لتكون نواة لضم جميع البلاد العربية على الخليج الفارسي كالحسا والقطيف وجزر البحرين والكويت وغيرها ، وكان محمد على يعلم علم اليقين أن من الصعوبة بمكان أن تخضع نجد لأى حكم أجنبي ، فرأى بثاقب بصره أن يعين خالد بن سعود ، ربيبه وصديقه ، أميراً على نجد ، وبذلك يكتسب رضا الأقطار النجدية بعودة الإمارة إلى أمير نجدى من آل سعود ، ويضمن لنفسه ولاء ذلك الأمير الشاب الذى أحب مصر وأحب محمد على من كل قلبه .

ولنعد إلى البطل ابراهيم ، فإنه بعد أن أتم فتح الدرعية ، كان عليه أن يطرح سياسة الشدة والصرامة جانباً بعد أن انتهت الحرب ، ليكسب باللين والموعظة الحسنة ، أولئك المشايخ ورؤساء القبائل ، الذين حاربوه وانتصر عليهم وكان فى استطاعته بعد ذلك النصر الحاسم أن يذيقهم كأس الهوان . فأعلن أنه يؤمن من يطلب الأمان ، وأغدق المال على من انضم إليه ، ورد النخيل الذى كان قد صادره إلى أصحابه ، فسارعت القرى والقبائل فى نجد والحجاز إلى طلب الأمان ، بل ونجد أشد النجديين تعصباً ممن حاربوه فى (القصيم) وخاصة فى بريدة وعنيزة يقدمون إليه كميات من الشعير وغيره من الحبوب للمساعدة فى تموين الجيش^(٣) . أضف إلى هذا حسن لقائه للناس ، وبشاشته فى وجوههم وسعة صدره معهم ، وكرمه وسخاءه .

(١) D'Avril : L'Arabie Contemporaine. P. 21. Paris 1868.

(٢) المحفوظات الملكية : أمر رقم ٧٥١ دتر رقم ٧٤ ص ١٣٠ .

(٣) المحفوظات الملكية المصرية : وثيقة رقم ٥ محفظة رقم ٥ [٣ محرم ١٢٣٧] .

وإني اعتقد تماما أنه لم يكن يدور بخلد إبراهيم أو بخلد أبيه أن يليق عبد الله ذلك المصير الأليم الذي لاقاه في الآستانة فقد قال له إبراهيم مخلصا : ” ولو أني لا أملك التحكم في إرادة الوالى والسلطان إلا أني اعتقد أنهما من كرم النفس وسعة الصدر بحيث يأتين التنكيل بعدو سلم نفسه “ ، وعندما وصل عبد الله الى مصر استقبله محمد على في قصر شبرا استقبالا حسنا وسأله رأييه في إبراهيم وما يشعر به نحوه ، قال عبد الله : ” إن إبراهيم قد قام بالواجب عليه كما قمنا نحن بالواجب علينا وقد أراد الله ذلك وقضى به ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه “ ، وقبل أن تنتهى المحادثة أخبره محمد على أنه قد التمس له العفو من السلطان ، ولكن مما هو جدير بالذكر أن الباشا لم يعط الأمير وعدا أو تأكيدا بأن الباب العالى سوف يتسامح معه أو يقر العفو عنه ، إذ لم يكن محمد على إذ ذاك يملك هذا العفو ، وبعد هذا الحديث ألبسه محمد على خلعة من السمور ، ثم أسكنه في قصر ابنه إسماعيل باشا ببولاق ، حتى حان موعد سفر الأمير الذى أخذ سمته إلى الآستانة حيث كان ينتظره حتفه المحتوم ، الذى أعدّه له رجال الباب العالى الذين كانوا يتعطشون للتمثيل به والانتقام منه ولم يشفع له عند السلطان التماس الباشا ولا رجأؤه بالعفو عنه ^(١) .

أما إخوة عبدالله بن سعود الأربعة ، فكانوا أسعد حظا من أخيه الأكبر ، إذ لم يطالب بهم السلطان بل كان من نصيبهم أن يرسلهم إبراهيم باشا إلى القاهرة ، فيلقاهم أبوه العظيم بالبشر والترحاب ، ويقتر مرئيات كافية تضمن لهم العيش الرغيد ، وتهون عليهم ذل التسليم . كان هؤلاء الإخوة الأربعة هم : فهيد ، وسعد ، وحسن ، وخالد أبناء سعود الكبير . وخالد هذا كان أصغرهم سنا وأسعدهم حظا ، إذ اختصه محمد على برعايته وعطفه نظرا لما كان يأنس فيه من ذكاء ومرونة وسعة أفق ، فعنى بتثقيفه في مدارس القاهرة ، فأصبحت ثقافته مصرية صميمة ، حتى قال عنه أحد

(١) . Gouin, E. : L'Egypte au XIX Siècle. Paris 1846.

السعودية . صدع ابراهيم بالأمر وغزا الجيش المصرى منطقة (الحسا) فى أواخر عام ١٨١٩ ، وهى تلك المنطقة الممتدة على الساحل العربى من خليج فارس ، من حدود الكويت الى حدود قطر وعمان ، وبذلك أطلت جيوش ابراهيم على الخليج الفارسى واحتلت مدينة (القطيف) وميناء (العقير) . ثم استولت على (الهفوف) قاعدة منطقة الحسا وتقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية من المناطق المتزرعة وتنقسم الهفوف الى ثلاثة أقسام (الكوت) فى الشمال الشرقى ، و (الرفعة) فى الشرق و (النعائل) فى الجنوب الغربى وقد عنى ابراهيم بالقسم الأول (الكوت) نظرا لأنه قاعدة إمارة الحسا ، ولمناعته وأهميته الحربية إذ يحيط به سور عظيم يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدما ، وقد شيد عليه ابراهيم عدّة أبراج وضع بها حاميات من جنوده ^(١) .

وكان لوصول جيش ابراهيم إلى سواحل الخليج الفارسى أثران سياسيان على جانب كبير من الأهمية :

أولهما أن الباب العالى قد حزن فى نفسه ذلك النجاح الكبير الذى صادفه جيش محمد على ، وزاد من كرده احتمال وصول الجيش المصرى إلى خليج البصرة ، فكان يخفى فى قرارة نفسه خوفه من أن تصل هذه الجيوش فى وقت ما إلى العراق ^(٢) .

ثانيهما اهتمام الانجليز اهتماما كبيرا بوصول ابراهيم إلى تلك الجهات ، حيث بدأت حكومة الهند البريطانية تنظر إلى حركات الجيش المصرى فى تلك الأصقاع نظرة الشك والارتياب ، وخشيت أن يأتى يوم يتحكم فيه محمد على فى الساحل العربى من الخليج الفارسى فيضر ذلك بسيادتها فى مياه ذلك الخليج ويتعارض مع مشروعاتها التى تضمهرها هناك .

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين — ص ٨٠

(٢) تاريخ جودت (باللغة التركية) ترتيب جديد — ص ١٥ جز ١١

وقد عنى عناية خاصة بمسألتين على جانب كبير من الأهمية ؛ أولاهما تنظيم التكوين في مكة والمدينة بجلب الأغنام والمسل والمؤن والبضائع من الأقطار الشرقية ، مما ألهم السنة السكان والحجاج والزوار بالثناء والتقدير ، وثانيتهما : العناية بالحجاج وتأمين الطرق حتى يشعر المسلمون في أنحاء الأقطار الإسلامية بفضل الحكم المصرى في الحجاز وحزم الإدارة واستتباب الأمن ، هذا إلى ما اقترحه على أبيه من ضرورة توزيع مرتبات من الغلال على فقراء البلدين المقدستين ومجاورى الحرمين ، وقد رحب الباشا بهذا الاقتراح وأمر بتحرير كشوف بأسماء الأسر الفقيرة والمجاورين ليتسلموا نصيبهم سنويا من الشونتين المنشأتين في مكة والمدينة ، ولأول مرة منذ ابتداء الحكم العثمانى في الحجاز سنة ١٧١٥ يشعر السكان والحجاج بالأمن المستتب بين مكة والمدينة حيث أصبح الطريق بين البلدين آمنا هادئا ، وذلك بفضل السياسة الحكيمة والإدارة الحازمة التى وضع أساسها ابراهيم باشا .

كان ابراهيم حريصا على أن ينفذ سياسة والده ، فكان يفضب أشد الغضب عندما يسمع أن أحدا من ضباطه أو جنوده آعتدى على أحد من السكان أو اغتصبه شيئا ، وكان يعمد فى أوامره التى يصدرها للجيش أو للموظفين المدنيين الى تحذيرهم من ظلم الأهالى وتوبيخهم الى أن الجناب العالى (محمد على) لا يرضى باغتصاب الأملاك أو ابتزاز الأموال وأن الباشا (لا يرضى الجسور أو إيقاع الأذى بجيران الرسول) (٢) .



تمت العمليات الحربية فى نجد ، ووصل أمر محمد على الكبير الى ولده البطل أن يغزو بقية المناطق المجاورة لنجد ، وهى تلك التى كانت داخلية فى نطاق الدولة السعودية إبان عظمتهما فى عهد سعود الكبير ، أو تلك التى كانت تحت السيادة

(١) المحفوظات الملكية المصرية : وثيقة رقم ١٦ محفوظة رقم ٩١ بجزىرا .

(٢) المحفوظات الملكية : وثيقة رقم ٥٣ دفتر رقم ٧

الحكومة النجدية وقف الاعتداءات ، بل إن نجاح القواسم وما أصابوه من ثروة وما جمعوه من الأموال المسلووبة قد أغرى مشايخ البلاد التي تقع على سواحل الخليج على تقليدهم فافتنوا أثرهم في القرصنة .

ازدادت قوة القراصنة نموا حتى أصبح أسطولهم لا يقل عن مائة سفينة ، منها ستون اتخذت (رأس الخيمة) قاعدة لها ، والأربعون الأخرى كانت موزعة على بعض موانئ الخليج الفارسي ، ولم يكتف بعض هذه السفن بالاغارة على السفن التي تختر عباب الخليج بل جاوزت ذلك إلى الخروج للاغارة على السفن التي تقترب من سواحل الهند^(١) .

وفي ذلك الوقت كان إبراهيم باشا يتقدم بجيشه في منطقة الحسا في طريقه إلى ساحل الخليج الفارسي ، وقد راع القواسم ما سمعوه عن النجاح السريع الذي لازم إبراهيم في الحجاز ونجد فتوقعوا أن تكون الخطوة التالية للمصريين في عملياتهم الحربية بعد الاستيلاء على القطيف تدمير وكرهم في رأس الخيمة ففكروا جديا في مغادرتها إلى إحدى الجزر النائية بالخليج ، وقد وصلت معلومات كثيرة إلى حكومة الهند تدل على هذا الاتجاه فلحق الأسطول البريطاني في الخليج الفارسي أمرا بالاستعداد لمنع القواسم القراصنة من التحرك في داخل الخليج أو تثبيت أقدامهم في أي جزيرة أو مكان آخر ، وقامت حملة قوية من بومباي تحت قيادة سيرجانت كير Grant Kier ، وتقرر في الوقت نفسه أن يقوم الكابتن سادليير Sadlier في بعثة ليقابل إبراهيم باشا وزودته حكومته بالتعليمات الكافية والأغراض التي ترمي بها من ورائه بعثته ، أما الحملة التي قامت لتدمير قوة القراصنة قبل هروبهم من التقدم المصري وتوغلهم داخل الخليج ليعششوا حول بعض الجزر ، فقد تقدمت نحو رأس الخيمة ونجحت في الاستيلاء عليها في ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ بعد حصار دام ستة أيام

وكان الانجليز يعملون منذ سنين على مد سلطانهم نحو الخليج الفارسي ومحاربة القرصنة التي كانت تعترض الملاحة التجارية وتعتمد على مصائد اللؤلؤ حول جزر البحرين ، لذلك فرضوا صداقتهم وأملوا إرادتهم على إمام مسقط ، ولما فتح عبد العزيز بن سعود الحسا ، حاول الانجليز أن يتصلوا به في عام ١٧٩٩ لكي ينشئوا معه علاقة ود وصداقة ليضمنوا عدم الاعتداء على السفن الانجليزية في الخليج ، فأرسلوا اليه بعثة يرأسها رينود Reinaud وهو أحد الموظفين الذين أقاموا مدة طويلة في البصرة والكويت . وقد أقلت رينود سفينة انجليزية الى القطيف ، ثم ذهب الى الهفوف في حماية أحد إخوة الأمير الوهابي ، وسار بعد ذلك الى الدرعية حيث قوبل هناك بالإكرام والرعاية وعاد في سلام^(١) . ولكن لم يكن في استطاعة الحكومة السعودية أن تفرض سيطرتها على عصابات القراصنة التي عاثت فسادا في الخليج الفارسي ، ورأى الانجليز أن من العبث الاعتماد على الاتفاق مع الأمير السعودي .

وفي عام ١٨١١ حاول سعود الكبير أن ينشئ علاقة ودية مع الانجليز فأرسل رسولا إلى المقيم البريطاني في (بوشير) ، ولكن حكومة الهند البريطانية لم تكن تميل إذ ذاك الى عقد معاهدة مع الأمير الوهابي انتظارا للحوادث التي كانت توشك أن تقع في بلاد العرب ، عندما بدأت الحملة المصرية بقيادة طوسون تغادر السويس ، وفي عام ١٨١٤ قيل أن بعثة سعودية أخرى قامت بحمل رسالة من الأمير ومن شيخ القواسم لعقد اتفاق دائم بعدم اعتداء القراصنة القواسم على السفن التي تحمل العلم الانجليزي ، على أن تلك البعثة ردت دون اتفاق ، انتظارا لما تتمخض عنه الحوادث ، وما يترتب على الحملة المصرية من نتائج^(٢) . وكان من نتائج هذا الموقف الذي وقفه البريطانيون أن ازدادت حوادث القرصنة ، وازداد القواسم طغيانا واعتداء ، ولم تستطع

(١) Hagarth: The Penetration of Arabia. P. 104. London 1904

(٢) Wilson: The Persian Gulf. P. 250. London 1928

لم يصل سادليز في الوقت المناسب لأنه وصل بعد أن نجح إبراهيم باشا في تدمير الدرعية واحتلال الحسا والقطيف ، وفوجئ الكابتن سادليز بوجود حامية مصرية في القطيف على رأسها قائد ينوب عن إبراهيم باشا، ولو أن هذا القائد المصري كان على وشك الانسحاب بحاميته لكي يترك الحسا يحكمها بنو خالد المواليون للحكم المصري طبقا للسياسة التي رسمها محمد علي لحكم هذه الجهات^(١). وقد علم سادليز عندما وصل إلى القطيف أن دولة عبد الله بن سعود قد دالت ، وأن الدرعية أصبحت أثرا بعد عين ، وأن محمد علي قد أمر ابنه إبراهيم باشا بالانسحاب من نجد ومن البلاد التي فتحها على الخليج الفارسي على أن يترك في المواقع المهمة حاميات صغيرة للحفاظ عليها ومعاونة الحكام المحليين المواليين لمحمد علي هناك ، فوقع سادليز في حيرة وارتباك إذ كان عليه أن يتم مهمته الرسمية والسرية ، ويتأكد بنفسه من نوايا إبراهيم أو بالأحرى من نوايا محمد علي ، وعلى ذلك قرر مواصلة بعثته حتى يقابل إبراهيم أينما كان في جزيرة العرب ليقف منه في جلاء على مقاصد محمد علي في الخليج الفارسي .

وفي ٢٨ يونيو سنة ١٨١٩ ذهب سادليز إلى الهفوف قاعدة الاحساء فلم يجد إبراهيم ، فانتظر قيام قافلة حربية كانت على وشك أن تخرج إلى نجد ، وقد تحركت تلك القافلة الكبيرة في ٢١ يولييه ١٨١٩ ، وكان سادليز يهتم أشد الاهتمام بدراسة كل موقع من المواقع التي يمر بها ، ويقيد ملاحظاته بعد أن يستفسر عنها بدقة من الخبشرين والأدلاء ، ثم ضمن كل ذلك تقريره الكبير الذي رفعه إلى الحكومة الإنجليزية في الهند^(٢) . وما أن وصل سادليز إلى بلدة (الرس) التي كان يعتقد أنه سيقابل إبراهيم بها حتى سمع أن الباشا قد غادرها إلى المدينة .

(١) Wilson. 71.

(٢) اهتم سادليز بدراسة شئون تلك النواحي من الناحية التجارية ومواقعها ومزاياها ، ووضع عدة خرائط تبين توزيع البدو والحضر في قلب الجزيرة العربية نجدها جميعا في تقريره الذي طبع بعد ذلك في يوميات سنة ١٨٦٦ بعنوان A Diary of a Journey across Arabia during the year 1819.

وأحرقت جميع سفن القرصنة ثم عاد الأسطول إلى بمباى بعد أن قضى على أقوى معقل للقرصنة .

أما سادليز الذى كلف بالذهاب الى المجاز لمقابلة ابراهيم باشا فكانت بعثته سياسية استطلاعية ، ظاهرها تهنئة البطل ابراهيم باسم الحكومة البريطانية بالهند بما أحرزه من نجاح فى بلاد العرب وعرض اتفاق معه على التعاون مع حكومة الهند ضد القرصنة الذين كانوا معتنقين للذهب الوهابى ، أما الغرض الخفى من بعثة سادليز فنستطيع أن نلمسه فى التكليف السرى الذى أرسلته حكومة الهند الى سادليز تقول له فيه : ” إنك مكلف أثناء وجودك فى المعسكر التركى (أى المصرى) أن تتحقق تماما من المقاصد التى يرمى اليها ابراهيم باشا فى عملياته الحربية القادمة وغزواته نحو الخليج الفارسى دون أن يلحظ الباشا أن تلك هى مهمتك الأساسية^(١) ” .

كان الانجليز يقدرون قوة جيش ابراهيم باشا فى بلاد العرب بعد أن رأوا كيف أحرز النصر تلو النصر وكيف طوى بساط الجزيرة فى زمن قليل ، وها هم يرونه يصل الى الخليج الفارسى ويضع حاميات فى أهم موانئ الساحل العربى من الخليج ، فاعتقدوا أن هذه الجهات التى فتحها ابراهيم بشق النفس وبذل الأرواح ، لا يمكن أن ينسحب منها قبل أن يثبت أقدام الحكم المصرى بها ، فهو لا شك يرمى إلى امتلاكها أو التسلط عليها ، وأن الحسا قد تصبح ولاية مصرية ، فرأوا من الخير أن يتفاهموا مع ابراهيم ، لعلهم يستطيعون إشراكه فى الحملة التى أزمعوا إرسالها لتدمير القرصنة ، ولعلهم أيضا يستطيعون الاشتراك معه فى العمليات الحربية ضد السعوديين فى نجد حيث يقاسمونه ثمرة النصر فى أول الأمر ثم يزحزونهم فى الوقت المناسب .

Newnham : (acting-Chief-Secretary) Secret Department, Bom- (١)
bay to Captain Sadlier, 13th April 1918. Sadlier Diary. P, 131.

كان السلطان يكره اتصال محمد علي بالانجليز وينظر بارتياح إلى قيام أية علاقة ودية بينهما ، خشية أن يعتمد (محمد علي) على تحالفه مع الانجليز ليفلت من تبعيته للدولة العثمانية ، فلم يترك رجال الباب العالي فرصة إلا اتمزوها لإثارة الفتنة وإيجاد هوة تفصل دائماً بينه وبين الانجليز .

فعندما أبلغ سفير انجلترا في تركيا الباب العالي أن "قائد الانجليز الموجود في الهند قد عقد النية على تجهيز عدة سفن وتسييرها من بومباي الى الخليج الفارسي وأنهم قد أرسلوا ضابطا الى إبراهيم باشا للاتفاق معه" أسرع الصدر الأعظم بالكتابة الى محمد علي قائلا : "إن من لوازم الحكمة عدم الانخداع بحيل الانجليز إذ ليس قصدهم من ذلك سوى إيجاد ذريعة للتسلط على تلك الجهات وأن مرماهم — كما هو مبين في المذكرة التي قدمها سفير فرنسا — هو الاستيلاء على بعض تلك الجهات"^(١) وختم الصدر الأعظم رسالته الى محمد علي بالاستعداد لمثل هذه الحالة واستكمال وسائل الدفاع عن بلاد العرب .

وصلت تلك الرسالة الى محمد علي في الوقت الذي كانت الفكرة قد اختمرت في رأسه بأن لا يتعاون إبراهيم باشا مع الانجليز في أية بقعة من بلاد العرب فكتب الى إبراهيم يطلب إليه أن يرّد طلب سادير في حكمة وتلطف وأن يتعلل بأنه قد وعد بأن يستريح هو وجنوده بعد فتح الدرعية إزالة للتعب واستجمالا للراحة^(٢) . وهكذا فشلت بعثة سادير ، وعاد الى الهند ليقدّم تقريره الكبير عما شاهده أثناء رحلته الطويلة التي قطع بها شبه الجزيرة العربية من الشرق والغرب .

(١) من سيد علي باشا الصدر الأعظم إلى محمد علي : وثيقة رقم ٢٧ محفوظة رقم ٢ لعام ١٢٣٥ هجرية : المحفوظات الملكية بعبدين .

(٢) من محمد علي الى إبراهيم باشا : مرفق بالوثيقة رقم ١١٥ محفوظة رقم ٦ بحريرا .

وأخيرا سار إلى المدينة ورأى عن بعد أشجارها ونخيلها ، ولما لم يكن مصرحا
لأى مسيحي بدخول المدينة أو مكة ، فقد حط رحاله في بير على حيث التقى هناك
بالطبيب الايطالى سكوتو الذى كان مرافقا للحملة المصرية ^(١) .

وفي ٨ سبتمبر سنة ١٨١٩ سمح له بالمثل بين يدى إبراهيم باشا الذى ذهب
خصيصا إلى بير على لاستقباله ، فسلمه سادليز كتابا من حاكم بمباى يهنته فيه باسم
حكومة الهند على نجاحه في حملته ويثته أصدق تمنياته لعملياته الحربية القادمة ،
ثم أهدها باسم الحاكم سيفا مرصع الغمد ومقبضه محلى باللائى الكريمة ^(٢) . ثم عرض
سادليز على إبراهيم باشا أمر بعثته قائلا إن حكومته قد ساءها تكرار العدوان من
القراصنة الوهابيين الذين يقيمون على ساحل الحسا على السفن التى تسير في الخليج
الفارسى ، وأنها لم تكد تعلم بأنباء الحملة المصرية في نجد حتى قزرت إرسال أسطول
حربى لتخريب أوكار القراصنة في الخليج الفارسى ، وأن حكومة الهند يسرها أن
يتعاون معها إبراهيم باشا وأن تكون العمليات الحربية على سواحل الخليج ^(٣) مشتركة .
ثم أخذ سادليز يتطرق في حديثه إلى ما ينبغى عمله ليستشف من إجابات إبراهيم باشا
شيئا عما ينتوى عمله ، ولكن إبراهيم — كما قال في رسالته لأبيه العظيم — كان
متحفظا أشد التحفظ ولم يزد عن قوله بأنه لا يستطيع أن يبت في أمر العمل
المشترك لأنه إنما ينفذ أوامر أبيه في كل خطواته كما هى ، وما هو إلا آلة في يده
يوجهها كما يشاء ، ولذا فليس في وسعه أن يعده بشيء ، ثم عرض على سادليز أن
ينزل ضيفا عليه حتى يصدر أمر الجتاب العالى ^(٤) .

Musil : Northern Najd. P. 270 New York 1928. (١)

(٢) المحفوظات الملكية المصرية : من إبراهيم باشا إلى محمد على وثيقة رقم ١١٥ محفظة رقم ٦ .

Dodwell ; The Founder of Modern Egypt. P. 58 (٣)

(٤) المحفوظات الملكية المصرية : الوثيقة السابقة .

الأنظار والأفئدة فلا ترى له أثرا ، ذلك هو الأب البار محمد علي الكبير ، إذ آثر ألا
تقع عليه الأنظار في ذلك اليوم ، فاليوم يوم إبراهيم ، فلا يجب عندئذ أن يؤثره
أحد بالتمجيد أو الهتاف ، فولده البطل أولى اليوم منه بأن يتمتع بكل الحفاوة وكل
التقدير ، وأكتفى محمد علي الكبير بأن يتخذ له في مسجد السلطان الغوري مقعدا
بسيطاً شهد فيه الاحتفال العظيم حتى إذا مر أمامه ابنه إبراهيم طفرت دموع الفرح
من عينيه وبسط يديه لله حامداً آلائه ، شاكراً نعمائه ، داعياً إلى الله أن يحفظ له
إبراهيم .

أخذ إبراهيم باشا بعد ذلك في تدعيم أركان الحكم في بلاد العرب، وتأمين السكان على أموالهم وأملاكهم، وعنى بتعيين أنصار الحكومة في الوظائف المحلية وخاصة ما اتصل منها برئاسة القبائل وزعامة الأشراف ولم يدخر وسعا في تنفيذ سياسة أبيه من حيث مكافأة الموالين لمصر بتعيين المرتبات ومنح العلاوات وتوزيع الغلال والكساوى، وبلغ من رغبته في استمالتهم وإظهار العطف عليهم أن عرض على بعضهم أن يرسل أولادهم في بعثات تلاحق بالأزهر الشريف على أن تخصص لهم الحكومة المصرية مرتبا كافيا يعيشون به في القاهرة^(١).

وبعد أن انتهت مهمته الكبرى، تقترّر سفره الى مصر، فذهب في موسم الحج الى مكة المكرمة وأخذ مكانه بين الحجاج وصعد الى جبل عرفات وضحى بثلاثة آلاف رأس من الغنم وفاء بنذره إذ أوقى النصر من عند الله ووزع أثناء عودته من عرفات إلى مكة الصدقات والمنح، واجتمع على أثر ذلك بجنوده الذين تقترّر سفرهم الى مصر، وودّع ضباطه وجنوده الذين كان من نصيبهم البقاء في مكة والمدينة وجدة وينبع والقنفذة.

وفي ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ وصل إبراهيم إلى المياه المصرية وتراءت له أرض بلاده تخفق فؤاده العظيم ودمعت عيناه فرحا بتوفيق الله . وفي ١١ ديسمبر وصل إلى قصر شبرا حيث استقبله كبار رجال الحاشية والجيش والأعيان، وقام في موكب نخم توجه به نحو القلعة وكان دخوله إلى القاهرة في هذا الموكب العظيم من باب الفتوح فظل سائرا حتى صعد القلعة وكانت الحوانيت والشرفات والنوافذ والسطوح مزينة بأجمل الزينات، والمصريون الفرحون يحفون بموكبه من كل جانب وتعالى أصوات الهتاف والتهليل والتكبير إلى غنان السماء . وهكذا شهدت العاصمة يوما من أيام التاريخ لم تره مثيلا في ذلك العصر، ولكن شخصا واحدا كانت تبحث عنه

(١) من إبراهيم إلى محمد على : وثيقة رقم ٤ محفظة رقم ٢٦٧ عابدين .



ابراهيم باشا في طليعة جنوده

ابراهيم باشا في بلاد اليونان

للاستاذ محمد أحمد حسونه بك أستاذ التاريخ بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول)

حال اليونان قبل الثورة

لما كانت شبه جزيرة اليونان واقعة في ملتقى أوروبا وآسيا وأفريقية ، تطلعت إليها عيون الفاتحين من قديم الزمان ، فاضطر سكانها الى الخضوع للاجانب من مقدونيين ورومان وصقلب وصايبيين وبنادقة وترك . على أن كل عنصر دخل هذه البلاد اضطبع بالصبغة اليونانية ، اللهم إلا الترك فإنهم بقوا بمعزل عن السكان بسبب اختلاف الحكام والمحكومين في المزاج والدين ، ذلك الاختلاف الذي كان من أسباب الثورة .

ومن الطرق السهلة لمعرفة أهم هذه الأسباب ، استعراض حال كل فئة من فئات الشعب اليوناني أيام خضوعه للحكم العثماني ، والتعقيب على ذلك بوصف حركة الرقي بين أفراد الشعب في غضون ذلك الحكم الى قيام الثورة .

وأول ما نعجب له أن نرى الترك الفاتحين يعملون من أول الأمر ، وعن غير قصد ، على تنمية الشعور القومي بين المحكومين بوسائل متباينة : منها أن محمد الفاتح حين تسلم القسطنطينية طبق مبادئ الدين الإسلامي ، « فعامل اليونانيين معاملة المسلمين في كل ما يتصل بأمنهم على حياتهم وأموالهم وشرفهم ، ولم يكتف بالسماح للبطريك بكل الميزات التي كانت له أيام قياصرة الروم ، بل منحه الى جانب ذلك جزءا من نفوذ أولئك القياصرة ، حتى أصبح الرئيس الرسمي للمسيحيين من رعايا الباب العالي ، لا في أمور الدين فحسب ، بل في الأمور المدنية كذلك ، ومن ثم صار المطارنة الذين ينوبون عنه يمثلون السلطة الدينية والسلطة المدنية في آن واحد

وأهم خدمة أداها الفناريون لبنى جنسهم رفع مستوى التعليم بينهم بإنشاء المدارس فى أنحاء الدولة العثمانية ، ثم فتح باب الوظائف المالية والإدارية والسياسية أمام النابهين من حريمى تلك المدارس .

وأما رئيس المطارنة — ويسميه الترك ” خوجا باشى “ — فهو المندوب الذى يختاره المسيحيون لتمثيلهم فى مجلس القسم بينما يمثل المسلمون عضواً يسمى ” أعيان “ . وكان خوجا باشى والأعيان منضيا اليهما أمين صندوق يؤلف ثلاثتهم مجلس القسم ، ذلك المجلس الذى يعاون حاكم القسم — البك — فى عمله ، ويشترك فى مجلس حاكم المورة كلها — مجلس الباشا — الذى ينعقد فى تربولتزا .

ومعنى هذا أن رؤساء المطارنة كان لهم نفوذ فى الديوان عن طريق ترجمان الباب العالى كما رأينا ، ونفوذ فى مجلس الباشا بوصفهم أعضاء فيه ، ونفوذ أكبر من هذين فى مجلس البك ، وفوق هذا كله كان بيدهم حق تقدير الضرائب التى تدفعها كل أسرة ، وحق التعهد بجمعها ، وكثيرا ما كانوا يقومون بعمل الملتزمين فى أقسامهم . وبهذا كانت فئة رؤساء المطارنة تؤلف هيئة اعتادت التضامن فى العمل واكتسبت خبرة بتفاصيل الإدارة . فلما اندلع لبيب الثورة وجد الشعب فيهم زعماء ذوى دراية مالية كما وجد فى النظم الديمقراطية التى تنتهى إليهم رياستها وسيلة لتنظيم العمل — بشكل ما — ولا سيما فى الأدوار الأولى من الثورة : ذلك بأن العثمانيين سمحوا لأهل المورة بقسط كبير من الحكم الذاتى وشجعوهم على التمس به . إذ كانت المورة مقسمة إلى ثلاثة وعشرين قسما فى كل قسم نظام ديمقراطى أساسه المساواة وحق جميع الرجال فى أن يكونوا ناخبين بحيث تختار كل قرية ممثلها الملقين ” شيوخ البلدية “ (demogerontes) ، وتختار كل مدينة ممثلين يلقبون ” البارزين “ (præstes) . وكان البك الحاكم فى كل قسم يدعو هؤلاء وأولئك إلى الاجتماع ليقضوا مقدار الضرائب التى يدفعها أهل القسم ، ولينتخبوا رئيس

فكانوا يفصلون في جميع قضايا المسيحيين باللغة اليونانية ، وطبقا للقانون الرومانى الذى ألفوه من قبل ، وكان يحدث أحيانا أن يفضل أحد المسلمين الاحتكام اليهم فى نزاع شجر بينه وبين أحد المسيحيين . وبمضى الزمن صار رعايا الباب العالى من المسيحيين يدينون بالطاعة للبطريرك أكثر مما يدينون بها للسلطان ، وبهذا أصبحت البطريركية دولة فى جوف الدولة العثمانية ، على أن البطريرك — وقد صار مسئولا عن " شعبه " أمام السلطان — كان يعمل أيام السلاطين الأقوياء على توجيه نظر الشعب — بالفعل دون اللفظ — الى العقيدة المسيحية : " أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله " .

والى جانب عطف السلطان على البطريركية كان يشمل برعايته الخاصة فئتين من اليونان هما الفناريون ورؤساء المطارنة . والفنار — أو المنارة — اسم يطلق على الحى الذى كان يقوم فيه قصر البطريرك ، والذى كانت تسكنه جالية يونانية نشيطة يعمل أكثرها فى التجارة والربا ، ويختار السلطان من بين أفرادها كثيرا من أعوانه فى الأعمال المالية والسياسية ، وأعظم هؤلاء الأعوان شأنا التراجمة ، إذ كانوا يرقون من مجرّد واسطة للتفاهم الى مستشارين ، يستمع الى رأيهم فى كل ما يتصل بالسياسة الخارجية ، وبلغ من ذلك أن نفوذ ترجمان الباب العالى كان فى بعض الأحيان يفوق نفوذ " الرئيس أفندى " وهو وزير الخارجية عند الترك ، وكانت له كذلك إصبع فى السياسة الداخلية ، لأنه كان منوطا بتبليغ " الديوان " رغبات اليونان وحاجاتهم — تلك الرغبات والحاجات التى كان يرفعها اليه رؤساء المطارنة عن طريق مندوبين يسمون " الوكلاء " .

ومنذ سنة ١٧١١ جعل السلطان يختار من الفناريين حكاما لولايى البغدان والافلاق ، وكان هؤلاء الحكام يتلقون من السلطان تقليدا ، أسوة بالولاة من الباشوات ، ويتسلمون من البطريرك تقليدا آخر يراد به استرضاء المسيحيين من أهل هاتين الولايتين .

و بالتالى توحى إليه بروح وطنية مكبوتة . فلما جاءت الحرب دافع هؤلاء الجمهوريون عن أنفسهم بشجاعة عظيمة .

وأما صغار القسوس — ويلقبون الآباء — فكانوا فقراء لا يخشون أن تسلبهم الثورة شيئا ، وكانوا يحكم زواجهم أكثر ارتباطا بالشعب يقاسمونه آلامه وآماله ويبتون فيه روح العداوة والبغضاء لحكامه المسلمين .

على أن دورا أهم من دور القسوس كان مدخلا لسكان الجزر، وهنا أيضا نجد سياسة الباب العالى تعاون على نشوء أشد أسلحة الثورة خطرا : ذلك بأنه — فيما عدا دفع جزية سنوية وتقديم عدد من الملاحين للأسطول العثمانى — كان سكان الجزر مستقلين استقلالاً تاماً ، ويستمتعون بكبر قسط من حسن الحال المادية ومن الحرية فى أوربا ، لا يستثنى من ذلك إلا أهل سويسرة . فقد نالوا نصيبا من التجارة الشاطئية فى بحر المشرق على أثر طرد البنادقة من المورة سنة ١٧١٨ ، ثم جاءت معاهدة بكك كينارجه سنة ١٧٧٤ فأناحت لهم التنقل بين البحرين الأبيض والأسود بكامل حريتهم مستظلين بالعلم الروسى ، ومنذ ذلك الحين بنوا سفنا أكبر حجما ، وطافوا بها فى آفاق أوسع مدى ، ودفعهم الخوف من قرصان بلاد المغرب الى تسليح سفنهم ، فذش الأسطول اليونانى قطعة قطعة تحت سمع الحكومة العثمانية وبصرها ، وكان من نتائج ازدياد هذا النشاط البحرى اتصال اليونان بغرب أوربا وتأثرهم بأفكار أهله عن الحرية والاستقلال .

وساير هذا الرقى المادى نشاط فكري كان يهدف الى إحياء العصر الكلاسيكى من تاريخ اليونان عن طريق تلقين أدبه للشعب . وأبرز الأسماء فى هذا المضمار اسم أدمنديوس كورائيس (Adamantios Korais) (١٧٤٨ — ١٨٣٣) من أهل جزيرة خيوس . وقد وقف كورائيس حياته على خلق لغة وسط بين اليونانية التى كان أهل عصره يتخاطبون بها واللغة اليونانية الكلاسيكية . وبلغ من نجاحه فى هذا السبيل أن يسر لليونانى الحديث قراءة أدب أسلافه الأقدمين وعلومهم بلغة يونانية

مطارتهم السالف الذكر ، والذي يجلس مع ” الأعيان ” وأمين الصندوق في مجلس القسم .

وكان من أثر النظام الديمقراطي الذي أقتره الترك ، عن تسامح أو غفلة ، الإبقاء على فئات أخرى أشد على الحكم العثماني خطرا من سابقتها : تلك هي فئات الأرماطول والكلفت والرهبان وصغار القسوس ، وأخيرا — وليس آخرا — ملاحو الأرخبيل . وتفصيل ذلك أن أرض الروملی الجبلية اقتضت صنفا من الحرس لضبط الأمن في الطرق عامة وفي المزارع بوجه خاص . وكان هذا الحرس يسمى الأرماطول^(١) . فلما دخل الترك هذه البلاد كان المعقول أن يبطل السلطان هذا الحرس ، ولكنه على العكس من ذلك زاد في عدده ، ووسع نفوذ رؤسائه ، وبهذا أتاح لفريق من رعيته فرصة مؤاتية للتمرس بحرب الكر والفر بجميع ضروبها ، حتى إذا أفاق ” الديوان ” من غفلته وشرع يقلل من عدد الأرماطول انقلب المسرحون منهم إلى كلفت وقطاع طرق وانضم إليهم كثيرون ممن هم على شاكلتهم . وعلى الرغم من أن عصابات الكلفت كانت تسلب التركي واليوناني على السواء فإن الشعب تغنى ببطولتها لأنها برهنت على أن المرأة ومواجهة الأخطار ليستا مقصورتين على الترك . ومن ثم أصبح الانضمام إلى الكلفت مظهرا من مظاهر الوطنية ، وبالتالي أصبح عملا يكاد يكون واجبا على الشبان الأقوياء من أهل ” إيلاس ”^(٢) . حتى إذا بدأت الثورة كان الأرماطول والكلفت متاهبين لمقاتلة الترك . وكان أكثرهم يأوي إلى الأقاليم الجبلية . وأما الرهبان وصغار القسوس فقد عاملهم الترك بما يوجب الإسلام من الاحترام والتسامح الديني فعاش الرهبان في ديورتهم بمثابة جماعات جمهورية تقيم في حصون منيعة واحتفظت الديورة الكبيرة بأثارة من مصباح الثقافة القديمة ، وبقيت تنفث في الشعب إجلالا غامضا لإبطال العهد القديم وكنائسه ،

(١) ومعناها باليونانية ” حاملو السلاح ” .

(٢) معناها هنا بلاد اليونان بأجمعها .

محمود الثاني، ولكن حسن حال "الرعية" وعطفه عليهم حملة على تكذيب الخبر .
وبهذه الفكرة الخاطئة عن أسباب الثورات أتاح السلطان للشركة فرصة لنشر
دعوتها بصورة تقرب من العلنية . فلم تمض سنوات ست حتى اندمج فيها كل يوناني
ذى مكانة . فلما أقبلت سنة ١٨٢٠ كانت الفكرة قد اختمرت في أذهان الكثيرين ،
وكان عصيان على باشا حاكم يانية قد شجع الشركة على الشروع في تنفيذ غرضها .
ولما كانت تعتقد بمعاودة إسكندر الأول قيصر روسيا لها اختارت لزعامتها جنديا
يونانيا باسلا كان يعمل في الجيش الروسى برتبة اللواء : ذلك هو إسكندر إيسلندس
وكان هذا الضابط عظيم الثقة بمعاونة القيصر للحركة اليونانية . ومن أجل ذلك أقنع
الشركة بالعدول عن إعلان الثورة بالمورة إلى إعلانها في البغدان ليكون قريبا من
العون الروسى .

وتنفذا لذلك دخل إيسلندس ولاية البغدان في عدد قليل من الضباط اليونانيين
الذين كانوا في الجيش الروسى وأعلن الثورة في ٦ مارس سنة ١٨٢١ إلا أن الموقف
العدائى الذى وقفه أهل البغدان والافلاق — وهما الآن ضمن دولة رومانيا —
منضما إلى عدم كفاية إيسلندس وغروره ، وإلى تخلى القيصر عن المعاونة — كل
ذلك جعل الإخفاق محتوما .

وفي هذه الأثناء كان "الأحباء" مشغولين بإثارة أهل المورة حيث تزعم
الحركة غرمانوس مطران بتراس ، ولخص منهج الثورة في كلمات قليلة : " السلم
للمسيحيين ، والاحترام للقناصل ، والموت للترك " . ولم يمض عام ١٨٢١ حتى
كانت المورة كلها — عدا حصونا قليلة — في يد اليونان وحتى انتشرت الثورة
شمالا إلى مقدونيا .

وكان زعماء الثورة إما مطارنة مثل غرمانوس وإما كبار أعيان مثل زيميس
وإما ارماطول مثل كاريسكاكى وإما كلفت مثل كولوكترونيديس وأما فناريون
مثل مفروكرذاتس . ولم يستطع فرد ولا هيئة أن يسيطر على جميع البلاد ويحتفظ

حقاً ، ولكنها لا ترهقه بتعلم اللغة الكلاسيكية . وبعبارة أخرى استطاع كورائيس أن يشعر أهل زمانه بأنهم سلاله أولئك الأبطال القدامى ، وأدت هذه الحركة العقلية ، والعناية باللسان القومي إلى التطلع إلى الحرية والاستقلال .

وإذ قد أئمتنا بطرف من أحوال اليونان قبل الثورة فقد حق للقارئ أن يسأل عن أسبابها . والإجابة على سؤاله ينبغي أن نقول إن الثورة اليونانية والثورة الفرنسية تبرهنان على أن الشعوب لا تثور لمجرد ما تعانيه من البؤس والظلم مادامت لا تفتن إلى هذا الظلم وذلك البؤس وإن تفاقم أمرهما ، وإنما تندفع إلى الثورة متى أحست البؤس والظلم مهما رأتهما الشعوب الأخرى تافهين . وأول ما يشعر الناس بالبؤس والظلم حسن حالهم المادية والأدبية . وحال اليونان من أوضح الأمثلة في ذلك فإنهم لم يثوروا لبؤس يعانونه وإنما ثاروا بسبب الرخاء الذي كانوا يستمتعون به ، ولم يشجعهم على الثورة عسف كان التركي ينزله بهم ، بل شجعهم على ذلك تسامحه في الإبقاء على نظم وأسلحة استخدمها اليونان آخر الأمر في مقاومته . وكان من نتائج هذا التسامح تزايد الذكاء بين اليونان وتزايد نشاطهم الأدبي وحريتهم في اختيار نوع التعليم الذي يرضونه لأنفسهم ، وارتقاء النابغين منهم إلى المناصب العليا في الكنيسة والدولة ، وحريتهم كذلك في جمع الثروة حتى كان المزارعون منهم أحسن حالا وأرفع في نظر القانون منزلة من نظرائهم في أكثر بقاع أوروبا .

وكان من سعد طالع اليونان أنه في الوقت الذي أخذت فيه الدولة العثمانية تضمحل ظهرت في الأفق الشمالى الدولة الروسية الأرثوذكسية التى يربطهم بها الدين والكراهية للترك . فنراها منذ سنة ١٧١١ تحرض اليونان على الثورة دون انقطاع . فلم يكن عجباً أن تنشأ في أودسا الجمعية السرية المعروفة باسم إيتريا فلكى (Hetairia Philiké) ومعناها اللفظى ”شركة الأحياء“ تكونت سنة ١٨١٤ حين اتضح للجميع أن مؤتمر فينا لن يعمل شيئاً لمصلحة اليونان . وكان هدف هذه الشركة إحياء الدولة البيزنطية الأرثوذكسية . وقد بلغ خبر هذه الشركة مسامع السلطان

إبراهيم باشا فى المورة

فى سنة ١٨٢٢ كان لدى محمد على جيش محترم من الزراع والصناع الأصحاء مفتولى العضلات "وكانت الإسكندرية تعادل طولون فى التحصن البحرى ولم يكن الأسطول المصرى يفترق عن أى أسطول أوربى جيد النظام اللهم إلا فى الملابس" وكان من الطبيعى أن يستولى الحسد على السلطان محمود الثانى كلما فكر فى مثل هذا الجيش وذلك الأسطول . ولعله حين استمع إلى نصيح جنتز بتكليف محمد على القضاء على الثوار اليونانيين فكر فى التخلص من خطرين بترك أحدهما يهلك الآخر . ومن ثم تلقى نجيب افندى وكيل الباشا فى القسطنطينية أمرا بأن يلحق بسيدته فى سرعة وتكتم . فبلغه بالقاهرة فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٢٤ . ولا يعرف على سبيل التحقيق ما تحدث به الوكيل إلى الباشا ، إلا أن الحوادث التى وقعت بعد ذلك تدل على وعد بمنح ابنه إبراهيم ولاية المورة . وبعد أن تم الاتفاق على هذا الأساس وضع تصميم حصيف لو نفذ على الفور لكان من المنتظر أن ينهى الحرب : ذلك بأنه كان قد اتضح من مدة أن القضاء على الثوار يستدعى انتزاع السيادة البحرية من أيديهم ، كما يستدعى مواجهة شجاعتهم غير النظامية بأورط منظمة . والخطوة الأولى فى هذه السبيل تحطيم جزر بحر الأرخبيل بواسطة الأسطولين المصرى والتركى مجتمعين . ثم يقوم إبراهيم بعد ذلك بإخضاع المورة بينما يقوم محمد رشيد المعروف عند اليونان باسم كوتاهيه لى بإخضاع بقية البلاد .

وقد عكف محمد على بهمته المعروفة على إنجاز نصيبه وجدد ضباط البر والبحر الذين علمهم سيف وليتالييه Letellier فى تدريب أورط من الزراع والعمال لتزيد قوة الجيش المصرى من ٢٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ رجل . وكان هؤلاء الجنود أحسن من الجنود التركية فى قوة الأبدان وفى النظام ، فضلا عن أنهم قد حنكهم التجارب فى كريت حين عهد السلطان إلى محمد على فى إخضاع هذه الجزيرة

بالسيطرة إلى النهاية . على أنه يمكن القول بوجه عام أن الدفاع عن المورة كان بيد الكلفت وفيما يليها شمالا بيد الأرماطول ؛ وأن هؤلاء وأولئك اتبعوا في الحرب طريقة الكر والفر حتى صارت هذه الطريقة من خصائص هذه الثورة . وبمثل هذه الطريقة كان الملاحون يقاتلون الترك في البحر . وأشهر هؤلاء الملاحين ميأوليس وقد احتفظ بالزعامة طوال الثورة بفضل مقدرته وإخلاصه لبلاده ، ويليهِ سختوريس وقائد الحزاقات كاناريس .

ولما قضى الترك على أتباع أبلسندس انتفضوا على علي باشا حاكم يانيه وما زالوا به حتى قتل ، ثم التفتوا إلى المورة فإذا بهم ينهزمون في ثرموبيل ثم يفقدون تربوليتزا — عاصمة المورة — حيث ذبح اليونان جميع المسلمين الذين كانوا يقيمون بها دون استثناء ودون شفقة . وانتقم الترك لذلك بالقضاء على أكثر سكان جزيرة خيوس في إبريل سنة ١٨٢٢ . ولكن لم يأت يونيه حتى تمكن اليونان من الفك بالأسطول العثماني ، ثم فتكوا به في سبتمبر وأكتوبر من السنة نفسها ، وأعادوا الكرة سنة ١٨٢٣ فخطموا أسطولا عثمانيا آخر كان على رأسه خسرو باشا .

أما في البر فحاصر الترك مسولنجي بقيادة عمر يونس سنة ١٨٢٣ ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها بعد أن تكبد خسائر فادحة . على أن الترك حاصروها مرة أخرى ورفع ذلك من شهرتها فانكب اليونانيون على تموينها وأقبل إليها أصدقاء اليونان من كل حذب ومن بينهم الشاعر الإنجليزي الذائع الصيت اللورد بيرون الذي دخلها بما جلبه من أسلحة وذخائر وبقى يدافع عنها إلى أن مات بها . فكان اللورد بيرون ميتا أنفع منه لليونان حيا لأن شهرته زادت حماسة أصدقاء اليونان في أنحاء أوروبا وأمريكا حيث يدين المستثمرون لأسلاف ذلك الشعب بروائع الفن والعلم والأدب . فتدفق المدد إلى اليونان في صورة نقود ومؤن وأسلحة ومتطوعين تبعث بكل ذلك لجان نصبت نفسها في مدن القارتين لجمع الهبات والقروض ، ولنشر الدعاية عن طريق الخطابة والصحافة ، تستحث الحكومات على إنقاذ ذلك الشعب المسيحي من نير الترك المعروفين عند أصدقاء اليونان بالكفار .

نتيجة ذلك التلصص أن إبراهيم حين عاد إلى كريت وجد أنه قد فقد ست سفن حربية ونحو ٥٠ نقالة كما فقد ثلث رجاله . أما اليونان فقد كانت خسائرهم كبيرة إذ فقدوا ٢٢ حراقة دون أن يقللوا من خطر الغزو المصري . مثقال ذرة : ذلك بأن السلاح الذى صهره فى غضون الثورة وهو سلاح الحرافات الذى خدمهم طالما كانوا يواجهون الترك وحدهم ، أصبح عديم الفائدة فى مواجهة البحارة النظاميين من المصريين ، أولئك البحارة الذين لا يكلفهم تجنب الحراقة إلا مناورة تبعدهم عنها وتركها تحترق دون خطر إلا على نفسها حتى يصل الحريق إلى مستوى سطح الماء .

وكان المتوقع من اليونان ، وقد علموا بالخطر المصرى ، أن ينتهزوا فرصة تقاعد قواد الترك عن القتال انتظارا لحضور إبراهيم وتنسيق خطتهم مع خطته — كان جديرا بهم يومذاك أن ينتهزوا هذه الفرصة للاستيلاء على الحصون التى ما برحت فى يد الترك ليمنعوا بذلك نزول المصريين أو يعوقوا ذلك النزول . ولعل من أسباب قعودهم عن انتزاع ما بقى بيد الترك من الحصون رغبتهم فى ألا تفلت منهم الغنائم التى كانوا يتوقعون استلابها من المصريين من شيلان كشميرية وخيل عربية وسيوف دمشقية ؛ فضلا عن زعمهم أن العدو الذى يوشكون أن يسلبوه هذه الغنائم يتيح لهم فرصة لإظهار بسالتهم . وإلى جانب هذا كله زعم البحارة أن عدوهم لن يبرح كريت قبل حلول فصل الربيع ؛ واضطر ميأؤليس — ذلك النبيل البعيد النظر — أن ينسحب من مياه تلك الجزيرة . وما أسرع ما أفاق اليونان من هذه الأحلام اللذيذة . فان إبراهيم باشا ذلك العبقرى الحربى الذى تبرز بالحرب كان تواقا الى الاشتباك بهم ومن أجل هذا لم يعبأ بشهر فبراير — وهو أسوأ الشهور جوا فى البحر المتوسط — وبارح كريت فى غضونه ونزل فى مودون فى ٢٣ ، ٢٤ منه ومعه ٤٠٠٠ ر. من المشاة و ٤٠٠ من الفرسان . وبعد أن استطلع موقع نوارين^(١) بعث إلى جزيرة كريت فى طلب المدد وتسلم فى ١٧ مارس ٧٠٠٠ رجل فيهم

(١) يطلق بها اليونان « تقارينون » .

سنة ١٨٢٢ حيث قضى قائده حسن باشا ومن بعده صهره حسين بك الجريدلى على الثورة التى كانت يترعها تومبازيس Tombazes بعد معارك عنيفة وتم ذلك فى أبريل سنة ١٨٢٤ .

وكانت الاسكندرية إذ ذاك تدوى أحواض السفن فيها بينما كان الجمهور يتلهى بمراقبة تدريب المقترعين . فلما كان يوم ١٩ يولييه سنة ١٨٢٤ غادر إبراهيم الاسكندرية بأسطول جليل يضم ٥٦ سفينة حربية و ٢٠٠ نقالة ويقل ١٨,٠٠٠ جندى قاصدا ساحل الأناضول لتنفيذ الخطة الموضوعة لمقابلة أسطول السلطان وعلى رأسه خسرو باشا وهو سياسى حصيف ولكنه أمير بحر كثير الخوف قليل الخبرة .

ومع هذا فقد بدأ نصيبه بهجوم ناجح على جزيرة بسارا Psara وهى مهد من أهم مهاد القرصنة اليونانية والاستقلال اليونانى . وساعده على ذلك أن أهل بسارا وضعوا ثقتهم فى بطاريات ضعيفة أقاموها على الساحل بدلا من التزام البحر وهو المجال الذى يفوقون فيه أعداءهم . وإذا بالصخور التى حسبوها منيعة قد تسلقها الألبانيون الخفاف الحركة وتغلبوا بكثرة عددهم على المدافعين المتفانين فى الواجب . وبلغ من ذلك أن جماعة منهم نسفوا مخزنا من البارود ليموتوا هم وبعض مهاجميهم إيثارا منهم للوت على الاستئسار . ولم ينج من السكان وعددهم ٧,٠٠٠ إلا نصفهم . ومن حسن طالع اليونان أن كان من بين الناجين كاناريس Canaris . وعلى الرغم من صغر الجزيرة كان تحطيمها ضربة مؤلمة للتواريكا نودى به فى تركيا باعتبار كونه نصرا عظيما .

وبعد أن قضى الأمر ظهرت سفن إذرا Hydra وسفن سبيتس Spezzia وكل ما استطاعه ميأوايس وسختوريس لم يزد على إفساد تصميم القبطان باشا فى القضاء على جزيرة ساموس وإجباره على الانضمام الى إبراهيم . واشتبك الأسطولان المصرى والعثمانى بسفن اليونان . وفى أثناء هذه الملاحم لاحظ إبراهيم — والمقت يملأ قلبه — أن زميله يحاول دائما أن يتلصص من واجبه كلما احتدم القتال . وكانت

أنه يمكن تسلفه ، وانقضوا على الجناحين فكانت هذه المعركة إيذانا بتفوق المصريين وسببا لمرارة الضغائن بين أهل المورة وأهل الرومالي . لأن الآخرين لم ترقهم مقاتلة المصريين فانكفأوا الى بلادهم وكان رشيد إذ ذاك يهتد باختراقها .

و بذلك أصبح إبراهيم حرا في تضيق الخناق على نوارين دون مفاجأة . وخليج نوارين نصف دائرة بالتقريب تقوم على طرفه الجنوبي نوارين الجديدة وعلى طرفه الشمالى نوارين القديمة . وتكاد تغلقه من ناحية البحر جزيرة سفكتريا (Sphacteria) وكان الكولونيل رومي (Romey) ، وهو الذى وضع المدافع المصرية ، على اتصال بالشوار . ومع هذا فإن خيائته لم تجدد إلا قليلا لأن حسين بك الجريدلى صهر إبراهيم لاحظ أن جزيرة سفكتريا هى مفتاح نوارين وذلك من غير أن يقرأ ثوكيذيدس (Thucydides) ^(١) . ومن ثم غيرت الخطة وصدر الأمر الى حسين بأخذ الجزيرة . ولم يدرك الثوار أهمية هذا الموقع إلا فى الساعة الحادية عشرة ، فالتى ماثرو كزاتس (Mavrokordatos) وسنتاروزا (Santa Rosa) وتسامادوس (Tsamados) بأنفسهم اليها ومعهم قبضة من الرجال لا تزيد مدافعهم على سبعة . فلما نزل بها المصريون هرب كثير من المدافعين الى قواربهم وبقى الآخرون وفيهم تسامادوس وهو شاب ظريف من نبلاء إذرا كان يقود سفينته الحربية الخاصة ، وكان يميل إلى ادخال النظام الأوربى وما يرتبط به من تحسينات فى الأسطول اليونانى . فكان فقدده لطمعة قاسية على إذرا . وأما القائد البيدموتى سنتاروزا فانه بعد أن يؤس من نيل الجزية فى بلاده جاء يدافع عن حماها فى اليونان . ولم يمض ثلاثة أيام على سقوط الجزيرة حتى سلمت نوارين القديمة وخرج رجال الحامية بعد أن تخلوا عن سلاحهم . وإذ ذاك اتضح للجميع أن نوارين لن تستطيع أن تقاوم طويلا ولذا عرض عليها إبراهيم شروطا مشرفة فوافقت الحامية على التسليم وسمح لها بالخروج واحدا واحدا بين صفين قويين من الحراس المصريين

(١) من أشهر مؤرخى اليونان القدامى .

بقية فرسانه . فلما اجتمع هؤلاء الفرسان الى زملائهم الذين سبقوهم الى موزون لم يزد جمعهم على ٨٠٠ فارس .

وكان القائد المصرى فى السابعة والثلاثين من عمره فوق المتوسط فى القامة فى شىء من السمن ناعم الوجه دائم البشاشة على الرغم مما يعلو مجياه من كلف . وكانت حياته فى المعسكر معتدلة منظمة : يدخن دائما ويتناول القهوة فى كثير من الأحيان بينما كانت خيمته معروفة ببساطتها . ويعترف له أشد أعدائه حقدا عليه ببعد نظر يفوق كل من حوله فى جميع الأحوال . أما فى الميدان فكانت حياته حياة أقل جندى . وهذا العدو نفسه يقتله بالشجاعة التى شهدت له بها من قبل بلاد العرب والسودان من بعدها فيقول هذا العدو ، وهو مسيو لوفرن (Lauvergne) ” لقد رأيته يدخن غليونيه فى هدوء على عشرين خطوة من ميدان القتال حيث كان من المتوقع أن تقتله رصاصة حسنة التسديد . وكان ذلك فى موليني (Molini) وهى ليست بعيدة عن أرغوس (Argos) . ويرى مسيو لوفرن أن هذه الشجاعة أكبر جرائم إبراهيم باشا ويعقب على ذلك بقوله : ” إن أوربا تعلم الخطر الذى يتعرض له استقلال الشعوب بسبب الرجال الذين يحترمهم الرصاص “ . يشير بذلك الى نابليون .

وكان أول هم الفاتح الحديد تموين بتراس وكانت ما تزال بيد العثمانيين ثم حصار نوارين وكان يدافع عن هذا الحصن اثنان من أبناء بترو بك مثرو ميخائليس (Petro Bey Mavromichalis) وما كرى انيس (Makrijanis) والقائد البيدمونتي كوليزيو . وبعثت اليها الحكومة بنجدة أكثرها من الرومالي ومقدونيا .

وكان هذا الجيش يترواح بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ وفيه زهرة أبطال المحاربين من اليونان وعسكر فى كروميدي (Kromidi) على الطريق الى موزون . ” وأدرك إبراهيم خطة عدوه فلم يمكنه من اختيار نقطة الهجوم “ بل تقدم معه ٣٠٠٠ رجل و ٤٠٠ فارس و ٤ قطع من المدفعية . وهجم المصريون على قلب أعدائهم بأسنة الحراب بينما صعد الفرسان من واد عميق لم يكن أحد إلى ذلك الوقت يظن

خرج من العاصمة في جماعة من قدامى المحاربين في أبهة كبيرة . وما أن وصل الى مانيا كي (Maniaki) حتى بلغ أتباعه ٣,٠٠٠ وتقدم إليه إبراهيم في أول يونيه سنة ١٨٢٤ ففتر نصف أتباع ذكيوس تحت جناح الظلام حين رأوا جيش الباشا واشتبك الباقون في معركة أبلوا فيها بلاء حسنا وسقط قائدهم وهو يقاتل قتال الأسود . وكان من أثر هذه الهزيمة أن أنعشت الروح المعنوية بين الثوار إذ قالوا: "إذا كان القسيس المتهتك ومن كان معه من الفلاحين استطاعوا أن يناضلوا العدو الحديد بمثل هذه الشجاعة فماذا عسى أن يعجز عن تحقيقه شيوخ بلاد اليونان المدربين على القتال برعامة قائدهم المحنك كولوكترونيس ؟ " .

وكان قصد كولوكترونيس حماية الممرات المؤدية الى مقاطعة أركاديا ومن أجل ذلك جعل مقتر قيادته الرئيسى في ما كريبلاي (Makriplaye) وأمر رجاله وهم ٧,٠٠٠ بحفر الخنادق على حافتي وادي درفند (Dervend) . ومع أن الوادي كان أوسع من أن يحمله رصاص البنادق لم يختر إبراهيم أن يهاجمهم من الأمام بل دار بمهارة حول جناح عدوه ، وصوب مدفعيته على بعض فرقه بينما أربى الآخرين بمواجهتهم بفرسانه . فكانت هذه الهزيمة قاضية على الروح المعنوية بين المقاتلين من اليونان قضاء مبرما . وبلغ من ذلك أن تفرقوا واعتصم زعيمهم بالجبال بعد أن أُنذر أهل تربولترا بأن يتصرفوا حسب ما تقتضى به ظروفهم .

وإن تفوق إبراهيم على كولوكترونيس باعتبار كونه قائداً وانحطاط الجنود غير النظاميين من اليونان عن مستوى فرق الجنود المصرية — هذا التفوق لم يتح له أن يتجلى بصفة حاسمة كما تجلّى في تلك المعركة : ذلك بأن اليونان كانوا قد اختاروا موضعهم في أرض تكاد تكون غير صالحة للقتال وكانوا يعرفونها حق المعرفة . فمزقت شملهم قوة لا علم لها بتضاريس تلك البقعة ، ولا تستطيع الاستفاد بفرسانها ولا بمدفعيتها ، وفي أرض تضطر الرجال النظامية أن تعمل بطريقة تكاد تكون غير نظامية .

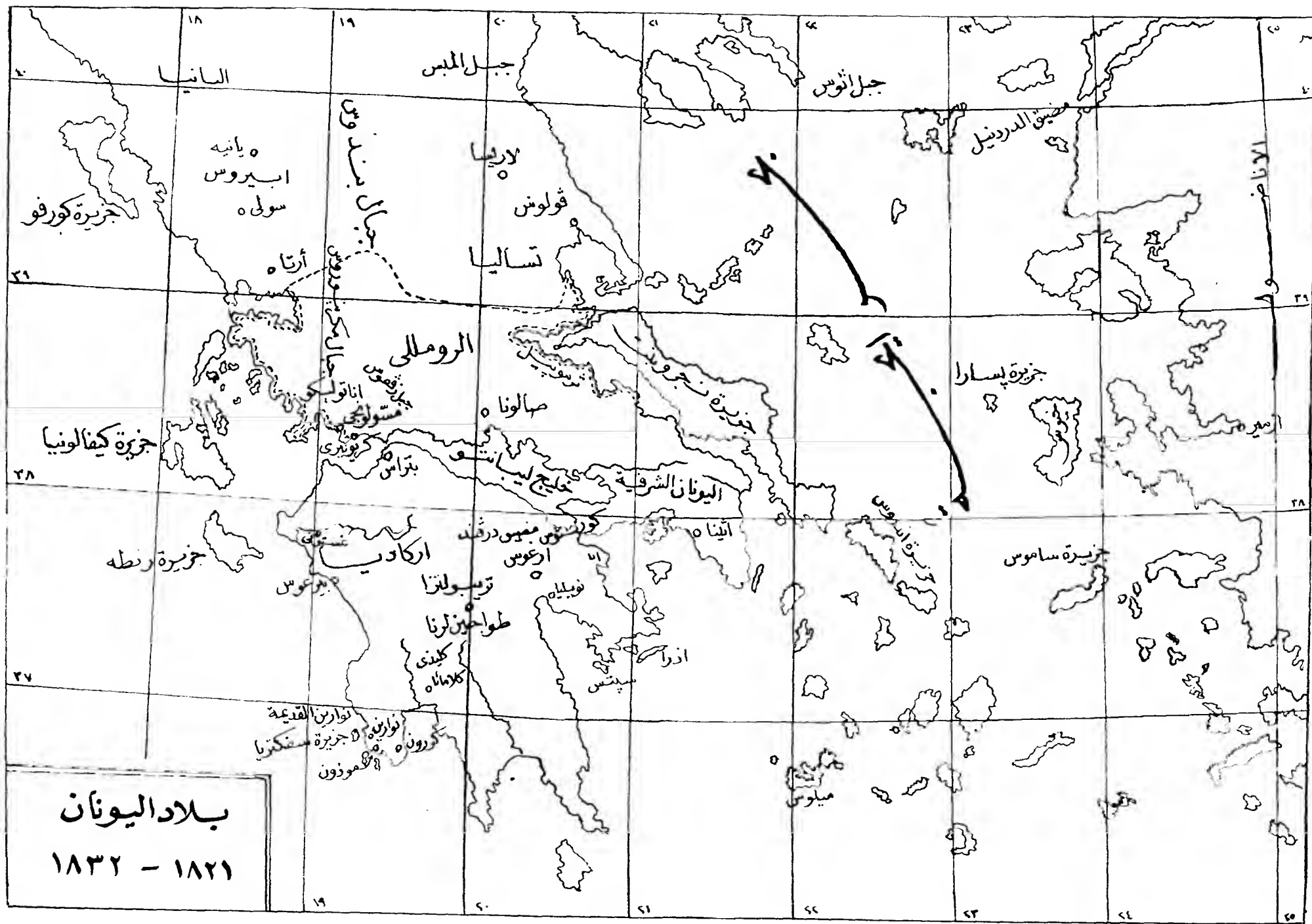
مشرة أسنة حراهم فذهبوا إلى حيث السفن التي استأجرها إبراهيم لنقلهم إلى كالاماتا (Kalamata) . وبالمول الفرق بين هذا المنظر والمنظر الذي مثل على هذه البقعة بذاتها قبل أربع سنوات ، إذ نرى الرجال الذين اشتركوا مع مواطنهم في ذبح الترك المقيمين يومذاك بالمورة يسرون بغير سلاح على مرأى من أقارب ضحاياهم ونار الانتقام تضطرم في قلوبهم . ولم يكتف إبراهيم بذلك بل أعطاهم طعاما لما رأى من سوء حالهم .

وخليج نوارين من أحسن الثغور الطبيعية في أوربا وكان مرسى فائضا للأسطول العثماني بينما كان المثلث كورون ومودون ونوارين قاعدة حسنة للعمليات في داخل البلاد . وبهذا تمكن إبراهيم من التوغل في المورة وكان توغله في بقاء وحذر . ولم تكن الهيئة التنفيذية ورئيسها كندوريوتس محبوبة يوما من الدهر بين أهل المورة لاعتقادهم أنها تعمل لصالح أهل إذرا ولذا ضعف نفوذها حين فارقتها جنود الروملي . وكان ضعفها الإداري مما مكن للهيئات البلدية أن تستعيد جزأ من قوتها السالفة واستطاعت هذه الهيئات بمعاونة الشعب أن تجبر الحكومة على تخليصة سبيل زعمائها بأن أعلنت الأمان العام في ٣٠ مايو فعاد كولوكترونيس (Koloktrones) إلى قوته السابقة وعاداته القديمة . وكان كولوكترونيس — وهو أشهر زعماء التحرير — نموذجا من الكلفت — قطاع الطرق — حبيب إلى الشعب بعده عن النظام العسكري ، وعيشه كما يعيش الأبطال المحاربون ، وتكلمه بلهجتهم وتفوقه عليهم وقيادته إياهم للقتال .

وكان إطلاق سراح كولوكترونيس مما حتم على خصمه ذكيوس (Dikaïos) المعروف باسم بابا فليساس (Pappa Phlessas) أن يزه في الشهرة الحربية وأن يغادر ناقليليو (Nauplia) حيث كان الناس أدرى بنقائصه . وكان بابا فليساس ما يزال وزيرا للداخلية ، ومن أفضع من اضطهدوا زعماء المورة وتنفيذ هذا القصد

(١) شهرتها في غرب أوربا نوبليا وتسمى أيضا نابلي دي رومانيا .

وبهذا الانتصار بات الطريق إلى تربولترا مفتوحا ، وأخلى السكان المدينة حين علموا باقتراب إبراهيم بعد أن حرقوا أكثرها . على أن الجنود المصرية وجدت بها مؤنا كثيرة حين دخلتها في ٢٢ يونيه سنة ١٨٢٤ . وبعد استراحة ثلاثة أيام ظهر إبراهيم أمام طواحين لونا (Lerna) فعمت الفوضى في مدينة ناقليلو . أما كيف نجت عاصمة اليونان فإن الشروح متعددة . وجميع التفسيرات المؤسسة على اعتزام إبراهيم أخذ العاصمة في تلك المناسبة ينقضها نقضا تاما أن إبراهيم لم يستصحب في ذلك اليوم مؤنا إطلاقا ، ولم يستخدم إلا حرسه الأمامي . ولا يمكن قبول ما طالم كررته بعض الأخبار من أن مقاومة إيسلندس (Hypsilanti) وما كريانيس (Makrijanis) أذهلت القائد المصري ؛ إذ لا يعقل أن مقاومتها تذهل رجلا له عزيمة إبراهيم ؛ بل أنها لا تذهل أى قائد من ذوى المقدرة العادية لم تزل قواته الأساسية رهن إشارته . وقد ابتكر بعضهم تفسيراً حسبه مستساغا هو وجود الأميرال دى رينيه (de Rigny) والكابتن هاملتون (Hamilton) في مياه ناقليلو والموقف الذى وقفه هاملتون بحيث فهم اليونان والمصريون فهما واضحا أنه قد يشترك في المعركة . إلا أنه يلاحظ أن دى رينيه كان إلى ذلك الوقت وبعده بعام كامل معارضا أشد المعارضة لليونان لسيخطه على شحهم ونهبهم وتنافسهم فيما بينهم ، وأن إبراهيم لم يكن ليخطر بباله أن فرنسا يمكن أن تعارضه . أما التفسير الحقيقى فهو أن إبراهيم كان في ذلك الوقت أشد عناية بإتمام هزيمة كولوكترونيس ، وهو يومذاك يحوم حول تربولترا ، أكثر منه بأخذ ناقليلو . وهذا المسلك يتسق اتساقا تاما والخطوة التى اتبعها في غير هوادهى والاحتفاظ بطرق مواصلاته مفتوحة . وقد حاول الكلفت القديم عبثا أن يكرر التكتيكات التى أفادته إفادة كبرى في مواجهته لعلى باشا الدرملى وهى قطع خط مواصلات عدوه ، لكن خصمه هذه المرة كان أكثر من كفء لإحباط خططه إذ لم تكن الحرب غير النظامية جديدة عليه بعد أن حرب مايشبها كثيرا في بلاد العرب .



ولما كان ٦ يوليو سنة ١٨٢٤ أفسد ابراهيم خطة عدوه بمهاجمة جميع مواقعه في آن واحد وإكراهه على التراجع . وعلى أثر ذلك وقعت طواحين داريا (Daria) وتسروكوفيا (Zerekovia) وبيانا (Piana) في قبضة ابراهيم ، وبذلك نال الجيش المصرى مؤنا كثيرة . ومن تلك اللحظة لم تعد الحرب صراعا بين قوتين متكافئتين ؛ فشكا أصدقاء اليونان ”أن أعداءهم يقودهم قواد ليسوا ذوى خبرة حربية فحسب ، بل لهم معرفة دقيقة بالبلاد وبالأخلاق القومية وأنه لم تتح لهم مناسبة واحدة وقفوا فيها أمام الغزاة الجدد موقفهم المجيد الذى عودونا إياه من قبل ، وأنهم تخاذلوا أمام الحراب المصرية فى جميع الأحوال تقريبا “ .

ومن ثم فقد اليونان الروح المعنوية كلية وأيقنوا أنه لن ينقذهم إلا العون الأجنبى دون سواه . وهذا اليأس التام من جانبهم هو الذى حداهم على المطالبة بالحماية الانجليزية . ويتمثل فقدان الروح المعنوية فيهم فى قصة طريفة يقصها الجنرال غوردون عن ٤٠٠٠ يونانى كانوا يحتلون فرنا (Vervena) تحت قيادة إيسلندس (Hypsilanti) ذلك الرجل الذى زعم بعضهم أنه أزجج ابراهيم فى طواحين لونا بأقل من عشر قوته هذه قبل ذلك بشهر أو مادونه . يقول غوردون : ”يجتزد سماع الصوت الهائل صوت طبول فرقة مصرية اختفت القوة كلها ونجا قائدهم من الأسر بصعوبة كبيرة“ . ولا صحة لما زعمه المغرضون من أن ابراهيم فكر فى استئصال سكان المورة ، بل الواقع أنه أظهر نحوهم من الرحمة والرفق مثل ماسبق أن أظهره فى بلاد العرب وما ظهر منه بعد ذلك فى سوريا والأناضول : ذلك بأن ابراهيم كان على غرار أبيه فى إجلال العدو المغلوب أو العطف عايه . ويقول فيلمين (Villlemain) فى كتابه (Preface de Lascaris) : ”إنه اتخذ الإنسانية باعتبار كونها من تكتيكات أوربا ، فلم يحرق القرى ولم يذبح المغلوبين ، لأن فيه نوعا من الرحمة الحديثة قد عنى أناس بنصحها بها باعتبارها وسيلة للنصر“ . وإنا انجد غوردون وهو من أشد الناس حبا لليونان يقول عن ابراهيم : ”إنه لم يستأصل غياض الزيتون لمجرد

أعظم أربع منه منذ أيام آل كبريلي . وكان رشيد في ريعان الشباب دون المتوسط في القامة بهي الطلعة جم الأدب سريعا نشيطا ذكيا شجاع القلب . ويقال إنه مع منحه لقبى القائد الأعلى ووالى الروملى قد أنذر بأنه لا بد من سقوط مسولنجى أو سقوط رأسه . وبلغ رشيد لاريسا (Larissa) في يناير وقضى على الاضطراب في أبيروس باسترضاء الزعماء وبذل الوعد للآرتوود برفع رواتبهم . وخالف سابقه في الإسراع باحتلال مضيق ما كرينوروس (Makrynoros) . ثم عمد إلى أهم الأعمال الحربية في شمال اليونان في ذلك العام وهو حصار مسولنجى . فلما نزل بها في ٢٧ من إبريل بدأ العمل من فوره واستحث جنوده أن يضيقوا عليها الخناق ليحجوا عار إخفاقهم أمامها قبل ذلك بثلاث سنين . وكان اليونان من جانبهم مصممين على الاحتفاظ بها لأنها الثغر الجيد الوحيد الباقي في أيديهم على خليج ليانتو . وكانت مسولنجى تسند ظهرها إلى جبال زقفوس (Zygos) وتمتد على حافة سهل مستنقع تحده برك ضخمة عظيمة الاتساع بها مسالك ملتوية تشرف عليها شطوط من الطين .

ويختلف الحصار الثانى اختلافا كليا عن الحصار الأول : ففي سنة ١٨٢٢ لم يكن الحصار تاما بل مضطربا بين المفاوضات حيناً والمناوشات حيناً آخر ، بين عدوين يفصلهما مستنقع وخنق . وفي مثل هذا الوضع استطاع جماعة من المدافعين أن يصدّوا عدوهم المتردد . أما منذ ذلك الوقت فقد زادت تحصينات المكان بفضل المهندس القدير كوكينس (Kokkini) تحت إشراف اللورد بيرون . ومن هذه التحصينات إقامة برجين أطلق عليها الإسمان الفخمان فرانكلين (Franklin) و بوتساريس (Botzares) ؛ وعملت إصلاحات أخرى منها إنشاء رواق مسقف خارج الخندق ومنها تحصين بعض الجزيرات الموجودة بالقرب . وإلى جانب هذه التحصينات كان بالمدينة ٤٨ مدفعا من الحديد مختلفة العيار ومدفعان نحاسيان من نوع الهاون واثنان من الهوترز . وبذلك صارت المدينة قادرة على مقاومة كبيرة ،



حب التخريب ولا غياض التين والليمون وأشجار التوت وهى أساس ثروة البلاد“ .
بل إن ألد أعدائه^(١) يعتقد أن أهل نوارين أبوا أن يفنكوا به علما منهم أنهم ينالون
عطفه إن سقطت القلعة فى يده، وأنه سيعامل اليونان بمثل ما يعامل به ملك فرنسا
الروم الكاثوليك والبروتستنت من رعيته لأن هدفه ليس الحرب وإنما هو
توطيد الأمن .

وما جاء سبتمبر من سنة ١٨٢٥ حتى كان إبراهيم قد أتم إخضاع المورة من
الوجهة العملية . وإذ ذاك قصد الى معسكره الشتوى فى موزون حيث تسلم أوامر
والده بالتقدم لمعاونة رشيد باشا الذى كان قد قضى ثمانية أشهر فى محاصرة
مسولنجى (Missolonghi) على غير جدوى . وفى ذلك الوقت رتب محمد على
وخسرو الخطة الحربية والبحرية اللازمة للقضاء على ثوار اليونان سواء عاونتهم
انجلترا أو لم تعاونهم .

حصار مسولنجى (١٨٢٥)

كان عام ١٨٢٥ أشد أعوام الثورة اليونانية حلكة لأن الثوار لم يزالوا على
انقسامهم القديم وأنانيتهم المألوفة بينما كان السلطان والوالى متفقين على إخضاعهم ؛
ولأن عصا باتهم المسلحة زادت فى احتقار النظام بينما هم يواجهون المصريين النظاميين ،
ولأن سفنهم كانت على الدوام تأبى أن تجزب التحسينات العلمية ، بينما الأسطولان
العثمانى والمصرى قد انتفعا بهذه التحسينات إلى أبعد مدى ؛ وأخيرا لأن أرض
اليونان لم تنجب عبقرىا حربيا عظيما قادرا على قيادة جميع جنودها بينما كان السلطان
يرمهم بأعظم قائدين فى دولته : ذلك بأنه بينما كان إبراهيم يخضع المورة كان الجيش
المتوغل فى إيلاس بقيادة محمد رشيد الذى لم تنجب تركيا قائدا أقدر منه أو صدرا

(١) المراد مسلولوفرن (M. Lauvergne) السالف الذكر .

(٢) كان إذ ذاك يطلق على بلاد اليونان الواقعة شمالى المورة .

يكون البقية الباقية من ذخيرتهم . ولم يقل نجاح أسطولهم عن نجاح جنودهم إذ وفق مياؤليس (Miaoulis) وسختوريس (Sachtouris) أن يزعجوا خسرو ببعض المناورات التي قامت بها حرافتهم ، وأن يهزموا مجموعة القوارب التي أعدها يوسف باشا ، وأن يرفعوا الحصار البحري ويمتدوا المحصورين بالمؤن والذخائر التي كانوا في ميسس الحاجة إليها . وبانخذال القبطان باشا ذلك الانخذال المزرى أصبح رشيد بغير ذخيرة وبغير مال ، وليس عنده إلا قليل من المؤن . وبهذا تشجع المحصورون أن ينسقوا في الخفاء هجومين في وقت واحد أحدهما على معسكره والآخر على قواربه وتم ذلك في ٦ أغسطس إذ انتصرت الزوارق اليونانية على قواربه وهاجمت الحامية المعسكر ، بينما كان كارايسسكاكي (Karaiskaki) يهاجم مؤخرته بخمسة رجل . على أن هذه المناوشة البارعة لم تبلغ أن تدفع كوثاهيه لى إلى اليأس ، فاستطاع بوساطة تل كبير من التراب أن يأخذ برج فرانكلين ؛ إلا أن المحصورين كانوا قد توقعوا ذلك فأقاموا خلف البرج منشآت دفاعية قوية عادت يومذاك بفائدة أنستهم الجهود التي بذلوها في إقامتها . وتركز الصراع في غضون سبتمبر وأكتوبر حول هذا البرج وكان القتال قتالا وحشيا حقا لأن البعد بين الخصمين لم يزد على بضعة أمتار ، وانتهى الأمر بانتصار الهمة اليونانية على العزيمة التركية فاستعيد البرجان ونسفت التلال الترابية التي كانت تهددها .

وأقبل الشتاء بما يلازمه من طاعون وملازى ففك بجيش رشيد بعدما أضعفه القتال والهروب . ولم يكن لقائده عزيمه رشيد مناص من أن يخندق على عسكره عند سفح جبل زنفوس . وفكر اليونان في مهاجمته بالاتفاق مع أتباع كارايسسكاكي المنتشرين في الجبال من خلف العدو إلا أن خنادقه المعقدة وذبوع الحلاف بين زعماء الأرماتول — حاملى السلاح — جعل النجاح موضع شك .

واعل المقيمين في مسولينجى كانوا راضين بما تهيأ لهم عمله وليسوا براغبين عن الاستمتاع براحة استحقوها بمجاهدهم . ومن ثم كان الحصار في نهاية ١٨٢٥ في حالة

إلا أن الجنود المدافعين وهم ٤,٠٠٠ كانوا في مواجهة عدو ذى عزيمة ونشاط مستعد للإفادة من كل ما تقدمه له الفنون الحديثة من حفر تحت الأساسات ولغم وخندقة .

وقد لفتت أهمية الحصار وطول مدته نظر الشرق والغرب جميعا : أما في الغرب فكانت مسئولنجى تذكر بإقامة يرون فيها ونهاية حياته المحزنة بها ونشأ عن شهرتها فكرة شاعت في أوروبا هي أن مصيرها ومصير اليونان يكادان يكونان شيئا واحدا . وكان قواد الحامية أمثال نوتارى (Notari) ويوتساريس (Botzares) يلقون عونا قلبيا من إدارة مدنية قوامها ثلاثة على رأسهم كبير أعيان بتراس السابق وهو البطل بابا ديامندوبولوس (Papadiamandopoulos) . وفى غضون مايو ويونيو كان رشيد يقترب فى بطء وحذر من برج فرانكلين بإقامة تل كبير من التراب .

وبعد أن تسلم مدافع من بتراس بدأ يقذفه قذفا عنيفا بينما كان اليونان ينجيون على هذه النار بمثل نشاط رشيد ويحسنون فى وسائل دفاعهم ؛ وارتفعت روحهم المعنوية حين وافتهم فى ١٠ يولييه سبع سفن من إذرا تحمل إليهم مؤنا كثيرة وبعض المدد من المورة . وبعد شهر من ذلك التاريخ استبشر المحصورون بقدوم أسطول اتضح فيما بعد أنه أسطول خسرو وأنه قد أنزل حسين بك فى نوارين وجاء لرشيد بمدد مهم جدا من المدافع والرجال والذخيرة المختلفة الأنواع ؛ وبذلك مكنه من مضاعفة همته . وفى هذه الأثناء كان يوسف باشا الذى استقر فى بتراس نحس سنين بعزيمة فائقة قد أعد ٣٦ قاربا .سطحة القاع قطع بها الاتصال مع أناتوليكو (Anatoliko) وحاصر هذا الحصن بحرا . وفى ٢٨ يولييه فجر المحاصرون لغما تحت برج بوتساريس واستولوا على حطامه مرتين ولكن اليونان أخرجوه من كئنا المزين .

وخشى رشيد أن تمون المدينة من جديد ومن أجل ذلك قزر أخذها عنوة فنسف برج فرانكلين فى فجر يوم ٢ أغسطس وهجم هجوما قويا بخمسة أرتال وعرز عشرين راية على أطلاله . ولكن اليونان نالوا نصرا مجيدا فى ذلك اليوم بما يكاد

الخنادق . ومن ثم قضى إبراهيم شهر ديسمبر في جمع المؤن ؛ وكان الجنود المصريون يعملون دون أن يكلوا وكان النظام الذي يسود معسكرهم مما أدهش رشيدا فضلا عن أنه امتنع من استقلال الفئاد المصري بعمله .

ونفضت الحكومة اليونانية آخر الأصر لمعاونة الحماية الباسلة وبلأت إلى جيوب الأفراد من المواطنين وبهذه الوسيلة تمكنت من إعداد ٢٠ سفينة من إذرا و٤ سفن من بسار وافتحمت هذه السفن المدخل وألقت إلى الحصن بمئونة شهرين .

وبعد ضرب المدينة بالقنابل ثلاثة أيام هاجمها الألبانيون والمصريون في ٢٨ فبراير سنة ١٨٢٦ وتسلقوا الأسوار ثلاث مرات ، ولكن اليونان المستيسين ألقوهم عنها في كل مرة . فأتضح لإبراهيم أن من الضروري حصرها حصرا تاما برا وبحرا ، وأعد لذلك ٣٢ قارباً مسطحة القاع أنبأ إلى المساء ووجه حسين بك هجومه على فاسيلادى (Vasiladi) وهو الحصن المشرف على مدخل البركة واستولى عليه عنوة في ٩ مارس فسلمت أنا تولىكو (An.Oliko) بعد ذلك بأربعة أيام .

واعتقد إبراهيم ورشيد أن الفرصة مؤاتية لعرض شروط مناسبة ، غير أن الحماية اكتسحت فكرة التسليم في لهجة جديرة بأجدادها : ذلك أن الباشا كتب إليهم ” أن أبعثوا إلى رجال يعرفون لغات عدة ليتبين لي أن انتهى معهم إلى تفاهم “ فكان جوابهم جواب المعتز بنفسه إذ كتبوا إليه : ” إننا شعب أمى ولا نفهم لغات كثيرة . إننا لا نعتز بالباشوات ولكننا نعرف كيف نعمل بالسيف والمدفع “ . وكان لا يزال بأيدي الثوار نقطة في البركة هي الجزيرة الواقعة إلى الجنوب الشرق من مسولنجى وكان المدافعون عنها ٢٠٠ رجل بقيادة الزعيم الباسل كتسوس دزا فيلاس (Kitzo Djavellas) وكان يحجبهم عن المدفعية العثمانية سائر دفاعى منخفض من الطين ؛ وقد جعلوا من كنيسة قليلة الارتفاع أيضا مخزنا وقلعة . فلما كان يوم ٦ من أبريل حاول الألبانيون أخذها عنوة ولكن قواربهم لم تستطع

توقف بعد أن عمل الترك آحر جهدهم تحت إشراف أحسن قائد لديهم . ومع هذا عجزوا عن تحطيم مقاومة رجال الروملى .

على أن الموقف لم يكن ليحمل أحدا من أصدقاء اليونان البعيدى النظر على الابتهاج وذلك بسبب قرب قاهر المورة . إذ كان يدور بخلداهم ماعسى أن يحدث لو أن السلطان ، على الرغم من حسده للوالى ، تنازل فطاب إلى محمد على أن يعاونه فى بقية بلاد اليونان . وهذا ما حدث فعلا لأن كراهية محمود للتوار اليونان وللعاكسات الأوروبية المرتبة على الثورة سهلنا عليه طلب العون من مصر ، فتلقى ابراهيم الأمر بالاتصال برشيد . وبظهوره بات أمام مسولنجى عدو جديد أشد بأسا من سابقه لأن حرب المورة قد برهنت على أن شجاعة الأرماطول وحيل الكلفت لا توازيان ما للجيش المصرى من نظام وعلم وخبرة بالاستراتيجية والتكتيكات . وتجلى لليونان والترك وأصدقاء اليونان أن الحصار الذى سيجدده إبراهيم أعظم شأنا من جميع العمليات الحربية الأخرى ، لعلمهم أنه إذا سقطت مسولنجى فإن غرب بلاد اليونان سيصبح تحت رحمة العدو كما أصبحت المورة من قبل سواء بسواء . وسيتمكن الجيش العثمانى من الانتشار فى البلاد وإنحاد أنفاسها . ولا غرو بعد ذلك إذا اتجهت جميع الأنظار الى ذلك المكان الذى تجلى فيه مقاومة الأبطال .

وكان محمد على قد أمد ابنه مؤخرا بعشرة آلاف رجل فتقدم إبراهيم بسرعه المعتادة مجذا فى السير وعبر ممر كليدى (Kleidi) المهم واستولى فى برغوس (Pyrgos) وغستونى (Gastouni) على مخازن الغلال التى كانت أعدت لمسولنجى والتى لم يرسلها اليونان إلى تلك المدينة ، ولاهم ألقوها حين فقدوا الأمل فى إنقاذها . وما أن اجتمع القواد العثمانيون أمام مسولنجى حتى عقدوا فى ٢٧ نوفمبر مؤتمرا فى لياننتو ومن حضروا هذا المؤتمر القبطان باشا ورشيد وإبراهيم ويوسف باشا . وتم الاتفاق فيما بينهم على أن يعاون كل منهم الآخر وأن ينفدوا الحصار بنشاط . على أن الوقت لم يكن يسمح بعمل شىء لأن المطر الغزير حال دون كل شىء حتى حفر

ملابس الرجال ويعطون السلاح ومعهم الأولاد ويبد كل منهم مسدس محشو .

ولما انتصف الليل هجمت الحامية على العدو واخترق أكثرهم صفوفها على الرغم من النار التي واجهتهم غير أنه بسبب خطأ في الفهم أو بسبب حدوث زعر ارتد السكان الى المدينة وليس معهم إلا عدد قليل من حاملي السلاح . أما الذين اخترقوا الخنادق العثمانية فانهض عليهم من فورهم فرسان أعدتهم ابراهيم لهذا الغرض . ولما شرعت بقيتهم تتساقط جبل زقفس وتحس أنها آمنة انهالت عليها طلقات قذفت بها فرقة من الألبان كان رشيد قد جعلها كميناً . فلم ينج من ٩٠٠٠ سوى ١٥٠٠ منهم ٢٦ بين امرأة وطفل . ولما طلع الفجر أمر ابراهيم رجاله بدخول المدينة وقابلهم السكان بإطلاق النار عليهم . وعمدت ثلاث عصابات الى نصف مخازن البارود على أنفسهم إشاراً للموت على التسليم . ولذا لم يأسر العثمانيون — فيما عدا النساء والأطفال — إلا قليلاً .

وهذا الدفاع الذي أبداه أبطال مسولنجي زاد صداقة اليونان استعاراً في جميع أنحاء أوروبا . وكان الرأي العام — بقدر ما يمكن أن يوجد على القارة — متعلماً من نير مترنج وسياسته الرجعية ؛ ومن أجل ذلك كان يتخيل اليونان شعباً بأسلا يناضل ضد عدو مخيف لا طاقة له به من أجل الحرية التي هي من حق كل إنسان . وقد دفع هذا الشعور الوزارة الفرنسية الى عمل شيء لصالح إخوانهم في المسيحية ولم يعد فيليل (Villèle) رئيس الوزارة الفرنسية يستطيع المقاومة بفعل يفكر في الانضمام الى روسيا وانجلترا بعد أن قررتا في مؤتمر بطرسبرج سنة ١٨٢٦ معاونة اليونان ؛ وأدى ذلك الى عقد معاهدة لندن كما سيجيء بعد .

الحرب في اليونان باشراف أصدقاء اليونان

كان سقوط مسولنجي نذيراً بسخط الشعب على حكومة كندور يوتس لأنانيتها وعجزها حتى اضطر أن يستقيل من الرئاسة وتكونت حكومة جديدة من ثمانية أعضاء برئاسة زاييميس (Zaimis) استبعد منها كندور يوتس وكولوكترونييس

بلوغ ساحلها فتركوها وخاضوا في الطين الأملس تحت وابل غزير من الرصاص وأتلفوا مانعا واطئا من الأشجار كان خارج القلعة . وعند ذلك أعوزتهم السلام لتسلق الجدران فعادوا أدراجهم . وركب رشيد جواده ليحمس رجاله على الأقدام فأصابته رصاصة في فخذه .

وإذ ذاك أمر إبراهيم ٣٠٠٠ من رجاله أن يظهروا تفوقهم ولكن عبثا حاولوا ، وجرح حسين بك فاتح سفكتريا (Sphacteria) جرحا مميتا فأهمل هذا الهجوم . وكان قتال هذا اليوم أعنف قتال رآته مسئولنجي ذهب ضحيته ألف عثماني وتغير لون الماء من كثرة الدم وحملت عيون أهل الأرض قاطبة إلى أولئك الأبطال إعجابا بأعمالهم التي ذكرت بأكبر أعمال البطولة الحربية في العصرين القديم والوسيط . ومن ملئوا إعجابا بنكير من أهل جنيف هو إينارد (Eynard) . ومن ثم ضاعف هباته ونشاطه لصالح اليونان . وقد تشجع بما رأى من الملك لويس (Lewis) ملك بفاريا وبمعاونة لجنة باريس له فأرسل المال والقمح والذخائر الحربية إلى نافيليو وإذرا وجزر اليونان وكررت فرنسا وألمانيا وسويسرا هباتها الجزيلة ، وجمع اليونان أنفسهم مليون قرش من التبرعات الاختيارية . ولكن ماذا عسى أن يعمل المال إذا لم يقدم الرجال ؟ وها هو كارايسكاكي أشجع زعماء الرومالي وأعظمهم مقدرة لم يستطع رغم شهرة أعماله المجيدة السابقة أن يجمع حوله أكثر من ٥٠٠ ، وهي قوة لا يحلم أحد أن يرفع بها حصارا . ومع هذا فإن أهل مسئولنجي وحاميتها كانوا قد أقسموا أمام الله أن يدافعوا عن حصنهم شيبرا شيبرا ولا يصغوا لحديث التسليم وأن يدفنوا أنفسهم تحت أنقاضه . فلم يعد لهم مناص من اتباع إحدى خطتين : الموت جوعا أو اختراق الحصار طبقا لمشروع بوتساريس (Botzares) وهو مشروع جيد كان نجاحه محتملا وبمقتضاه قسم الرجال ثلاثة جماعات يقودها بوتساريس وماكريس ودزا فيلاس على التعاقب . وبين صفين من الرجال يحشد النساء بعد أن يلبسن

أما مقدرة المسلمين على نشر نفوذهم في البلاد بسرعة ما لم يعترضهم شيء من الخارج فلم يك يسمح بأدنى شك . ولم يبق من أساحة الثورة صالحا للعمل إلا السفن ولذا قتر محمود ومحمد على أن يقضيا على هذا السلاح فنشطت دور الصناعة بالقسطنطينية والإسكندرية في صنع أسطولين وتجهيزهما لسحق الجزيرتين المشهورتين بسفنهما وهما إذرا (Hydra) وسبتس (Spezzia) وكانا يعتقدان أنهما بهذا يطفئان آخر بریق في الثورة قبل أن تتمكن الدول الأوروبية من التدخل بأساطيلها .

وأدرك كوكرين وجود الخطر ومداه ، فاعتزم إحياء أيام دريك (Drake) بإحراق الأسطول المصري بالاسكندرية . وأقبل الأميرال الأعلى بنحو عشرين قطعة ما بين سفينة حربية وحراقة حتى وقف أمام الاسكندرية في ١٧ يونيه سنة ١٨٢٧ فغضب محمد على لهذه الإهانة غضبا شديدا فركب البحر بنفسه وتعب المعتدين حتى جزيرة رودس ، كل ذلك وكوكرين يتجنب المعركة حتى اضطر محمد على الى العودة من هذه المخاطرة التي لم يسمع بمثلها في الجراة والإقدام . وبذلك فقد كوكرين البقية الباقية من سمعته ، وانكب اليونان على القرصنة البحتة .

وبعد ذلك بقايل وصل الى خليج نوارين أسطول طاهر باشا حيث بقي في انتظار الأسطول المصري الذي حضر في ٧ سبتمبر سنة ١٨٢٧ بعد أن تفادى سير أدوارد كدرنجتون (Sir Edward Codrington) الذي كان قد عهد اليه أن يعترض أسطول مصر وأن يردّه الى الاسكندرية . وكانت رئاسة الأسطول المصري معقودة لمحرم بك ورئاسة الأسطولين المصري والعثماني لإبراهيم باشا وبذلك بلغ عدد سفن المسلمين في خليج نوارين في أوائل سبتمبر سنة ١٨٢٧ نحو مائة وتسع وعشرين على أهبة الاستعداد للانقضاض على إذرا وسبتس وهما آخر أمل بقي لليونان . وفي هذه اللحظة الحاسمة تقررّت المعاونة الأوروبية التي طال انتظار اليونان لها : ذلك أنه على الرغم من تزايد أصدقاء اليونان في كل مدينة من مدن أوروبا وفي بعض أنحاء أمريكا ، وعلى الرغم من الحملات الشديدة التي وجهتها جمعياتهم الى الحكومات المختلفة بقصد دفعها لمساعدة اليونان ، بقيت هذه الحكومات تؤثر الحياد كما ظهر

وكانت اليونان في هذه القوضى تنقسم الى ثلاثة أحزاب على أسس محلية فكانت
الحزب من حزب انجلترا، والمورة في جانب روسيا، والروملى يؤثر فرنسا . وقد صفى
كندو ريو تس وكولوكترو نيس ما بينهما من عدااء وكونا حكومة ثانية برياسة سيسينى
(Sissini) فصارت البلاد مهددة بحرب أهلية لولا توسط رجال من الإنجليز أمثال
لورد كوكرين (Lord Cochrane) وسير رتشارد تشرش (Sir Richard Church)
وكابتن هاملتون (Hamilton) في إدماج الحكومتين . وانتخب تشرش قائدا أعلى للقوات
البرية كما انتخب كوكرين أميرالا أعلى للأسطول وهو القوة الوحيدة من قوى الثورة
التي ما زال بها رمق . وبذلك اتضح أن التدخل الأوروبي وحده هو الذى ينقذ
اليونان من الخضوع للسلطان .

وبعد سقوط مسولنجى في ٢٢ من أبريل سنة ١٨٢٦ عاد ابراهيم الى المورة
وسار رشيد في شرق اليونان وظهر أمام أثينا في يوليو سنة ١٨٢٦ واستولى عليها .
وكان مسلك رشيد في هذا اليوم مما أكسبه شرفا أزيلا فقد أظهر أنه أرق من سير
رتشارد تشرش في السياسة بقدر ما هو أرق منه في الميدان : إذ اتخذ كل احتياط
يوحى به الحزم لمنع الترك من تدنيس سمعة المسلمين بأى عمل من أعمال الانتقام
كما حدث من اليونان في مواطن كثيرة : فكان الباشا يتفقد المكان بنفسه على
رأس فريق قوى من الفرسان ليتأكد من أن جنوده الذين يرافقون اليونان الى حيث
يركبون البحر يؤدون واجبهم كاملا . وبسقوط أثينا تم إخضاع الجزء القارى من
بلاد اليونان وكتب رشيد الى السلطان بذلك وجدد بعض زعماء الروملى خضوعهم
وانتقل الآخرون الى المورة . وعكف رشيد على توطيد سلطة الحكومة في الناحية
الإدارية .

أما في المورة فلم يوجد جيش يقاوم ابراهيم فخضعت له كلها ماعدا مدينة نافيليو
ونطوق بعض الزعماء في خدمة القائد المصرى . ولم يعد أحد يسأل غير السؤال
الآتى : هل يجد المسلمون من الوقت ما يكفى لإقرار الأمن قبل أن تقزّر الدول
القائمة بالوساطة استعمال القوة ؟

في إجراءات إكراهية قدر الطاقة دون إعلان حرب ، وإما إهمال الوساطة كلية ، والقضاء على كوكرين وشركائه .

وفي أول سبتمبر سنة ١٨٢٧ أصدر إلى السير ادوارد كدرنجتن " أن منع المؤن^(١) ينفذ آخر الأمر بقتابل المدافع عند الضرورة وبعد استنفاد جميع الوسائل الأخرى " . وقد كتب ستراتفورد كاننج في ذكرياته بعد ذلك : " لو أني تسلمت أقل إشارة عن حدة طبع السير ادوارد وجرأته لتجنبتي التعبير (بقتابل المدافع) " .

على أن تعليمات ستراتفورد كاننج حتى في الصيغة التي بلغت إلى كدرنجتن كانت خاصة بوقف المؤن . ومن ثم كان من الخطأ أن يحتج بها كدرنجتن عن تصرفه بعد ذلك في موقعة نوارين . ولو لم يكن لدينا شيء غير شهادة كدرنجتن نفسه لكانت شهادته كافية لإثبات التهمة عليه : ذلك بأنه شعر أنه يجب عليه أن يعتذر لستراتفورد كاننج عن سوء تفسيره لتعليماته . ثم إنه حين اقترح الأميرال الفرنسي دي رني دخول الأساطيل إلى خليج نوارين كشف كدرنجتن عن شعوره بأن مثل هذا العمل لم تصدر به تعليمات : فيقول عن دي رني : " قد نهتني إلى ما عسى أن يكون من النتائج إذا لم توافق الحكومات على هذا الإجراء " فقال : " إنه استعرض كل النتائج وأنه مع ذلك على أتم استعداد " وفي ٤ سبتمبر أصدر السفراء تعليماتهم إلى أمراء البحر بأن يحاصروا الساحل اليوناني بأجمعه من خليج أرتا (Arta) إلى خليج فولوس (Volos) . وفي اليوم التالي بلغت معاهدة لندن إلى اليونان فتلقوها بأعظم مظاهر الابتهاج ووعدوا بمراعاة شروط الهدنة المطلوبة . أما إبراهيم فلم تبلغ إليه المعاهدة إلا بعد ذلك بسبعة عشر يوما . وقد جاء في المذكرة المرافقة للمعاهدة : أن الحلفاء — مدفوعين بعوامل الإنسانية — قد جمعوا قوات بحرية كبيرة بقصد منع كل مقاومة من جانب القواد الترك — تلك المقاومة التي قد تؤدي إلى القضاء عليهم وتسبب للسلطان ضررا كبيرا يمتد أثره زمنا طويلا . وقد تسلم أمراء البحر الأوروبيون أوامر بأن ذهابهم إلى أبعد حد أولى من التقيصير في بلوغ الهدف الذي ترمى إليه معاهدة لندن .

(١) المراد منعها عن العثمانيين والمصريين .

ذلك في مؤتمر ليباخ سنة ١٨٢١ وفي مؤتمر فيرونا في السنة التالية إذ تقرّر « ترك اليونان لحظهم » وعدم التدخل في جانبهم .

ولم يتغير موقفها عن ذلك كثيرا طيلة حكم اسكندر الأول قيصر روسيا بسبب محاولته الجمع بين مصالح روسيا ومقاومة الثورات حيثما كانت . فلما مات سنة ١٨٢٥ خلفه أخوه نقولا الثاني وكان معجبا ببطرس الأكبر وكثيرينا الثانية فشرع يعمل على إضعاف الدولة العثمانية تحت ستار مساعدة إخوانه في الدين — اليونان الأرثوذكس . وجزعت انجلترا لتجدد هذه السياسة الروسية القديمة وعمدت الى التخفيض من نفوذ روسيا بالاشتراك معها في العمل لصالح اليونانيين ، وذلك بإقناع السلطان بأن يمنحهم حكما ذاتيا . وتم الاتفاق على ذلك في مؤتمر بطرسبرج — لينينجراد الحالية — سنة ١٨٢٦ ثم انضمت اليهما فرنسا وعقدت الدول الثلاث معاهدة لندن في ٦ يولية سنة ١٨٢٧ . وأهم شروطها عقد هدنة بين المتحاربين وقيام حكم ذاتي باليونان بشرط دفع جزية سنوية للسلطان . وإذا رفض أحد الطرفين تنفيذ الهدنة فإن الدول الثلاث أن تحول دون تصادم الطرفين بدون أن تشترك في الأعمال العدائية . وخوّلت الدول الثلاث سفراءها بالقسطنطينية مفاوضة الباب العالي في تنفيذ شروط المعاهدة ، كما خوّلتهم إصدار التعليمات اللازمة لأمراء البحر المكلفين مراقبة تنفيذ الهدنة . وبهذا دخل أمراء البحر الأوروبيون الحلقة لحسم النزاع بالسيف والمدفع .

واقعة نوارين

بقي الباب العالي متمنا امتناعا كليا عن الإصغاء لأي اقتراح يؤدي الى توسط الدول الأوروبية بينه وبين رعاياه الثائرين . وهذا الامتناع أوج نار الغضب في نفوس السفراء . ومن هؤلاء سفير فرنسا مسيو ريبوير (Ribeauipper) وكانت مهمته السرية أن يخلق مشكلة مع تركيا ؛ ومنهم سفير انجلترا سترا تفورد كاننج (Stratford-Canning) وكان يقيم الإقامة في مدينة لم يكن يحبها يوما من الأيام ، بين أولئك الترك القطعاء في رأيه ؛ وكان الى جانب ذلك قد سُمّ ما يعلق بمهمته من التقلقل ، فكتب أكثر من مرة الى جورج كاننج رئيس الوزارة الإنجليزية أن يعمل شيئا : إما الأخذ

صالونا (Salona) . فلا عجب إذا أعلن إبراهيم في غضب : ” أن العثمانيين مكتوفوا الأيدي بينما اليونان أحرار في متابعة الأعمال العدوانية “ وأضاف إلى ذلك ” أنه ما دام اليونان لا يحترمون الهدنة التي قبلها هو على كره شديد منه ، فإنه لا يعدّ نفسه مقيدا بأى احتياط في جانبهم “ . وفي ذلك يقول المؤرخ الانجليزي فنلاى (Finlay) : ” تأبى علينا الصراحة أن نتجاهل أن إبراهيم وافق على وقف القتال وهو يعتقد أنه لن يسمح لليونان — أسوة بالترك — بأن يمضوا في الأعمال العدائية “ . ومن ثم كان إرسال جزء من أسطوله لمعاينة هاستنج ، وهو إذ ذاك في خليج كورنثوس ، عملا مبررا من كل وجه . وكذلك كان عمله في تموين بتراس التي كان كوكرين يسير قاصدا أخذها . وما أن علم كدرنجنج بخروج الأسطول المصرى ، حتى أقلع من جزيرة زنطة وأنذر السفن الإسلامية بإطلاق النار على أية سفينة تتقدم في اتجاه بتراس وكان من نتيجة ذلك أن عادت السفن الى نوارين في ٦ أكتوبر سنة ١٨٢٧ . ومن المتع تخيل النتيجة لو أن إبراهيم أصرّ على تموين بتراس في ذلك اليوم ، ونفذ الأدميرال الإنجليزي تهديده في حين لم يكن معه غير سبع سفن .

وبعد ذلك اجتمعت الأساطيل الثلاثة المتحالفة في مياه زنطة وبلغ عددها عشر سفن من خط القتال وتسع فرقاطات وثمانى سفن صغيرة . وهنا برز الى عالم الوجود ذلك التصميم الذى أدى الى معركة نوارين ؛ ومؤداه : ” أن أمراء البحر اقتنعوا — كما اقتنع كل رجل مفكر ما عدا أعضاء الهيئة الدبلوماسية — بأن العقدة التي عليهم حلها ان يفصل فيها إلا السيف “ وفي هذا المضمار أخذ دى رني القيادة وتبعه كدرنجنج وهيدن (Heiden) مختارين غير مكرهين .

ولا عجب فإن دى رني كان قد غير رأيه في المسألة اليونانية وشرع ينصح لرئيس الوزارة الفرنسية باستعمال القوة لوقف العدوان لاعتقاده ” أن هذا يعدّ لفرنسا موقفا نبيلًا جدا “ . وبهذا التحمس لإرضاء التلهف القومى لنيل المجد جرف رئيس الوزارة إلى وجهة نظره مؤقتا . ويؤيد رغبة دى رني في إنهاء المسألة

ووصل أمير البحر دى رني إلى نوارين في ٢٠ سبتمبر وقابل إبراهيم في صباح اليوم التالي، وحاول في هذه المقابلة أن يقنعه بالاستجابة لرغبات الحلفاء . وكان حديث الأدميرال الفرنسي بلهجة مستغزة يراد بها إثارة الروح العالية والرجولة اللذين كان يعرفهما عن إبراهيم ، حتى لقد سأله إبراهيم ”هل يلزم تسليم الحصون كذلك ؟“ فكان جواب دى رني ”هذه مسألة تقتّر فيها بعد أما اليوم فإننا إنما نريد هدنة تنقذ والدك وتراثه . فمكر في أنه مسرّ وقلق ومختلف عما كان عليه من قبل ، وفكر في أن مصر الغنية ستكون خيرا لك من المورة المخربة “ . وكان مما قاله إبراهيم : ”عندى كل ما يلزم لإخماد الثورة، ولتوقيع ضربة قاتلة على إذرا وهى الوكر الأخير للحرافات اليونانية“ فقال دى رني : ”أنه اتفق مع كدرنجتن على أن يمنعا بالقوة الأسطول التركى المصرى من السير فى أى اتجاه اللهم إلا اتجاه الدردنيل والإسكندرية“ . وتم التفاهم على ألا يقوم إبراهيم بعمليات جديدة إلا بعد أن يتسلم من الباب العالى أو من الوالى أمرا رسميا بذلك ، وأنه إلى صدور ذلك الأمر سيحتفظ بأسطوله فى نوارين .

وفى ٢٥ سبتمبر زار الأмирالان البريطانى والفرنسى القائد المصرى زيارة رسمية فى كثير من الأبهة . ويقول كدرنجتن : ”إن إبراهيم باشا تظاهر بأن له رغبة خاصة فى تنفيذ طلبنا، ولعله كان كذلك فى الواقع ونفس الأمر“ وعلى الرغم من هذا فإن دى رني لم يتألك أن يتحدث عن تبادل الرصاص والبارود . وإذن ، فإن إبراهيم كان مستعدا لوقف القتال ، أما اليونان فإنهم بدلا من تنفيذ الهدنة التى وافقوا عليها أحسوا بأنها — فيما يخصهم — مجرد عبارة رسمية ، وأنه لن ينالهم عقاب من قبل الدول التى توسطت فى إنقاذهم . وبهذا الاعتقاد أرسل الجنرال الفرنسى فابشير (Fabvier) إلى خيوس وعهد إلى بعض الزعماء بتحريك الثورة فى تساليا وحوصرت كريت ، بينما حاول تشرش وكوكرين التزول إلى اليونان الغربية . وأهم من هذا كله أن القائد هاستنجس (Hastings) وهو من أصدقاء اليونان أباد قوة عثمانية أمام

الرغم من ذلك فإنهم بالمادة الأخيرة أقنعوا أنفسهم بأن " مجرد وجود الأساطيل بأبقتها في نوارين يتولد عنه عزم يحقق الهدف المطلوب " .

والشيء الذى ما يزال بحاجة الى تفسير هو المنطق الذى سوغوا به أن وجود الأساطيل بصفة مؤقتة يحدث أثرا أكبر من وجودها بصفة مستديمة ؛ اللهم إلا إذا كان الوجود المؤقت يفسر على طريقة دى رني " بأنه يجب إدخال الأساطيل الثلاثة الى نوارين نفسها وإنذار الأساطيل العثمانية — ويدنا على المدفع — بأن تخرج ؛ وإلا هاجمناها على الفور " ومن ثم يتجلى أن بروتوكول أمراء البحر يبرهن بذاته على أنهم لم يكونوا يقصدون شيئا أقل من تحطيم الأسطول العثماني : ذلك بأن دى رني كان يعلم حق العلم بأن روح إبراهيم العالية ورجولته تحولان دون انسحابه من نوارين ؛ حتى ولو طلب إليه أمراء البحر — ويدهم على المدفع — أن يفعل ذلك ؛ اللهم إلا إذا صدر له أمر بهذا الانسحاب من السلطان أو من والده .

وفي ٢٠ أكتوبر انتهز كدرنجن هبوب رياح شرقية مناسبة ودخل الى الميناء . وقد وجد القائد المصرى محرم بك والقائد التركى طاهر باشا نفسيهما فى موقف حرج ؛ لأن رئيسهما الأعلى وهو ابراهيم باشا كان غائبا ، ولأنهما يعلمان جيدا أن محمود ومحمد على يكرهان الاشتباك مع أوروبا . وفى هذه الساعة المنحوسة الطالع سمحا لنفسيهما بأن تسيطر عليهما هذه الاعتبارات السياسية بدلا من أن يقوموا بواجبهما كقائدين . وبذلك عملا على نقيض ما اعترمه خصومهما إذ أن أمراء البحر الأوروبين كانوا قد قرروا التوضيحية بالدبلوماسية إشارا لما رأوه صوابا ومنتجا ، بينما القائدان المصرى والعثمانى قد عكسا الآية فضحيا بما يوحى به عقلاهما خوفا من اعتبارات سياسية بسبب فرط حرصهما على الإبقاء على حسن العلاقات مع أوروبا ، وبسبب إصرارهما على ألا يكون العدوان من جانبهما إن كان ولا بد من قطع هذه العلاقات .

عن طريق القتال ما يقصه عنه كدرنجتن من أنه ”لا يحب البحر ولا يستطيع أن يتخيل الحصار“ وأنه من أجل ذلك كان مستعدا للتدليل على ”أن استمرار الحصار طول الشتاء عمل شاق ، كثير النفقات ، ولعله عديم الجدوى : ذلك بأنه قد تهب عاصفة تشنت شمل الأساطيل الأوروبية ، فتتاح لإبراهيم فرصة نقل جيشه الى نواح متعددة من المورة والجزر“ ومن ثم كان يرى ”أن خير سياسة ما تتجزه المدافع“ . وبناء على ذلك قزر أمراء البحر أن أقصر الطرق وأضمنها لتنفيذ معاهدة لندن هي حرمان السلطان من وسائل الاستمرار في القتال .

وكتب دى ريني خطابا الى الضباط الفرنسيين في الأسطول المصرى يحذرهم ”أنه من الجائز نشوب معركة ، وأنهم إذا ضبطوا يقاتلون ضد علم دولتهم فإن النتائج بالنسبة لهم قد تكون خطيرة جدا ، وأنه لذلك ينصح لهم بالتخلي عن أعمالهم“ وكذلك فعلوا . وفي ١٧ من أكتوبر سنة ١٨٢٧ كتب أمراء البحر إلى إبراهيم يعنفونه — في غير استحياء ولا انجمل من — الكذب — بأنه أخل بتعهدده وأنه بذلك وضع نفسه خارج نطاق القانون الدولى .

ولما كان إبراهيم غائبا أعيد الخطاب دون أن يفض غلافه . وفي اليوم التالى وقع أمراء البحر بروتوكول المفاوضات الذى نفذ بعد يومين فى نوارين . ونصت المادة الأولى منه على استبعاد الحصار أثناء الشتاء ، وتحذرت الثانية عن جمع الأساطيل فى نوارين نفسها حتى تكون إقامتها الدائمة هنالك ضمانا لعدم تحرك الأسطول العثمانى .

ولو أن أمراء البحر كانوا حقا يقصدون مجرد مظاهره — كما كانوا يجاهرون — لكانت هذه المادة وافية بغرضهم . لكنهم أوضخوا أنهم بيتوا النية على تحطيم الأسطول العثمانى حين استرسلوا فى القول ”بأن هذا الوضع وحده لا يؤدى الى الغاية ، لأن الباب العالى يصر على عدم تغيير خطته“ . ومعنى هذا أن وجود الأساطيل الأوروبية بصفة مستديمة فى نوارين لا يكفى لتحقيق أغراضهم . وعلى

الأولى التي ألقتها دار تموت“ . ولتأكيد المؤكد أطلق دى رني على الأسطول المصرى كل مدفع على سفينته يواجه ذلك الأسطول ؛ فلم يكن من قبيل المصادفة أن أول قذيفة مصرية وقعت على السفينة لاسيرين (La Sirène) التي كان الأميرال الفرنسى على ظهرها . وهذان الحادثان كانا بمثابة إشارة الاشتباك العام ، وهو اشتباك لا يترك مجالا للنائورة ولا للفن البحرى بحكم ضيق الخليج فلم تكن هناك حاجة لغير الضرب الشديد . ويقول دى رني فى وصفه : ” فى وسط هذا التنور كانت ترى سفن بأكملها مشتعلة ، وأخرى تقفز فى الهواء بانفجار مروع . ولما غطيت الميناء بالحطام بدت فى صورة بحيرة من تلك البحيرات الجهنمية التى يعوم فيها الكفار بين أمواج من النار والقار الملتهب“ . وكتب كدرنجتن الى زوجته فى اليوم نفسه : ” إيه يا عزيزتى ، لقد حارب الترك والحق أنهم أجادوا الحرب ، وقد أعدمنا أسطولهم ، وكلفنا ذلك ثمنا غاليا“ .

ولم يكن أحد يشك فى النتيجة إذ الواقع أن تفوق الأساطيل الغربية تفوقا لاشك فيه هو الذى شجع أمراء البحر على المخاطرة بهذه الخطوة : ذلك بأن الوحدات المقاتلة إنما هى سفن خط القتال . وكان نصيب العثمانيين من هذه الوحدات أقل من ثلث نصيب خصومهم من حيث العدد . وفضلا عن هذا فانهم كانوا مقيدى بنطاق ضيق . وزاد الحال سوءا أن السفن الصغيرة والنقلات الكثيرة لما حطمها الأعداء — ولم يكن ذلك عملا شاقا — صارت خطرا على أصحابها وعائقا لهم . فما جاءت الساعة الخامسة حتى كان الأسطول العثمانى لا وجود له باعتبار كونه قوة بحرية .

هكذا حدثت موقعة نوارين تلك الموقعة التى قيل عنها بحق إنها دقت ناقوس الاستقلال اليونانى ؛ فان دم بحارة الحلفاء وقد اختلط فى خليج نوارين ربط بعضهم ببعض على الرغم من تباین مصالحهم . ولا ننسى أن زعماء جيش ما أو أسطول ما لا يناط بهم تفسير نص معاهدة ما ، ومط موادها مطا كثيرا بحيث تناقض معانيها الحرفية ، كما لا يجوز لهم أن يقيموا أنفسهم قضاة يفصلون فى أمور السلم والحرب .

وهذه الاعتبارات بذاتها هي التي حدث محرم بك على اقتراف خطأ كان ينبغي أن يحاكم من أجله أمام مجلس عسكري : ذلك لأن مكانه كان عند مدخل الخليج ، ولأنه كان يدرك موقف التحدى الذى يقفه خصومه ؛ فكان ينبغي عليه أن يعترض دخولهم ، فإذا هم أبوا الرجوع ، هاجهم وهم يدخلون فرادى ، بسفنه وبطارياته المنصوبة على البر .

وبما أن ابراهيم لم يكن يسمح البتة لعدوه بأن يختار نقطة الهجوم ، فمن الجائز أنه لو كان حاضرا لنفذ هذه الخطة . واذن ، لحاز أن تكون نتيجة المعركة مخالفة لما حدث . وها هو كدرنجتن نفسه يقول : ” لو أن محرم بك عجل قليلا بضرب النار لواجهنا صعوبة كبيرة “ . لكنه بدلا من الوقوف موقف الرجولة انخدع بوعد الأميرال البريطانى بأنه لن يطلق النار حتى يبدأ محرم بك ، ومن ثم احتفظ بحياده .

وبعد أن استغل الأميرال البريطانى حياد الأميرال المصرى المخدوع استغلالات كاملا ، انقلب عليه دون أن يشعر بونحر الضمير ؛ وهاجمه فى الوقت الذى كان فيه قبطان مصرى يتحدث الى ياور الأميرال البريطانى .

وبينا العثمانيون يتلفتون يمنة ويسرة لا يدرون ما يعملون كانت الأساطيل الأوروبية تأخذ أماكنها فى فسحة من الوقت : ففى منتصف الساعة الثانية دخلت السفن البريطانية حتى صارت فى وسط الهلال بالضبط فى مواجهة سفيتى أميرى البحر التركى والمصرى ، ودخلت السفن الفرنسية فأخذت مكانها عن يمين كدرنجتن فى مواجهة الفرقاطات المصرية ؛ وذلك بقصد التأكد من تحلى الضباط الفرنسيين . وأما الأسطول الروسى فوقف عن يسار زميله البريطانى .

وقد ثار الجدل حول الجانب الذى أطلق القذيفة الأولى ويقول ابراهيم : ” إن كلا الفريقين يتبرأ منها ؛ والثابت أن الفرقاطة البريطانية ”دار تموت“ بدأت أولا وبدون مبرر تستولى على حراقتنا فكان الدفاع المشروع من جانبنا سبب القذيفة

المتحضرّة أن تعترف لك بمجملته مضاعفاً“. ولم يكن وزيره أقلّ منه سرورا وعبر عن ذلك بقوله : ” إن أمراء البحر يستحقون أن يكونوا رؤساء وزارات يدبرون السياسة “.

أما إبراهيم باشا فلم تخفض موقعة نوارين البحرية من شجاعته مثقال ذرة ، فبقى ثابتاً كما كان من قبل ؛ بل لعل تحطيم الأسطول جاء منتظداً له بإزاحة الضباب الدبلوماسي الكثيف الذي كان يحجب الطريق عن عينيه ؛ فأصبح بعد هذا الحادث يستطيع أن يؤدّي واجبه للدولة العثمانية من غير أن تعوقه عن ذلك اعتبارات السياسة الدولية . ومن ثم شرع يعمل على الفور لقضاء الشتاء في المورة . واتضح له بعد الحساب الدقيق أن ما عنده من المؤن ، مضافاً إليه ما يرغب تجار اليونان في بيعه له ، يكفيهِ الى أن يظهر المحصول الجديد . ولبلوغ هذه الغاية أرسل الى مصر كل من يعوق وجودهم تنفيذ الخطة وهم ٢٤,٠٠٠ شخص حملهم على ما بقي من سفنه وهي قوّة أكبر مما قدر الجمهور المصري إذ كان فيها ٢٦ سفينة حربية و ٢١ نقالة .

ومهما يكن من أمر فإن أخبار نوارين لم تحدث في مصر حقاً يذكر ، بل أظهرت الى في هذه المحنة تجللاً وسموّ نفس عظيمين فكان في أثناء قراءة التقرير الطويل الذي بعث به اليه ابنه يتوقف ويقول في صوت مسموع ” لقد أخبرتهم بهذه النتائج “ . ولا غرو فإن الخبر لم ينجي مفاجئاً لمحمد على إذ كان قبل ذلك بأشهر مشغولاً بعمل الترتيب اللازم ” لإرجاع حملته سالمة “ . ولما أشار القنصل البريطاني باركر (Barker) من طرف خفي الى أن الترك هم الذين أطلقوا القنبلة الأولى قال محمد على : ” كلا كلا ! إن الموقعة كان لا بد أن تحدث “ وأصر على أننا نحن^(١) المعتدون ؛ وأكد أن تحطيم الأسطول بأجمعه لا يؤثر في حال الأوربيين المقيمين في تركيا . واستهجن القول بأن السلطان سيأمر بذبح الأوربيين المقيمين ببلاده مؤكداً : ” أن مثل هذا المسلك

(١) يقصد الأوربيين عامة والبريطانيين خاصة .

ومن ثم وجد كدرنجت أن عمله هذا بحاجة الى التبرير فكتب الى الوزارة البريطانية يقول : ” إن أول أثر عظيم سيكون قبول السلطان للهدنة المقترحة حين يجد ، بعد فقد أسطوله ، أنه لم تعد له وسيلة للاستمرار في الحرب . وسيكون الأثر الثانى إقلاع الروس عن عزيمتهم على تسير جيوشهم نحو القسطنطينية ذلك العزم الذى أخطر بالقول بأنه الآن موضع التنفيذ“ . على أن هذا التبرير لم يحل دون تجريده من القيادة .

وإذن فإن التدخل بالقوة بين تركيا واليونان كان من أوله الى آخره من اقتراح القيصر نقولا الأول ومن خوف إنجلترا من ازدياد النفوذ الروسى في تركيا ، وكانت موقعة نوارين النتيجة المباشرة لمعاهدة ٦ يولييه سنة ١٨٢٧ كما توقعها نقولا ومترنخ ومحمد على . وإنما وافقت عليها فرنسا لأن حكومة شارل العاشر كانت في مسيس الحاجة الى شىء من المجد ينسى الشعب إدارتها المستبدة المحدودة النظر ، وبخاصة لأن الشعب كان قد سئم جمودها وكان يرى في هذا الجمود مضیعة لحسن الصيت وهو لدى الفرنسيين غذاء شهى .

وما أن وصلت أخبار المعركة إلى الحكومات الثلاث وشعوبها حتى تجلبى شعور هذه وتلك : ففى لندن كان الرأى العام منقسما فالهويج قابلوها بالابتهاج بينما أحس التورى — ومعهم الحكومة — بأنها على أحسن الفروض « حادث مشؤوم » . وفى باريس أعلن ” أن الشعب هو الذى كسب المعركة ، وأنها مبدأ انتصار الرأى العام “ ؛ وسر شارل العاشر بما لاحظته من حب الشعب لوزرائه كأثر حسن من آثار المعركة ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يمتدحها دون تحفظ . أما فى بطرسبرج فإن الفرح كان غير مشوب ، وظن حزب الحرب أن نوارين تؤدى إلى حرب مع الترك طالما رغبوا فيها . وكان نقولا الملك الوحيد الذى ابتهج بها فحلى صدور أمراء البحر الثلاثة بالأوسمة ، وهنا كدرنجت ” على النصر الذى ينبغى على أوروبا

الفرنسى فى هذه المناسبة نهاية التعظيم والمجاملة لابراهيم باشا: ومن ذلك أن الجنرال « ميزون » أمر بإجراء عرض حاشد إكراما له ودعاه فى اليوم التالى إلى طعام العشاء . وتتابع حفلات التكريم والولائم للقائد المصرى إلى أن جلا عن المورة فى أكتوبر سنة ١٨٢٨ ؛ وعاد البطل المفدى إلى وطنه . وما أن وقع بصره على والده بين رجال دولته حتى انكب يقبل أطراف الأريكة التى كان محمد على جالسا عليها . فكان هذا اللقاء من أسعد اللحظات فى حياة ذلك المصاح الفذ .

وبعد ، فإن الحملة المصرية إلى بلاد اليونان كانت — على الرغم من الظروف السيئة التى أحاطت بها — مليئة بالأعمال المحيذة التى سجلت لإبراهيم ومحمد على ومصر فخرا أبديا : فقد كان عامة الأوروبيين لا يعرفون هذه الأسماء الثلاثة إلا مقرونة بالتوحش والجهل والتأخر . بجاءت الحملة من أولها إلى آخرها عرضا شائقا لبطولة ابراهيم وعظمة محمد على ونهوض مصر : فإن الأسطول المصرى ما كاد يتصل بالأسطول العثمانى فى بحر الأرخبيل سنة ١٨٢٤ حتى أعجب الناس بحسن سفينه وسرعة سيره وبراعة مناوراته وقرنوا ذلك بارتباك الأساطيل العثمانية وبطء حركتها ، مما مكن اليونان من تحطيم ثلاثة منها ، واضطرار خسرو باشا إلى الفرار أمامهم إلى الدردنيل حتى لم يجد السلطان بدا من أن يترك لمحمد على التصرف فى الأسطولين العثمانى والمصرى ، وبينما كان ابراهيم فى مياه جزيرة ساموس ، أطلقت عليه إحدى السفن اليونانية رصاصها فبقى فى مكان الرابا ينظر باسم الثغر إلى الرصاص وهو يقع حوالى قدميه . ولم يمض كثير على نزوله بالمورة حتى كان صوت نفير جيشه يملأ قلوب اليونانيين فزعا ويفترق جموعهم فى أنحاء شتى . وذلك بعد أن مزقوا أربعة جيوش تركية ، منها جيش من خمسين ألف مقاتل كانت قيادته إلى خورشيد باشا الذى كان يوما من الدهر ينازع محمد على ولاية مصر .

وما أن استولى إبراهيم باشا على المورة حتى أقر بفضل خصمه فى المستقبل محمد رشيد باشا فكتب إليه : ” لقد أفنيت هذا الجنس المفقوت جنس المورالية —

يخالف مبادئ الدين الإسلامى على خط مستقيم ، وأن السلطان لو ارتكب مثل هذا العمل فإنه لا يعدّه مسلماً ، بل يعتبره كافراً “ .

وتحقق ما تنبأ به محمد على من أن السلطان ان يفكر فى مذبحة عامة ، بل على العكس بقى هادئاً وطلب تعويضا واعتذارا وألح على السفراء بالبقاء فى عاصمته ، إلا أنهم حين رأوا أن الباب العالى ما يزال مصرا على موقفه غادروا القسطنطينية بغير جوازات سفر .

ولما أحس السلطان بأن الحرب آتية لاريب فيها عرض على محمد على أن يمنحه ولايات سوريا الثلاث ثمنا لمساهمته فى حالة نشوب حرب مع الفرنج . ومع أن الوالى لم يكن يخطر بباله يومذاك أن يفكر فى الاستقلال فإنه اقتنع اقتناعا تاما بأنه قد أدى واجبه نحو السلطان ، وضخى فى هذه السبيل بأسطوله وجزء من جيشه وأنفق فى ذلك أموالا طائلة ؛ وأدرك بشاقب فكره أن المضى فى معاونته للسلطان لم يعد من المستطاع أن يؤدى إلى إخضاع اليونان ، ولا أن ينجى الدولة العثمانية من الإذعان لأمر أوروبا . وعلى أساس هذا التفكير السليم استقرّ عزيمه على استنقاذ مصر من شرك السياسة الأوروبية وتجنيدنها التورط فى خطة العناد التى اندفع فيها محمود الثانى على غير بصيرة بعاقبة الأمور .

ومن ثم شرع يترقب أنسب الظروف وأشرف الوسائل التى تمكن لابنه وجيشه وبقية أسطوله من العودة إلى مصر . وحانت له الفرصة حين قرّرت إنجلترا وفرنسا والروسيا فى يوليه سنة ١٨٢٨ إبعاد إبراهيم عن المورة وتكليف فرنسا تنفيذ هذا القرار ، فعمد إلى الاتفاق مع الأدميرال كدرنجتن فى أغسطس من تلك السنة على إخلاء المورة وأصدر أمره إلى ابنه بالعودة إلى بلاده .

وبينا إبراهيم يعدّ العدة لتنفيذ أمر والده إذا بجيش فرنسى قوامه ١٥.٠٠٠ جندى يتزل بالمورة بقيادة الجنرال ميزون « Maison » بعد أن أصبح الموقف فى غنى عن تجريد الجيوش ، ولم يبق إلا أن يتآخى القائدان والجيشان . وأبدى زعماء الجيش

اليونانيين في خدمته ويتجاوز ذلك الى استخدام بعض مهاجرينهم ولا يتعترض بسوء للتجار منهم حتى فضل كثير من أسراهم البقاء في مصر على العودة الى وطنهم . ولم يقف إبراهيم في رفقه عند هذا الحد بل تخطاه الى درجة تجنل كثيرا من متحضرى أوربا في عصرنا الحالى ، إذ كان يعنى بالمرضى والجرحى من أعدائه عناية فائقة ويكلف طبيبه الخاص علاج بعضهم . وبلغ من ذلك أنه أحى تقاليد صلاح الدين الأيوبي حين شكت إليه عجوز يونانية فقيرة أن ضابطا مصريا أسر ابنها الوحيد فأعطاه إبراهيم من المال ما يكفى لاقتداء ابنها وردّ حريته إليه .

وتأصل تقدير البطولة في قلب إبراهيم حتى كان يكبرها في أعدائه : جاءه وهو يحاصر مسئولنجى ضابطان يونانيان ومعهما قسيس يرجونه السماح لهم بمغادرة المدينة بحجة وثوقهم من قرب سقوطها فكان جوابه : ” عودوا بسلاحكم الى مراكزكم لتخبروا مواطنكم بأنى أحترم من يحمون ذمارهم الى النهاية “ . ومن هذا القبيل أنه بصر يوما ببعض جنوده يطلقون الرصاص ، في غير معركة ، على ألد خصومه « كولوكترونيس » فزجرهم وناداه : ” سلم نفسك أيها القائد “ . فكان جواب « كولوكترونيس » أن أطلق الرصاص يريد قتل إبراهيم ، ولكنه أخطأ الهدف فأصاب أحد أتباعه .

ولا غرو بعد هذا أن يشهد له جميع من اتصلوا به من الأوربيين بالشجاعة التي لا يرقى إليها ضرب من ضروب الخوف ، أقزوا له بالعسكرية الحربية وسعة العلم بالسياسة الأوربية ، إلى جانب التفكير العميق والتدبير الحصيف ، والرفق بالخصم المغلوب والعطف على المحتاجين من أعدائه وأسراهم ومساواتهم في توزيع المؤن بجنوده ؛ فكان بذلك مثالا حيا لمحمد على الكبير وعنوانا لما نالته مصر على يديه من النهوض من كبوتها والخروج من ظلمات الفوضى والارتباك إلى نور الاطمئنان والنظام .

وهكذا كانت الحملة اليونانية وسيلة لتعريف أهل أوربا بما بلغتته مصر يومذاك من رقى مادي ومعنوي وتنبيه أذهانهم الى ما يرجى لها من مستقبل باهر .

سكان المورة — فسارع بالحضور لتنكل بأولئك الصيادين سكان مدينة مسولونجي ، فانهم أصبحوا من الشياطين بما هم مكبون عليه من عمل السحر . ومن آيات سحرهم أنى أقمت أمامهم جبلا يتجاوز علوه ارتفاع أسوارهم فدمروه تدميرا بسحر رجل عندهم اسمه « كوكينس » . ويشغل هؤلاء الكفار كل يوم بترميم أنبيتهم كلما سقطت جدرانها ، ويجرون على شتى من أعلى الأبراج . فهل يرضيك أن تركنى هكذا هزأة لهؤلاء الملاعين ولعبة في أيديهم ؟ إن امتلاك بلاد اليونان كلها يتوقف على أخذ أسوار مسولونجي ، فهلم إليها من غير تأخير .

وأهم من هذا في تقدير ابراهيم باشا أن السلطان كان قد كتب اليه خطابا بخط يده يوليه المورة ، ومعه كتاب آخر يطلب اليه فيه المسير الى مسولونجي إذا استنجد به رشيد .

ومن مواقف البطولة التي وقفها ابراهيم أنه حين بلغت اليه معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ كان جوابه لأمرء البحر الأوربيين : ” ليس لى أن أعمل إلا بأمر الوالى أو السلطان ، ومهما يكن الخطر الذى أصبحت به مهتدا فلن أحيى عن الخطة التى رسمت لى قيد شعرة “ . وبقي ابراهيم على هذا التصميم فى أقصى الظروف وأشدّها هولاً الى أن تسلم من والده أمرا بإخلاء المورة .

ولم تكن الشجاعة وثبات الجنان كل ما عرفه الأوربيون من فضائل ابراهيم بل لقد أدركوا منه جانبا آخر ما كانوا يتوقعونه من أهل الشرق فى ذلك العصر ، ذلك هو الجانب الإنسانى ، الذى تجلّى فى مناسبات تفوق الحصر ، نكتفى بذكر بعضها على سبيل المثال ، منها أن أسقف مودون الذى حرّض مواطنيه سنة ١٨٢١ على ذبح جميع مسلمى نوارين بعد أن استسلموا إليهم وقع سنة ١٨٢٥ أسيرا فى يد ابراهيم فاكتفى بإبقائه فى الأسر حقيرا مهينا وأبى أن يأمر بقتله . ولم يكن هذا الحادث فريدا فى بابه ، بل كان ابراهيم يعامل اليونانيين عامة بالرفق والإحسان ، و يترفع عن سفك الدماء خارج ميادين القتال ، مقتديا فى ذلك بوالده العظيم فإن محمد على كان فى أثناء حرب اليونان وبعدها يستبق الموظفين

Kalamata	کالاماتا
Kanaris	کاناریس
Karaïskaki	کارایسکا کس
Casos	کاسوس
Kleidi	کلیذی
Klepht	کلفت
Krioneri	کریونیری
Kromidi	کرومیدی
Kitsos Djavellas	کتسوس دزاقیلاس
Larissa	لاریسا
Maina	مینا
Maniaki	مانیاکی
Makrijanis	ماکریانیس
Makriplaye	ماکریپلای
Makris	ماکریس
Makrynoros	ماکرینوروس
Mavrocordatos	ماثروکورداتس
Movromichalis	ماثرومیخالیس
Miaouli	میاؤلیس
Missolonghi	مسولنجی
Modon	مودون
Nauplia	نافیلیو
Navarin	نافارینون

فهرس بأهم الأسماء والألفاظ اليونانية الواردة في هذا الفصل
ورسمها بالحروف العربية كما ينطق بها اليونان

Adamantios Koraïs	أذمندىوس كورائىس
Anatoliko	أناطوليكو ومن معانيها الشرق
Argos	أرغوس
Armatole	أرماطول ومعناها حامل السلاح
Arta	أرتا
Botzares	بوتسارىس
Capodistrias	كابوذسترياس
Condurotti	كندورىوتس
Corinth	كورنثوس
Daria	ذاريا
Demogerontes	ديموجيرنتس ومعناها شيوخ البلدية
Dervend	درفند
Dikaïos	ديكيوس
Gastouni	غستونى
George Mavromichalis	غيورغيوس مافروميخاليس
Germanos	غرمانوس
Hellas	إلاس
Hetairia Philiké	إتيريا فيلىكى ومعناها "شركة الاحباء"
Hospodar	هوسبودار ومعناها حاكم البغدان أو الافلاق
Hydra	إذرا
Hypsilanti	إپسيلندس

Vervena	ڦرڦنا
Volo	ڦولوس
Zaimis	زايميس
Zerekovia	تسيراوڪوڦيا
Zygos	زڦفوس

Olympus	اولیمپوس
Pallicar	بالیکار ومعناها بطل
Pappadiamandopoulos	پاپادیامندوبولوس
Pappa Phlessas	پاپافلیساس
Peta	پیتا
Philhellenes	فیلهیلینس ومعناها أصدقاء اليونان
Piana	پیاننا
Pindus	پندوس
Proestes	بروستس ومعناها رجال بارزون
Psara	پسارا
Pyrgos	برغوس
Rhegas	ریغاس
Sachtouris	سختوریس
Skourtis	سکورٹس
Souli	سولی
Spezzia	سپتس
Sphacteria	سفکتریا
Theodore Koloktrones	تیودوروس کولوکوترونیس
Thucydides	توکیدیدس
Tombazes	تومبازیس
Tricoupi	تریکوپس
Tsamados	تسامادوس
Vasiladi	فاسیلادی

جهود ابراهيم باشا في خدمة الزراعة والصناعة والتجارة

للدكتور أحمد أحمد الحتة

اشتهر ابراهيم باشا ببطولته وكفايته الحربية في ميادين القتال ببلاد العرب والسودان واليونان والشام والأناضول ، فذاع صيته في الشرق والغرب حتى أن شهرته الحربية حجت لدرجة ما النواحي الأخرى من مواهبه ، فلم يعرفه بعض الناس إلا قائدا ماهرا وبطلا فذا ، قاد الجيش المصرى في ميادين النصر .

حقيقة كان ابراهيم باشا قائدا مظفرا ، امتاز بالشجاعة وحب النظام ، ولكن عظمته لم تقتصر على الناحية الحربية فقط ، إذ تجلت جهوده الاقتصادية في مصر والشام وبلاد العرب ، وظهرت كفايته الإدارية في حكم الشام ، وفي المهام الإدارية التي تولاه في مصر ^(١) .

(١) في سنة ١٨٠٧ عين ابراهيم دفتردارا أى مفتشا عاما للحسابات فأدى عمله بمجدارة خليفة بالإعجاب ، وفي سنة ١٨٠٩ عين حاكما على الصعيد علاوة على منصبه الأول فنجح في إدارته ، وفي سنة ١٨٢٩ تألف مجلس المشورة برئاسة ابراهيم باشا للبحث في مسائل الإدارة والتعليم والأشغال العمومية والقضاء ، وفي نفس السنة كان ابراهيم باشا على رأس الادارة المدنية والعسكرية ، لايميل من التفتيش على أعمال تلك الادارة ، وقد اضطلع بقسط وافر من إصلاح الحالة الإدارية بمديرية الشرقية مما جعل والده يصرح بأن ابراهيم قد حمل عنه عبئا ثقيلا ، وفي يناير سنة ١٨٤٧ تألف المجلس الخصوصى برئاسة ابراهيم باشا للنظر في شؤون الحكومة الكبرى وسنّ اللوائح والقوانين وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة ، وفي ابريل سنة ١٨٤٨ تولى ابراهيم باشا حكم مصر ، واستمرّ واليا حتى وفاته في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨
Cattaui: Le Règne de Mohamed Ali, T. I, p. 355. — Crabitès
Ibrahim of Egypt , pp. 5 - 7, 122 - 123.

عبد الرحمن الزافنى : تاريخ الحركة القومية (الطبعة الأولى) ج ٣ ص ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ،

تزداد موارده المالية و يتمكن من تنفيذ إصلاحاته وتقوية نفوذه وبسط سلطته ومحاربة أعدائه^(١).

ساهم ابراهيم باشا في ذلك الانقلاب باستيلائه في سنة ١٨١٢ — بناء على أمر والده — على معظم أراضي الالتزام في الصعيد ، وبخاصة حصص الالتزام التي كانت في حوزة المماليك والتي استولوا على بعضها بعد نزوحهم الى الصعيد ، وبذلك لم يبق من أراضي الالتزام بالوجه القبلي إلا التزر اليسير^(٢).

وفي نفس السنة أمر محمد علي ابنه ابراهيم بالاستيلاء على أطيان الرزق المرصدة على المساجد والخيرات بالصعيد فنفذ الأمر ومسح الأراضي ، ولم تنه السنة التالية إلا وكان ابراهيم قد أخذ للحكومة معظم أطيان الرزق بالصعيد المرصدة على المساجد وعلى الأهالي والخيرات وعلى البر والصدقة^(٣).

كذلك استولى ابراهيم باشا على ما في الصعيد من الأطيان الأميرية المعروفة باسم اطلاق ، والتي كانت معدة لتكوين خيل البكوات المماليك بالعلف ، وذلك بعد القضاء على سلطة المماليك في سنة ١٨١١^(٤).

(١) الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٤ ص ١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٨)
نظام الالتزام هو أن يلتزم شخص ما للحكومة بدفع ضرائب الأطيان على أن يترك أرض الفلاحة للفلاحين يزرعونها نظير دفع الضرائب عنها له ويستولى على أرض الوسية يستغلها لحسابه الخاص .
أطيان الرزق بعضها ملك ينتقل بالميراث ويتصرف فيه أصحابه كيفما شاءوا وأكثرها أوقاف أهلية وأوقاف على مكة والمدينة وعلى المساجد والأضرحة ، وعلى أعمال البر والصدقة والإحسان من مستشفيات وأربطة (نكايًا) وسبل لسقي الناس وأحواض لسقي الدواب ومقارئ لثلاوة القرآن وبعض طلبة العلم والفقراء .

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ١٦٤ (حوادث سنة ١٢٢٧) Reybaud et autres: Histoire
de l'Expédition Française. Vol. 9. p. 407.

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ١٦٤ و ١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٧ وسنة ١٢٢٨) .

(٤) الجبرتي ج ٤ ص ١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٨) Estève: Mémoire sur les
Finances de l'Egypte. (Description de l'Egypte, T. 12. p. 51) —
Reybaud et autres: Op. cit. Vol. 9. p. 407.

وجهود ابراهيم باشا الاقتصادية في مصر معظمها في الزراعة ، فقد كان شديد العناية بها شعاره فيها كلمة مأثورة عن مراد بك زعيم المماليك وهى : ” إذا طلبت الذهب في مصر فانبش أرضها^(١) “ ويقتر هامون أن ” ابراهيم باشا ينكب على الاقتصاد الزراعى ، ويعكف عليه بسرور ، ويمكن القول قطعا بأنه يحب الزراعة “ ولا غرابة في ذلك ، فقد لمس ابراهيم باشا بنفسه — وهو لا يزال في مقتبل العمر — أهمية الزراعة المصرية في الحياة الاقتصادية عندما كان «دفتردارا» ثم حاكما على الصعيد .

وقد اهتم ابراهيم باشا بعوامل الإنتاج الزراعى : وهى الأرض والعمل ورأس المال ، والمقصود بالأرض تلك العناصر التى يقدمها لنا الوسط الذى نعيش فيه من أرض وماء وهواء وضوء وحرارة ، ويقصد بالعمل كل مجهود اقتصادى للانسان سواء كان باليد أو العقل ، أما رأس المال فهو كل ثروة سابقة ما عدا الأرض يعتمد عليها الانسان فى إنتاج ثروة أخرى .

ففى العامل الأول ساهم ابراهيم باشا فى الانقلاب الذى أحدثه والده فى حياة الأراضى الزراعية ، إذ قام بتنفيذه فى الصعيد ، وذلك أن محمد على أخذ فى تغيير نظام الحياة حتى أصبحت الأراضى الزراعية فى يده ، واستطاع بذلك تنفيذ نظامه الاقتصادى ، ولا شك فى أن رغبته فى زيادة موارده المالية وفى بسط نفوذ الحكومة كانت من أهم أسباب ذلك الانقلاب إذ كان فى احتياج دائم الى المال منذ توليته ، فلما وجد أن نظام الالتزام حجر عثرة فى طريقه ، وأن أراضى الرزق معفاة من الضرائب صمم على فك الالتزام ووضع يده على الرزق حتى

(١) ادوار جوان : مصر فى القرن التاسع عشر (ترجمة) ص ٧٩٠

(٢) Hamont: L'Egypte sous Méhémet Ali (Paris, 1843), T. I, p.186

الانقلاب فبعد أن كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد صاروا يواجهونهم بقولهم :
” أتم إيش بقالكم في البلاد قد انقضت أيامكم إحنا صرنا فلاحين ^(١) الباشا “ .

هذا هو موقف الفلاحين الذين لم يقوموا بأية حركة ضد الانقلاب بل
تقبلوه بقبول حسن نظرا لخروجهم من حالة الذل والظلم فقد ” كانوا مع الملتزمين
أذل من العبيد المشتري فربما أن العبد يهرب من سيده إذا كلفه فوق طاقته
أو أهانه بالضرب وأما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به أن يترك وطنه وأولاده
وعياله ويهرب وإذا هرب إلى بلدة أخرى واستعلم أستاذاه مكانه أحضره قهرا
وازداد ذلا ومقتا وإهانة وكان من طرائفهم أنه إذا آن وقت الحصاد والتخضير
طلب الملتزم أو قائم مقامه الفلاحين فينادى عليهم الغفير أمس اليوم المطلوبين
في صبحه بالتبكير إلى شغل الملتزم فمن تخلف لعذر أحضره الغفير أو المشد وسحبته
من شنبه وأشبعه سببا وشتا وضربا وهو المسمى عندهم بالعونة والسخرة واعتادوا
على ذلك بل يرونه من اللازم الواجب وهذا خلاف ما يلقونه من الإذلال والتحكم
من مشايخهم والشاهد والنصراني الصراف وهو العمدة والعهددة خصوصا عند
قبض المال فيغالطهم ويتناكرهم وهم له أطوع من أستاذهم وأمره نافذ فيهم
فيأمر قائم مقام بحبس من شاء أو ضربه محتجا عليهم ببواقي لا يدفعها وإذا غلق أحدهم
ما عليه من المال الذي وجب عليه في قائمة المصروف وطلب من المعلم ورده وهي
ورقة الغلاق وعده لوقت آخر حتى يجتزح حسابه فلا يقدر الفلاح على مرادته خوفا
منه فإذا سأله من بعد ذلك قال له بقي عليك حبتان من فدان أو خروبتان أو نحو
ذلك ولا يعطيه ورقة الغلاق حتى يستوفي منه قدر المال أو يصانعه بالهدية والرشوة
وغير ذلك أمور وأحكام خارجة عن إدراك البهيمة فضلا عن البشرية كالشكاوى
ونحوها وذلك كما إذا تشاجر أحدهم مع آخر على أمر جزئي بادر أحدهم بالحضور
إلى الملتزم وتمثل بين يديه قائلا أشكو اليك فلانا بمائة ريال مثلا فبمجرد قوله ذلك

(١) الجبري ج ٤ ص ٢٢١ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩) .

وفي سنة ١٨١٣ عين ابراهيم مأمورا لمساحة القطر المصرى وشرع المساحون في العمل بمباشرة محمود بك الدويدار والمعلم غالى وفي مايو سنة ١٨١٤ ظهرت نتيجة المساحة بعد صدور الأمر في فبراير من تلك السنة بفك الالتزام^(١) فكانت تلك المساحة ناسخة لنظام حيازة الأتبان الذى كان قائما في مصر من قبل ونهاية لذلك الانقلاب الذى قام به محمد على منذ سنة ١٨٠٨ .

وتبعاً لتلك المساحة التى كانت تحت إمرة ابراهيم أخذت الحكومة ما زاد في قياس أتبان الالتزام سواء كان من أرض الفلاحة أو أرض الوسية وأعطت الملتزمين إيرادا سنويا يعرف باسم الفايز يستمر طول حياتهم تعويضا لهم عن أخذ حصص التزامهم كما منحهم أتبان الوسية طول حياتهم إن شاءوا زرعوها وإن شاءوا أجروها وأعفت تلك الأتبان من الضرائب ومنحت أصحابها حق التنازل والهبة وصرحت لهم ببيعها للحكومة فقط^(٢) .

وبذلك تم استيلاء محمد على على أراضى الالتزام ولم يخرج عمله هذا عن الأشياء المشروعة حيث كانت ملكية الأرض للحاكم ولم يكن الملتزمون مالكيين الأرض بل وساطة بين الحكومة والفلاح لجمع الضرائب وكان رفع أيديهم عن التصرف مدعاة إلى تحصيل الضرائب على الوجه الأكمل وإخراجا للفلاح مما كان فيه من ظلم بعض الملتزمين الأقوياء وجشعهم ولقد شعر الفلاحون أنفسهم بهذا

(١) أمين سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٢٤٤ — الجبرتي ج ٤ ص ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٢٢ و ٢٢٥ (حوادث صفر و ربيع الأول و ربيع الثانى و جمادى الأولى و رجب سنة ١٢٢٩) .

(٢) دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ص ٢٥٣ (إفادة من الروزنامة الى مجلس الأحكام فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٠) — الجبرتي ج ٤ ص ٢٢٣ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩) .

من كانت تلك الأقطيان في حوزتهم وأخذ على عاتقه الإنفاق على المساجد والخيرات تنفيذاً لأغراض الوقف وأفاد الحكومة بفرض الأموال الأميرية على تلك الأقطيان وإدارتها من الوجهة الزراعية كبقية أراضي القطر وعلى هذا فإن محمد على لم يبلغ أقطيان الأوقاف بل أدخل عليها تعديلات تتفق مع نظامه الاقتصادى .

وتبعاً لمساحة ١٨١٣ وزعت أقطيان كل ناحية بين أهلها القادرين على الزراعة وفرضت عليها الضريبة على حسب جودتها وأعطى مشايخ البلاد جزءاً من الأراضي بنسبة خمسة أفدنة من كل مائة فدان معفى من الضرائب مقابل خدمتهم للحكومة وضيافة الواردين على القرية وعرفت تلك الأقطيان باسم مسموح المشايخ والمصاطب^(١) .

هكذا تم الانقلاب في حيازة الأقطيان ذلك الانقلاب الذى ساهم فيه إبراهيم باشا فنفذه في الصعيد حيث كان حاكماً وأشرف على مرحلته الأساسية إذ كان مأموراً لمساحة ١٨١٣

هذا وقد أنعم محمد على على نفسه وعلى أفراد أسرته بأقطيان واسعة من الأبعادية والمعمور رزقة بلا مال صارت ملكاً مطلقاً لهم في فبراير سنة ١٨٤٢ يتصرفون فيها كيف يشاءون على الوجه الشرعى بدون قيد ولا شرط وعرفت تلك الأقطيان باسم الخفالك ونتج عن ذلك إصلاح مقدار كبير من أقطيان الأبعادية وزراعته فزادت بذلك الثروة الزراعية وقد اتسعت مساحة الخفالك بضم مقدار كبير من الأقطيان

(١) دفتر ١٨٨٩ أوامر رقم ١ (أمر في ٢٤ المحرم سنة ١٢٧٤) — دفتر مجموع نظام زراعة ص ١٥٨ (لائحة ٧ ربيع الأول سنة ١٢٥٣) — دفتر ٧٣٦ ديوان خديوى تركى رقم ١٠٨ (قرار المجلس في ٤ ذى الحجة سنة ١١٤٢) — الجبرق ج ٤ ص ٢٢٢ و ٣٣٢ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩ وحوادث سنة ١٢٣٥) — أرتين : الأحكام المرعية في شأن الأراضي المصرية (ترجمة)

يأمر بكتابة ورقة خطابا إلى قائممقام أو المشايخ باحضار ذلك الرجل المشتكى واستخلاص القدر الذى ذكره الشاكي قليلا أو كثيرا أو حبسه وضربه حتى يدفع ذلك القدر ويرسل الورقة مع بعض أتباعه ويكتب بهامشها كراء طريقه قليلا أو كثيرا ويسمونه حق الطريق فعند وصوله أول شيء يطالب به الرجل حق الطريق ثم الشكوى فان بادر ودفعها وإلا حبس أو حضر به المعين الى بيت أستاذه فيوعده الحبس ويعاقبه بالضرب حتى يوفى القدر الذى تالفت به الشاكي وإن تأخر عن حضوره أو حضور المعين أردفه بآخر حق طريق الآخر كذلك ويسمونها الاستعجاله وغير ذلك أحكام وأمور غير معقولة المعنى قد ربا عليها واعتادوها لا يرون فيها بأسا ولا عيبا ... وكذلك أشياخهم إذا لم يكن الملتزم ظالما يتمكنون هم أيضا من ظلم فلاحهم لأنهم لم يحصل لهم رواج إلا بطلب الملتزم الزيادة والمغارم فيأخذون لأنفسهم في ضمنها ما أحبوا وربما وزعوا خراج أطيانهم وزراعاتهم على الفلاحين . وقد انخرم هذا الترتيب بما حدث في هذه الدولة من قياس الأراضى والقدن^(١) .

وقد أخذت الحكومة أيضا في مساحة ١٨١٣ ما ظهر من الزيادة في أطيان الرزق وقيدت ما بقى منها بعد ذلك باسم واضع اليد على الرزقة وواقفها وزارعها وقررت عليها المال مثل ضريبة البلدة فإن أثبت صاحبها وكان عنده سند بها تقيد له في الروزنامه معاشا سنويا يعرف باسم القايض ومقداره يساوى نصف أجرة رزقته ولا يضاف للحكومة عند وفاة صاحبه وقد أخذ محمد على على عاتقه الأنفاق على المساجد والخيرات التى من أجلها أرصدت أطيان الرزق^(٢) .

وعلى هذا كان محمد على بمثابة ناظر على أطيان الرزق الموقوفة وهذا مشروع كما أنه نظم أحوال الوقف بما يتفق مع مصلحة الوقف ومصلحة الدولة فأعطى معاشا

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٢) دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ص ٢٥٢ (إفادة من الروزنامه إلى مجلس الأحكام في ٢٦

ربيع الأول سنة ١٢٨٠) — الجبرتي ج ٤ ص ٢٢٣ (حوادث جمادى الأول سنة ١٢٢٩) .

وعندما كان إبراهيم باشا يزور أوروبا في سنة ١٨٤٥ كتب إلى والده يقول : إن أفضاية الحضارة الأفرنيكية راجعة إلى أن الطبقات الفقيرة أحسن حالا^(١) ويدل قوله هذا على موقفه من الفلاحين ورغبته في إصلاح حالهم وهم يكونون معظم الطبقة الفقيرة في مصر .

وفي عهد ولايته على مصر من ابريل سنة ١٨٤٨ إلى ١٠ نوفمبر من نفس السنة قامت الحكومة بحماية الفلاحين من ظلم المتعهدين وذلك أن محمد علي كان قد أنشأ من قبل نظام العهد في بعض القرى التي عليها ضرائب متأخرة تعرف باسم البقايا وبها أطيان متروكة بدون زراعة وتبعا لذلك النظام كان المتعهد يلتزم للحكومة بدفع ما على القرية من الأموال الأميرية والبقايا ويترك للأهالي أطيانا على حسب قدرتهم يزرعونها ويدفعون له ما يخصها من الأموال والبقايا أما هو فيزرع ما بقي من الأطيان لحسابه الخاص بواسطة الفلاحين غير المقتدرين مقابل إعطائهم أجرا على العمل في زراعته بشرط أن يترك للأهالي أطيانهم تدريجيا كلما تحسنت حالتهم المالية حتى إذا عم التحسن جميع الأهالي أعيدت إليهم أطيانهم نهائيا^(٢) ، وعلى حسب تقسيم الأطيان بين المتعهد والأهالي في أول الأمر كان كل من الطرفين يزرع أطيانه ويدفع أموالها الأميرية وما يخصها من البقايا فإذا عجز بعض الأهالي عن زراعة أطيانه أو عن دفع ما عليها من ضرائب وبقايا ترك بعضها أو جميعها للمتعهد وكذلك إذا أصبح بعض الأهالي مقتدرا وطلب أطيانا من المتعهد أعطاها له وفي الحالتين يضاف على من يأخذ الأطيان بعد التقسيم الأول ما يخصها من البقايا التي دفعها الطرف الآخر^(٣) .

(١) Paton : A History of the Egyptian Revolution, Vo. II, p. 239.

(٢) دفتر ٨٥ مئة تركي رقم ١٧٢ (إرادة إلى مفتش عموم الحسابات المصرية في ٢٢ ذى الحجة

سنة ١٢٥٢) — دفتر ٦ رقم ٧١ (أمر إلى حسن بك مدير القليوبية في ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥١) .

(٣) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٤

إليها وذلك أن محمد على أضاف إليها أطيان بعض القرى العاجزة عن دفع ما عليها من الضرائب المتأخرة والمال وأعفاها من المال وكانت الروزنامة تعطى صاحب الحقلك تقسيطا باسمه يثبت إعطاء الأطيان له رزقة بلا مال^(١) .

وتبعاً لذلك امتلك إبراهيم باشا أطيانا واسعة فكانت جفالكة كثيرة العدد^(٢) وبذا ساهم في زيادة الإنتاج الزراعى والثروة القومية .

وقد اعتنى إبراهيم باشا بالرى في جفالكة لما له من أهمية كبرى في الإنتاج فأدخل وابور المياه في مصر لرفع الماء اللازم لزراعاته ويدار ذلك الوابور بالبخار وقد اقتضى به في ذلك بعض الأغنياء حتى أن كبار الزراعين في الوجه القبلى ممن في حوزتهم أطيان كثيرة استعملوا وابور المياه في زراعاتهم حوالى سنة ١٨٥٢^(٣)

هـذا ما عمله إبراهيم باشا في العامل الأول للإنتاج وهو الأرض أما في العامل الثانى وهو العمل فقد اهتم منذ البدء بالقائمين به وهم الفلاحون إذ وضع حدا لاستبعاد المشايخ في الوجه القبلى عندما كان حاكما عليه وكان هؤلاء المشايخ يسرون بين الناس بالظلم قضاء لمطامعهم وغاياتهم كما دافع عن حقوق الفلاحين في الصعيد بما أوجب شكرهم له وحبهم إياه^(٤) .

(١) تقاسيط الخفالك باسم محمد على وأفراد أسرته بدار المحفوظات العمومية — دفتر ٥٦ معية تركى رقم ٢٨ و ٢٠٠ (أمر فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٤٩ وأمر فى ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٥٠) — دفتر جفالكة نبروه والنجرية وبشيش وطنبارة وبسنديلة بدار المحفوظات العمومية (أمر فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٥٧) — دفتر مجموع تربيّات ووظائف ص ٢٤٥ و ٢٤٦ (فرمان على فى ٥ المحرم سنة ١٢٥٨) .
أطيان الأبعادية هى التى لم تدخل فى مساحة ١٨١٣ لكونها بورا خالية من الزرع إذ ذاك بخلاف المنعمور .

(٢) Hamont: Op. Cit. T. I, p. 82.

(٣) St. John: Village life in Egypt. Vol. I, p. 62.

(٤) Bellefonds: Mémoires sur les Principaux Travaux D'Utilité

Publique, p. 548.

(٥) أدوار جوان : مصر فى القرن التاسع عشر (ترجمة) ص ٥٩٣

وإسقاط الأسنان أنقص من كفايتهم في العمل فأثر ذلك أثرا سيئا في الزراعة ولذا اتخذ محمد على عدة إجراءات ضد إتلاف الأعضاء حتى أن ذلك العمل قلّ ولكنه لم ينقطع فلما تولى إبراهيم باشا حكم مصر ورأى استمرار قطع أصابع الأيدي قتر في يونيه سنة ١٨٤٨ نفى من يقطعون أصابع أيديهم مؤبدا إلى جبل ددل بالسودان للعمل في أشغال المعدن إن كانوا بالغين فإن كانوا دون البلوغ ينفي بدلهم من تسبب من أهلكهم في قطع أصابعهم^(١).

ورغبة في المحافظة على صحة الفلاحين وغيرهم من المصريين حرّم محمد على زراعة الحشيش في مصر منذ أوائل سنة ١٨٣٨ تبعا لمنع استعماله لمسا له من آثار سيئة في صحة الأهالي وعلى الرغم من ذلك ومن معاقبة من يتجاسر على زراعته عاود الناس زراعته خفية بعد مدة يسيرة وأخذوا يستعملونه من جديد ولذا اتخذ إبراهيم باشا في يونيه سنة ١٨٤٨ تدابير حاسمة لمنع زراعته وبيعه منعاً باتا وذلك بتشديد الرقابة على زراعته وفرض غرامة على من يزرعه مقداره خمسمائة قرش تعطى من يخبر عنه فضلا عن قلعه من الأرض^(٢).

هذا وكان الفلاحون في جفالك إبراهيم باشا أحسن حالا من زملائهم في المزارع الأخرى إذ كانت أجرة الواحد منهم ٤٠ بارة يوميا يأخذ منها خبزا كل يوم بمقدار ٣٠ بارة والباقي يأخذه نقدا من وقت لآخر وفي مقدوره تربية بعض الحيوانات

(١) Bowring: Report on Egypt and Candia, pp. 13, 52, 196. Lane: An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, p. 177.—Combes: Voyage en Egypte, En Nubie, Vol. I, p. 133.

(٢) دفتر مجموع أوامر جنائية ص ١٩٦ و ٢٠٢ (أمر في ١٣ رجب سنة ١٢٦٤ وإفادة

في ١٨ رجب سنة ١٢٦٤) .

(٣) دفتر مجموع نظام زراعة ص ١٦٤ (إلى مديري الوجهين البحري والقبلي في ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٥٣ — فرار المجلس العمومي في ٥ رجب سنة ١٢٦٤) — دفتر ٤٥٢ ج ٤ معية تركي

رقم ٦٦ (إلى جميع الجهات في ٢٢ رجب سنة ١٢٦٤) .

ولكن بعض المتعهدين ظلم الفلاحين فأعطاهم القمح وغيره من الحبوب مقابل أبحرهم بثن أعلى من سعر السوق وألزمهم شراء القمح التالف بسعر الأردب خمسين أو ستين قرشا مع أنه لا يساوى عشرين قرشا فما كان من حكومة ابراهيم باشا إلا أن أجبرت هؤلاء المتعهدين على دفع الفرق بين السعر الذى أخذ به الفلاح الحبوب والسعر المتداول فى الأسواق عند صرفها له كما قررت أن يكون سعر الحبوب التى تعطى فيما بعد الفلاح نظير أجره موافقا للسعر المتداول فى السوق وقت الصرف^(١).

كذلك وزع بعض المتعهدين البقايا على أطيان الفلاحين ولم يفرضوا على الأطيان التى زرعوها لحسابهم الخصاص نصيبها من تلك البقايا فصار الفلاحون بذلك مكلفين بمال أطيانهم وجميع البقايا التى على القرية وفى هذا ظلم للفلاحين ونقض صريح لشروط العهد ولذا تدخلت حكومة ابراهيم باشا لحماية الفلاحين فأمرت المديرين بمراجعة دفاتر هؤلاء المتعهدين وإضافة نصيب أطيانهم من البقايا عليهم مع خصمه مما على الأهالى كما أوجبت على المتعهدين التدقيق فى توزيع البقايا بالتساوى على أطيانهم وأطيان الأهالى على أساس الفدان وحذرتهم من مخالفة ذلك وقررت عقاب من يقترب منهم فيما بعد مثل تلك المظالم فى توزيع البقايا على أطيان القرية^(٢).

كذلك حى ابراهيم باشا الفلاحين من أنفسهم وذلك أنهم لجأوا إلى تشويه أعضاء أولادهم منعاً لذهابهم إلى الخدمة العسكرية فى الجيش والأسطول وقد سرت تلك الروح فى الشبان حتى تحملوا عن طيب خاطر إتلاف أعضائهم ما دام ذلك موجبا لبقائهم بين أسرهم بعيدين عن شبح الجندية التى لم يتعودوها من قبل ولا شك فى أن إتلاف الأعضاء من سمل الأعين وبتر أصابع الأيدى والأرجل

(١) دفتر مجموع أمور إدارة وإجراءات ص ٨٧ (قرار عليه أمر فى غاية جهاذى الآخرة سنة ١٢٦٤)

(٢) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ — دفتر مجموع إدارة وإجراءات

ص ٨٧ — ٨٨ (قرار المجلس العمومى وعليه إرادة فى ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٦٤) .

الحديثة التي كان الأهليون يجهلون^(١) حتى ذلك الوقت وأدخل من آلات الري وابور المياه الذي يدار بالبخار كما كانت الحيوانات الزراعية في جفالكمة قوية معتنى بها^(٢). هذه هي جهود ابراهيم باشا في عوامل الإنتاج الزراعي أما في الثروة النباتية فقد بذل جهودا مجودة أفادت الزراعة المصرية فائدة جليلة فقد ساهم مساهمة قيمة في أقلمة النباتات إذ أنشأ بجزيرة الروضة حديقة من قسمين أحدهما على النسق الإنجليزي والآخر على النمط الفرنسي ووكّل أمرهما إلى اثنين من مهرة الإخصائين في فلاحه البساتين هما: (تريل) الإنجائزي و(تقولا بوفيه) البلجيكي وجمع في الحديقة أغلب النباتات الأوربية والأمريكية والهندية^(٣) وبذلك أصبحت الحديقة بقعة لأقلمة النباتات وإجراء التجارب الزراعية وإليك ما قاله هامون في صدد ذلك : ”أشار بعض المؤلفين إلى النباتات الأجنبية التي جلبها ابن محمد على إلى أرضه بجزيرة الروضة فهذه النباتات عددها كبير جدا وحديقة الأقلمة يمكن ذكرها كواحدة من أحسن الحدائق الموجودة ... وقد جلب ابراهيم باشا إلى مصر النباتات الثمينة في العالم المعروف وفي الهند خاصة“ ويقتر بورنج أن ”حديقة ابراهيم باشا بجزيرة الروضة إحدى الحدائق المغربية ... وقد أجريت في هذه الحديقة تجارب كثيرة مفيدة جدا ومهمة“^(٤).

وقد تقدّمت فلاحه البساتين في مصر في ذلك العهد ودخلت في الحدائق المصرية أشجار ونباتات أجنبية كثيرة من جهات مختلفة وكان لإبراهيم باشا يد طويلة

(١) Hamont: Op. cit. T. II, p. 305.

(٢) راجع ما ذكره أثناء الكلام على الأرض .

(٣) Hamont: Op. cit., T. I, p. 77.

(٤) كوت : لمحة عامة إلى مصر (ترجمة) ج ١ ص ٢٤٣ — دلشيقاري : حدائق القاهرة

ومتنزهاتها (ترجمة) ص ص ٦٦ و ٥٩ و ٩٥. Bowring: Op. cit. p. 26.

(٥) Hamont: Op. cit., T. I, p. 186.

(٦) Bowring: Op. cit., p. 26.

(٧) تريل (Traill) — تقولا بويه (Nicolas Bové) .

والدجاج في الوقت الذي كانت فيه أجرة الرجل القوى الماهر في الزراعة تتراوح بين ٢٠ بارة و ٣٠ بارة في الصعيد وبين ٣٠ بارة و ٤٠ بارة في الوجه البحري^(١). وإليك ما جاء في أمر محمد علي الى مدير النصف الثاني للوجه القبلي : ” اطلعت على التقرير المؤرخ في ٩ شوال سنة ١٢٥١ الذي أرسلته ورأيت فيه أنك بحثت مع نظار الأقسام موضوع جلب العمال اللازمين لزراع قصب السكر المرتب زرعه في أراضي نجلنا الباشا السر عسكر الكائنة في مديرتك وأنهم تعهدوا بتقديمهم ورأوا من المناسب ترتيب عشرة قروش شهريا لكل منهم يا محرم أغا إن نجلنا السرعسكر رتب لكل من العمال المستخدمين في أعماله الكائنة في هذه الجهات أجرا يوميا قدره قرش واحد (أربعون بارة) وهذا يدل على أنه لم يطلب إليك أن ترتب لكل منهم عشرة قروش شهريا ويخيل إلى أن النظار هم الذين ظلموا الأهليين هذا الظلم وأنت أقررهم عليه لازمني والتظاهر بالإخلاص “^(٢).

هكذا اهتم ابراهيم باشا بالأرض والعمل أما العامل الثالث للانتاج وهو رأس المال ويشمل المباني المقامة على الأراضي وما تحتويه من الآلات الزراعية المستعملة في الخدمة والحصاد وآلات الري وحيوانات الزراعة والبذور والسماد فقد اهتم به أيضا ابراهيم باشا إذ أدخل في جفالكه كثيرا من الآلات الزراعية

(١) Gliddon : A Memoir on the Cotton of Egypt, P. 26. —

Hamont : Op. cit., T. I., p. 77.

القرش = ٤٠ بارة .

(٢) دفتر ٦٣ معية تركي رقم ٣٢٦ (من الجناح العالي الى مدير النصف الثاني للوجه القبلي في ١٨ شوال

سنة ١٢٥١) — تمتد مديرية النصف الثاني للوجه القبلي من وادي حلفا الى فرشوط .

(٣) جيد : مبادئ الاقتصاد السياسي ص ١٠٥ — ١٠٨ ١١٢٠٨

Carver: Principles of Rural Economics, pp. 204 — 207, 211 — Rew:

A Prime of Agricultural Economics, pp. 64, 66, 73.

وأم ألف ورقة والزنجبيل والصنوبر الهندي وشجرة كايوت والخيزران والمانجو وجوز الهند والفلفل الأسود والقرفة والشاي^(١) وشجرة الأبنوس وشجر البقم الهندي^(٢) .

وقد ذكر دلتيفالري النباتات الأجنبية التي أدخلها إبراهيم باشا في حديقته بجزيرة الروضة فنجحت زراعتها واستمرت نامية حتى رآها بنفسه عندما كان في خدمة الخديو اسماعيل فيما بين سنتي ١٨٦٨ و ١٨٧٨ وها نحن نلخصها فيما يلي :

١ — أشجار الأخشاب :

أبنوس الحبش وأبنوس الهند وخشب السرسوع من الهند وخشب المهجنو من سان دمنج وخشب الصندل الأبيض من الهند الشرقية والخشب الأملس من جزيرة موريس وخشب بليساندر من الهند والخشب الوردى من أمريكا الجنوبية وخشب التونة من اليندول بالهند وخشب سندروس من أمريكا الجنوبية وخشب الكابلي من أمريكا الجنوبية وخشب مورايا ايكزوتيك من الصين وخشب الامايريس جونانديس من الجويانة وخشب الزيتون من جزيرة موريس وخشب الصندل من جزيرة بوربون وخشب البقم من الهند الشرقية وشجرة تين الوثنيين المعروفة بين العامة بالجزير الافرنكى من الهند وشجرة التيك الهندية من الهند .

٢ — أشجار الفاكهة :

المانجو من الهند واللوز الهندي من الهند الشرقية والبلكان من أمريكا والتمر الهندي من الهند والكوكا من السنغال والتبلدى من السودان والكاكي من اليابان والجوافة والقشطة والجبوزا .

(١) أدخلت هذه النباتات الأجنبية في حدائق إبراهيم باشا منذ نشأتها سنة ١٨٣٠ الى أوائل

سنة ١٨٣٨ Bowring : Op. cit, pp. 26 — 27 — Delchevalerie : Calendrier

Egyptien, P. 33.

(٢) فيجرى : حسن البراعة في علم الزراعة ج ٢ ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣

في هذا التقدم فقد طلب من حديقة النباتات بباريس أن ترسل إليه إخصائيا في فلاحية البساتين فأرسلت إليه (نقولا بوفيه) البلجيكي سنة ١٨٢٥ فأنشأ لإبراهيم باشا حديقة عظيمة لأقلمة النباتات الأجنبية في جزيرة الروضة وأدخل في أطيان إبراهيم باشا بجزيرة الروضة عددا كبيرا من الأشجار النافعة من الهند وبلاد العرب وقد سافر في ديسمبر سنة ١٨٣٠ الى بلاد العرب لجلب نبات الكاد (الشاي) والبن ورجع من رحلته هذه في يونيه سنة ١٨٣١ ثم سافر ثانية في أبريل من السنة نفسها الى بلاد العرب والشام للبحث عن نباتات جديدة لإدخالها في حدائق إبراهيم باشا ورجع الى القاهرة سنة ١٨٣٢^(١)

وأیضا أرسل إبراهيم باشا بستانيه الى بلاد الهند للبحث عن نباتات نافعة للزخرفة والزينة وقد زرع معظمها في حدائق إبراهيم باشا بالمنيل وجزيرة الروضة ومصر القديمة ومجديقة الوالی بشبرا وحديقة القبة وحديقة سليمان باشا وحدائق أخرى كثيرة بالقاهرة والإسكندرية^(٢).

وكذلك أرسل إبراهيم باشا الى جزيرة جمیکا عمر أفندي الإخصائي في صناعة السكر بعد رجوعه من بعثته في أوروبا فأحضر منها نوعا من القصب الأحمر^(٣).

ومن أهم النباتات الأجنبية القيمة التي أدخلها إبراهيم باشا في حدائقه الجوافة والبن وشجرة التيك واليباز والقشطة وشجرة الصمغ المرن وشجرة كف مريم

(١) دلشيفاري : حدائق القاهرة ومنزعاتها ص ٥٨ — ٦٠ ، ٦٦ ، ٩٥

Delchevalerie : Calendrier Egyptien, p. 33.

(٢) Delchevalerie : Flore Exotique de Jardin d'acclimatation de Ghézireh et des Domaines de S. A. le Khédivé, pp.14—15.

(٣) محفظة ٧٧٩ ديوان خديوى تركى (من الديوان الخديوى الى سامى بك في ٢٩ ربيع الأول

سنة ١٢٤٨) — Mazuel : Le Sucre en Egypte, p. 33.

بالهساتين المذكورة عدة أشجار منها نجحت وتكاثرت بالبزور أو العقل المنتحلة منها وهذا يؤيد أنها تعودت على أهوية هذا القطر^(١) .

ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨ غرس ابراهيم باشا في الحدائق والحقول كثيرا من الأشجار الأجنبية من توت وزيتون وبرتقال وأنواع أخرى فنجحت زراعتها وتأقلمت ومن بين تلك الأشجار التوت الأبيض المجلوب من الصين والتوت المنسوب الى الفلين وكذلك البرتقال الدموى وهو نوع نادر إذ ذاك لون لحمه في حمرة الدم وكان في حدائق ابراهيم باشا مثل نظيره في مالطة والبرتقال^(٢) .

وقد أدخل ابراهيم باشا ووالده في مصر زراعة أنواع العنب المعروفة في أوربا وبلاد اليونان فنجحت بأجمعها تقريبا نجاحا باهرا واستخرج منها الأوربيون نبيذا جيدا النوع فالنبيذ الأبيض كان مشابها لنبيذ مرسالا بجزيرة صقلية والنبيذ الأحمر كان مماثلا لنبيذ اسبانيا^(٣)، وقد زرع ابراهيم باشا أصنافا كثيرة أجنبية من العنب في بساتين المطرية والقبة فتحصل منها عنب جيد استخرج منه نبيذ كالذى يستخرج من هذه الأصناف في بلادها الأصلية^(٤) .

كذلك أدخل ابراهيم باشا زراعة الخضر الأجنبية مثل الهليون والشليك والبطاطا والبطاطس^(٥) .

(١) فيجى ج ٢ ص ٩٦ — جاء فيجى الى مصر حوالى سنة ١٨٢٧ وكان أستاذ علم النبات بمدرسة الطب في عهد محمد على ثم رئيس الصيادلة في عهد اسماعيل وألف كتابه هذا في أوائل عهد اسماعيل .
(٢) فيجى ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ ، ١٤٤ — كلوت ج ١ ص ٢٧٠ Delchevalerie, Aperçu Général sur les Vegetaux Exotiques Naturalisés en Egypte, pp. 2, 13, 14, 53.

(٣) كلوت ج ١ ص ٢٧٢ . Bowring: Op. cit. p. 25.

(٤) فيجى ج ٢ ص ١٢٢

(٥) كرتوا جيرار : الروضة البهية في زراعة الخضراوات المصرية (ترجمة) ص ٥

٣ — أشجار الزينة :

(أ) من الهند : شجرة تفاح الفيل والازاد رخت وميليا سميرفريس واليسار وشجرة الجناجل وخف الجمل وشجرة المرجان الهندية .

(ب) من أمريكا الجنوبية : ييجونيا سيسيزوا والجهنمية وودن الفيل ودورانتا بلوميراي وبنت القنصل الحمراء والبيضاء وفلفل أبو ورق رفيع .

(ح) من اليابان والصين : الباسقة والغاب الافرنجى والرابص .
(د) من بلاد أخرى : نخل الرخام الهافانى من جزيرة كوبا واللاتانيا العادية من جزيرة بوربون والكاوى من مدغشقر .

٤ — أشجار أخرى :

الكاد (الشاى) والبن من بلاد العرب ونخلة الدقيق من جزيرة سيلان وشجرة الدهن اليابانية والبوسيانوس من مدغشقر وشجرة الفيكوس تسيلان من الهند الشرقية وجزائر الفلبين وشجرة الصمغ المرن والفيكوس أبولسان من جزيرة جاوه والفيكوس بوليفوليوم من الحبشة والفيكوس لوريفوليوم من أمريكا الجنوبية^(١) .

هذا ويبين فيجى فضل ابراهيم باشا ووالده فى أقلمة الأشجار الخشبية الأجنبية فى مصر حيث يقول : ” إن أقليم وادى النيل والدلتا مناسبان لتعود عدة أشجار أجنبية تحصل منها الخشب الذى يثبت ذلك ويحققه التجارب التى فعات فى شأن ذلك جملة سنوات ببستان شبرا والمنيل ومصر العتيقة وأثر النبى وأكاف الاسكندرية أيام جتتمكان الحاج محمد على باشا ونجله جتتمكان ابراهيم باشا والى الآن يوجد

(١) دلتشالرى : حدائق القاهرة ومنزهاتها ص ٥٣ — ٦٩

وقد عمل إبراهيم باشا على تكثير أشجار الزيتون بغرس أشجارا كثيرة منها نجحت نجاحا حسنا وأثمرت ثمارا جيدة^(١) حتى أن فيجى قزر أن "تكاثر شجر الزيتون بالقطر المصرى أحدث فى ولاية جتسكان الحاج محمد على باشا ونجمله جتسكان إبراهيم باشا"^(٢).

كذلك أمر إبراهيم باشا بغرس مئات من أشجار خيار شنبر كما زرع آلاف^(٣) من أشجار اللبخ فى مصر السفلى وغرس أشجار التوت فى مئات كثيرة من الأقدنة^(٤).

وقد اهتم إبراهيم باشا بغرس الأشجار سواء كانت من أشجار الغابات أو أشجار الفاكهة وأنفق الأموال الكثيرة على إنشاء المزارع والمغارس فى أرجاء البلاد المصرية فغرس حتى سنة ١٨٣٥ لحسابه الخاص ٥,٠٠١,٥٣٤ شجرة من ٢٥ نوعا من أنواع أشجار الغابات و ٥٨٦,٢١٤ شجرة من ٤١ نوعا من أنواع الفاكهة تنقسم إلى ٧٣٤ صنفا مختلفا^(٥). وكان عدد أنواع الأشجار الخاصة بالقطر المصرى قبل ذلك لا يتجاوز ١٢ نوعا كما كان لا يوجد من الشجيرات التى لا يتجاوز ارتفاعها القدمين سوى ١٨ نوعا وكانت هذه الأشجار والشجيرات بأنواعها المذكورة متفردة على ضفاف النيل أو مبعثرة هنا وهناك حول السواقي^(٦).

وفضلا عن أقلمة النباتات الأجنبية والعناية بزراعة الحاصلات المصرية اهتم إبراهيم باشا بالدعاية الزراعية فى مدة ولايته على مصر فقد رأى أن ينشئ صحيفة

(١) Bowring: Op. cit., p. 24.

(٢) فيجى ج ٢ ص ١٢٥.

(٣) Crabitès: Op. cit., p. 124. — شجرة خيار شنبر من النباتات الطبية وتستعمل

ثمارها فى الشئون الطبية.

(٤) دلشيفالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٩٣.

(٥) Bowring: Op. cit., p. 21.

(٦) Marmont: Voyage du Maréchal duc de Raguse, T. 3. p. 349.

(٧) كلوت ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤١.

و بالاختصار أدخل إبراهيم باشا فى الزراعة المصرية جميع النباتات الأجنبية التى اعتقد أنه من المستطاع نجاحها فى مصر من فاكهة وخضر وأشجار نافعة وأشجار الزينة^(١) .

وفضلا عن أقلمة النباتات الأجنبية اهتم إبراهيم باشا بزراعة الحاصلات المصرية حيث كان مزارعا عمليا من الدرجة الأولى فعنى عناية خاصة بزراعة القطن وحسن صفاته كثيرا^(٢) .

كذلك أولى إبراهيم باشا زراعة القصب كثيرا من رعايته فكانت له مزارع من القصب فى الصعيد وبخاصة فى بلدة الروضة بلغ إنتاج الفدان منها سبعا وعشرين قنطارا ونصف قنطار من السكر فضلا عن العسل والمكسب الصافى من الفدان ٣٢ جنينا استرلينيا^(٣) .

وبلغ من رغبة إبراهيم باشا فى توسيع مزارعه من القصب أن طلب من والده أن يمنحه ألف فدان من أطيان الابعادية فى مديرية النصف الأول من الوجه القبلى (جرجا وأسيوط) لزراعتها قسبا لحسابه الخاص فوافق والده على ذلك وأمر بإعطائه ذلك المقدار من الأطيان من أحسن أطيان الابعادية بالبلاد التى عينها فى طلبه^(٤) .

كذلك أرسل إبراهيم باشا بعض الأشخاص إلى الوجه القبلى للبحث له — بدلالة أناس من أصحاب الخبرة — عن أطيان تصلح لزراعة القصب^(٥) .

(١) دلتشبالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٦٧

(٢) Charles — Roux ; La Production du Coton en Egypte, p. 82.
. Crabitès : Ibrahim of Egypt, p. 124.

(٣) Bowring : Op. cit., pp. 21 — 23 — Taylor : Journey to Central Africa., p. 104.

(٤) دفتر أوامر عربى أمر رقم ٨٣ (أمر إلى مدير نصف أول قبلى حسين أغا فى ١٩ شوال سنة ١٢٥٠) .

(٥) دفتر ٦٢ معية تركى رقم ٥٠٩ (من المعية السنية إلى باقى بك فى ٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٠) .

وقد أنشأ إبراهيم باشا اصطبلًا لتربية الخيل لحسابه الخاص يقع على ضفاف النيل بالقرب من قصره عند القصر العيني وكان به ٤٠٠ رأس من الخيول منها بعض الأفراس والفحول المصرية وكثير من الفحول العنيزية التي تلى النجدية في المرتبة أما أكثر الأفراس والفحول فنجدية أخذها إبراهيم باشا من بلاد العرب عندما فتحها، وكان الاصطبل في أول الأمر على النظام المتبع إذ ذاك في مصر فلما وقف إبراهيم باشا على حالة اصطبل شبرا الحديد الذي أنشأه والده حوالي سنة ١٨٣٧ بإشراف (هامون) ناظر مدرسة الطب البيطري استشار (هامون) فقدم هذا إليه تقريرًا بالإصلاحات اللازمة غير أن إبراهيم باشا ترك له الحرية في العمل كما يرى فقام بالإصلاحات بمساعدة رجل فرنسي في خدمة إبراهيم باشا فعدلت أحوال الاصطبل ونظامه وأنشئت حظائر يطلق فيها سراح الأمهار أثناء النهار وأعطيت إدارة الاصطبل لطبيب بيطري مصري يراقبه (هامون) ^(١).

وقد اعتنى إبراهيم باشا بالحيوانات الزراعية في جفالكه فكانت قوية كما خصص بعض الأبقار والجاموس في عزبه للذبح لاستهلاك الأوربيين في القاهرة ^(٢).

كذلك ساهم إبراهيم باشا في تربية دود القز فغرس أشجار التوت في مئات كثيرة من الأفدنة لتوفير الطعام اللازم للدود ^(٣) وكانت مصر تزرع التوت البلدي والشامي من قبل فجلبت نوعين آخرين هما التوت الأبيض من الصين والتوت المنسوب إلى الفلين والنوع الأخير أوراقه كبيرة محدبة مدورة تنبت قبل أوراق التوت المعتاد وتستعمل غذاء لدود القز الصغير الذي يخرج من بيضه قبل الأوان وفيما بعد تصير هذه الأوراق يابسة فتستعمل غذاء للحيوانات الكبيرة وبخاصة الخيل والضأن والمعز

Hamont: Op. cit., T. I, 530, T. II, pp. 234, 236. (١)

Hamont: Op. cit., T. I, pp. 77, 336. (٢)

Bowring: Op. cit., p. 21. (٣)

أسبوعية باللغة العربية تشتمل على أخبار التجارة والزراعة والإعلانات الملكية تنشر على جميع البلاد والقرى زيادة على الوقائع المصرية ليعلم أرباب التجارة والزراعة منها رواجها ومحسناتها وقد عملت لأئحة بيان الإفادات والكشوف والإعلانات الواجب إرسالها في كل أسبوع إلى ديوان المدارس بالأخبار المذكورة وحررت أول نسخة من هذه الصحيفة وطبعت ونشرت على المديريات في الأسبوع الأول من ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م) ^(١) ولا نعلم من أمر تلك الصحيفة شيئا بعد ذلك ولعلها ألغيت بعد وفاة منشئها في الأسبوع التالي لصدورها ولا شك في أن تلك الصحيفة لو قُيِّض لها الاستمرار لأدت خدمات جليلة للزراعة والتجارة .

هكذا كانت جهود إبراهيم باشا في الثروة النباتية أما في الثروة الحيوانية فقد ساهم أيضا في تقدمها وزيادتها وذلك أنه عندما فتح بلاد العرب أخذت مصر تجلب منها الخيل النجدية وهي أولى أنواع الخيل وأجملها وأسرعها فاتخذ منها المصريون والأتراك في مصر فخولا للنزو على أفراسهم إذ أن الفحل النجدى ينجب نتاجا ممتازا كما استخدمها الوجهاء والأعيان للركوب أو للإنتاج والتناسل ^(٢) .

كذلك عندما فتح إبراهيم باشا الشام أرسل منها بعض مئات من الأفراس إلى قرى الوجهين البحرى والقبلى فأعطيت للأتراك لتربيتها من أجل التناسل وتكاثر النوع ^(٣)، والخيل الشامية عدة أنواع أحسنها العنيزى نسبة إلى قبيلة عنيزة وله مكانة عظيمة ويعتبره الشرقيون والأوربيون أول خيول العالم بعد النجدى ولذا استخدم في مصر لركوب العظماء أو للإنتاج وفي كلتا الحالتين كان مفيدا جدا وقد تفوق الحصان العنيزى على الحصان المصرى تفوقا عظيما كما أن نتاجه كانت له قيمة كبيرة ^(٤) .

(١) الوقائع المصرية عدد ١٢ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ وعدد ٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ .

(٢) Hamont: Op. cit., T. I, pp. 529, 531 — 536.

(٣) Hamont: Op. cit. T. II. p. 237.

(٤) Hamont: Op. cit. T. I, pp. 529 — 531.

أما عن جهود إبراهيم باشا في التجارة فقد أصلح المحكمة التجارية وذلك عندما أمر بإخراج الأرائك من دارها ووضع بعض الكراسي ومنضدة بدلا عنها وتعيين كاتب خاص ليدون محاضر الجلسات^(١).

وقد أنشأ إبراهيم باشا صحيفة أسبوعية تشتمل على أخبار التجارة والزراعة وقد سبق الكلام عليها في الزراعة.

هذا ويفضل إبراهيم باشا حرية التجارة على الرغم من أن الاحتكار كان أساس النظام الاقتصادي في مصر في عهد والده وأن الحكومة كانت تأخذ حاصلات معينة بالثمن الذي تحدده ، وكان إبراهيم باشا يعتقد أن نظام الاحتكار لا بد أن يؤدي إلى تدهور ثروة أي قطر وأن مثله كمثل قطع الشجرة الطبية التي تبشر بثمر عظيم في موسمها للحصول عاجلا على مقدار نافه من الفاكهة الفجة^(٢).

هذه هي جهود إبراهيم باشا الاقتصادية في مصر أما في الشام أنشاء الحكم المصري فقد عمل على تنمية موارد الثروة والحصول على إيراد للحكومة دون الأضرار بالاقتصاد القومي وأولى الزراعة جل عنايته واهتمامه لأنها الفرع الأساسي للاقتصاد الشامي فتقدمت تتقدما عظيما^(٣).

وقد اهتم إبراهيم باشا بعوامل الإنتاج الزراعي فعمل على زيادة الأراضي الزراعية وذلك بأن أعطى الأتبان لأي شخص يريد زراعتها مع إعفائه من ضريبتها إن كانت في حالة غير حسنة كما شجع الفلاحين على زراعة الأراضي وتعمير القرى المهجورة وأمنهم من غارات البدو عليهم تلك الغارات التي كانت فيما مضى تحملهم

Cattaui : Le Règne de Mohamed Ali, T. I, p. 356. (Pezzoni à (١)
Heyden, 25 août, 1829.)

Yates : The Modern History and Condition of Egypt, (1843), (٢)
Vol. II, p. 172.—Douin : La Mission du Baron de Boislecomte, p. 248.

Sabry : L'Empire Egyptien Sous Mohamed Ali et la (٣)
Question d'Orient, pp. 351, 358, 366.

وقد عرف هذا النوع من التوت في مصر باسم البكير وقد زرعه إبراهيم باشا كما زرع التوت المجلوب من الصين فضلا عن التوت البلدى والتوت الشامى ^(١) .

كذلك حاول إبراهيم باشا أقلمة دودة الصبغة فزرع في بستان المنيل النبات الذى تعيش عليه وهو نوع أجنبي من التين الشوكى وجلب حشرات تلك الدودة فتكاثر تكاثرا عظيما على نحو أربعة أشجار من التين الشوكى الخاص بتربية هذه الحشرات لكن هذه الأشجار اختنقت وماتت بسبب تراكم هذه الحشرات عليها وبذا لم تأت التجربة بنتيجة جيدة غير أن هذا ليس ناشئا عن عدم تعود هذه الحشرة على أهوية مصر بل عن نفاد الطعام وعدم تعود النبات الذى تعيش عليه ^(٢) .

هذه هى جهود إبراهيم باشا فى الزراعة أما فى الصناعة فقد اهتم بصناعة السكر تبعا لعمانيته بزراعة القصب فأنشأ مصنعا يدار بالبخار لتكرير السكر بالقرب من فرشوط ^(٣) .

كذلك أدخل إبراهيم باشا صناعة الروم فى مناطق القصب التابعة له ولكن نوع الروم كان متوسطا فأرسل إلى جزيرة جميعا عمر افندى للوقوف على صناعة الروم هناك وادخل أحسن أساليب إنتاجه فى مصر وقد رجع هذا المبعوث بمعلومات أناحت للبasha إقامة معمل لصناعة الروم يعمل على أحدث الأصول ^(٤) .

(١) فيجى ج ٢ ص ١٦ — ١٧ — ١٢٧ — ١٢٨ — كروت ج ١ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ — دفتر ٧٣١ ديوان خديوى تركى رقم ٧٧ (إلى زكى أفندى فى ٥ شوال سنة ١٢٤٠) — دفتر مصلحة الحرير ص ٣ (لأنحة ترتيب زراعة أشجار التوت وتكثير محصول الحرير فى ذى الحجة سنة ١٢٤٧) .
Delchevalerie: Aperçu Général sur les Végétaux Exotiques; p. 53.

(٢) فيجى ج ٢ ص ١٩ — تستخدم دودة الصبغة فى صبغ الطرايش .

Hamont: Op. cit., T. I. pp. 186 — 187, T, II, P. 249.

Taylor: Journey to Centrai Africa, p. 104 — Pascal: La (٣)

. Cange, Voyage En Egypte, p. 147.

. Bowring: Op. cit. p. 23. — Mazuel: Op. cit., p. 33. (٤)

لإصلاح بيوتهم وتموينها وأعفاهم من الضرائب ثلاث سنين وقدم في سنة ١٨٣٦ للفلاحين المساعدات الآتية : ٣٣٠,٤٠٠ قرشا و٤٧٠ شنبلا من القمح و ٢٠٧ شنبال من الشعير كما أنشأ في السنة السابقة ١,٧١٨ محراثا وأنفق أموالا كثيرة في المشروعات الزراعية .

هذا عن عوامل الإنتاج أما عن الثروة النباتية فقد بذل ابراهيم باشا ما في وسعه لتحسين الزراعة وزيادة الإنتاج فأدخل في الشام كثيرا من الخضر الجديدة وبخاصة البطاطس وجلب ١٤,٠٠٠ شجرة من عنب بردو زرعها بالقرب من حلب وعمل على تكثير الزروع المختلفة فلم تنقص زراعة أى محصول بل بالعكس اتسعت زراعة الحبوب والخضر اتساعا كبيرا وصارت من حاصلات التصدير كما زاد محصول القطن وكثرت أشجار التوت والزيتون والعنب حيث ألزم الفلاحون زراعة عدد كبير منها في كل قرية كما زادت أشجار الخروع وأجريت التجارب في زراعة القصب والنيلة وشجر البن وقطن مصر، وكان ابراهيم باشا يفتش دائما على الأعمال الزراعية ويحرق الأرض بنفسه ليشجع الفلاحين وليضرب لهم المثل الأعلى ، كما كان يبذل أقصى جهده في مقاومة الجراد حتى لايتلف الزرع وذلك بتكليف الأهالى والجنود القضاء على الجراد وقيامه بمباشرة العمل بنفسه وجمعه بعض الجراد بيديه تشجيعا للأهالى^(٣).

أما عن الثروة الحيوانية فقد كان الحرير المحصول الرئيسى للشام وعماد ثروتها ينتج بالأخص في مناطق صيدا وبيروت وجبل لبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية

(١) محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٩ — الشنبل = ٥٠ رطلا = ١٠٠ أقة شامية

Sabry: Op. cit, pp. 351, 353 .

(٢) سليمان أبو عز الدين : ابراهيم باشا في سوريا ص ٣١٦ — ٣١٧, Sabry Op. cit., pp. 335, 353 — 355, 357, 360, 365.

(٣) محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٩ Barker: Syria and Egypt under the last Five Sultans of Turkey, Vol. II, pp. 209—210 — Sabry: Op. cit, p. 354.

على ترك الأراضى وكذلك ألزم الموظفين الكبار والأهالى الأغنياء إصلاح القرى الخربة وزراعة أطيانها وأنفق أموالا كثيرة فى المشروعات الزراعية مما أدى إلى تعمير قرى كثيرة كانت مهجورة من قبل وإلى زراعة أراضيها وأيضا اهتم ابراهيم باشا بزراعة الأطيان البور فأرغم الأهالى على زراعة الأراضى الصالحة وأنفق مبلغا كبيرا من المال فى مشروعات من هذا القبيل ليكون مثالا أعلى لغيره وألزم ضباط الجيش حتى رتبة بكباشى الإنفاق على مشروعات مماثلة لذلك وزرع لحسابه الخصاص سهل انطاكية الفسيح وكان بورا وأيضا طهر النهر الصغير بين عنتاب وحلب مما جعله يأتى بكمية أكثر من المياه وقد زادت الأراضى الزراعية ٨٠,٠٠٠ فدان فى مدى سنتين فى سنة ١٨٣٦ وزاد إيجار الأطيان فى بعض الأماكن إلى ثلاثة أمثال إيجارها من قبل^(١).

وأيضا اعتنى ابراهيم باشا بالعامل الثانى للإنتاج الزراعى فاهتم بالفلاحين وعمل على ما فيه خيرهم فأمنهم من ظلم الحكام ونهب البدو واعتدائهم فصاروا سعداء ميسورين لعدم تعرضهم للجنود الذى كانوا فيه من قبل ، وكذلك رغب ابراهيم باشا البدو فى ممارسة الزراعة وتعمير القرى المهجورة وأرغم بعض القبائل الرحالة على الإقامة فى سهل انطاكية لزراعته على حسابه الخاص ، وبذا تحوّل آلاف من البدو إلى زراع^(٢).

كذلك اعتنى ابراهيم باشا بالعامل الثالث للإنتاج فأنشأ البنك الزراعى وأقام صرافا فى كل من حلب واطنه ودمشق معه ٥,٠٠٠ جنيه لتسليف المال اللازم للزراع المحتاجين كما أعطى سلفيات من المال للفلاحين الذين قطنوا القرى المهجورة

(١) محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٨ Dodwell : The Founder of Modern Egypt, p. 253 — Sabry : Op. cit., pp. 351 — 356, 367.

(٢) Dodwell : Op. cit., pp. 253 — 254 — Sabry : Op. cit., pp. 341 —

343, 351, 352, 354, 355, 358. — محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٨

هذا وقد أدت العناية الخاصة بالزراعة إلى نشاط التجارة فزادت التجارة الخارجية زيادة مستمرة كما تأثرت التجارة الداخلية تأثراً عظيماً من زيادة الإنتاج الزراعي وتقدم التجارة الخارجية فصارت دمشق مركزاً عظيماً للتجارة مع بغداد والبصرة والفرس والبلاد المجاورة كما زادت تجارة حلب زيادة عظيمة وأصبحت مصر الأولى بين الدول في تجارتها مع الشام بعد أن كانت في أول الأمر في الصف الثاني، وقد امتازت سياسة إبراهيم باشا التجارية في الشام بزيادة الإنتاج الزراعي من حرير وزيت زيتون وقطن وقمح وشعير وبإلغاء ما كان موجوداً من قبل من عوائق التجارة من احتكارات ومظالم وجمارك داخلية وبتنظيم توزيع الضرائب، وقد عمل إبراهيم باشا على تحسين طرق المواصلات فأنشأ ٣٠ مراكباً للملاحة في نهر الأورنت حتى أنطاكية، وكانت حرية التجارة من قواعد السياسة المالية في الشام وذلك لأن الروح التجارية عند الشاميين وكره الأوربيين للاحتكار واعتناق إبراهيم باشا مبادئ الحرية كل ذلك كان مضاداً لإنشاء الاحتكارات في الشام غير أن تلك القاعدة قد كسرت عندما أنشأ إبراهيم باشا — بناء على أمر والده — احتكار الحرير للحصول على الكمية اللازمة منه لاستعمال البلاد ومع هذا فقد منح حرية تصدير الباقي بعد ذلك إلى الخارج^(١).

تلك هي جهود إبراهيم باشا الاقتصادية في الشام أما في بلاد العرب فإنه عندما فتحها وضع أساس الإصلاح الزراعي فيها فأمر بحفر الآبار في الأماكن الجرداء التي ظن فيها ماء^(٢).

هكذا كانت جهود إبراهيم باشا الاقتصادية في مصر والشام وبلاد العرب وهي جهود مجودة تنهض دليلاً على أن عظمتها لم تقتصر على الناحية الحربية التي اشتهر بها بين الجميع بل تعدتها إلى الناحية الاقتصادية.

(١) Sabry : Op. cit., P. 363 — 368

(٢) Crabitès: Op. cit., P. 36.

وانطاكية تلك الأقاليم التي توجد بها مزارع واسعة من أشجار التوت زادت كثيرا أثناء الحكم المصري، وقد تحسن نوع الحرير نتيجة لإدخال بيض دود القز من فرنسا وإيطاليا على يد باركر القنصل الانجليزي في الشام الذي اتبع الطريقة الأوروبية في تربية دود القز فأثر ذلك البيض وتلك الطريقة في تحسين الحرير عامة^(١).

كذلك ادخلت الأغنام الاسبانية في ضواحي نابلس وأرسلت بعض الذكور من الأغنام الاسبانية لضمها الى الأغنام الموجودة في عكا كما طلب ابراهيم باشا إرسال أغنام من كريت الى الشام لتربيتها هناك^(٢).

هكذا استأثرت الزراعة بمعظم نشاط ابراهيم باشا الاقتصادي في الشام لأنها الفرع الأساسي للاقتصاد القومي أما الصناعة فكان الاهتمام بها أقل من الزراعة ومع هذا فقد استمرت المنسوجات الحريرية الانتاج الرئيسى للمصانع ففي سنة ١٨٣٦ استهلك نحو ١,٢٠٠ قنطار من الحرير الناتج من الشام في مصانع حلب ودمشق وطرابلس وحماة وبيروت ودير القمر وصيدا، وكذلك أنشئ في صور مصنع لنسج الصوف، وعمل ابراهيم باشا على إدخال طريقة أكثر إتقانا لاستخراج زيت الزيتون في طرابلس وما جاورها بخلاب معاصر الزيت من فرنسا واستخدم عمالا أوروبين في العمل وكانت النتيجة سارة جدا بالنسبة الى الكم والكيف للزيت الناتج، وأيضا بذلت الحكومة المصرية جهودا عظيمة لكشف المعادن واجتهدت في التنقيب في جبال الشام بواسطة اخصائيين ففي الجنوب بحث بعض الفرنسيين عن الرخام وفي لبنان اكتشف بعض الانجليز نوعا جيدا من الفحم الحجري وفي الشمال اختبر بعض النمساويين الأرض وظنوا وجود الرصاص والنحاس والفضة والذهب بها ومهما يكن فمن الثابت أنه عند نهاية الحكم المصري تأكدت الحكومة من وجود الفحم والحديد بكثرة في مناطق مختلفة^(٣).

Barker: Op. cit., Vol. II, p. 255 — Sabry: Op. cit., pp. 335, (١)
Sabry: Op. cit. p. 335. ٢٩٤ ص ٢ بيان بوثائق الشام ج ٢ (٢) أسدرستم: بيان بوثائق الشام ج ٢ ص ٢٩٤. 352, 355.

Sabry: Op. cit., pp. 358 — 362. (٣)

إدارة الشام روحها وهيكلها وأثرها للدكتور أسد رستم

دخل بطل مصر الى ربوع الشام فاتحاً منتصراً . وقضى عشر سنوات فيها موطداً مؤسساً . وكان رحمه الله مؤمناً برسالة والده الكبير مخلصاً لها مندفعاً في تنفيذها اندفاعاً نادراً . وكانت رسالة العزيز هذه تتأخص بما يلي : أولاً بالاعتراف بتأخر « الملة المحمدية » بتعبير ذلك العصر وبضعف الدولة العثمانية وبعجزها عن حماية هذه الملة . وثانياً بوجوب الصمود لطمع أوروبا وجشعها ودفع شرها عن الملة . وثالثاً بوجوب التذرع بجميع الوسائل الفعالة للوصول الى هذا الهدف النبيل . قال العزيز في كتاب له أرسله الى إبراهيم عند تأزم العلاقات بينه وبين الباب العالي للمرة الثانية وبمناسبة تدخل الدول الأوروبية مامعناه : لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانية ولكنها ترمى الى إضعاف الطرفين كي يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الإسلامية بسهولة ولذا فإن قبول تدخل هذه الدول خيانة للملة ولتمام استقلالها . فبدلاً من أن نقبل هذه الخيانة فنذكر باللعنة الى يوم القيامة أجدر بنا أن نموت في سبيل الدين فنشيد بذلك دنيانا وآخرتنا معا . هذا إذا غلبونا وأما إذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً فحينئذ نجد في الدنيا اللجنة التي يبحث عنها الناس في الآخرة . فيدوى في الافاق صدى بطولتنا وسمعتنا الطيبة ويذكرنا العالم بنخير الى يوم القيامة . هذا لا ريب فيه . والله كفيل بعباده.^(١)

(١) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٣٣٦ ، راجع كتابنا المحفوظات الملكية المصرية . بيان بوثائق الشام

أمر عددا من كبار معاونيه بالتجول في البلاد وتفقد أحوال السكان للثبوت من تنفيذ أوامره السابقة .

وكان العزيز نفسه شديد الاهتمام بهذه المراقبة ماجا كل الإلحاح بتنفيذها موجبا على إبراهيم نفسه أن يقوم بشيء منها . فقد جاء في إحدى رسائله الى ابنه في الشام ” ان التجول في الولايات الجديدة وتفقد شؤون الرعايا أفضل من إصلاح الطرق ومجارى الأنهار في ادنه وطرسوس “ .

وبعد أن أتم إبراهيم كل هذا منع جباية ” الخوة “ في معابر البلاد ومسالكتها وكانت السلطات العثمانية قد غضت النظر عن جبايتها أجيالا طوالا ، فانحطت كرامتها وقل نفوذها ، وأصبح جبابة هذه ” الخوة “ أسيادا في مناطقهم يفعلون ما يشاؤون . من هؤلاء آل أبي غوش في الطريق المؤدى من يافا إلى القدس وآل رستم في جسر شغور عبر العاصي بين اللاذقية وحلب وعشيرة الدنادشة في تل كلخ بين طراباس وحمص . نهى إبراهيم عن الخوة وهدد بالعقاب الصارم فامتنع جبايتها عنها وامتثلوا للأمر وأصبحت معابر البلاد ومسالكتها حرة طلبة يسلكها التجار وأبناء السبيل آمنين فرحين بالامنة . ومما جاء من هذا القبيل قوله في مرسوم له وجهه إلى قاضى القدس وشيخ الحرم فيها ومفتيها ونقيها وخدام المسجد الأقصى ” انه ليس خافكم أن القدس الشريف محتوى على معابد وأديرة ترد لأجل زيارتها جميع أمال العيسوية والموسوية وفرقهم من كل فج ويقصدونها من ساير الأقطار والديار فيحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الأغفار الموضوعه بالطرقات ولأجل إجراء الوفق بين الناس صدرت أوامرنا إلى جميع المسلمين الذين فى اىالة ألوية صيدا وألوية القدس الشريف ونابلوس وجنين برفع هذه الأغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم ^(١) .

(١) كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا ج ١ ص ٨٧ — ٨٨ ، راجع

أيضا عابدين محفظة ٢٣٢ رقم ٢ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ١٨٨

وكان العزيز يرى من واجبه إزاء ما تقدم ذكره عن رسالته أن يؤمن العباد و يعدل بينهم ويوحد قلوبهم ويزيد في إنتاجهم كي يتسنى له الذود عن الملة والدين . ولم ير ما يمنعه عن الأخذ بجميع ما توصلت إليه أوروبا من أسباب الرقي وال عمران للقيام بمهمته وأداء رسالته . فاستقدم من أوروبا رهطا كبيرا من أهل الاختصاص في الحرب والسلم . و وكل إليهم أمر الإصلاح . وأيدهم كل التأييد وأرسل الوفد تلو الوفد من أبناء بلده الى أوروبا لتحصيل العلوم والفنون كي يتمكن في النهاية من الاستغناء عن الغربيين الغرباء . ولم يقم في ذلك العهد في الآستانة من كان يصلح أن يعدّ للعزيز نظيرا . ولكن شاءت الأقدار أن ينبري من رجال الحاشية السلطانية من يعترض سبيل العزيز ويشوّه سمعته أمام السلطان، فخشى العزيز سوء العاقبة ، واضطر أن يستعدّ لمحاربة السلطان وحاشيته في سبيل الدفاع عن النفس .

حمل ابراهيم رسالة والده الى الشام ، وبدأ بتأمين الأمن ، فامتنع عن إرهاب الأهالي ، وامتنل في ذلك لأمر خاص صدر من والده يوصيه فيه ” بوجوب تأمين الأهالي وعدم اتباع سياسة التخويف والتهويل“^(١) .

وكان قد استدعى اليه منذ بدء أعمال الفتح الأمير اللباني الكبير بشير الشهابي للتداول معه في تدبير الأمور، وقد أ كبر بعمله هذا مواهب الأمير وخبرته وإصالة رأيه وإخلاصه ، ونتج عن هذا التداول أن أقصى القائد المصري عددا لا يستهان به من ولاية الأمور في البلاد، وأحلّ محلهم من وجد فيه الكفاءة ، وأوصى ” بوجوب المحافظة على راحة الأهالي ، وتأمين العباد، وزجر المعتدين ، وتحاشي أسباب الجور والاعتساف“^(٢) . ووضع في الوقت نفسه تحت تصرف هؤلاء الولاية في جميع المراكز الهامة عددا كافيا من الجند لتنفيذ الأحكام وإحقاق الحق ، ثم

(١) عابدين دفتر ٣ رقم ٩٣ : راجع كتابنا المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ج ١ ص ٧٦ .

وفهم العزيز عقلية شعبه فهما تاما ، فأمر بشدة العقاب وسرعة التنفيذ جاعلا من أحكامه وتنفيذها عبرة لمن يعتبر، ومثال ذلك أن تشاكي كبار الموظفين انتشار الرشوة في دوائرهم في الشام فأمر العزيز بوجوب التثبت مما يقال وسمح بالشتق عند ثبوت الجرم، فنفذ حكم الإعدام أكثر من مرة في أناس ثبت عليهم هذا الجرم، قال ابراهيم في كتاب له الى سامي بك معاون العزيز : ” ستعلمون عندما تقرأون أوراق نعوم نوفل^(١) أن أهل عربستان مبالغون جدا الى إعطاء الرشوة ومراعاة الخواطر حتى أدى ذلك الى اكتشاف خباثة بعض المتسلمين ومحاسبتهم وعزلهم . وقد تحملنا في سبيل إنقاذهم من بلية الرشوة كثيرا من العناء ولكننا لو تركناهم على حالهم لخاضوا في السلب والنهب خوض المتقدمين على الإغارة^(٢) .

وأبقى اتفاق كوتاهيه تعيين قضاة الشرع في الشام بيد السلطان نخشى العزيز عدول هؤلاء عنه وانحيازهم الى جانب السلطان وأثر ذلك في أحكامهم فأوصى بمراقبتهم مراقبة خفية شديدة وأمر بوجوب عرض أحكامهم على كبار رجال الإدارة قبل تنفيذها . ثم لمس عجزهم عن النظر في بعض الدعاوى الحقوقية التجارية فسمح لمجالس المشورة أن تبت فيها حرة طليقة . ولم يتردد العزيز عن التدخل عند الحاجة في فهم الشرع الشريف وتطبيقه . فرضى رحمه الله عن موقف اللواء سليم بك من شيخ المغاربة في اللاذقية عندما أفتى هذا الأخير بأسر أولاد النصيريين ونسائهم وعندما قاومه اللواء المصرى وهدد بإزالة العقاب بمن يفعل ذلك . وقل الأمر نفسه عن موقف العزيز من علماء دمشق عندما اعترضوا على نظام الكرنيتين . قالوا : ” إن حبس الناس في البيوت وإقامة خفراء مأجورين عليهم وإخراج بعضهم على

(١) كتيب الخزينة في طرابلس .

(٢) عابدين محفظة ٢٥٢ رقم ١٣٠ . المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٣) عابدين دفتر ٦ رقم ١١٠ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ١٠١ .

(٤) عابدين محفظة ٢٥٠ رقم ٢٣٦ : المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٤٨١ .

ورأى بطل مصر موطن الأمن في الشام أن لا بد من جمع السلاح وتجريد السكان منه فأمر بذلك وشرع في التنفيذ . وما أن بدأ عمله فيه حتى ثارت القبائل والعشائر وقد رأوا ترك أزواجهم خيرا لهم وأجل وأشرف من ترك أسلحتهم ففقد الزواج بنادقهم . ومما زاد في الطين بلة أن عملاء الآستانة استغلوا الموقف وحرصوا السكان على الصمود في وجه الحكومة المصرية فاشتدّ ساعد السكان وأعلنوا العصيان . فجرد إبراهيم على كل من عصى حملة أكرهه فيها على الإذعان والطاعة . وتكبّد في سبيل تأمين الأمن خسائر فادحة فن حرب في فلسطين عم البلاد بأسرها الى حملة تأديبية على النصيريين إلى مواقع دامية في وادي التيم وجبل الدروز إلى محاربة الأكراد في أقصى الشمال إلى فتنة مستعصية في لبنان أدت في نهاية الأمر إلى تدخل الدول الأجنبية وإقصاء المصريين عن البلاد .

أما عن العدل وهو وسيلة العزيز الثانية فحدث عنه ولا حرج . والواقع الذي لا جدال فيه إن الشام لم تنل من العدل في أى عهد مضى منذ أيام عمر بن الخطاب ما نالته في ظل العزيز . قال العزيز في رسالة له وجهها إلى أحد رجاله ناظر الجهادية : "كنت أودّ أن نكون قد تخلصنا من الشعوذة والغفلة والرخاوة والغرض والضعينة والمحابة التي طالما ألفتناها ومللناها في الأيام الحالية وأن يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على أساس الإنصاف والإنسانية واليكاسة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن أيضا أن نصرف عملنا ونتجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا في مصاف البشرية الراقية^(١) " .

هذا هو العزيز وهذا هو رائده في الحكم . فاذا ما ذكرنا حزمه ونشاطه ومثابرته ومتابعته لما يصدر عنه أدركنا قيمة هذا القول وأثره في توجيه القضاة ورجال الإدارة والجيش .

(١) معية تركى دفتر ٣٦ رقم ١٦١ . المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٩٦ .



ابراهيم الفاتح

هيئة مرعبة وإحراق بعض أشياءهم ودفن المسوقى بملايسهم وتكليسهم والكشف عن عورة الأموات كل ذلك داييل على خوف الموت والعجز عن تمرين القلوب عن الصبر وفيه ما فيه من مخالفة الشرع إذ أن الحبس وإخراج الناس في هيئة مخيفة إنما يجوز فيمن يكون مجرماً ولا جناح على الذى ظهر الطاعون في بيته ولا يستحق الأجرة إلا من قام بعمل نافع للأجر . ولا ينبغي أن يضايق المحبوس في عيشه “ . قالوا هذا كله فاستقدم العزيز من أفتى بما يلى : ” لقد دلت أخبار السلف وآثارهم على أن الأجواء تختلف وأن بعضها قد تكون ضارة وأن الانتقال من محل ثبت فساد جوّه إلى محل آخر واشتتام الروائح الطيبة واستعمال البخور لإزالة الروائح الكريهة والفصد والحجامة والاستقاء لما وردت بها السنة المحمدية ولا تنكر إذا نفذت بطريقة لا تخل بإحدى الفرائض . فإذا أمر ولى الأمر بإجرائها بشروط هى أن لا يضيع حق المطعون ولا الذى ظهر الطاعون في بيته وأن لا تكون معيشة أحد عرضة للضيق وأن لا يحتفل بالميت مطعوناً دون الاحتفال بالمائت ميتة عادية ونفذت بطريقة لا تخل بالشعائر الدينية فإن إطاعة أوامره في إتيان المباحات واجبة فكيف بالجرم الصحى وهو بين الوجوب والاستحباب^(١) “ .

وعندما رحب العزيز بقدوم صارم أفندى إلى مصر رجاء أن يفض النظر عن بقائه مدة طويلة في الحجر الصحى ثم أبدى رأيه في هذا التدبير فقال : ” إن مسألة الحجر الصحى وإن كانت سبباً صورياً لصيانة البرية والرعية من الأمراض المعدية إلا أنها بفضل السلطان تدبير لترويح التجارة الملكية التى لا يخفى أمر ارتباطها بالتجار الأوروبيين والمسؤول عنها قناصل الدول فلو تدخل الجنتاب العالى في أمرها لعدّ تدخله تجاوزاً على العرف المرعى وهذا لا يوافق مزاج الجنتاب العالى ولا يجوز رضى صارم أفندى^(٢) “ .

(١) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٤٦ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٣٨٣ = المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢) عابدين دفتر ٦ رقم ٢٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ١٨١ .



محمد شریف باشا

وقال العزيز بوجوب توحيد القلوب فقام ابنه إبراهيم ينفذ هذه الرعية السامية وكتب في أوائل عهده في الشام إلى متسلم اللاذقية يقول : ” والتعرض إلى الرعايا وعدم مؤاساتهم هذا مخالف لرضانا لأن الاسلام والنصارى جميعهم رعايانا وأمر المذهب ماله مدخل بحكم السياسة فيلزم أن يكون كل بحاله المؤمن يجرى إسلامه والعيسوى كذلك ولا أحد يتسلط على أحد^(١) . واحترم إبراهيم زعامة النصارى والدروز في لبنان احترامه لزعامة إخوانهم المسلمين في سائر الأقطار الشامية . ولم يتأخر قيد شعرة عن ترقية النصارى والدروز عند ثبوت الاستحقاق فعرض على الشهابى الكبير الأمير بشير الثانى حاكمية جميع الأقطار الشامية قبل أن يرشح محمد شريف باشا للمنصب نفسه . وكان قد عين هذا الأمير مديرا لمصالح البلاد يحتم الأوراق التى تصدر عن مقر السر عسكر وقال عنه سرا لا يوجد عندى فى بر الشام رجل بمعنى الكلمة سوى هذا الرجل الشهم وحيث أنه أظهر هذه الصداقة والأمانة فلا يهمنى قط أكثر عدد الأصدقاء أم قل^(٢) . وقدر إبراهيم نصرانيا آخر حق قدره أعنى حنا بجرى فرقاه إلى المرتبة التى استحقها وجعله مديرا عاما للمالية متنعا برتبة البكوية . وهو أول نصرانى فى الأقطار العربية نال هذا اللقب . ولم يتردد العزيز وابنه إبراهيم عن منح هذا اللقب نفسه لأربعة من دروز لبنان هم نعمان جنبلاط ونصيف أبو نكد وخطار العماد وعبد السلام العماد^(٣) . وسمح العزيز وابنه إبراهيم بترميم الكنائس والأديرة وبإنشاء الحديد منها وغضا النظر عن ارتداد ثلاثة من الموارنة كانوا قد قبلوا الإسلام فاستملا قلوب «الرعايا» وخطا فصلا جديدا فى تاريخ الحكم فى الشام . ولكنهما

(١) عابدين محفظة ٢٣٨ رقم ٢٤٥ — ٢٤٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ١١٧

(٢) عابدين محفظة ٢٣١ رقم ١٢١ : المحفوظات ج ١ ص ١٧٦

عابدين محفظة ٢٣٧ رقم ١٥٦ = المحفوظات ج ٢ ص ٨٦

(٣) عابدين محفظة ٢٣٢ رقم ٧٦ = المحفوظات ج ١ ص ٢١٨

(٤) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٥٣٢ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٧٢ — ٤٧٣ .

لترقية بعض العرب الى رتبة بيكاشى^(١) . ونوه بفضل العرب على المدنية في التاريخ وقال في ظروف معينة أنه أتى مصر طفلاً وأن شمسها غيرت دمه بخرى عريباً^(٢) . ومما ساعد على توحيد القلوب أن العزيز فرق في سياسته بين وطنى آمن وبين أجنبي طامع فشمّل الأول بعطفه وحذر بطش الآخر فوافق مثلاً على السماح لتابع فنصل انكثره في رودس باستخراج الإسفنج من مياه الشام ولكنه رأى أن يمنع عن ذلك إذا كانت هذه المصلحة بيد رجل وطنى . وأوجب منح التجار الوطنيين الامتيازات نفسها التي تمتع بها التجار الأجانب وساوى بين الوطنيين وبين الأجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائعهم من مرافئ بر الشام . وجاء في رسالة من المعية السنية إلى ابراهيم باشا أنه لا يمكن ائتمان الأجنبي المتجنب على مصالح البلاد وأنه نظراً لتصلب اسكواره بك في رأيه واستئنائه بشؤون مدرسة المدفعية تقرر تشكيل لجنة^(٣) من خريجي مدارس أوربة من أبناء البلاد للنظر في تنظيم المدارس .

عنى العزيز وابنه ابراهيم بالمحافظة على ثروة البلاد و بزيادة الإنتاج فيها وسعيًا سعيًا حديثًا للوصول إلى مرحلة معينة من التطور الاقتصادي يتمكّن فيها من الاستغناء عن أوربة . ولم ير العزيز مبرراً لخوف ابراهيم من تسرب النقود إلى الخارج لأن الشام ستقدّم له من الفحم والحديد والخشب ما يستغنى به عما يستورده من أوربة ولأنه كان يأمل أن يكفى بر الشام مؤونة الشيت والملبوسات بفضل ما كان يقوم به من تنظيم الصناعات فلا يبقى القطر الشامى والحالة هذه بحاجة إلى منتجات البلدان الأجنبية^(٤) . والواقع أن العزيز وابنه ألحاً منذ بدء

(١) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٢٣١ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ١٥٠٢ المحفوظات ج ٣ ص ٦٧

وج ٤ ص ٤٦٠ .

(٢) يراجع كتاباً أسباب الخلة على الشام ص ٦٤ — ٩٥ .

(٣) عابدين دفتر ٢١١ رقم ١٠٥ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٢٢ وعابدين دفتر ٢١٢ رقم ١٧٧

المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٨ وج ٣ ص ١٨٨ و ٧٩ .

(٤) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٢١٤ : المحفوظات ج ٣ ص ١١٢ — ١١٣ .

لم يسمحا بتنصر بعض الدروز خوفا من إساءة الفهم واستفزاز الجمهور^(١). وعاقب محافظ بيروت بعض المسلمين علنا لأنهم تفوهوا ببعض كلمات غير لائقة بحق النصارى^(٢). ورأى العزيز أن يجند اليسويين لتأييد الدول المسيحية عن إثارة الفتن في الشام ولتزول عداوة المسلمين ولتنوطد صداقتهم^(٣).

ومن الوسائل التي تذرّع بها العزيز وابنه لتوحيد القلوب أنهما حافظا على العدل في التوظيف فامتنعا عن إغراق الشام بالموظفين المصريين ولم يستقدما من وادى إلا من استوجبت الضرورة قدومه . ومن ذلك أن العزيز أمر محمد شريف بك لدى تسلمه أزمة الحكم في الشام بوجود إسناد منصب المتسلمية في دمشق الى أحد أعيان هذه البلدة أو الى مصرى إذا تعذر وجود كفؤ لها من الدمشقيين أنفسهم^(٤). وقال أيضا في كتاب أرسله إلى سليمان باشا بأنه عين حراس الصحة في المراكب المسافرة إلى بر الشام من أبناء مصر لأنه لم يجد من هو أهل لذلك في بر الشام^(٥). وكان من نتائج النزاع الذي نشب بين مصر والباب العالي أن شعر العزيز بأهمية العنصر العربى وبوجوب التودّد إليه والاتكال عليه نخرج عن تقاليد الادارة في مصر ووافق على ترقية البارزين من أولاد العرب في القراءة والكتابة إلى رتبة يوزباشى . وذهب ابراهيم إلى أبعد من هذا فأكد لوالده بأن نسبة المخلصين من العرب المتحقيين بالخدمة كانت أعلى من نسبة المخلصين من زملائهم الأتراك وحيد إفساح المجال

(١) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٢٣٦ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٤٤ .

عابدين محفظة ٢٥٥ رقم ١٩٩ : المحفوظات ج ٣ ص ٢٨٥ و ٢٨٨ و ٢٩٥ .

عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٣٦٤ : المحفوظات ج ٣ ص ١٣٧ وغيره .

(٢) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٢٢٨ : المحفوظات ج ٤ ص ٤١٥ — ٤١٦ .

(٣) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٣٨ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٢٦ .

(٤) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٢٢ : المحفوظات ج ٢ ص ٢٨٠ .

(٥) عابدين دفتر ٢١٠٢ رقم ٣٥٧ : المحفوظات ج ٣ ص ١٣٣ .

الأجانب وبين زملائهم الوطنيين كما أشرنا سابقا . وطعن بعمله هذا في صميم الامتيازات الأجنبية فبدأ فصلا جديدا في تاريخ العرب الحديث لم ينته إلا بعد مرور مائة عام ! ولمس إبراهيم الظلم الذى لحق بالفلاح وبالمزارع أيضا من جراء تلزيم الضرائب فهب للدفاع عن الحق المهضوم وكتب رسالة الى معاون العزيز يلح فيها بوجوب الغاء التلزيم وبجباية الضرائب مباشرة بواسطة موظفى الإدارة . قال : ” إنى لم أقصد من طرح هذه الضرائب على الأهالى جلب وفر لجانب الميرى فقط بل إنى رأيت فى ذلك نفعاً وسهولة يعودان على الجانيين معا . فقد تيقنت ما يلقاه الأهالى من الظلم والجور والأذى والخسارة من الملتزمين حين يأتون الى القرى التى التزموا عشرينها ويقيمون فيها فأكول الملتزم ورجاله وعليق دوابهم وما كول معارفهم الذين يمترون عليهم فى أثناء السفر جميع هذا على حساب الأهالى وليس بإمكان هؤلاء أن ينقلوا غلالهم من البيادر ما لم يأمر الملتزم بذلك . فقد تبقى هذه الغلال على بيادرها حتى موسم الخريف وتتعرض للتلف والفساد من جراء سقوط المطر . ولو فرض حدوث مظالم وأكل حقوق بموجب النظام الجديد فانه سيكون نادرا كما أننا لا نحجم عندئذ عن إجراء التحقيق اللازم . ولقد سألت شيوخ القرى بين الشام وحلب جرمانوس لدى مروره فيها إننا سمعنا أن ضرائب العشر ستطرح على الأهالى بالمقطوعية فقل لنا ماذا تم^(١) .“

هذه نماذج متنوعة من أقوال العزيز وابنه ورجاله الذين قاموا بأعباء الحكم فى الشام زهاء عشر سنوات . وقد اقتبسناها مما بقى من أوراق الإدارة فى ذلك العهد . ورائدنا فى ذلك إظهار الرسالة التى تمس لها العزيز ودرجة تطبيقها . والشهادة التى تشهد بها هذه الأوراق لاحتياج إلى الكثير من الجرح والتعديل . فهى أقوال المسؤولين من رجال الإدارة وقد دوت فى زمن وقوعها . ولم يقصد بها قائلوها أية مصلحة شخصية أو دعاية عمومية لأنها كانت سرية أو على الأقل غير مباحة للجمهور .

(١) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ٤٦ : المحفوظات ج ٣ ص ١٢٠ — ١٢١ .

حكهما في الشام بوجوب إرسال عشرين أو ثلاثين صبيا من بر الشام إلى مصر لتعلم صنع الجوخ والطرايش ولإدخال هذا الفن إلى بلاده "فتتحول إذ ذاك أرباح الأجانب من هذه البضاعة إلى أبناء البلاد"^(١) . ووفقا بعد مدة وجيزة "على إنشاء معمل لصنع العباءات في عكة تدار دواليه بواسطة الميساه وإصدار الأمر لإرسال الدواليب والمدفات اللازمة من مصر^(٢) . وكان إبراهيم يعير الزراعة في الشام شطرا وافيا من اهتمامه الشخصي فتراه يستطلع رأى الجنب العالى "هل يسمح بإعفاء من يحيى الأراضى المهمولة بغرس الأشجار والعنب من الأموال تشجيعا له أم لا"^(٣) ونرى اللواء أحمد بك يكتب الى ابراهيم نفسه مينا عدد القرى والمزارع التى تم إحياؤها حتى سنة ١٢٥٢ فيقول أن عددها في جهات حلب وحدها بلغ الرقم ٨٥ وأن عدد الأفدنة التابعة لهذه القرى والمزارع نفسها بلغ الرقم ١٠٣٧^(٤) . ونلمس في موضع آخر وصول بعض رجال الاختصاص الذين درسوا الزراعة في فرنسا إلى فلسطين والتحاقهم بمصلحة تطعيم الأشجار^(٥) . وحى العزيز وابنه مصالح التجار الوطنيين فمنحاهم الامتيازات نفسها التى كان يتمتع بها التجار الأجانب واستغلا لهذه الغاية ظرفا دوليا دقيقا . وتفصيل ذلك أن الحكومة الانكليزية كانت قد احتجت لدى الباب العالى على جباية بعض الضرائب المستحدثة في بر الشام . فقامت الحكومة المصرية تغض النظر عن جميع الرسوم الجمركية وتطلق حرية التجارة لاستمالة جميع الأوروبيين الى جانبها كى يقول هؤلاء "إذا كان الإنكليز قد رجعوا الى الدولة في أمر تافه فمحمد على رفع جميع الرسوم من تلقاء نفسه^(٦) . ثم استطرد العزيز فساوى بين التجار

-
- (١) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٩٥ : المحفوظات ج ٢ ص ٣١٣ .
 - (٢) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٥٤٠ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٣٥ .
 - (٣) عابدين محفظة ٢٤٨ رقم ٢٤٣ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .
 - (٤) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ١٧٠ : المحفوظات ج ٣ ص ١٤٨ .
 - (٥) عابدين محفظة ٢٤٧ رقم ٢٠ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٢٦ .
 - (٦) عابدين محفظة ٢٥٢ رقم ٢٩١ : المحفوظات ج ٣ ص ٩٩ .

من الأمور ويحتفظ بالرأى الأخير لنفسه . فهو إذاً من دعاة الحكم المطلق الذين يصغون لأصحاب الرأى . وميزاته الكبرى بين حكام العرب فى العصور الحديثة أنه كان يحب النظام ويحترمه ويلج فى تطبيقه إلحاحاً شديداً فيطلع يومياً على جميع التقارير الإدارية وغير الإدارية التى كانت ترفع إليه فيبدى رأيه فيها ويردّها للتنفيذ . ومن ذلك قول إبراهيم إلى والده عن عكة : ” إني لم أكتب شيئاً من ذلك إلى الأعتاب الكريمة لأن التقارير اليومية ترسل كل يوم إلى الجنب العالى فيطلع منها على جميع الوقائع ولا شك فى أنه قد أطلع على ما يوجب إصدار هذا فرمان فأصدره بدون أن يكون لى أدنى علم بذلك^(١) . ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن معاون العزيز كتب إلى حنا بحرى بك ينقل إليه رضى العزيز عن تقاريره ويطلب إليه أن يرفقها بترجمة تركية لأن ” الجنب العالى ” يؤدّ الاطلاع عليها لدى وصولها . فإذا وردت وهو فى دار الحريم تعذر نقلها .

وقام العزيز بنفسه يأمر حنا بحرى بك بوجوب إرسال محاضر المجلس فى دمشق يومياً إذا لا فائدة من تأخيرها لديه حتى تتراكم فترسل دفعة واحدة^(٢) .

وقدر العزيز ابنه إبراهيم حق قدره فسلمه قيادة الحملة على الشام وجعله حاكم الأقطار المحتلة . وما أن بدأ هذا البطل أعماله فى الشام حتى شعر بوجوب فصل القيادة عن الحاكمية فطلب إلى والده أن يعين حاكماً عاماً محله يعنى بإدارة الأراضى المحتلة ورشح لهذا المنصب الرفيع الأمير اللبناني الكبير بشيرا الثانى وعندما اعتذر الأمير عن قبول هذا المنصب الجديد طلب القائد المصرى تعيين محمد شريف بك أحد أقرباء العزيز وحاكم الصعيد فى المنصب نفسه فلبى شريف الدعوة وجعل دمشق مركزاً لحكمه واتخذ لنفسه لقب حاكمدار الآلات الشامية أو كتيخداى

(١) عابدين محفظة ٢٣١ رقم ٥٨ : المحفوظات ج ١ ص ١٤٠

(٢) عابدين دفتر ٣ رقم ٦٩ : المحفوظات ج ١ ص ٢٥١

(٣) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٢٧٢ : المحفوظات ج ٢ ص ١٨٢



ولا بدّ قبل الخوض في الكلام عن هيكل الإدارة من إجلاء أمرين أساسيين هامين أقولهما حدود الشام والثاني صلاحيات العزيز. فالشام في عرف العزيز ورجاله شملت آنئذ أيبالات حلب ودمشق وطرابلس وصيدا وسنجق القدس ونا بلس . بيد أن قلة الثقة بين السلطان وبين العزيز أدت إلى مفاوضات شاقة حول الحدود الشمالية الشرقية لأيبالة حلب وإلى أخذ ورد نتج عنه غموض في المراجع الأقوية يضيع الباحث ويحيره وجل ما يمكننا أن نقوله الآن بهذا الصدد هو أن الفرات كان بوجه إجمالي الحد الفاصل بين الأراضى التابعة لحكم العزيز وبين سائر الولايات الشرقية وأن عيتاب وكلس وقسما كبيرا من كورد داغ وقعوا جميعا ضمن الحدود المصرية . والأمر الثاني الذى لا مفرّ عن الانتباه اليه هو أن العزيز بقى من الناحية القانونية حتى سنة ١٨٤١ واليا من ولاية السلطنة يحكم جزيرة كريد ومحصلية أدنة وأيبالات الشام والحرمين الشريفين وما يليهما ومصر بموجب أمر سلطاني يوجه اليه سنة فسنة . ولكن الواقع الذى لا جدال فيه هو أن هذا الولى كان أقوى ولاية السلطنة وأجدرهم بالحكم وأنه كان يضاهى السلطان نفسه قوة وعزة ومجدا وقد تمكن بالفعل من قهر الجيش السلطاني ومن أسر قائده الصدر الأعظم نفسه . ولذا فإننا نرى علماء الشام يعترفون بالواقع فيخاطبون العزيز بالعبارات التالية :

اللهم يا واجب الوجود منك نسأل وبرسولك الأعظم إليك نتوسل بدوام عز دولة ولىّ النعم صفى الشيم الدستور الوقور (المكرم والمشير المظفر والمعظم أعظم الوزراء في العالم مدبر أمور جمهور أخص وأشرف بنى آدم الخديوى الأعظم أدام الله تعالى ظل أهبه دولته ونصره وتأيده في الأمم أفندم سلطانم^(١)) .

ولم يختلف رأى العزيز في نفسه وفي صلاحيته عما تقدّم فهو المرجع الأعلى في الحكم وحكمه لا يرتدّ ولكنه يرى هو أن يشترك الأعيان في حكمه فيستشير في كثير

ويدت في بعض الدعاوى الحقوقية البسيطة ويتعاون ومجالس المشورة في حل المشاكل الإدارية المهمة ، وكانت هذه المجالس تتألف من عدد معين من أعيان المدن والقرى وتمثل فيها جميع الطوائف تمثيلاً نسبياً ، أما صلاحية هذه المجالس فإنها لم تكن فيما يظهر دائماً واضحة محددة . فبينما نرى مجلس حلب ينصرف بكليته تقريباً للمحافظة على مصالح الحكومة المأذية نفاجاً بأمر من العزيز إلى ابنه إبراهيم يستنسب فيه إنشاء مجلس شورى في قونية ^(١) للنظر في أمور تلك البلاد ومصالحها وإصدار البيانات اللازمة لتشويق الأهالي وحضهم على الطاعة ^(٢) ونرى في الوقت نفسه مجلس بيروت ينظر في بعض الدعاوى الحقوقية التجارية التي لا علاقة لها بمصالح الحكومة .

وكان العزيز بنوع خاص شديد الاهتمام بالمال يقول : " إن النقود رأس كل عمل ، ويوجب بذل المهمة في تحصيلها على كل محب مخلص له " ^(٣) ولا غرو في ذلك فالمال المقنن عليه سنوياً للآستانة فقط بلغ في أوائل عقده في الشام ١٩٨٧٧٦٥ غرشاً . ثم طلب منه بموجب جداول ممثلة في الآستانة ٥٠٢٢٠١٥ غرشاً ^(٤) وإذا ذكرنا المبالغ الطائلة التي يستوفي بها رجال الآستانة ونفقات جيشه العظيم وأسطوله الكبير وإدارته الواسعة إذا ذكرنا جميع هذا رفعنا لومنا عن هذا الرجل القذ في تمسكه بالمال وفي إلحاحه على رجاله بوجوب جمعه وضبطه .

شعر العزيز بما تقدم فأنشأ في الشام إدارة خاصة للمال وعين على رأسها برتبة مدير حنا بحرى بك ثم أرفق كل متسلم في البلاد بموظف مالى خاص أطلق عليه لقب الصراف . وحاول بحرى بك أن يجمع ما أمكنه من المال وأن يقوم بواجبه

(١) راجع كتابنا الأصول ج ٤ ص ١٠٧ ٢٣١ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٠ ورقم ٣٣٧ ؛ المحفوظات ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ١٧٧ : المحفوظات ج ٢ ص ١٦٩ .

(٤) عابدين دفتر ٤ رقم ٣٢ : المحفوظات ج ٢ ص ٢٩٣ .

خديو أعظم وحكمدار أيلات عربستان أو ما قارب ذلك . ومما كتبه الحكمدار في هذا الموضوع إلى أعيان حلب مثلاً قوله ” لا خفاكم ما فاضت به بحور إحسانات سعادة أفندينا ولى النعم الخديو الأعظم عزيز مصر المعظم دام ما دام العالم وذلك بتفويض أحكام أيلات الأقطار الشامية لعهدة عجزنا الخ^(١) “. .

وما أن اتخذت هذه الخطوة الأساسية حتى تفرع عنها خطوات أخرى فقسمت البلاد إلى مديريات أربع وإمارة متمتزة وأشرف الحكمدار بنفسه على مديرية دمشق وتولى أعمال مديرية حلب أحد أنسباء العزيز إسماعيل عاصم بك وقام بأعمال الإدارة في مديرتي طرابلس وصيدا كل من يوسف بك شريف والشيخ حسين عبد الهادي وولده بعده . أما لبنان فإنه بقي في عهدة شيخه الجليل وأميره الكبير واكتسب عزاً في ظل العزيز لم ينله من قبل واحترم استقلاله الداخلى احتراماً تاماً . قال الحكمدار إلى القائد العام : ” فكتبت أستعلم عن موضع إقامة مير أفندى فتبين أنه مقيم في قرية مشغره الكائنة بداخل الجبل المتحول لحكومة الأمير بشير فأوقفت إرسالى الفرسان للقبض عليه واكتفيت بعرض الحالة على الأعتاب السنية “. فأجيب الحكمدار : ” يجب أن تشعر الأمير بشير بمن أخبرك بهذا الخبر^(٢) “. وهناك دليل آخر على استقلال هذا الجبل : عندما أوشك حكم العزيز أن ينتهى ، وبدأت أصابع الدول تلعب في لبنان كتب ريتشارد وود عميل بريطانيا الأكبر آنئذ الى الأمير بشير ما نصه بالحرف : ” لم يجب تخشوا من وجه كون الأربع دول المشار اليهم يتعهدوا بأن يعطوا لجبل لبنان تلك الشرايع والحزبة السالفة مع الإنعامات التى كانت تتمتع بها الأهالى تحت أحكام السلاطين^(٣) “. .

وكان على رأس كل مدينة أو قرية كبيرة من هذه المديريات وقراها متسلم يعينه الحكمدار بموجب أمر رسمى صادر عنه ، وكان المتسلم يعنى بأمور الإدارة ،

(١) راجع كتابها الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد على باشا ج ٢ ص ٥٠ — ٥١

(٢) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ١٣ : المحفوظات ج ٤ ص ١٩٠ .

(٣) عابدين محفظة ٣٦٠ رقم ٢٢٤ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٣٢ .

والالتزامات يتولى بحث الأوراق العديدة وتدقيقها هناك ثم يبعث بملخصة بحثه ونتيجة تدقيقه الى مصر . يفضل الجنب العالى هذا على إرسال الدفاتر والأوراق المتنوعة الى مصر ويستطيع رأى شريف باشا بالأمر^(١) .

وعهد العزيز بعد موافقة ابنه إبراهيم الى سليمان باشا الفرنساوى بمراقبة شؤون الأجانب فى الشام . فحاول هذا ضبط هويتهم وأمر بتطبيق قوانين التجول المتبعة فى البلدان الأوروبية . ففرض على الأجنبي وجوب اتصاله بقنصله للتأشير على جواز سفره لدى وصوله الى الشام ووجوب مثوله أمام السلطات المحلية للحصول على شهادة هوية يبرزها عند الطلب . وكان إبراهيم باشا قد عهد الى إسماعيل عاصم بك مدير أمانة حلب بمراقبة الحدود التركية وتنظيم شبكة للجاسوسية للغرض نفسه . فلما بدأت علاقات العزيز مع السلطان تنازمت من جديد أراد إبراهيم باشا أن ينشئ قلم استخبارات عسكرية برئاسة المسيو إليه رئيس الاستخبارات بجيزة كورسكه^(٢) . وعنى إبراهيم عناية خاصة بتحسين المواصلات ولا سيما بتنظيم البريد العسكرى وقسمه الى قسمين بريد عادى وبريد مستعجل فكانت رسائله المستعجلة تصل من بعلبك الى مصر فى ستة أيام . ثم أراد إبراهيم أن يخدم الجمهور فأمر بإعداد مشروع خاص لإنشاء بريد عام ينقل رسائل جمهور الناس . وما أن علم قنصل بريطانية فى دمشق بهذا حتى احتج مدعيا أن إنشاء بريد عام يضر بالبريد الإنكليزى الذى كان يصل بيروت بدمشق . فاستدعى العزيز قنصل بريطانية العام اليه وفأوضه فى الأمر فوعده بالتدخل . فأمر العزيز ابنه إبراهيم

(١) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ١٢٣ و ١٢٥ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٠

(٢) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ١٩٦ : المحفوظات ج ٢ ص ١٥٢

(٣) عابدين محفظة ٢٥٦ رقم ١٦٣ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٤١

(٤) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٨٠ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٤٧

”كحجب مخلص“ ولكنه لم يفلح فعرض عندئذ على العزيز مشروعا لإصلاح الحال يلخص بما يلي :

(١) تحديد المبالغ المطلوبة من كل مديرية ومدينة وقرية وطبعها بوضوح دفاتر معينة وطبع غيرها للحاسبة وتعليم خطباء القسرى وفقهائها استعمال هذه الأوراق والدفاتر وتعيين خطيب لكل قريتين أو ثلاث وتعيين ”معاون“ لكل خمسين قرية يشرف على أعمال الخطباء وكاتب يقوم بتعليمهم عند الحاجة .

(٢) مراقبة القرى وحمايتها من جور التجار واعتداء أصحاب القوة والاقتدار وشذوذ الموظفين واستخفافهم بالقانون .

(٣) إعداد دفاتر خاصة يوضع على رأس كل صحيفة من صحائفها رقمها المتسلسل وتختتم بخاتم ديوان الحكومة وتوزع على الجهات التي تستعمل فيها .

(٤) الاهتمام بضبط المكاييل والموازين وإبطال ما كان مختلا منها .

(٥) جرد النقود الموجودة لدى الصيارفة في أوقات غير معلومة وفحص حساباتهم^(١) .

وعندما تم إصلاح الدواوين في مصر وانتهى على تقسيمها إلى أقلام أسس قلم خاص ”بمصالح بر الشام“ . فكتب العزيز إلى الحكمدار يقول : لما كان لبر الشام ككل قطر من الأقطار مصطلحات وقواعد قد يستشكل أمرها ويستبهم فهمها على رجال هذا القلم فالجناب العالي يطلب إلى شريف باشا أن يختار رجلا ذا فطنة ودراية مطاعا على قواعد بر الشام فيرسله عاجلا إلى مصر ليستقيم في القلم المذكور فيستعان بعرفانه عما يلزم حينئذ فحينئذ . ثم يعود فيقول : ”أنه عاد ففكر في كثرة أيلات بر الشام فاستبعد وجود رجل واحد تيسر له معرفة أصول كافة الأيلات ولذا فانه يرى أن يستحدث في بر الشام قلم صغير خاص بمصالح المقاطعات

من يقوم بهذه المهمة . فإذا وافقت الإرادة السنية على تعيينه قام هو في التفتيش وقمنا نحن بتفتيش^(١) آرائه ” .

والغريب المستغرب أن القائد العظيم شكى كل هذا ولكنه لم يربط بينه وبين تأخر مرتبات هؤلاء الموظفين تأخرا قد لا نجد مبررا له . قال رحمه الله في الرد على الخطاب الذي التمس فيه الحكمدار صرف مرتبات نظار المستودعات مرة كل أربعة أشهر : ” أيها الباشا إذا كان لهؤلاء طلب فلنا واحد وعشرون مرتبا . وقد كتبت اليك غير مرة في مسألة النقود وكانت تأتي منك كتب يحتوي كل منها على أربع مائة سطر لا ذكر فيها للنقود . وهل يرضى الله تعالى أن ينال الناس في أحضان أزواجهم ويظل الجنود التعساء تائهين في الجبال وبين الصخور وليس لديهم نقود ” . وكتب الى الأمير بشير في الموضوع نفسه مانصه بالحرف : ” وردت ورقكم المتضمنة خصوص استنظار العيسوية من شأن صدقة . يا مير يلزم في هذا الخصوص تحلم علينا . في الواقع يقولوا الصدقات ترد البلاد وتزيد العمر . ولكن في حقنا العسكر بقا لهم واحد وعشرين شهرا لم أخذوا نصف فضة . وقال بحري بك في كتاب رفعه الى ابراهيم باشا ما معناه : لقد تفضلتم في أثناء وجودكم في هذه الجهة فأصدرتم إرادتكم العلية بصرف مرتب شهرين من مرتبات الموظفين الملكيين بعد صرف مرتبات أربعة شهور للعساكر . والآن وقد تم صرف مرتبات أربعة شهور للعساكر فاني أعرض ما يلي :

إن الموظفين الملكيين مثل المتسلم والكتاب أصبحوا في حاجة الى قوتهم اليومي من جراء عدم صرف مرتباتهم الموقوفة . وحيث أنهم أصحاب أولاد وليس لهم مورد رزق آخر فلا يبعد والحالة هذه أن يفتروا عن أداء الواجب وأن يمدوا بضغط

(١) عابدين محفظة ٢٥٦ رقم ١٣٣ : المحفوظات ج ٣ ص ١٧٤ — ١٨٤

(٢) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ٤٣ و ٤٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٠٦ و ٢٠٨

بوجوب المضي في العمل وإجراء التغييرات اللازمة لإنشاء البريد الجديد . وقيل^(١)
انتهاء الحكم المصري في الشام أمر العزيز بإنشاء أبراج للاشارة بين مصر والعريش
ورأى أن المصلحة تقضى بإكمال هذه السلسلة وأنشأ أبراج للاشارة بين العريش
وعكة^(٢) . وكان سليمان باشا الفرنساوى قد اقترح على سامى بك معاون العزيز إنشاء
طريق تصل بيروت بدمشق وطريق أخرى تربط قرنايل ببيروت^(٣) .

وأراد إبراهيم إصلاحا حقيقيا فرقب الإدارة الجديدة رقوبا شديدا وتفهم ضعفها
فكتب مرارا وتكرارا الى القاهرة يشكو الاضطراب الذى وقع في هذه الإدارة
ويعزو ذلك إلى إهمال الموظفين وانصرافهم عن المصالح العامة الى ملذاتهم وشؤونهم
الشخصية ومن هؤلاء محمد شريف باشا واسماعيل عاصم بك . وتولى تفتيش الإدارة
بنفسه فألفاها ملوثة تلويثا ووجد بحرى بك مهملا ولمس تراكم أعمال المجلس في دمشق
سنة ونصف سنة فأمر بحبس أعضائه في قاعة المجلس الى أن يتموا رؤية الشؤون
الموقوفة . وشكى ارتباك الأمور في أيالة صيدا بنوع خاص فأفاد أن رجلا أتى اليه
وادعى أنه بإمكانه أن يثبت أن متسلم غزوة اختلس ما لا يقل عن ألفى كيس وأنه
قرر أن يقضى فصل الشتاء في أيالة صيدا للاعتناء بشؤونها . وكتب في إحدى رسائله
الى معاون العزيز يقول : ”أخى، تعلمون أنى مريض أتمتع بالصحة يوما فينتابنى
المرض يومين وأنى أتثقل من محل الى آخر لإخماد الثورات التى تظهر بدون انقطاع
ولذا فإنى لا أقدر على إدارة الشؤون العسكرية والمدنية فى آن واحد . فلا بد والحالة
هذه من تعيين شخص يكرس وقته للشؤون المدنية . وإنى أرى فى شرعى أفندى خير

(١) عابدين محفظة ٣٥٨ رقم ٢٤٦ ومحفظة ٢٥٩ رقم ١١ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٣٦٦ : المحفوظات

ج ٤ ص ٢٨٨ و ٢٩٨ و ٣٠٨ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٨٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٥٨ .

(٣) عابدين محفظة ٢٥٤ رقم ٣٦٥ : المحفوظات ج ٣ ص ١٦٨ .

من حيث التجنى عليهم وإتهامهم بدون حق لغرض ما . والأهالى الآن يؤدون
الويركو على نحو ما هو مسجل فى سجلات المحاكم لا أكثر ولا أقل . إننى أدفع أثمان
جميع حاجياتى اللهم إلا إيجار المنزل الذى أقيم فيه وثمن الماء الذى أشتريه وأنا
متكفل أمر استقامة العساكر وحسن سيرهم^(١) .

ومن ميزات هذه الحكومة أنها كانت تميل إلى المشاورة فى الأمور قبل إبرامها
وإنها كانت متنورة تحب العلم وتشجع طلابه موظفين وعاديين وقد أشرنا سابقا
إلى ترقية الضباط الذين أثبتوا مقدرتهم على القراءة والكتابة . ونزيد الآن أن
الحكمدار كتب مرة إلى معاون العزيز يفيد أنه أعلن لمن يعنيه الأمر من موظفى
الحكومة فى الشام استعداد ديوان المدارس لبيع بعض الكتب التى كانت تطبع
فى بولاق وإنه مقدم لنا القوائم التى وردت عليه من الشام وحلب وطرابلس
واللازقية وغزة ويافه : أما الكتب المطلوبة فهى قانون الصناعة وعقرب الساعة
وكتاب الحكمة وعلم الحساب وتاريخ أميركة وكتاب المعاون والتشريح البشرى وقلائد
المفاحر وعقد الجمان وشرح المشنوى وكليلة ودمنة وتاريخ قدماء الفلاسفة وتاريخ
الإسكندر وتاريخ المصريين والجغرافية الطبيعية وكتاب الطبيعة وأخلاق علانى
وكتاب الطاعون وكتاب الفطر وتاريخ إيطاليا وابن عقيل وتطعيم الجدرى والتشريح
العام ورحلة الشيخ رفاعه وقانون الزراعة وإنشاء الشيخ عطار وكتاب المنطق وصناعة
الأقرباذين واللوغرتمة وجر الأثقال وتاريخ الأديان وكتاب الجراحة والفسولوجية
والبتالوجية^(٢) . ونرى هنا بجرى بك يتوه بأهمية تاريخ ابن خلدون ويذكر المساعى
التي أمر الجناح العالى ببذلها لاستنساخه عن نسخ المغرب ولتقله إلى التركية ثم
يرجو التفضل بإرسال ما ترجم منه كي يمتز أولاده عليه ويعلمهم أصوله^(٣) . وقد

(١) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٢٣ : المحفوظات ج ٤ ص ٣٠٥ .

(٢) عابدين محفظة ٢٥٧ رقم ٢٠٤ : المحفوظات ج ٤ ص ١٧٦ --- ١٧٧ .

(٣) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٥٧ : المحفوظات ج ٤ ص ٣١٧ .

الضرورة أيدى العتب والتطاول الى المصالح الأميرية المحولة إلى عهدتهم وإلى أموال الأهالى . ولذلك فإنى أقترح ما يأتى : يصرف مرتب شهرين لمن أوقف مرتباتهم ستة أشهر ثم يصرف مرتب شهر واحد فى كل شهرين كما هو جار مع أفراد الجيش^(١) .

ولم يكتف إبراهيم بمثل هذه المطالبات الرسمية . فإنه هدد أكثر من مرة بالاستقالة فكان لتهديداته وقع أليم فى نفس والده ” ولا سيما وأن هذه التهديدات صدرت عن ابن العزيز الذى هو من صلبه^(٢)“ .

هذه هى حكومة العزيز فى الشام ومميزاتها الكبرى إنها كانت حكومة قوية أحلت النظام محل الفوضى والارتباك . قال إبراهيم عن حكمه لمرعش وأورفة : ”إننى فى خلال المدة التى وليت فيها القيام بخدمة الجنب العالى الخديوى لم أتسبب فى أذية أى إنسان ولم أعمد إلى إيقاع الضرر بملك أو مال أى فرد من الناس . وهذا أمر يعرفه جميع أولى الأبصار كما يعرفه جميع أهالى البلدان التى جبتها وأهالى البلدة التى أقيم فيها الآن . ولما كنت أعامل الضباط والعساكر حسب نصوص القوانين ولا أحيد عنها فى علاقتى معهم قيد شعرة فقد ائتمروا هم أيضا أثرى ولم ينحرفوا عن هذه القوانين . إننى وإن كنت لم آت بعد أورفة فإننى منذ عشرة أشهر أقيم فى مرعش ولقد أعلن وجوه الأهالى فى مرعش المرة بعد المرة أنهم لم يتمتعوا طيلة حياتهم بمثل حكمنا العادل . أعلنوا هذا فى أسواق البلدة وفى جامعها الكبير وهم يقولون لقد كانوا فى العهد السابق يستولون على ما فى بنادرنا من غلال وينهبون أشمار بسايتنا وهب الله سلطاننا العمر الذى لا يفنى وعساه ألا يحرمنا من وزيرنا هذا العادل أى العزيز نفسه ذلك أننا لا نعاملهم كما كانوا يعاملون قبلا

(١) عابدين محفظة ٢٥٧ رقم ٢٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) عابدين محفظة ٢٤٨ رقم ١٧٩ : المحفوظات ج ٢ ص ٢٨١ .

القسم الثاني

التاريخ الحربي

الجيش الذى قاده ابراهيم

للبكاشى عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى

لم يرث محمد على مدكا موطن الدعائم منظم الأركان . ولم يهبه الله دولة كاملة الموارد مستحوذة للسيادة ! بل أتى إلى مصر — كما لا يحفل أحد — ضابطا برتبة البكاشى ضمن أفراد حملة تركية ، ابتغاء طرد الأعداء من أرض الوطن .

وما زال يدرج به الحال ، حتى استقرت له الأمور ، وأسلم اليه القيادة ، بما أحرز من فطنة بادية ، وبما تحلى من شخصية ظاهرة . وصار على رأس وادى النيل . الربان الأمين ، يوجه السفين بيد حكيمة ، وعين بصيرة ، رغم ما تحوطه من أنواء عصفاء ، وأمواج هدارة .

وأحس بشئ فى أعماقه يربط مصر بحياته ، ويستحثه لأن يخلص لها الحب ، ويوفى إليها بالجهاد . فنذر لها العمر بما فيه من بذل وجهد وتضحية .

فانطلق يقطع الشوط تلو الشوط — مناضحا ومجاهدا — سنين طويلة ليجعلها أمة خليقة بالاستقلال ، جديرة بالحياة . وقد واثاه التوفيق بل ما هو أكثر من التوفيق ، وظفر بتحقيق ما ساور رأسه من أمان . رغم ألوان الصعاب التى واجهته ، وأشتات المتاعب التى بثت فى طريقه .

وغنى عن القول إن إنشاء الجيش المصرى كان الدعامة الأولى التى حقق بها معظم أمنيته ، بعد إصلاحه أداة الحكم فى مصر ، واكتسابه عطف العالم الإسلامى ، ثم عنايته برفع مستوى البلاد الاقتصادى .

فكيف تها لهذا العاهل الكبير إعداد مثل هذا الجيش الذى تشيد صفحات التاريخ بمفاخره ، وتكاد تنحني هامة الزمن قبالة فتوحاته . كيف عاجل هذا القائد

”أمر الباشا جميع العساكر بالخروج إلى الميدان قبيل الفجر للتعليم على طريقة الإفرنج إلى الضحوة فأخذوا في الراحة والبندقية المتواصلة المتتابعة مثل الرعود ورجعوا داخلين في المدينة في كبكبة عظيمة وداسوا أشخاصا بخيولهم بل وحميرا أيضا“.

وقد دبر الجنود غير النظاميين مؤامرة واسعة النطاق بين جوانح القاهرة في وجه هذا المشروع الجريء . فنشهدهم ينسابون أو يتوزعون في طرق المدينة ينهبون ويهشمون بل ويقتلون كل ما صادفهم في طريقهم . ولولا الذين تصدّوا لهم من الأهالي بالبنادق، وغلق أبواب الأحياء والمتاجر، لكانت الحال أفظع ! .

ولكن قابل محمد على هذه الحركة اللاذعة بسمت الحلم والأناة . وتسنى له أن يستغل تلك الحوادث المنكرة لخدمة مشروعه العظيم . وبادر إلى إبداء مظاهر استيائه وعوامل استنكاره بما اقترفه المتمردون — وأكثرهم من شبان المماليك والألبان — وقزر تعويض جميع التجار الذين نهبت حوانيتهم ، مما جعل الشعب يلهج بالثناء عليه ، ويسخط على الجند المتمردين . بل وكان في هذا العمل دعاية طيبة ” للنظام الحديث “ .

وظفق الباشا يبيء الوسائل لإدخال ذلك النظام ، الذي لم يقدم على تنفيذه إلا سنة ١٨٢٠ ، بينما كان يتحين الفرص تدريجيا للتخلص من أدران الجنود غير النظاميين ، وإبعادهم عن القاهرة ، حتى لا يكون احتشادهم فيها عونا على تمزدهم ، وباعثا لتجديد الفتن ، فوزعهم على الثغور المختلفة .

وفي هذا السياق نأتى على ما سطره الجبرتي في حوادث عاشر المحرم سنة ١٢٣١ —

١٢ ديسمبر ١٨١٥ :

”رجع الباشا من الإسكندرية وأقل ما بدأ به إخراج الجنود مع ضباطهم الى شمال الدلتا وجهة البحيرة والثغور فنصبوا خيامهم بالبر الغربى والشرق تجاه الرحمانية وأخذوا صحتهم مدافع وبارود وآلات الحرب واستمروا خروجهم على دفعات كل يوم وذلك

الأسباب والمسببات التي أفضت به إلى الحصول على "إدارة عسكرية" كانت لها صولة وجولة ، في عهدنا المنصرم ! ؟

ينبغي أن نعود إلى الماضي ، ونقفو آثار الخطوات التي انتهجت ، والمجهودات التي اختطت ، ففيها الضوء ، وعليها الإبانة .

من البدهة بمكان ، إنه لم يك في مصر جيش منظم يستند عليه محمد علي ، لتأسيس ملكه الجديد . فبذل همه ، مذ تبوأ الولاية ، في تهيئة جيش وطني من أشبال البلاد . ولكن مثل هذه الفكرة الصائبة يَلْتَمِها في نفسه متحجنا الفرصة الملائمة لتنفيذها ، ورأى من الحكمة — مهما استطل الوقت — ألا يتعجل في إيقاظها . وظل يستخدم جنوده من أخلاط الأجناس العثمانية في حروبه لمعاونة سلطان العثمانيين ، في بلاد العرب واليونان ، وفي حملته السودانية . وكانت هذه الجيوش تنتهج الأساليب الحربية العتيقة ، سواء في مطالب التسليح أو طرائق القتال . حتى إذا خرج ابنه القائد إبراهيم ظافرا ، أقدم الوالد بما أوتي من الشجاعة الأدبية ، والسعة الفكرية ، على تحطيم آئنه الحربية القديمة ، ليستبدل بها آلة أخرى من نوع مستحدث .

وشرع محمد علي بالفعل — وقد اختمرت الفكرة — في تنفيذ الخطة . وبمعنى أوضح لكي يبيئ في وادي النيل جيشا جديدا مدربا على أحدث القواعد والنظم العسكرية .

واستهل محمد علي سبيله الشائك بأن راح يقنع قواد الجندية بأفضلية النظام المبتغى وما زال بهم حتى أفضى الأمر أن يتقبله بعضهم . فلم يأت أغسطس عام ١٨١٥ حتى أشاع رغبته الملحة على رؤس الأشهاد ، وصحبها بما يتسمى بـ "التنفيذ" .

وقد وصف الخبرتي مؤرخ ذلك العصر ما حدث من الجند عقب المحاولة الأولى التي أرداها الفشل ، ونراه يسجله بين أحداث (٢٥ شعبان عام ١٢٣١ هـ — ٣ أغسطس عام ١٨١٥ م) فيقول :

عن الأخرى مدى ربع ساعة . وأمره بأن يتعاون مع أحمد باشا طاهر متصرف
حرجا ، لكي يستكمل العمل سريعا .

وفي التاسع عشر من أكتوبر من العام الآنف (١٢ المحرم) صدر أمره الى
مدير دنقلة لتشييد ثكن بالصعيد الأعلى بمعرفة محمد بك لآظ أوغلو ، ليكون مأوى
السودانيين المجندين من السودان ، وأوصاه ببذل ما يستطيع من الجهد والهمة . ولم
ينس أن يكتب الى محمود بك مدير بربر وشندى يشير له باستعمال الوسائط الضرورية
للعناية برعاية السودانيين ومأكلهم ومشربهم وسفرهم برا وبحرا ؛ لأنه وصل الى
مسامعه نزول تلف جسم بهم في خلال الطريق . كما أشار — في خطاب بنفس
المعنى — الى نجلة إبراهيم باشا والى جدة وأمره بوضع النظم والتسهيلات التي
تكفل تسيير أحوالهم في متباين الظروف .

وفي نفس الوقت (١٣ المحرم ١٢٣٨ هـ) صدر أمر من محمد على الى محمد بك
لاظ أوغلو ذكر فيه أنه انتخبه دون سواه لوثوقه به ناظرا على الجهادية — مؤسسته
الجديدة — ومن معه من الضباط المعينين وأغلبهم من غلمانه الذين رباهم ، وأن
له أملا أن يسلكوا السلوك الحميد .

ميلاد النظام العسكرى فى وادى النيل

وفي السابع عشر من شهر فبراير عام ١٨٢٢ (٢٥ جمادى الأولى ١٢٣٧ هـ)
صدر أمر من محمد على الى أحمد باشا طاهر ذكر له فيه أنه لضرورة إعادة الجنود
الترك من السودان لعدم تحملهم حر البلاد استصوب جمع أربعة آلاف مصرى من
الوجه القبلى لينضموا الى محمد بك لآظ أوغلى ناظر النظام العسكرى ، ومن يجمع يرسل
الى سليمان بك أغا (الفرنسى) معلم الجنود باسوان ، لتعليمهم حسب مقتضيات
النظام الجديد . وبعد خدمتهم ثلاث سنوات يعودون لبلادهم ويعافون من جميع
التكليفات . وإنما يعتدون من الجنود ما داموا على قيد الحياة . وكان هذا أول
تأسيس للنظام العسكرى بمصر .

لإبعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة واستهل ربيع الأول عام ١٢٣١ هـ وفيه سافر طوسون باشا وأخوه إسماعيل باشا الى ناحية رشيد ونصبوا خيامهما (عرضيهما) عند الحماد وناحية أبي مندور (من أعمال مركز دسوق) وذلك لكي يدخل على الجند أنه أخرج معهم أنجاله للحفاظة ومعهم الكثيرون من كبراء البلاد الى جهة البحر الشرقى ودمياط .

وقال عن بناء الثكنات للجند الذين شتتهم محمد على بالأقاليم : إن الباشا أمر ببناء مساكن للجند الذين أخرجهم من مصر بالأقاليم يسمونها القشلاقات بكل جهة من الأقاليم لسكن الجند المقيمين بالنواحي لتضررهم من الإقامة الطويلة بالخيام في الصيف والشتاء واحتياج الخيام في كل حين الى المحافظة والعناية بها .

واضطلع محمد على بمحاولة ثانية — وهو الصبور الذى لا يئأس — عقب حملته في السودان ، فأمر بجلب عدد من السودانيين ليجندهم ، غير أن المرض أنشب أظفاره في جسمهم ، حتى كاد يستأصل شأقتهم . فأخفقت تجربته الثانية .

فلم يتبق قبالة محمد على — والحالة هذه — إلا أن يرجع الى الأمر الطبيعى ، وأن يعهد بالدفاع عن مصر الى سواعد بنينا البررة .

وكان أن أنشئ المعسكر الأول لتدريب النواة الأولى للجيش في ربوع اسوان . وتشاء الظروف المواتية أن يصل الكابتن سيف الى مصر ، فيطلب اليه أن يكون رئيس المدربين العسكريين في المعسكر الجديد . ثم بعث بابنه إبراهيم ليشرف على تدريب الغلمان الذين يعهد اليهم في قابل حياتهم مهمة تدريب الجند (يوليو عام ١٨٣٠) .

وفي الثالث من أكتوبر عام ١٨٣١ (٦ محرم ١٢٣٧ هـ) صدر أمر من لدن محمد على باشا الى محمد بك لاط أوغلوناظر الجهادية ، أشار به الى تعيين أمين أفندى المعمارى للقيام ببناء ثكنات اسوان ، تسع كل ثكنة ألفى جندي ، على أن تبعد الواحدة



ابراهيم باشا

ومثل هذا النظام الحدث، كان بحاجة ماسة الى إقناع القائمين به قبل سواهم بقيمته، وتوجيه نظرهم الى أهميته، وما يعقد من الآمال على نتائجه، لكي يعنوا به عناية وفيرة ويؤتي ثماره . ولذا لم يك بدعا حين نرى محمدا عليا يبعث برسائله في هذا المعنى الى المختصين .

فمن رسالة وجهها الى ناظر مصلحتي اسوان وفرشوط يقول :

” لقد اقتضت التجليات الإلهية التي أظهر الله فينا آياتها أن يخرج هذا الأثر الجليل — أى النظام الجهادى الحديد — من حيز القول الى حيز الفعل فى زمان شيخوختنا فإذا عسانا صانعون ؟ ... اللهم إلا أن نكون قد أدبنا على قدر كبرنا خدمة للدين المبين وأن نكون قد ضاعفنا ما اكتسبنا من مجد وشهرة “ .

وجاء فى رسالة أخرى كتبها لابنه إبراهيم بمناسبة تجنيد الفلاحين ما بلى :

الى مولانا صاحب الدولة إبراهيم^(١) باشا

لما كتبنا الى أحمد باشا متصرف جرجا والى محمد بك ناظر مصلحتي أسوان وفرشوط أمر جلب وجمع الأفراد المعلمين المراد تدريبهم من الأقاليم الصعيدية أدرجنا لهم وسطرنا أن يفهموا من مقتضى الحال أنها مهم أن يكون كل واحد من هؤلاء الأفراد متوطنا فى القرية التى يجلب منها وإذا أهل وسكن فيها وليس من أولئك الدخلاء الشاردين الذين لا يضبطهم رش ولا يقفهم زمام وأن يحتر هؤلاء الأفراد بمعرفة حكام أقاليمهم وبكفالة شيوخ قراهم بحيث يكونون مستقرين فى أماكنهم مهئين للطلب وأن يثبت فى الدفتر أسماء قراهم وأسمائهم وأسماء آبائهم وأنهم سيستخدمون ثلاث سنين ويعطون فى أثناء خدمتهم لحما وأرضا مقلقا مرتين فى الأسبوع ومرتباً قدره ثمانية قروش كل شهر والكسب اللازمة لهم فى كل عام ثم يطلقون ويسرحون بعد السنين الثلاث وتسلم إليهم وثائق مختومه تتيح لهم الإقامة فى قراهم معافين من التكاليف .

(١) المكاتبة التركية رقم ١٦٨ دقتر ١٠ معينة تركى بتاريخ ٦ رجب سنة ١٢٣٧هـ (مارس ١٨٢٢) .

وقد جاءنا والحالة هذه عثمان أغا^(١) أمين ملا بسنا فقال لنا إن الفلاحين المتوطنين لا يحتررون بل سيفرون وأن متصرف جرجا وناظر مصلحتي أسوان وفرشوط يشاهدان هذه الحالة فيميلان الى تحرير الفلاحين الدخلاء . وأنه اتخذ طريقا يتر بكم فخرج عليكم وأخبركم بما هو واقع ومع أن هذه المصلحة الخيرية ظاهر أنها من الأمور الدينية وبديهي وظاهر أنها على كل حال ستكون موجهة للسعادة إلا أنه لما لم يكن من عادة الفلاح ولا من طبعه أن يقبل على هذا الأمر فلم يكن ثمة ما يوجب إرغامه عليه ولا معاملته بالعنف فيه بل كان يلزم تحرير الفلاحين وتجنيدهم باستدراج عقولهم إليه وذلك بتفهمهم تدريجا أنه أمر منطوي على الخير ويملا آذانهم بالأقوال التي تستوجب حسن قبولهم إياه وقد يكون ذلك بواسطة الواعظين والفقهاء الذين يمزنونهم على الانعطاف إليه وتولية وجوههم شطره فالذي يلوح لي هو أنه لم يشرع في إنشاء أساس هذه المصلحة على هذا الوجه الذي تتطلبه طبيعة العمل فيها بل اعتبرت كمسائل السخرة وعولجت كيفما اتفق فكان هذا داعيا الى إباء الفلاح وامتناعه . وعلى هذا التقدير فلو كتبتم سعادتم الى متصرف جرجا والى ناظر مصلحتي أسوان وفرشوط بمراعاة قاعدة التدرج وعدم اتخاذ سبيل الجهر في التجنيد بل تلقين الفلاحين وملء آذانهم واستدراك آذانهم بواسطة الوعاظ والفقهاء ولو أن الطرق التي من شأنها جلب الفلاحين أرشد إليها ودل عليها لكان من البديهي أن يقترن هذا العمل بالتنفيذ على وجه السهولة كما أن من البديهي أنه لو ذكر الفلاحون مثلا بأن الفرنسيين لما أرادوا أخذ عسكر من القبط لم يخالف القبط في ذلك ولم يتخلفوا عنه نظرا لما هو معلوم من غيرتهم على الكفر فاذا كان هذا شأن القبط فلا بد من أن الفلاحين الذين شرفوا بنور الإيمان تأخذهم الغيرة على ذلك فلا يمتنعون عن قبول هذه المصلحة الخيرية لما خلا تذكيرهم بمثل هذه الأقوال من الفائدة . فاذا سارت الحال على هذا النهج فحينئذ لا يحتر الجنود من الدخلاء الشاردين بل يقيدون كما نفضل ونستصوب من

(١) اللواء عثمان نور الدين باشا فيا بعد .

وأن الأغوات الموجودين لدى خورشيد أغا والقائمين بتعلم فن الهندسة صار قيديهم في الأورط وأن الذين يقومون منهم بالواجب تبذل لهم الرعاية والاحترام والذين لا يقومون بالواجب يسرحون . وأنه ورد من لدن نجلنا الباشا سر عسكر السودان ٩٥٠ نفرا من العبيد على دفعتين فوزع منهم ٧٥٠ على الأورط كما إنه ورد منى طرف نجلنا الباشا السر عسكر المشار اليه ٤٥٠ جملا فقام حاكم بربر بسوقها نحوكم إلا أن عربان البشارة قطعوا عليها الطريق واعترضوا مسيرها واستولوا عليها فنبلغكم سرورنا وحبورنا من غيرتكم وحميتكم المشهورتين ولا يخفى عليكم أى متظر منكم الأخبار كل خمسة عشر يوما لما تقتضيه الظروف الحالية وعليه يجب أن تبادروا الى بذل حميةكم فى إشعارنا وإبلاغنا أخبار تلك الجهات كل خمسة عشر يوما بانتظام .

أوامر محمد على إلى ضباطه^(١)

وفى ١٢ المحرم ١٢٣٨ هـ (٢٩ سبتمبر ١٨٢٢ م) وجه محمد على الى نواة ضباط جيشه الجديد بأسوان رسالة تفصح عما فى مكنون نفسه للنهوض بدولته الجديدة — قال لهم :

مرسوم إلى ضباط الجيش بأسوان

اليكم يا مفاخر الأماثل والأقران بكباشية جنودنا — الجهادية المقيمين فى اسوان وضباطهم من رتبة الصاغ قول أغاسى والصول قول أغاسى واليوزباشى والملازمين وحاملى الأعلام والضباط الآخرين ... نبلغكم أن سلك الجهادية الشريف هو أعز المسالك وأكرمها من الوجهتين الاندينية والشعبية وأن الشئون الحربية هى أهم الشئون والمصالح بالنسبة للحكومة والوطن . وقد أثنى الله سبحانه وتعالى أحسن الثناء على من سلكوا هذا المسلك القويم فى قرآنه الكريم وبين نبينا الكريم المبعوث للإنس والجن كافة فى حديثه الشريف مقدار ما يصيب سالكو هذا الطريق من العزة والشرف والسعادة من كل الوجوه .

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧٥ — دفتر رقم ١٠ معية تركى يتاريخ ١٢ محرم سنة ١٢٣٨ هـ (٢٩ سبتمبر سنة ١٨٢٢ م) .

المتوطنين المستقرين وعلى هذا فان مما يوافق المصلحة أن تتذاكروا وتبحثوا مع أهل المجلس ثم تكتبوا الى كل من الموما إليهما رسالة على الوجه المحتر بعالیه .

سير العمل فى المعسكر

وحین أقبل الثامن عشر من رجب عام سنة ١٢٣٧ هـ (١٠ أبريل سنة ١٨٢٢) صدر أمر من محمد على الى ابراهيم أبان فيه عن وصول تقرير من سليمان أغا ومن أحمد أفندى المهندس ومن عثمان نور الدين، أساتذة العلوم العسكرية، عن تشكيل وتمهئة النظام الجديد — وعلم منه أن مشروعه ينطوى على تأليف أورطین مکونتين من ١٩٤٣ جنديا بقيادة لواء . وهذا الترتيب اتبعه نابليون على مقياس كبير وهو لا يوافق عليه، ويرى أن يجتمع لديه الضباط لوضع ترتيب التشكيلات العسكرية . وفى خطاب آخر نرى محمدا عليا يبدى الموافقة على شريطة أن يؤلف الآلاى من ألف الى ألف ومائتى جندى على غرار ترتيب السلطان سليم العثمانى .

الوحدات العسكرية الجديدة

وكان ناظر الجهادية على اتصال مستمر بالباشا — يبلغه نتيجة أوامره أولا بأول ، ويفيده بما يتم إنشاؤه من الوحدات الجديدة . والوثيقة الآتية تبين لنا تأييد هذا رأى .^(١)

من الجتاب العالى إلى ناظر مصالح اسوان وفرشوط :

قد علمنا من مكاتبتكم الواردة أنه صار تنظيم الأمور اللازمة للأورطة المشاة فى اسوان وفرشوط بحسب الحاجة وانضمام رأى حضرة صاحب العطفة نجلنا الباشا والى جدّة وأن نجلنا الباشا المذكور قد عاد إلى مصر وأنكم قصدتم إلى اسوان ولما وصلتم إليها أنشأتم ثلاثة أورط أخرى فبلغ مجموع الأورط أربع عشرة أورطة

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧١ دقتر رقم ١٠٠٠ مكية تركى ورقة ٧٢ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة ١٢٣٧ هـ

(١١ سبتمبر ١٨٢٢ .)

من الجانب العالى الى ناظر اسوان وفرشوط

تعلمون أن المصالح العسكرية الجلية أهم من كل أمورنا وشئوننا وقد توقفنا الى تنظيمها وتسوية أمورها وأن تنفيذ هذه النظم مناط على اهتمام رجالنا الصادقين وبناء على ذلك قد انتخبك من بين أولئك الصادقين وأحلت عليك هذه المهمة الجلية ... إن فريقا من الأغوات الممالك قد عنيت بتربيتهم ونشأتهم ويغلب على ظنى أنهم وصلوا الى درجة الرجولة ونضجوا وأنظم قاموا بتعليم هذه الرجولة الى الفريق الآخر . فان كان الأمر كذلك حقا فلا بد أن يقدر أولئك الذين عنيت بتربيتهم هذه النعمة حق قدرها ويراعوا حقوق هذه العادة فان قيام واحد من بينهم بعمل ينافى مبدأ الرجولة اسبب قلة أدبه وعقله أو سلك طريقه مخالفا للشروط فلا يقتضى إلا تسريح أمثال هذا الرجل وأن العقلاء الذين يديرون حركة مثل هذه الجماعة لم يراعوا الخاطر فى وقت ما أبدا ولم يظاهروا قط أوائك الذين يتسببون فى الإخلال بروح المصلحة ، ولو كان أخاهم ، لا بل أبرهم ؛ فاذا تقتر ذلك فانى أيضا شديد الأمل أنهم لا يظاهرون أحدا من بين الذين تربيتهم ونشأتهم من أمثال أولئك السفهاء قليلي الأدب والإدراك وإذا ما دعى أحد رجالى المعتمدين لدى . وقال : إنى وإن كنت لا أظاهر فلانا ولكن كيف أصل الى إفهامه الكلام وهو عديم الفهم قليل الإدراك . ففى هذه الحالة لا يقتضى بقاء مثل هذا القليل الفهم ثمة فان كان ذا شارب فدائرة أغوات الحرم مفتحة الأبواب فأرسلوه إلينا وليأت ليكون أغا للحرم وإن كان لما ينبت شارب فالحقوه بالحاج حسين أفندى الموجود فى ذلك الجانب ليتعلم وإذا ما ظاهر أحد من رجالى الذين أعتمد عليهم واحدا من ذوى العقول الغليظة بسابق الشبوبة وأهمل فى إبعاده ثم ظهرت بإدارة منه من وقت ما مخالفة للشروط بسابق قلة الإدراك واقتضى الأمر مس المصلحة التى أوجدها بالتعب والمشقة فى ذلك الوقت يعجز رجل المعتمد الذى ظاهر ذلك الشخص عن الاجابة ولا ينبو ذلك الشخص من يدى .

يا أيها البكاشية وغيرهم ... لقد وانا كم السعد ونالكم الحظ الأوفر وأمدكم التوفيق الأزلى بجاء كل منكم وأصبح مظهرها للطف والعناية ومصدرا للشرف والسعادة كل على قدرها وتراعى حقوقها فهذا التقدير وهذه المراعاة لا يكونان مرة أخرى إلا إذا تركتم عاداتكم التي كنتم مطبوعين عليها ونبذتموها ظهريا وتشبثتم بقواعد المسلك الجديد والحمد لله فكل منكم محترم الجانب مرعى الخاطر وكل قوانينكم ونظمكم موافقة فارجعوا الى أنفسكم واقروا ضمائكم واعملوا بمقتضى الرجولة واسلكوا سبيلكم بمقتضى الإنسانية ... وليقم كل منكم ببذل همته في أمور تعليم وتدريب الموجودين في أوطانكم ولا يهملن في ذلك وإيسع الى أن يكون كل شئ منظما أحسن نظام وفقا لقوانينكم وقواعدكم المقترزة .

أما ناظركم محمد بك : فهو رجل الأمين الوفي وهو ناظركم الرؤف بكم كأنه أبوكم فراضاؤه رضائى وإدارته إدارتى . فلا تخرجوا من رأيه ولا تحرفوا عن طاعته ولا تحيدوا عن إدارته بأى حال من الأحوال . ويقضى واجبك بأن تكونوا يدا واحدة فتقوموا بالاتحاد على إجراء ما يوافق القانون والنظام والابتعاد عن كل ما يخالفها واصرفوا رويتكم في تنفيذ هذا النظام ولا تغفلوا عنه ولا تهملوا فيه أبدا . وقصارى القول إن ما نؤمله فيكم أن تراعى المواد التي ذكرتها لكم وهذا مادعانا الى تسطير مرسومنا هذا وإرساله اليكم فلهذا وصوله بمشيئة الله تعالى اقرءوه وكلكم حاضرون واعملوا بمقتضاه .

الجيش في نظر محمد على

وحدث أن بلغ محمد على أن بعض رجال الجيش في أسوان قد ارتكبوا بعض الذنوب — فكتب الى ناظر اسوان وفرشوط يبسط له الرأى الذى يتهجه في علاج هذه الحالة الطارئة ويبقى على عاتقه تصفية مجرى الأمور ... فيقول :^(١)

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧٦ دقر رقم ١٠ معية تركية (ورقة ٤٧) بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٨ هـ (٣٠ سبتمبر سنة ١٨٢٢) .

من يليق بأن يكون ضابطاً ثم يكمل العدد الباقي من الأتراك . ولما كان الجنود الترك لا يقاسون بالممالك فاذا ما انتخبوا — ضابطاً فإنه يجب العناية جهداً باستعدادهم واستحقاقهم ولذا يجب أن تهتموا بذلك ولا تجهزوا الإهمال أو الغفلة .

وبعد إنشاء الأورط المذكورة تقرّر أن تبقى أربعة أورط منها في إسوان وأورطتين أو ثلاثة في فرشوط والأورط الباقية تعسكر في القرى التي أعطى بيان بأسمائها إلى محمود أغا السالف ذكره فعليكم أن تستبقوا الأورط المقررة بقاؤها ثم ترسلوا الأورط الأخرى إلى الجهات التي تقرّر نزولها فيها . وحيث أنه يقتضى تعيين موظف كناظر للإشراف على ما كولههم ومشروهم فعليكم تعيين النظار الذين ينتخبونهم من بين رجالكم وإبلاغهم التنبيهات اللازمة وإرسالهم مع الأورط . ومن المستحسن توزيع كل ما يرد من العبيد الذين سيقدمون من السودان وكردفان على هذه الأورط بالتساوى فاعملوا على توزيع كل طائفة ترد في أى وقت على هذه الأورط بالتساوى بدون زيادة أو نقصان .

أما أوامرنا الأخرى فقد أحلنا أمر تبليغها على دراية محمود أغا المذكور وحسن إفادته فستحيطون علماً بها منه — وهذا ما دعانا إلى تحرير مكاتبتنا هذه وإرسالها إليكم^(١) .

معنويات الجند

وكان من جملة التدابير التي اتخذها محمد على لإقناع الجمهور برعية النظام الجهادى الجديد أنه أمر بوجوب قراءة الفاتحة قبل الشروع بأعمال التدريب "لأنها جامعة للفيوضات الأزلية" . فقد ورد في خطاب صدر عنه إلى محمد بك ناظر مصالحتي إسوان وفرشوط ما يلي :

(١) وثيقة تركية رقم ٣٢٧ — دفتر رقم ١٠٠ بحية تركي ورقه ١٤ بتاريخ ١٣ محرم ١٢٣٨ هـ (٣٠)

انظروا يا أولادى... لقد جاهدت سبعة وثلاثين سنة حتى أوجدت هذه الجماعة بأمل إسداء خدمة لديننا الدين المحمدى نخدمتم وإذا كانت من الظاهر لنا فهى فى الحقيقة لله ورسول الله . لو كنتم تقدرون قدر هذه الخدمة على حقيقتها لكنتم أقدمتم على العمل لدوامها وقيامها بأكثر من اهتمامكم الحالى ألف مرة ولسعيم لنيل الأجر الجزيل من الله تعالى ولطلبتم الحصول على الذكر الطيب من عباده .

وقصارى القول إن وقاية هذه الجمعية المباركة من تطرق الخلل إليها فرض علينا . وعليه فقد حررنا أمرنا هذا بطلب التوسل بالأسباب الكفيلة بوقايتها وأرسلناه إليكم فإذا ما وصل إليكم بمشيئة الله تعالى نطلب منكم أن تعقدوا مجلسا خاصا — وتقرؤه فى مواجهة الجميع وتعتنوا فى إفهامهم مزاياه .

تنظيم الجيش

وإذا طرحنا الخطاب السابق جانبا، نلقى محمدا عليا ينهض بنفسه لتنظيم الجيش، ولا يدع صغيرة أو كبيرة إلا ويتعهد بها بالموالاة ووضعها فى نطاقها .

وخلال الرسالة التالية يستبان لكل ذى عينين أن هذا العاهل كان لا ينى عن تتبع أفكاره بما نسميه التدعيم، ولا يكف عن الاسترسال فيما استهدفه ...

من الجنب العالى الى ناظر أسوان وفرشوط

إن الأورط التى نظمت فى أسوان وفرشوط كانت بلغت الى الخامسة عشرة . وقد اقتضى إنشاء أربع أورط من السود فى أسوان فى الوقت الحاضر فاعملوا على إنشائها . ثم عينوا البكاشية والقول أغاسية والملازمين وحاملى الأعلام — واليوز باشية اللازمين لها وفقا للتعليمات الشفوية التى أدلينا بها الى مندوبكم محمود أغا . فإذا لم يتيسر إكمال عدد الضباط الموجودين فى أسوان فيمكن أخذ الضباط اللازمين من أورط فرشوط أو من القوة الموجودة بمعية إبراهيم أغا وإكمال النقص منهما . وحيث أن المالك أجدر بالمعاونة بالنسبة للجنود الاتراك فيجب البدء بهم فيؤخذ من بينهم



سلیمان باشا الفرنساوی

” إن فاتحة الكتاب (سورة الفاتحة) لا ريب في أنها جامعة للفيوضات الأثرية فإذا ما قرأها جنود الجهادية في أيام التدريب قبل الشروع فيه ثم بأشروا التمرينات عقب القراءة لكان ذلك مستوجبا للفيض والبركات — فالمأمول منكم أن تبلغوا حضرات البكاشية سلامنا وتفهموهم أن إرادتنا تقضى بقراءة الفاتحة قبل التمرينات النهارية والتمرينات الأخرى “ .

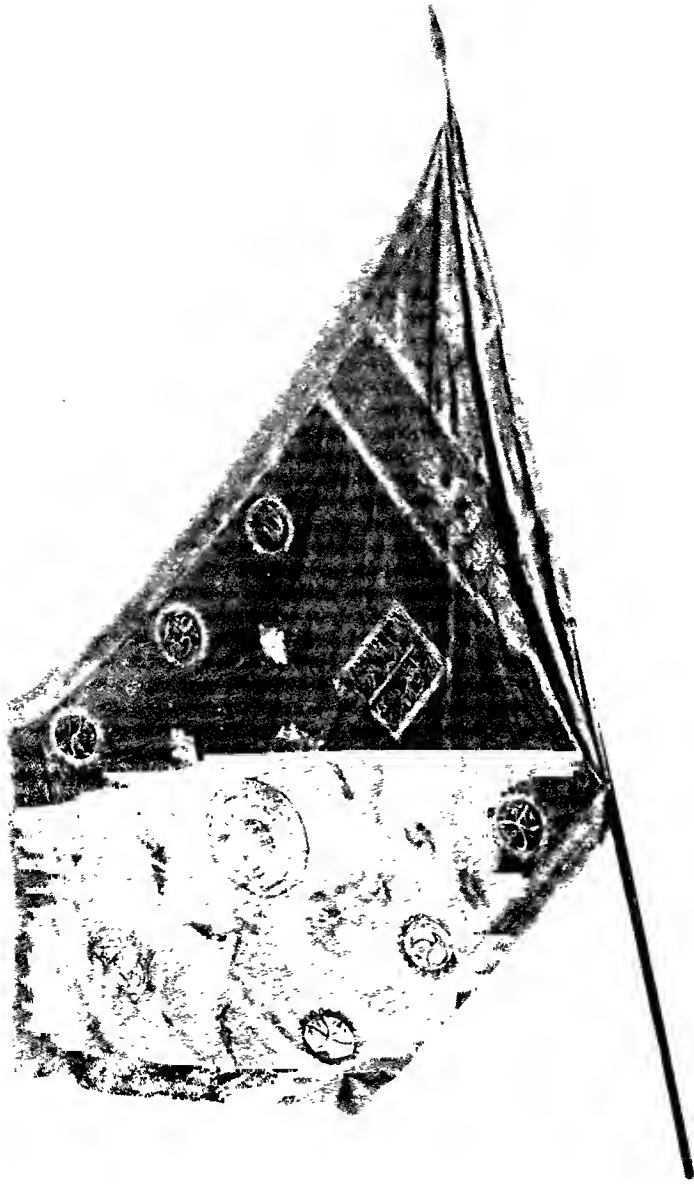
وقام من طبقة العلماء من ناصر ” العزيز “ في مشروعه الجديد وأكد للشعب المصرى أن النظام الجديد يتفق وأصول الشرع الشريف وقواعد الدين ” الخفيف “ . ومثال ذلك أن شيخ الاسلام آنئذ الشيخ محمد العروسى أوعز الى الشيخ خليل الرجبى أن يؤلف كتابا في تاريخ محمد على باشا يظهر فيه مآثر العزيز وخدماته وأن الشيخ الرجبى خصص المقالة السابقة من كتابه هذا ” النظام الجهادى الجديد “ مبينا فيها شرعية هذا النظام مؤيدا ذلك بخمسة أدلة ملخصها ما يلى :

(١) أن حفظ النغور الاسلامية وتحصينها بالعساكر الجهادية لإرهاب الأعداء المحاربين وإدخال قلوبهم هيبة المسلمين واجب شرعا وفرض محتوم أصلا وفرعا .

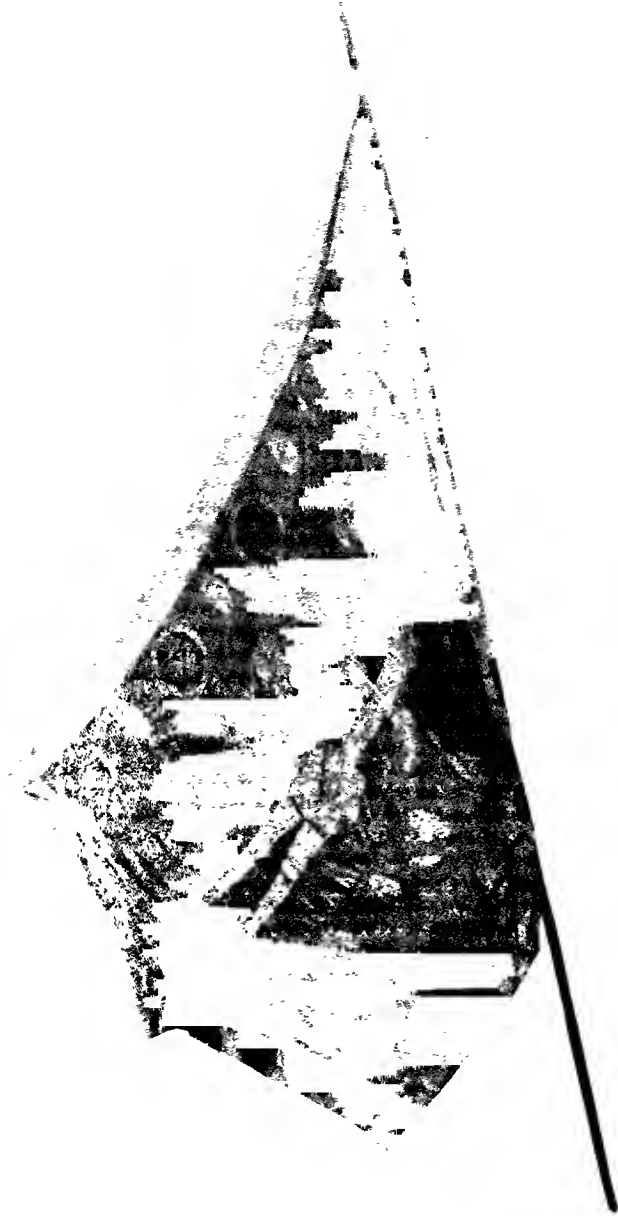
(٢) أن الصبر وحده لا يفيد فى الدفاع عن بلاد المسلمين إذ لا بد له من أن يقترب بالطاعة والنظام .

(٣) أن كتب الفروسية مشحونة برقم الصفوف وتنويعها إذ هى أشكال وصنوف هندسها الأوائل وأهمها الأواخر فبدت باهمها أهوال الغوائل وليس أمرها فى المؤمنين مبتدعا ولكن تركوا صنع السلف فلا ترى أحدا من الأواخر لهم متبعا ... وحيث كان الشأن ذلك وأمكن الأمير إعادة ما كان من تلك المسالك

(١) كتاب تاريخ الوزير محمد على باشا للشيخ خليل الرجبى — مخطوطة جامعة بيروت الأمريكية رقم ١٨٣٧٩ ص ٣ ومخطوطة دار الكتب الملكية .



علم ابراهيم باشا في معسكره
(الوجه الأول)



علم ابراهيم باشا في معسكره
(الوجه الآخر)



أمیر اللواء خورشید طاہر باشا

وتعليم طوائف من المؤمنين صناعة الفروسية و تعريفهم اشكالها واختلاف الصور وإتقان هذه الكيفية فقد وجب شرعا المبادرة إلى هذه الصناعة وحرم عليه إن تأخر وأبدى امتناعه وله إذا أقدم على هذا الشأن الجليل الرضوان من الرحمن مع الثواب الجزيل .

(٤) أنه لما قوى العدو بإدمان هذه الصناعة وضعف المؤمنون بترك هذه البضاعة حصل الضرر والإضرار وبدت المنابذات والمناضلات من الكفار وحينئذ فيخشى على الأماكن والدور من سطوات أهل الجحود والفجور وكذلك الثغور المعلومة التي هي لأذهانهم وأبصارهم مشاهدة مفهومة وحيث كان الأمر على ما قلناه وبحسب ما ذكرناه ووقعناه فإنه يجب على أعيان المسلمين وأهل الحل والعقد من الموفقين أن يخاطبوا أمير القطر في تحصيل أجناد ترهب الأعداء وترهقهم بالحرب إذا تواقفوا بالبيداء بتعليمهم كيفية الحرب وأشكالها إذ هي ضرورية حيث تميزت الأعداء في هذه الصناعة العظيمة وملكوا بها الجهات الجسيمة فيلزم حينئذ أن يتعلمها أجناد المؤمنين ويتقنوا عرفانها أجمعين ليدرؤا الشر بمثله ويطاردوا العدو بوزان صنعه وشكله ومن تأخر عن ذلك فقد باء بإثم كبير وناداه لسان الشريعة المحمدية بالنكير .

(٥) أن حفظ الدين والنفوس والأعراض والأنساب والعقول والأموال واجب شرعا وذلك متوقف على القوة لرد الأعداء الصائلين على الأموال والنفوس ولا سيما إذا كانوا كفارا فيزداد عند ذلك الخوف على الدين والعرض مع المال والنفس ولا شك أنه إذا وقع الخلل في الدين والعرض والمال تلف العقل أو كاد وضاعت النفوس والأنساب في الأماكن والبلاد فكان الخوف من الكفار جامعا لكل مفيد ومتلفا لكل سيد تقى عفيف فإذا ظهرت من الخوف أسبابه وطغى العدو وسال عبايه وضعفت الأجناد عن مقاومته ومضاربه ومضارعتة وجب على الأمير بالقطر إحضار جند معلمين عارفين بصناعة حرب الكفار مقاومين يدرؤن

من الجنباب العالى إلى وإلى جدّة^(١) :

”فى أوائل رمضان جند عدد وافر من الفلاحين من الوجه البحرى توطئة لإلحاقهم بالعساكر الجهادية . فأحضروا إلى مصر وأرسلوا بواسطة المأمورين إلى الجهات المطلوب إرسالهم إليها بريد أن الأعمال الحربية دقيقة والقيام بأعبائها يتطلب وجود الشبان الأقوياء على حين أن أكثر الذين جندوا كانوا عليين كبار السن لا يصلحون لشيء وقد اتصل بنا أن العساكر الذين من هذا القبيل يعادون إلى قراهم وعليه فقد لزم أن يعنى بأمر تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد بحيث لا يجندون كيفما اتفق وهذا ما حملنا على أن نكتب بتاريخ ٢ شوال و ١٢ يونيو إلى الأفندى ناظر الأقاليم البحرية نخطره بوجوب اجتماعه والأغوات النظار لتداول الرأى فى هذا الصدد أو أن يحضر معهم إلى مصر لبيان رأيهم فى هذا الشأن لإقرار الخطة التى يجب السير عليها وأن لا يطيل هذه المسألة وينظر فى أحسن الطرق المؤدية إلى تنفيذها . وفى يوم الثلاثاء ٨ شوال و ١٨ يونيو وهو اليوم الذى يجتمع فيه المجلس حضر الأفندى الموما إليه والأغوات النظار إلى شبرا حيث بسط الموضوع وأفهموا أن عددا وافرا من الفلاحين الذين أرسلوهم فى أوائل رمضان قد أعيد بعضهم من مصر والبعض الآخر من الجهات الأخرى وأن الذين أبقوا منهم دون المأمول فاستأذنوا بمناسبة تقرب أوان الزراعة أن يرجأ تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد إلى ما بعد الانتهاء من التحضير وبما أن التماسهم يتنافى والمصلحة فقد أجيبوا بما يتفق والموقف وأكد عليهم بوجوب جمع وتجنيد العساكر المطلوبة على أن أهالى مصر لا يفهمون الجندية كما يفهمها أهالى أوربا كما أن هيئة الحكومة عندنا ليست بقدر هيئة الحكومة فى أوربا ومن البديهي أنه لا يستطيع والحالة هذه تجنيد العساكر وفقا لأصول الجهادية المقررة وعليه فإن من الجلى الواضح أن الواجب يقضى علينا أن نجند العساكر حسبما يتيسر لنا وأن نستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن نوفق بين مصالحنا وحالتنا وأن نرى أعمالنا على

(١) المقصود هو إبراهيم باشا .

الصفوف وصنوفها وترتيب ضربات وصروفها ووجب عليهم تعلم صناعة حرب الكفار إن لم يكن لهم بها إلمام وتذكار ليدروا الشر بمنله وينقمع العدو بطبق صنعه وشكله وهذا محتم في الوجوب وفرض لازم على هذا الأسلوب لتوقف حفظ ما تقدم عليه وما توقف عليه الواجب فهو واجب يعول عليه ^(١).

كان محمد على مخلصا لدينه شديد الحرص عليه فسعى جهده في أن تكون معنويات الجيش قائمة على أساس هذا الدين تستمد منه قوة ومناعة . وبهذا استطاع أن يحظى بتأييد جميع عناصر الأمة . ولعل من الخطأ أن نقل من أهمية هذه الظاهرة أو أن نزع كما زعم بعض المؤرخين أن جيش العزيز كانت تنقصه الروابط المعنوية . فإن في هذه الظاهرة وحدها ، في مثل ذلك العصر ، ما يكسب الجيش قوة معنوية تؤلف بين أفرادهم وتحضهم للدفاع عن حياض الوطن والدين .

التجنيد ومصلحة الشعب

ولم تنقص محمد على ، على شدته ، تلك المرونة التي يتحلى بها عظماء الرجال وكبار قادة الأمم — لين في غير ضعف وشدة في غير عنف . فقد ارتأى بثاقب بصره حين كان إبراهيم باشا يتولى أمر جمع الجنود في الأرياف ، أن هناك شيئا من التبرم عند فريق من الأهالي في بعض المناطق . فدرس الأمر ووجد أن حالتهم الزراعية لا تسمح لهم في ذلك الوقت بتلبية مثل هذا الطلب . فبعث إلى ابنه إبراهيم بكتاب ملؤه الحكمة يذكر له فيه : الاختلاف بين الشعب المصري والشعوب الأوروبية التي عرفت مثل هذا النظام ، والفرق بين الحكومات الأوروبية وحكومة مصر ، ويسأله أن يجند العساكر حسبما يتيسر ، وأن يستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن يوفق بين المصلحة والحالة ^(٢).

(١) وثيقة رقم ٣٧٩ معية تركية دفتر رقم ١٠ بتاريخ ١٤ محرم ١٢٣٨ هـ وكذلك تاريخ الوزير محمد على باشا للشيخ خليل الرجبى ص ١٧٠ — ١٨٤ .

(٢) سجل ١٦ معية تركي — وثيقة ٢٠ ص ١٩ بتاريخ ٨ شوال ١٢٣٨ هـ .

والملازم جولز بلانا المدير والمؤسس للكلية الآنفة . وفيلكس منجان قنصل فرنسا العام . والدكتور كلوت بك مؤسس الخدمة الطبية العسكرية في مصر . والمالى كادلين وزميله دى بروفرى اللذان اكتشفا بعض المجهول في إقليم النوبة . ومما هو قمين بالتنويه في هذا المجال أن ” بليار “ كان على اتصال بـ ” بوييه “ . يرأسه باستمرار ويتبدى مما كتبه له أنه لا يوافق مطلقا على اشتراك محمد على في حملة المورة خشية أن تفقد فيها مصر جيشها القى ! وكان يرى من الأصوب أن ينسحب محمد على من هذا المشروع ولا يجابه الأمم المسيحية . ويجنى ثمار النصر بالوسائل السلمية لتحظى مصر بالتقدم وتستمتع بالمدينة الحديثة .

وقد أتح بليار مرة أخرى ليوحه نظر محمد على الى وجهة أخرى فيها فائدة كبرى لمستقبل مصر ، ويجعل لها قوة يدفعها صوب الشرق الأدنى وأفريقية ، مما يفتح لمصر أبواب التوسع والرفاهية ، بدون أية خسارة مرتقبة ^(١) .

ومن المتفق عليه أن محمدا عاليا كان مقتنعا بهذا الرأي . بيد أنه لم يك بعد واثقا من قوته ، ومن نتائج محاولته ، ليقطع العلائق مع أمير المؤمنين . وكان يأبى المغامرة خوفا من فقد ملكه الجديد .

والواقع أن حرب المورة وحرب انجاز كلفته كثيرا . فقد خسر فيهما حوالى ثلاثين ألف من خيرة جنوده . ثم إن التشكيلات العسكرية الجديدة التى نظمها سيف فيما بعد لم تك قد استكمل تعليمها وبعبارة أوضح كانت ناقصة الى حد يذكر . ولم يك غير الضباط العظام ملهين بالقراءة والكتابة مما جعل محاور أعمالهم يدور على محض الذاكرة . فلا كتب مأثورة ، ولا قوانين مطبوعة ، ولا تعليمات محفوظة . ولم يك من بينهم أحد يعتمد على الدرس والكتابة سوى القامقام أدهم بك ، الذى درس المدفعية في استانبول ^(٢) ، وقام برحلات شتى في انجلترا .

(١) Belliard a'Boyer. 10 Fevr. 1826, p. 103. رسالة .

(٢) جول بلانات — ص ٦٥ Jules Plant

تخير الجنرال بليار — أحد القادة الفرنسيين في المعاش — من القادة الإفرنسيين الجنرال البارون بوييه^(١) (General Boyer) ليكون رئيسا للبعثة العسكرية التي تنظم جيش محمد على الجديد . ومعه كولونيل المشاة جودا (Gaudin) والشقيقان أدولف وبولان دى تارليس و كان أولهما قائد كتيبة وثانيهما يوزباشى فى الخيالة . وبعض ضباط آخرين وطبيب . وتطوع ليفرون (Livron) للعمل بصفة شبه رسمية وكان على نصيب كبير من الفطنة . واكتسب فيما بعد ثقة الباشا وعينه مندوبا عنه لدى الحكومة الفرنسية بدلا من تورنو .

وصل بوييه الى اسكندرية مع معاونيه فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٢٤ ، وكان يستصحب هدايا ثمينة من أسلحة وذخيرة . فلما قدّمها للباشا تأثر هذا كثيرا من عطف الحكومة الفرنسية . وقال — بعد تجربة — إن البارود أحسن نوعا من الذى استورده من إنجلترا ! .

وحل الجنرال بوييه بالقاهرة حيث سكن فى قصر نفخ بمصر القديمة خصص لإقامته وليكون أيضا مقرا للرئاسة العامة للبعثة . وفى هذا القصر استملت الأعمال الأولى لمشروعات الجيش وتدريبه .

وقد جرى الاتفاق على أن يتصل بنفسه بالباشا للتفاهم فى كل ما يراه من آراء وما ينتمجه من خطط . كما جعل لجودان الإشراف على تعليم المشاة^(٢) .

ويتسنى لنا أن نقف على أعمال الجنرال بوييه من مخبراته مع بليار مدة ١٨ شهرا ومراسلات شهود العيان من أمثال بريس دافن الذى شغل بعض الوقت وظيفة أستاذ فى مدرسة المشاة بدمياط . ومدرسة أركان الحرب فى جهاد آباد .

(١) ولد الجنرال بوييه (١٧٧٢ — ١٨٥١) فى بالقورت — وكان برتبة ادجوتانت جنرال فى الحملة الفرنسية على مصر . وصار قائد فرقة فى عام ١٨١٤ . وعقب انتهاء مهمته فى مصر شغل قيادة كبرى فى الجزائر فى عام ١٨٣٠ .

(٢) جولز بلانكا — Histoire de la regeneration de l'Egypte ص ٧٣



أمير اللواء أحمد المنكلي باشا

وتجلبو الوثائق الآتية أهم المراسلات الخاصة بالبعثة العسكرية في عهد هذا الجديد، حينما زاول أعضاؤها العمل في الجيش ...

من الجنب العالى الى محمد بك ناظر الجهادية :

”لقد أرسلنا إليكم جناب المحترم الجنرال بويه وزميله الجنرال ليورون ومن في معيتهما من الضباط وهم الهيئة العسكرية التي استحضرت من دولة فرنسا، وحيث إن مرتبات الجنرال بويه والضباط وتعييناتهم اليومية مدرجة في عقودهم فعليكم أن تنظموها وفقا لما أدرج في العقود .

أما الجنرال ليورون فليس له عقد بل خصص له مرتب سنوى قدره ستة آلاف ريال ؛ فقيدوه في الدفاتر بهذا المرتب، وأصرفوه له لدى استحقاقه، وعليكم أن تصرفوا له أيضا تعييناته اليومية بحسب اللازم .

ولما كان هذا الجنرال بويه من رجال الحرب، وواقف على شؤون الجند، وخبير بفنون الحرب، فقد استحضرناه إلينا ابتداء الحصول منه على معلومات خاصة بالشؤون العسكرية ولا يخفى عليكم أجمعين ذلك . ولذلك لم تعد هناك حاجة الى تغيير أسمائهم ورأينا الاكتفاء بتغيير زيهم وملابسهم فاعلموا ذلك وضعوا خطة لاستخدامهم بموجبها بحسب ذلك ولدى وصولهم الى ذلك الجنب عليكم أن تساموا كل واحد منهم حصانا كامل العدة كالمعتاد واصرفوا لهم الملابس اللازمة على ألا يكتفى بإعطاء الجنرالين حصانا واحدا لكل منهما بل يزداد في عدد الخيل وأن تكون ملابسهم من النوع الجيد ويزاد لهما شال كشمير .

ولدى تشرف الجنرال المذكور بتقديم هدية ملكية رأينا فيه مخايل العلم والعرفان لذلك يقتضى إيفاء واجب الرعاية لهم والعمل على اكتساب المعلومات التي تؤدى الى ازدهار هذه المصلحة العسكرية من الجهة العلمية ما دمنا قد أنشأناها واضطرتنا كلنا الى تنظيمها أحسن نظام^(١) .

(١) وثيقة رقم ٤١٨ ورقة ٦٣ دفتر ١٦ معية تركي بتاريخ ١١ ربيع الثاني ١٢٤٠ هـ (ديسمبر سنة ١٨٢٤ م) .

من الجنب العالى الى محمد بك ناظر الجهادية :

”جاء فى مكاتبتكم الواردة أخيرا ما نصه : وصل الجنرال بوييه فأنزل فى منزل الخواجه جوانى الكائن بمصر القديمة ، وأن الجنرال ليورون والضباط آثروا الإقامة فى المعسكر ، فأعدّ لهم ما يحتاجون اليه من الخيام وغيرها ، وأنه خصص للجنرال ليورون مرتبه والتعيينات اللازمة ، كما أنه ربطت مرتبات الجنرال بوييه والآخرين وتعييناتهم بموجب عقودهم وأعدت حاجاتهم وفقا لطبائهم التى اعتادوا عليها ، ولما كان العقد الخاص بالجنرال بوييه ينص على إعطائه خمسة رؤوس من الخيل فصرف له حصانان روميان وحصان نجدى ، وسيعطى له الحصانان الآخران قريبا أما الجنرال ليورون فقد أعطى له حصانان روميان وآخر نجدى بحسب رتبته ، وصرفت لهم الملابس اللائقة وأعطى لكل منهما سرجا مفضضا ، ولم نعلم إن كان الحصانان النجديان اللذان سيعطيان لهما داخلين ضمن هذه الخمسة والثلاثة أم لا ؟ اضطررنا الى الاستعلام ، ولقد صرفنا الى الضباط السروج اللائقة بهم والخيل اللازمة لهم والملابس . كما أننا أعطينا الى هذين الجنرالين سيفين مذهبين ، وقد أنخرنا إعطاء الجنرال بوييه سيف الافتخار والباسه الفراء (الكورك) الى أجل .

فأحطت علما بما حررتوه فنبغكم أن الحصانين النجدين المقتر إعطائهما الى الجنرالين المذكورين داخلان ضمن الخيل الخمسة والثلاثة المقتر صرفها لهما ، وليس ثمة خيل أخرى عند صرف الحصانين للجنرال . وبهذه الصورة يكون عدد الخيل المقتره لهما قد تم فعلا ، ولا حاجة الى إعطائهما أكثر من ذلك .

ولقد استحسننا ما فعلتموه من تأجيل إعطاء سيف الافتخار الى الجنرال بوييه ومن السياسة الحقة ، لأننا عازمون على الحضور الى ذاك الطرف فى هذه الأيام ولدى وصولنا بمشيئة الله سيعطى له السيف والباس الفراء^(١) .

(١) وثيقة رقم ٤٣٠ ورقة ٦٥ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ٢٧ ربيع الثانى ١٢٤٠ هـ (١٩)

مرسوم خديوى صادر للجيش المصرى

الى مفانر الأماجد والأعيان عثمان بك وخورشيد بك وحسين بك ميرالايات
العساكر الجهادية زاد مجدهم ، والى مفانر الأماثل والأقران قائمقامى الآلايات
وبكاشية الأورط والصاغ والصول قول أغاسية واليوزباشية والملازمى الأول
والثناة وحاملى الأعلام والحاسبين وأمناء البلوك والجاوشية زاد قدرهم ، نبليكم
أن المصلحة الخيرية التى عينتم لها ليست مصلحة عبارة عن مجرد جمعية ، بل هى
مصلحة ربطت كل ناحية منها بنظام ، وكل شىء فيها مرتبط بشروط ، ولذلك
كنا وضعنا فى أيدي استحقاقكم الوسائل الكفيلة بإجراء ما يقتضيه هذا النظام ،
ولما كان كل واحد منكم قد نشأ على يدينا ، ومنح الرتبة والاعتبار اللذين لم يشاهد
مثلهما فى عهد أسلافنا ، فكان أمر اهتمامكم بتنفيذ الشروط والقيود معدود من
جملة أمانينا .

ففيما مضى كان اتصل بنا بنا بعض الأفعال غير اللائقة التى صدرت من
بعضكم ، فكنا أصدرنا لكم مرسوما بتاريخ ١٨ ذى الحجة خطابا لكم جميعا ضمنناه
التنبيهات والوصايا ، قلنا لكم فيه : ” لاتسلخوا السبل المتلوية بتجويز الأوضاع
المنافية لأصولكم ونظمكم ، وإن وجد فيكم من لا يصغى للقول ويسلك هذا السبيل
الوعر ، فلا تقبلوا أن يتطرق الخلل الى النظام بسبب مخالفة واحد منكم ، لأن
هذه الجمعية الخيرية إنما وجدت بعد تعب كبير ومشقة عظيمة ، وانبدوا من كان
على هذه الشاكلة من بين ظهرانكم وإن كان صاحبكم أو من أقاربكم حتى ولو كان
أبا لكم أو أخا “ ، وأرسلناه اليكم مع خفتائنا سليم أغا . ولقد اتصل بسمعى من
الغادين والرائحين أن أولئك الذين ارتكبوا تلك المخالفة إنما هم الحق الذين وجدوا
فى الرئاسة بدون استحقاق وأهلية وكان وجودهم فى الرئاسة وسلوكهم هذا السبيل
المعوج ناجما من صحابة بعضكم لهم ومظاهرتهم إياهم .

من الجتاب العالى الى ناظر الجهادية^(١) :

”لقد أرسلنا اليكم الكولونيل رى من ضباط الطوبجية الذى جىء به من باريس بوساطة الجنرال ليورون ، وهو خير فى فن الطوبجية وفيما يتعلق بالمدافع والمهمات المتنوعة الخاصة بها وفى نظم تعليقاتها وتدريباتها ، وستقفون على درجة خبرته من العقد الخاص به ، فعليكم أن تأمروا بترجمة عقده حتى تتبينوا مأموريته ، ثم استخدموه فى خدمات المدفعية وكلفوه بفحص الآلات والمهمات الخاصة بالمدافع وليخبركم بما ينقصها ، وقد أنبأنا الأغا كئخدانا تحريرا بإعطائه تصريحاً للتفتيش على المدافع وعلى المهمات واللوازم والأدوات الخاصة بها حيناً بعد حين “ .

وكتبت صورة من هذا الأمر بعبارته الى البك الكئخدا .

وألحق بهذا الأمر مادة أخرى الى البك ناظر الجهادية :

”لقد أرسلنا اليكم المدعو برييه الذى استقدم بوساطة الجنرال المذكور بصحبة الكولونيل الماتز ذكره ، وهذا أيضا خير فى الأسلحة والمهمات وله علم تام بكل الأدوات واللوازم ، فعليكم أن تقوموا بترجمة عقده ، ثم تبادروا الى استخدامه فى الشئون الخبير بها “ .

وهذه العبارة نسخت بعبارتها وزيد عليها بعض الوصايا وأرسلت الى البك الكئخدا .

خدمة الجيش واجب نبيل

ولكى يغرس العاهل الكبير فى نفوس ضباط الجيش الصفات النبيلة ، ويث بين جوانحهم السجايا القويمة ، التى يتألف من نسيجها العسكرية الحقنة ، كان يوجه من حين الى آخر نصائح وإرشاداته ، ليعمل الضباط بها . وفى النداء التالى نلهمس روح محمد على^(٢) .

(١) دفر ٢٠ معية تركى — الوثيقة رقم ١٧٠ ورقة ٣١ بتاريخ ٣ صفر ١٢٤١ هـ (١٧ سبتمبر ١٨٢٢ م) .

(٢) الوثيقة رقم ٤٩ دفر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٤ محرم ١٢٣٩ هـ (٢١ سبتمبر ١٨٢٣ م) .

في مرسومنا الآنف الذكر . واعنوا واعتنوا بإيفاء مطالب الإخلاص والاستقامة التي آملها منكم في كل آن واتقوا المسؤولية بخالفة ما فيه واتهجوا اليقظة والانتباه ديننا لكم على الدوام . واكتبوا لنا مشاهداتكم عن الشؤون العسكرية في صورة تقارير تبعثون بها إلينا شهرا فشهرا ... هذا ما تقضى به إرادتنا ومطلوبنا القاطع إجراؤه وتنفيذه .

فإليكم يا أيها الميرالايات والقائمقامات والبكاشية والضباط الآخريين أبلغكم بأننا أصدرنا هذا المرسوم من ديوان مصر بالتنبيه عليكم والتوبيخ والتشديد كما أننا أحلنا على صاحب العزة الأفندي مهردارنا إبلاغكم إياه وأوامرنا الأخرى وقد أرسلناه مع حضرته إليكم^(١) .

ونتبع هذا النداء بمرسوم آخر يحمل نفس المعنى ويهدف إلى أغراض الباشا .

مرسوم خديوى إلى ضباط الجيش

إليكم يا مفانحر الأماجد والأعيان ميرالايات العسكر الجهادية عثمان بك وخورشيد بك وحسين بك زاد مجدهم .

وياقائمقامات الآلايات وبكاشية الأورط والصاغ والصول قول أغاسى واليوزباشية والملازمى الأول والثناة وحاملى الأعلام والحاسبين والباشجوايشية وأمناء البلوك والجاويشية والأونباشية زاد قدرهم .

نبلغكم أنه لا يخفى عليكم أجمعين أن شؤوننا الجهادية فى نتيجة كل مصلحة من مصالحنا ، وأن كل أفكارنا واهتمامنا منصرف فى نظامها وانتظامها ، وأن ما نملكه إنما نبذله لدوامها وقيامها ... هذا شىء واضح وجلى ... إذن يقضى الواجب أن تكون كل حركات عساكرنا الجهادية وسكاتهم مطابقة للشروط النظامية والأصول المقررة فلاجل إبلاغ هذا الواجب إليكم ككنا قد أرسلنا لكم مرسوما

(١) وثيقة رقم ٤٩ — دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ محرم سنة ١٢٣٩ (٢١ سبتمبر سنة ١٨٢٣) .

يا قوم ! فكروا فى ما بذل من الجهد وما أنفق من المال الجسيم حتى وصلتم إلى هذه الدرجة ووصلت جمعيتكم إلى ما وصلت إليه ، وفى المصاعب التى ما زلنا نختملها وفى ما ننفقه من المال فى الوقت الحاضر حتى إننا أخذنا عددا جما من الفلاحين من القرى التى يقيمون فيها ورضينا بتعطيل كل شىء حتى الخدمة الزراعية التى عليها مدار الغنى والثروة للجميع .

هذه المصلحة هى مصلحة هامة لا يبذل فى سبيلها المال فحسب بل تبذل فيها الأرواح أيضا ! فكيف يتهاون تجويز إنقاص قدرها واعتبارها بمثل هذه الأفعال المنكرة التى يأتها أمثال هؤلاء الحمقى ؟ ... فهل نؤثر الصمت وندعهم وشأنهم ؟ لا ولو كانوا غلمانى الذين نشئوا على يدى بل ولو كانوا أولادى

إذن وجب عدم مظاهرة هؤلاء الناس ولو كانوا من البكاشية لا من صغار الضباط فانخرجوهم من بينكم باتفاقكم أجمعين وبمعرفة ناظركم وأرسلوهم إلينا ... فإن كان أولئك المبعدون من كبار الضباط فانتخبوا من يكون ذا أهلية وكفاءة واستحقاق من بين ضباط تلك الأورطة بوساطة ناظركم وانصبوه مكانه ، أما إذا كان ذلك الرجل المبتغى إرساله إلينا يتعظ ويرجع إلى نفسه ويرضى برتبة أدنى بحض اختياره ، تتفق وكفاءته ، فاعملوا على قيده بالرتبة التى ارتضاها بمعرفة ناظركم أيضا . واتخذوا هذا النظام دستورا للعمل يعمل به فى كل آن ولا تؤدّوا شهادة فى مصلحة فرد لا يكون ذا حق ولا تنكروا حقا لذى حق فتبوءوا بالنسب ، ومجمل القول إن وجود الرتبة المخصصة للضباط مسندة إلى من يستحقها مؤدّ إلى زيادة رفعتكم كما أن وجودها مسندة إلى من لا يستحقها مفض إلى مذلتكم وهذا أمر معروف بالبداهة ... فاعلموا ذلك جيدا وعوه واعملوا كما ينبغى عمله وفقا لذلك ولا تصاحبوا ذوى الحماقة متبعين هوى نفوسكم حتى لا تندموا فى نهاية الأمر وليقم كل منكم بأداء الخدمات اللازمة المفروضة عليه وليؤدّها حق أدائها طبقا للنظم وليتحاسن ما من شأنه الإخلال بالنظام كالفسالة والتباطؤ تنفيذها لما ذكرناه

على العمل بما يفضى الى تحقيق نظريته . وأكثر من ذلك يقدم القائد لضباط وحدته ، ليكونوا على بينة من قائدهم الجديد ، الذى عهد إليه أمر زمامهم ، وتوجيههم فى قابلهم .

وهو تقليد عسكرى جدير بالتقليد . إن دل على شىء فعلى أن محمداً عليا كان لا يفتأ يستن السنن الحسنة ، التى تعود على الجيش بالخير والبركة .
والمرسوم التالى خير مثال يبسط فى هذا النطاق :

مرسوم خديوى إلى سليم بك ميرالاي ه جى بيادة^(١) :
” إليكم يا افتخار الأماجد والأكارم سليم بك المعين ميرالاي خامسا لعساكرنا الجهادية دام مجده ...

ويا قدوة الأماجد والأعيان سليم أفندى قائمقام ه جى بيادة .
ويا مفاخر الأماثل والأقران عثمان آغا بكباشى ٢٠ جى أورطة وحسين آغا بكباشى ٢٢ جى أورطة وسليمان آغا بكباشى ٢٣ جى أورطة والحاج سليم آغا بكباشى ٢٤ جى أورطة .

ويا صاغ وصول أغاسية هذه الأورط ويوزباشيتها وملازميها الأول والثناة وحاملي أعلامها وحاسبها وباشجاويشيتها وأمناء البلوك فيها وجاويشيتها وأونباشيتها زاد قدرهم .

فيا أيها الميرالاي انك لما أظهرته من الإخلاص والصدقة فى وظيفتك كسلاحدار للرحوم نجلنا الباشا سرعسكر السودان فقد أحلنا على عهدتك رتبة الميرالاي الخامس لعساكرنا الجهادية ووضعنا تحت إمرتك ٢٠ جى و ٢٢ جى و ٢٣ جى و ٢٤ جى أورطة فعليك أن تقوم بأداء الخدمات اللازمة لوظيفتك المحالة عليك بالاتحاد مع قائم مقام الآلاى وبكباشية الأورط وضباطها الآخرين بحسب مواد

(١) وثيقة رقم ٩٦ دفتر ١٦ مئة تركى بتاريخ ١٨ ربيع الثانى ١٢٣٩ هـ (٢٢ ديسمبر ١٨٢٣)

بتاريخ ١٨ ذى الحجة وأتبعناه بمرسوم آخر بتاريخ ١٥ محرم وأرسلنا أولهما مع الأغا خفتانينا وثانيهما مع الأفندى مهردارنا .

فيا أيها الميرالايات المذكورون لقد جاء في عريضتكم الواردة في معرض الإجابة على مرسومنا المرسل لكم مع خفتانينا "إنه لما كانت الخدمات العسكرية المكلفين بها هي أهم ما تصبو إليه نفوسنا وأعظم ما نرغب فيه فإن تنفيذ أصولها المقررة فرض على ذمتنا ولنقوم بإجرائها وسنسلك سبيل الرضا ونعمل في طريق الاستقامة بدافع إخلاصنا .

وإذا وجد فينا من يخالف ذلك لا نظاهره ولو كان المخالف أخانا أو أبانا بل نقوم بتأديبه وفقا لنظامنا وإذا لم يفلح معه التأديب ننظر في أمر إبعاده ... وفي كل الأحوال سنكون يدا واحدة باتحاد القلوب فنطيع من هو أعلى منا ونحترم من هو أصغر منا ولا نقصر في ذلك ونتعهد بتحرير الدعاوى العسكرية التي تعرض يوميا على ديوان الآلاي ونقدمها في صورة تقرير شهريا ، وسنسعى إلى إيفاء ما تفرضه علينا عبوديتنا باذلين في سبيل ذلك أرواحنا ورؤوسنا فداء " .

فعلمت ما حررتوه واستحسنتم ما أظهرتموه من الغيرة وحسن النية فأدعوا الله أن يوفقكم جميعا وأطلب منكم أن تقوموا بتحقيق هذه النوايا الحسنة .

وقد أصدرنا أمرا هذا من ديوان مصر إليكم جميعا لإبلاغكم استحساننا وأرسلناه مع صاحب العزة حسين أغا جوقدارنا^(١) .

تعيين القادة

كان يجري محمد علي باشا على نمط كريم حينما يصدر أمره بتعيين أحد كبار ضباط الجيش قائداً لأحد الآلايات . فقد سار على أن يكتب إليه مرسوم التعيين يتضمن عبارات التكريم ودوافع التشجيع ، حتى يثبت فيه قوة على قوته ، ويحضه

(١) وثيقة رقم ٥٣ (ورقة ١٢) — دفتر ١٦ معية تركي بتاريخ ٣ صفر سنة ١٢٣٩ (٩ أكتوبر سنة ١٨٢٣) .



أمير اللواء إبراهيم يكن باشا

القانون ووفقا للنظام المعمول به في الآلايات ١ جى و ٢ جى و ٣ جى و ٤ جى بياذة
وبإبقاء لوازم الحمية والغيرة المأمولين منك .

وأنت أيها القائمقام ويا بكاشية الأورط والصول أغاسية وجميع الضباط ،
اعلموا أن البك المذكور هو ميرالايكم واتبعوا رأيه في المسائل التي تكون موافقة
للنظام ومطابقة للقانون وراعوا مراسم الاتحاد في التعليمات العسكرية والخدمات
الجهادية واسعوا في إبراز ماشاهدناه من حسن درايتكم مضاعفا . وعليه فقد أصدرنا
مرسومنا هذا من ديوان مصر ومن معسكر بنى عدى “ .

تعليمات محمد على إلى قادة الجيش

ولم يكف محمد على عن توجيه تعليماته لقادة الجيش الفينة بعد الفينة . فهو
لا يفتأ يبعث بإرشاداته إلى رجالاته ، لكي يكونوا على بينة من خطواته ، ويتفتوا
آثار توجيهاته . فمثل هذه الارشادات أو التوجيهات كانت مصابيح الهدايا في الطريق
المستحدث ، يمشون على ضوئها نحو الهدف المرموق .

ولسنا بصدد عرض جميع هذه التعليمات أو التنويه بختلف الارشادات وإنما
نأتى على أمثلة منها .

مرسوم خديوى إلى ناظر الجهادية ورجال الجيش المصرى^(١)

إلى افتخار الأمراء والأكابر محمد بك ناظر الجهادية دام اقباله وإلى افتخار
الأمجاد والأكارم عثمان بك رئيس رجال الجيش والميرلوا حسن بك دام مجدهما .
وإلى مفاخر الأمجاد والأعيان حسين بك وسليم بك ميرالاي رجال الجيش
ومحمود بك وأحمد بك وعلاء الدين بك وسليم بك ميرالايات الآلايات ٩ جى و ١٠ جى
و ١١ جى و ١٢ جى بياذة زاد مجدهم .

(١) وثيقة تركية رقم ٢٣٦ ورقة ٤١ دفتر ٢٠ معية تركى بتاريخ ٢٣ ربيع الثانى ١٢٤١ هـ

(٥ ديسمبر ١٢٨٥) .

وإلى مفخرة الأماثل والأقربان الأغوات القائمقامات والأغوات البكاشية والصاغ والصول قول أغاسى والحاسين واليوزباشية وحاملى الأعلام والملازمى الأول والثناة والجاويشية والأونباشية وأمناء البلوكات زاد قدرهم وإلى جميع الجنود ...

بعد السلام — نبلغكم أن طريق الجهاد والفداء الذى هو للفيض رفيق هو طريق الله القوى وسبيل سلطان الأنبياء وهذا شىء بديهى . والذين سلكوا هذا المسلك القويم من أصحاب الصدق والوفاء حصلوا على مرادهم ونالوا مبتغاهم وهذا أمر واضح لذلك قد صرفنا ما فى مقدورنا لتقوية نظام هذا الطريق ولوليننا عنان همتنا نحو استقرار هذا النظام ونحمد الله إذ كانت الأزلية معنية بنا ولازمنا التوفيق فقمنا بتنظيم الآلايات والأورط ووضعنا لها النظم التدريبية وكانت نتيجة ذلك أن شوهدت الفضائل العديدة والخصائل الجميلة للجنود الجهادية وشاع أمرها فى الأقطار المعمورة . وكان الواجب يقضى بتقدير هذا الفضل الإلهى وعرفان حق هذا الفيض اللانهاى وإبقاء الشكر والثناء على هذه النعم ولكنى يا حضرات الأمراء والضباط أسمع أن بينكم من لا يحترم هذا السلك العسكرى الذى هو مبدأ العز والسعادة ومذشأ المجد والمناقب ولا يراعى أصول القوانين المودعة فى يد أمانتكم وأجاز لنفسه الغفلة والتراخى واستباح لنفسه سلوك طريق ملتو غير موصل . ولا ريب فى أننا لانرضى إطلاقاً أن يصيب أصول نظام الجيوش الحسنة والجنود الغر الميامين ، الذين صرف فى سبيلهم أعظم الهمم حتى وجدت وأكبروا التوفيق حتى استقرت فنالوا بوضعهم الحديث استحسان الوكلاء ، أى خلل يودى بالشروط المقررة لهم أو أن يطرأ على قانونهم المحترم أى اعتلال .

كما أنه قبل كل شىء لا جدال فى وجوب وقاية هذا السلك من هذه العوارض فعليكم أنتم أيها الأمراء والضباط أن ترجعوا إلى القانون المسلم إليكم فى جميع حركاتكم وسكناتكم باتخاذكم جميعاً وأن تسعوا للعمل بمقتضاه وإذا وجد من بينكم من يتبع الهوى ويفعل أفعالا مخالفة للشرع ويسلك سبيلاً منافياً للأصول مناهضاً للشروط

سعادة نيلها“ بل ما فتئت ألقى بنفسى وأولادى وعيالى وبعرضى ومالى وبذلك العدد الكبير من أصدقائى وأتباعى الذين هم غرس يدى وثمرة تعهدى . ألقى بكل أولئك فى المهالك وأعرضهم للضار والأخطار أملا فى إحداث هذا السلك الجهادى الذى تذكره يا محمود بك كيف كان وقع لفظه عليك حين سمعته لأقول مرة فإن تكن حينذاك على حق فيما أظهرت من آثار الاستبكار الناشئ عن توقعك مخاطر هذا المشروع الظاهرة وجرائه المنتظرة فإننى لم أحفل بأوضاع الحيرة التى تملكك ولا أبتهت لأحوال غيرك من سائر المقترين ولكنى وصلت ليلى بنهارى مضجيا بنومى وراحتى وماضيا فى عزى وإقداى حتى بلغت وله الحمد مرادى ووفقت وله الشكر الجزيل إلى نبيل مرامى كما أنك تذكر كم بذل بعد ذلك من جهد فى المحافظة على هذا السلك لئلا يجحد عن جادته السديدة جنوبا إلى الأودية المعهودة وكيف لم أضن فى سبيل ذلك حتى بعلى أغا كسكين زاده قائمقام آلاى ه جى بياده إذ أعدم رميا بالرصاص فى مواجهة الصفوف العسكرية وهو ذلك الذى نشأ فى رعايتى من الصغر وربيتة حتى شب وكبر .

فلهذا كنت أود أن نكون قد تخلصنا من الشعوذة والولاية والغفلة والرخاوة والغرض والصفينة والمحابة التى طالما ألفناها ومللناها فى الأيام الخالية . وأن يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على أساس الإنصاف والإنسانية والكرامة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن أيضا أن نصرف عملنا ونجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا فى مصاف البشرية الراقية ولكن بينما نحن مطمئنون إلى هذا الأمل إذ صدمتنا جرائم محمود أفندى القائد السابق للآلاى ١ جى بياذة التى تييناها سواء من العريضة التى كان قدمها إلينا أو من محزراته الواردة عليكم .

وإذا كنا قد حولنا قضية (محمود أفندى هذا) عليكم لاستجوابه وفقا لقواعد النظام الجهادى المستحسنة ثم لعرض أمره علينا بعدما يتفق يتخذ المجلس بشأنه

فلا ترعوا خاطره وإن كان قريبا أو صديقا لكم حتى ولو كان أبا أو أخا لكم ،
وقوموا بتأدية التأديب اللازم طبقا لما توضح في نص القانون واعنوا العناية الصادقة
في تعليم الأنفار وتحكيم أصول التعليمات حتى يتسنى لكم بذل مقدوركم في إيفاء
واجبات الصديق والإخلاص والسداد من بعد الآن كما هو المرتقب منكم وكما شاهدناه
فيكم إلى الآن وفي وقاية نفوسكم من أن تكون معيوبة معاتبة بتجوز أدنى إهمال
أو تراخ .

وأتم يا صغار الضباط ويا جميع الجنود عليكم أن تطيعوا بكاركم اعتبارا من رتبة
أونبائى حتى البكائى وأن تتبعوا أوامرهم وأن تبدلوا جهد المستطاع لتكونوا
متخلفين بأفضل الأخلاق .

وأنت يا أيها الناظر عليك أن تفرغ قصارى جهدك وتبذل حميتك وغيرتك
في حل الشؤون المتفرقة من نظارتك وأن تعمل على استكمال الوسائل الحسنة المؤدية
إلى ازدهار الجيوش الجهادية وازدياد محاسنها النظامية واحذر أن تكون مسئولا
بتجوز أقل ما يمكن من التهاون في هذا الباب .

وعليه فقد أصدرنا مرسومنا هذا من ديوان مصر من باب التنبيه والتأكيد
وأرسلناه إليكم فاعملوا بإذن الله بمقتضاه وتحاشوا أوضاع المخالفة له والمنافية للرضا .
وهناك عامل آخر كان له الأثر الكبير في معنويات الجيش هو عزم "العزیز"
على تأييد هذه المؤسسة وتنشيطها وشعور رجالها بذلك . فإننا نلمس هذا الأمر
لمس اليد في خطاب أرسله "العزیز" إلى ناظر الجهادية في خريف سنة ١٨٢٧
وإليك النص :^(١)

من الجناح العالى إلى محمود بك ناظر الجهادية :

إن مؤسسه الجهادية عمرها الله لهى فى حد ذاتها نعمة جلیلة وأمنية بلغ من شرف
قدرها أنى ما زلت منذ عشر سنين متعللا برجاء إدراكها قائلا : "أیكون لى أنا الآخر

(١) دفتر ٢٦ معية تركى — مكتبة تركية رقم ١٦١ بتاريخ غرة ربيع الأول ١٢١٣ هـ .

أذن فليرعوا ذلك ويحكموا في هذه الدعوى بمقتضى الحق والنصفة مسترشدين بما في النظم الجهادية من أصول صحيحة مستحسنة وبما تنص عليه القوانين القيمة ليختاروا لأنفسهم واحدة من هاتين الخطتين ثم ليجيبوا مخبرين بها مشيرين إليها .

هذا ما لزم تسطيره فاذا أحطتم علما بفحواه فأخص مطلوبنا أن تبادروا إلى إيفاء مقتضاه^(١) .

العناية بالرماية

أما أن محمدا عليا كان يعنى بتدريب الجيش على شئون الرماية ، فهذه حقيقة لا ينكرها الواقع . وكيف لا والرماية هى « الصناعة » التى يتعين أن يجيدها كل جندى شاء أم لم يشأ . فحسبك أن تعلم مدى أهميتها حين نعرف بأن الجندى الذى لا يجيد الرماية أشبه بالنديقة التى لا تصيب الهدف ... كلاهما إن لم يك صالحا فهو مضر للغاية .

وفى الأمر التالى يلوح لنا جليا كيف كان هذا المصلح يفحص مثل هذا الأمر بعين محذقة ، ويوجهه برأس مفكرة ...

من الجناح العالى إلى ناظر الجهادية

”إنه لمن البداة أنكم ستعون كل العناية بتعليم الآليات الماثلة بمعسكرى عدى وفى تفنن الضباط والعساكر كما ينبغى ، بيد أنه من المعروف أيضا أن اصابة الهدف من الأمور التى لها أهميتها وخطورتها . فمن الواجب — والحالة هذه — أن تعنوا أيضا بأمر الرماية وتعليم أصولها عنايتكم بالأمور الأخرى . فنبهوا على الميرالاي الثالث خورشيد بك والميرالاي الرابع حسن بك والميرالاي الخامس سليم بك

(١) المكتبة التركية رقم ١٦١ دفتر رقم ٦ معية تركى بتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ

(٢٢ سبتمبر ١٨٢٧ م) .

قرارا موافقا لمقتضى العدالة والقانون . وكنتم بدوركم قد ألقتم بهذا القصد مجلسا جهاديا ثم حوّلتم القضية على سليم بك للفصل فيها . فان المجلس المذكور ما كاد يتلقى ردّ محمود أفندى على سؤاله حتى قنع بهذا الجواب فلم يبد من أحد من أعضائه أى ميل إلى الاعتراض على معاودة الشعوذة والولاية . ولا دحض جوابا بالجواب الذى يستوجبه ويقتضيه . وإنما ضرب المجلس فى أودية المحاباة فاعتبروا الجريمة ناشئة عن شكاية (أحمد باشا) ولم يملوها فى قرارهم إلا هذا الحمل وهكذا صرفوا أنظارهم عن أداء الواجب بذمتهم وإبقاء من مهمتهم ولم يراعوا أصول الوظيفة والمصلحة . بل لقد حاولوا استدراجنا معهم إلى طرائق ولايتهم . فكان هذا داعيا إلى تعجبنا باعثا على دهشتنا وتحيرنا حتى ليعلم الله أن كبدى كادت تنفطر من شدة الأذى وتقطر دما من فرط الأسف فهل ضاع الانصاف أيضا (يا محمود بك)؟ أم تراهم أكتفوا برؤية الدعوى على ضوء القانون ظانين إلى نسبت مضمون عريضة (محمود أفندى) ومحركاته أو كانت الدعوى المذكورة قد نظرت حقا بحسب القانون وكان كل ما يستحقه الرجل هو ذلك الجزء الذى قرره المجلس فى مضبطته بإجماع الآراء بعد وزنه بجرائمه وتقديره لها بموجب مضمون عريضته ومحركاته فليبعث إلى بتلك العريضة والمحركات لأحقق أنا أيضا المسألة . فقد أكون لها ناسيا . حتى إذا أسفر تحقيق عن صحة قرار المجلس فيها نعمت . وإلا حق على أن أفاضى أعضاء المجلس وأفصل بنفسى فى دعواى فأوفى كلا منهم جزاءه .

وبناء على ذلك لقد أعدت إليكم فى طى كتابى هذا مضبطة المجلس ، كي تردوها إليهم وترسلوا معها العريضة والمحركات عسى أن ينعموا النظر فى المطابقة والموازنة . فان هم اجتروا بعد ذلك على انتهاج خطة الخلاف فليعلموا علم اليقين إنى لابتدئ موردتهم موارد التلف تبعا للنصوص الواردة فى القانون .

المدارس الحربية

مدرسة القلعة

بعد مذبحة المماليك فى سنة ١٨١١ ، جمع محمد على غلمانهم وصغارهم فى القلعة بمدرسة ، على غرار المدارس التى كان أمراء المماليك يقيمونها فى قصورهم . وأحضر لهم المعلمين يلقنونهم القراءة والكتابة التركية والفنون الحربية ، ثم زيد عليها الرسم والرياضيات واللغة الايطالية .

ومن ثم أوفد — فيما بعد — كبار تلاميذ هذه المدرسة وبعض غلمانه وغلمان كبار موظفيه الى أسوان حيث أنشئت لهم مدرسة حربية يتعلمون فيها على أيدي المدرّبين الأوربيين وعلى رأسهم الكتّابن « سيف » الذى تسمى بعد باسم «سليمان الفرنساوى» .

تنظيم التعليم العسكرى :

وما لبث أن ارتأى محمد على أن ينظم التعليم العسكرى فى البلاد — فأمر بتأليف مجلس يهمن على شئون التعليم فى الجيش ويتولى الإشراف على تدريبيه وسمى ديوان «قومسيون» المدارس العسكرية . وقد تألف هذا الديوان من ناظر الجهادية رئيسا وعثمان نور الدين بك وقادة الآليات العسكرية فى مصر والكولونيل جودا مدير تعليم المشاة والبكاشى فوجت وزميله ديلفورت ، وكان يقوم بأعمال السكرتارية — أحيانا — القومندان بلانا .

وكانت من أعمال هذا الديوان البحث فى مطالب تعليم الجيش ، ووضع القوانين والتعليمات وتعديلها على حسب الأحوال . وقد أسندت رئاسة هذا الديوان لأمير اللواء مصطفى مختار بك .

بأن يعنوا أيضا بتعليم الرماية وأفهموا سليمان بك أيضا بأنه يجب عليه بعد أن يفرغ من تعليم الفصول المطلوبة أن يشرع في تمرين الجنود على الرماية أسوة بالتمرينات الأخرى وأن يوصلهم إلى درجة الكمال فيها وأن لا يتكاسل عن ذلك . فتمت علمتهم أن هذه إرادتنا في هذا الصدد أروني يا أحنى همتمكم واعملوا على تنفيذ إرادتنا ووافونا بالاجراءات التي اتخذتموها في هذا الشأن “ .

ديوان الجهادية

لم يكن لدى محمد علي مجلس للنظار أو الوزراء كما هو الحال اليوم . بل كان لكل فرع من فروع الادارة الحكومية ديوان أو هيئة وعلى رأس كل ديوان ناظر ينفذ الأوامر التي يصدرها اليه بدون تحوير أو تعديل . وكان عدد هذه الدواوين سبعة وهي :

الديوان العالى — ديوان الإيرادات — ديوان الجهادية — ديوان البحرية — ديوان المدارس — ديوان الأمور الأجنبية — ديوان الفابريقات .

وقد أنشئ ديوان الجهادية في عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ — ١٨٢٢ م) وكان يرجع اليه في ادارة شئون الجنود البرية ، وتعليمهم ، وضبط حركاتهم ، وبناء الثكنات والمشافي ، ومشتري المهمات والأسلحة وسواها .

ولم يكن على ناظر الجهادية سوى إصدار الأوامر التي يتلقاها من محمد علي باشا وملاحظة تنفيذها بدقة وبسرعة وبدون الرجوع الى نظام المكاتبات و بطمها المعروف .

وكان لناظر الجهادية اثنان من الكتبة الأقباط يقومان بتحرير الرسائل الضرورية لفروغ ادارة الجيش وأسلحته .

ومما يذكر أن أول من تقلد هذه الوظيفة (ناظر ديوان الجهادية) محمد بك لاظ أوغلو ثم خلفه محمود بك عزت الذى بقى في منصبه حوالى العام ثم استبدل بالفريق أحمد المنكلى باشا وقد جرح في معركة قونية .

مدرسة البيادة بالخانقاه

أنشئت مدرسة البيادة على مقربة من الخانقاه في سبتمبر سنة ١٨٣٢ لتخرج ضباط وحدات المشاة . بيد أنها لم تعمر بالخانقاه طويلا . إذ نقلت في مايو سنة ١٨٣٤ ، أى بعد نحو عامين من إنشائها بالخانقاه ، الى مدينة دمياط . فظلت بها حوالى سبع سنين ثم نقلت سنة ١٨٤١ الى أبى زعبل فى مكان المدرسة التجهيزية . ومكثت بها الى نهاية عهد محمد على . وقد نصت لوائح التعليم فى سنة ١٨٣٦ على أن مدّة الدراسة بمدرسة البيادة بدمياط ثلاث سنوات . يدرس فى غضونّها التلاميذ المواد التالية : مبادئ التحصين ، والطبوغرافيا ، ورسم الخطط ، ونظريات وحركات البيادة ، والتمرين على استخدام السلاح ، وواجبات الخدمة الداخلية والبوليس ونظام الحاميات والأورط والبلوكات .

وكان موظفو المدرسة هم : مديرها يوسف أغا بعد أن كان الضابط بولونينو ووكيله وأستاذ للطبوغرافيا والخطط ، وآخر للتحصين والهجوم ، وأربعة ضباط من المشاة ، وأربعة ملازمين ، ومدرب للسلاح ، وآخر للرياضة البدنية . وكان يرأس لجنة امتحان تلاميذها قائد من الجيش .

وقد نص قانون المدرسة على اعتبار تلاميذ مدرسة المشاة كتيبة فى الجيش . ومما يذكّر أنّهم كانوا فى سنة ١٨٣٧ خمسة وستين وثلاثمائة . منهم الأنفار وضباط الصف ثم أربى العدد عقب ثلاث سنين على الأربعمائة . حتى إذا كانت سنة ١٨٤١ وأعيد النظر فى تنظيم المدارس رأت الحكومة أن الحاجة الى مدرسة المشاة ماتزال ماسة حتى بعد إنقاص الجيش لإلغاء معسكر النخيلة الذى كان يمدّ الجيش بالضباط . ولم يبق ثمة مدرسة تخرج ضباط للمشاة سوى مدرسة البيادة . لهذا استبقيت المدرسة على حالتها الأولى مؤلفة من أربعة بلوكات . فى كل بلوك مائة وعشرة من التلاميذ ماعدا ضباط الصف . وقد تضخمت أعداد التلاميذ حتى صارت المدرسة تحتوى

مدرسة البيادة بأسوان

فى اليوم الثامن من أغسطس عام ١٨٢١ صدر أمر محمد على بإنشاء المدرسة الحربية بأسوان وتنظيمها والعناية بأمرها وتدريس العلوم بها . وفى اليوم السابع والعشرين وافق على ترتيب دروس المدرسة الحربية .

وحين حل الخامس والعشرون من يناير ١٨٢٢ صدر أمر بتعيين محمد بك لآظ أوغلو ناظرا على مدرسة أسوان المذكورة وتنظيمها ولإدارة شئونها . وفى الأمر الآنف نصّح تلامذة المدرسة بصفته والدهم على الانقياد للناظر وبالاجتهاد فى تحصيل العلوم والفنون لأجل ترقيةهم .

وفى ١٦ فبراير ١٨٢٢ صدر أمر من محمد على باشا لهذا الناظر بالاجتهاد مع سليمان أغا (الفرنساوى) لعمل ترتيب للمدرسة حسب التعليمات التى أعطيت للذكور، وانتخاب من يلزم من المدرسين ، وترقية المجتهدين من التلامذة الى جاويز أغاسية أو "بلوك باشية" ، لحث الباقين منهم على التقدم أسوة بغيرهم .

بيد أن أسوان لم تكن ملائمة للدراسة العسكرية — ولذلك نقلت المدرسة الحربية الى (إسنا) فانتقل سليمان أغا وبصحبه أحمد أفندى — وهو من الرجال الفنيين — وكان يتردد عليهما بين الحين والآخر إبراهيم باشا ليقف بنفسه على نجاح تدريب النواة الأولى للجيش المصرى .

واستمرت مدرسة إسنا الحربية قائمة على تخريج الضباط لفرق الجيش الجديدة . الى أن نقلت الى أحميم ثم النخيلة (على مقربة من أسيوط) . وأخيرا استقرت معسكر التدريب أو المدرسة الحربية بالخانقاه . وقد سميت فيما بعد بمدرسة الجهادية^(١) .

(١) ذكر مسيو جويمار فى كتابه (La Reforme en Egypte) أن قائد هذه المدرسة كان ضابطا سردينيا اسمه (بلاسو) وكانت تسع خمسمائة طالب ، ولم يقدر لهذه المدرسة البقاء سوى بضع سنوات .

مدرسة السوارى

أنشئت مدرسة السوارى فى ذى القعدة ١٢٤٦هـ (أبريل ١٨٣١م) وخصصت لها قصر مراد بك بالجيزة. وقد استمرت به حتى ألغيت فى بداية عصر عباس الأول.

وقد نصت لوائح المدرسة (سنة ١٨٣٦ - ١٨٣٧) على أن يلحق بها :

(١) ضباط يعدّون ليكونوا معلمين بالجيش .

(٢) تلاميذ من المدرسة التجهيزية .

(٣) جنود من الجيش ليكونوا نانخى الأبواق و"ترومبتجية" .

أما الضباط فبعث بهم الى المدرسة فرق الجيش على ألا تقل أعمارهم عن ثلاثين سنة . ويشهد رؤسائهم بكفائتهم وحسن أخلاقهم . وتختبر مهارتهم فى الثلاثة أشهر الأولى من بدء التحاقهم بالمدرسة . حتى إذا قبلوا بها نهائيا ظلوا بين جوانحها عامين أو ثلاثة أعوام يدرسون العلوم التى تؤهلهم ليكونوا فيما بعد معلمين فى وحدات الجيش .

أما التلاميذ الذين يؤخذون من المدرسة التجهيزية فيمكنون بمدرسة السوارى ثلاثة أو أربعة أعوام يعينون بعدها ضباطا فى فرق الفرسان بالجيش . وكان تلاميذ المدرسة يتلقون دروسا مختلفة بعضها فى نظريات الخدمة العسكرية وبعضها فى اللغات العربية والتركية والفارسية . وبعضها الآخر فى الهندسة والحساب والرسم والخط . هذا إلى التدريب العسكرى فى القفز وركوب الخيل واستخدام السلاح وغير ذلك من فنون الفروسية . وكان تلاميذ المدرسة مقسمين أربع فرق فى دروس الخدمة العسكرية ، وبالمدرسة فرقة للرسم وأخرى للفروسية . وفيما عدا ذلك يقرأ التلاميذ كتباً متباينة فى العربية والتركية والفارسية ويمتازون على خط الرقعة أو الثلث . وكان ضباط المدرسة وفريق من تلاميذها يتعلمون اللغة الفرنسية .

عل ثمانية وستين تلميذا بعد الثمانمائة وبذا كانت المدرسة الوحيدة بمصر التي ازداد عدد تلاميذها بعد سنة ١٨٥١ عما كانت عليه من قبل .

وقد ظلت المدرسة الى أنحرى أيام محمد على زاهرة بعدد وفير من التلاميذ يربو على عدد تلاميذ أى مدرسة أخرى بمصر (٣٣٠ تلميذا) . وفى بداية حكم عباس الأول نقلت مدرسة البيادة من ابى زعبل الى الحيزة ثم ألغيت وصرح تلاميذها .

مدرسة أركان الحرب

أنشئت مدرسة أركان الحرب بقرية ”جهاد أباد“ بقرب الخانقاه بمشورة عثمان نور الدين أفندى . وقام على تأسيسها الكابتن الفرنسى ”بلانا“^(١) وبدأت الدراسة بها فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٣٥ .

وأقيم للمدرسة بناء جميل، وشيدت منازل على النسق الحديث، وكانت نواتها الأولى ١٨ ضابطا وكان (بلانا) ينهض بنصيب موفور من التعليم وبمعاونة بعض المدرسين الأور وبيين والشرقيين .

وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات . وكان فى نية منشأ زيادة مدة الدراسة سنة رابعة يتناول فيها التلاميذ الطبيعة والكيمياء والحساب والجغرافيا والتاريخ .

وكان الضباط الذين يتخرجون فى هذه المدرسة يعينون ”أركان حرب“ فى الوحدات الفنية فى الجيش ، أو فى المدفعية ، أو فى المناجم ، أو فى الإدارة الحربية أو المدنية أيضا .

(١) خدم جول بلانا مصر من عام ١٨٢٤ الى ١٨٢٨ ومات فى فرنسا فى العام التالى .

ومما يذكر أنه قد تولى منصب (مدير المدرسة) في عهدها الأول ضابط فرنسى يدعى “فارن” (Varin) فنظمها على غرار المدارس الحربية الفرنسية وقد رفع محمد على رتبته إلى أميرالاي عقب انتصار الجيش في حروب عام ١٨٣٢ . وقد خلفه على إدارة المدرسة ضابط فرنسى يدعى “واسيل” أو “واسيل أغا” وقد ظل مديرا للمدرسة حتى شارف عصر محمد على النهاية .

مدرسة المدفعية

لما مست الحاجة إلى ضباط لوحدات المدفعية المنشأة في ذلك العهد تقدم ضابط إسباني اسمه “دى سيجويرا” إلى إبراهيم باشا القائد العام للجيش المصرى باقتراح إنشاء مدرسة خاصة بالمدفعية فوافقت الحكومة على اقتراحه وأنشئت المدرسة وعين مديرا لها . وجمعوا لها ثلاثمائة من تلاميذ مدرسة قصر العيني التجهيزية . وكان إنشاء المدرسة في سنة ١٨٣١ م (١٢٤٧ هـ) .

أنشئت المدرسة في طرة وكان غالبية تلاميذها — أول نشأتها — من المصريين والأتراك كما كان منهم يونانيون من كانديا وبعض أفراد الأسرة الحاكمة . وقد تراوحت أعمارهم بين الحادية عشرة والخامسة عشرة ومنهم من يزيد على ذلك . ولم يكن يشترط عند التحاقهم بها إلا معرفة القراءة والكتابة ثم يتعلمون الحساب والهندسة والجبر والرسم والاستحكامات ولغة أجنبية .

فالذين يعدّون للخدمة في الأسطول يتعلمون الإنجليزية . والذين يعدّون للجيش يتعلمون الفرنسية أو الإيطالية . أما اللغة التركية فكان يتعلمها جميع التلاميذ على السواء .

وكان يضطلع “رفاعة رافع الطهطاوى” وقد عين مترجما بمدرسة المدفعية بعد نقله من مدرسة الطب بدلا من المستشرق الشاب “كنيك” (Koenick) وظل بها سنتين (١٨٣٣ — ١٨٣٥) .

وكان على التلاميذ أن يخدموا خيولهم بأنفسهم في الثلاثة أشهر الأولى من دراستهم .

وكانت مدرسة السوارى — كما ذكرنا — تنتظم ضباطا وتلامذة وجنودا ضاربين على الطبل ، وآخرين نانخين فى الأبواق .

أما الضباط فكانوا يقومون على تعليم التلاميذ وتدريبهم ويتلقون دروسا تعدهم ليكونوا معلمين بالجيش .

أما التلاميذ — وكانوا الأغلبية فى المدرسة — فكانوا يؤخذون من المدرسة التجهيزية وسواها من المدارس الحربية والخصوصية .

أما الجنود فكانوا من أولاد الجند العاملين ويلحقون بالمدرسة ويقرءون بها القرآن الكريم ويتعلمون القراءة والخط .

وأما النانخون فى الأبواق ” البروجية ” فكان مقررا للمدرسة أربعة وأربعون وكانوا ينتخبون من تلاميذ المدارس الأخرى الحاصلين على درجة ” دون الدون ” فى الامتحانات .

وقد بلغ عدد تلاميذ المدرسة فى عهدها الأول من الترك والمماليك حوالى المائتين . أما المصريون فكانوا يقصرون على تعليم العزف فى الأبواق . ولكن ما لبث العنصر المصرى ينمو بها ويتزايد حتى إذا مضت سنوات قلائل أصبح تلاميذ المدرسة كافة من المصريين وزال منها العنصر الأجنبى أو كاد .

وأكبر عدد بلغته مدرسة السوارى (٧٥٠ تلميذا وجنديا) وفى سنة ١٨٤٦ كان مجموع من بها ٦٣٩ منهم ثلاثون ضابطا و ٣٢٨ تلميذا و ٢٨١ جنديا وناخفا فى البوق وضاربا على الطبل .

وفى مستهل حكم عباس الأول ألغيت المدرسة .

وفي العام التالي استوعبت المدرسة أكثر من مائتي تلميذ موزعين على ست فرق دراسية . ولكن عدد التلاميذ ارتدّ يهبط سريعا حتى وصل في سنة ١٨٤٦ الى أقل من مائة ثم الى ثمانية وسبعين تلميذا موزعين على أربع فرق دراسية .

وفي أخريات أيام محمد علي تقرر إبلاغ عدد تلاميذها الى ثلاثمائة بأكلهم من تلاميذ المكتب العالي بعد امتحانهم .

وفي أوائل عهد عباس الأول أغلقت المدرسة أبوابها . وقد كان أول مديري المدرسة الكولونيل (الدون أنطونيودي سيجويرا) بيد أنه اعتزل الخدمة بعد أربع سنوات وخلفه مصطفى بهجت أفندي (باشا فيما بعد) عضو بعثة عام ١٨٣٦ الى فرنسا ثم ناظر مدرسة قصر العيني التجهيزية .

وكان يعاونه مدرّب فرنسي يدعى ” برونو “ ثم خلفه ” خليل أفندي “ مديرا للمدرسة وبعد ذلك استقل الضابط المدرّب ” برونو “ بإدارة المدرسة وظل بها الى أواخر عصر محمد علي .

مدرسة الموسيقى العسكرية

أنشئت في قرية ” جهاد آباد “ مدرسه لتعليم الموسيقى لنفر من أبناء المصريين ليكونوا موسيقيين في وحدات الجيش والأسطول . وكان يعلمهم معلم أجنبي يدعى الخواجة كلود كاريه . ثم نقلت المدرسة الى ” الخانقاه “ وكان عدد تلاميذها يبلغ المائتين .

وكانت هذه المدرسة تابعة منذ إنشائها لديوان الجهادية ثم أصبحت منذ أوائل سنة ١٨٣٧ تابعة لديوان المدارس .

ورأى الديوان أن عدد تلامذتها — وكان مائتي تلميذ وخمسة تلاميذ — أكبر مما تحتاجه فرق الجيش وأنهم يزيدون على نسبة المعلمين — فقرر الاكتفاء بمائة وخمسين منهم ونقل الباقين الى مدرسة المبتديان وعين لهم مدرّسين من الأجانب .

وفي سنة ١٨٣٦ ندب شورى المدارس لتنظيم مدرسة المدفعية بطرة لجنة مؤلفة من مختار بك مدير الشورى و "حكا كان أفندى" مدير مدرسة المهندسخانة والمسيو "لامبير" وكان آنذاك مهندسا بشورى المدارس . وانضم اليهم "مظهر أفندى" المهندس و "بهجت أفندى" مدير مدرسة المدفعية والمسيو "برونو" ^(١) مدرس التلاميذ بها . ودرست اللجنة نظام المدرسة ووضعت لائحته .

وقد أصبح برنامج الدراسة فى أواخر عصر محمد على حافلا بالدروس المتنوعة كفيلا بتخريج ضباط أكفاء للهيئة التى أعدوا لها .

وفى سنة ١٨٤١ رأت اللجنة التى وكل إليها تنظيم التعليم أن تحتفظ بالمدرسة على أن يكون قوامها عددا من التلاميذ كافيا لإدارة "بطاريتين اثنتين" . بيد أن حظها بعد سنة ١٨٤١ لم يكن خيرا منه قبل تلك السنة .

فقبل سنة ١٨٤١ كانت الحاجة ملحة إلى ضباط لفرق الجيش التى تتزايد يوما إثر يوم . الشئ الذى طالما دعا الى تخريج التلاميذ قبل أن يستكملوا دراستهم . ولكن بعد سنة ١٨٤١ أنقص الجيش وأصبح كثيرا من خريجيها الذين أتموا علومهم على قلوبهم لا يكادون يجدون عملا . فكانوا يظلون بالمدرسة يستعيدون دروسهم حتى تحتاج اليهم أو الى بعضهم فرق الجيش .

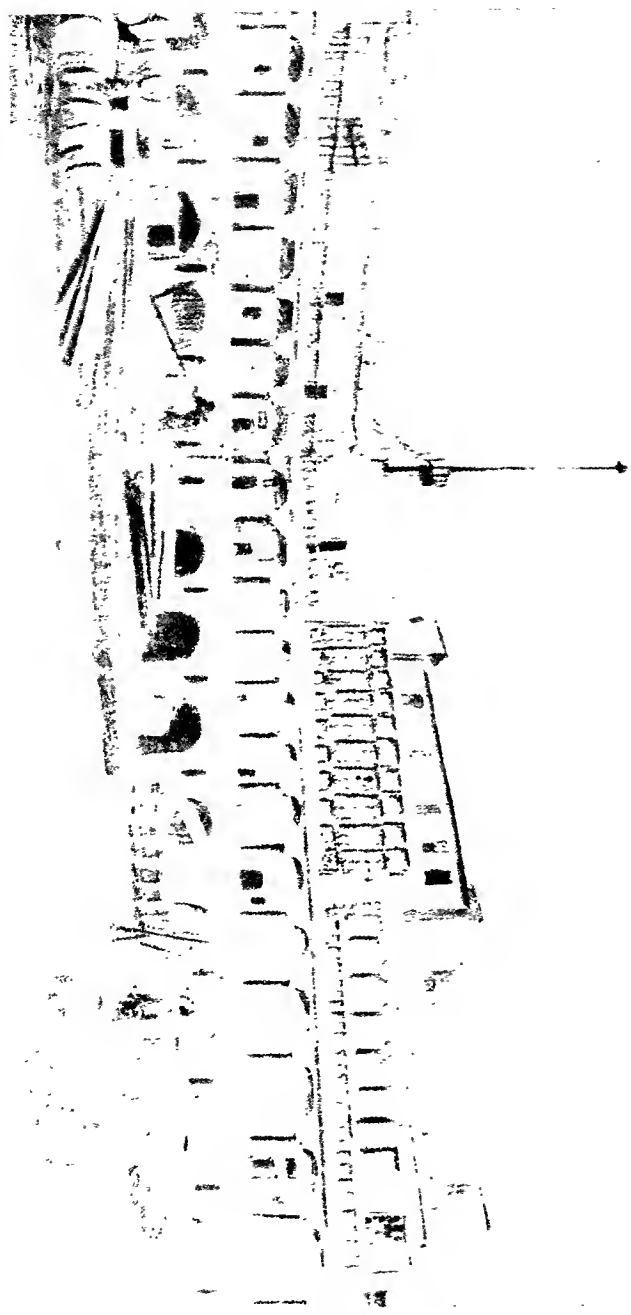
وكان عدد تلاميذ المدرسة وقت إنشائها ثلاثمائة تتراوح أعمارهم بين الحادية والخامسة عشرة أو تزيد على ذلك أحيانا .

ولما نظمت المدرسة فى سنة ١٨٣٦ لم تستطع المدرسة أن تستوفى إلا نحو مائة وثمانين تلميذا موزعين على ثلاث فرق دراسية .

وفى سنة ١٨٤٣ كان بها ثمانون ومائة تلميذ فحسب موزعين على أربع فرق .

(١) تاريخ التعليم فى مصر — أحمد عزت عبد الكريم . ص ٤٠٩ — ٤١١

دار الصناعة بالاسكندرية



وفي عام ١٨٤١ أُلغيت المدرسة ووزع تلامذتها على المدارس الحربية .
وكان عدا مدرسة الخانقاه — ثمة مدارس أخرى لتعليم الموسيقى منها مدرسة
بأثر النبي ثم نقلت الى سوق السلاح في البناء الذي كان مصنعاً للصوف . ومدرسة
بالقلعة — وقد زارها بعض كبار الأجانب وأعجبوا ببراعة تلاميذها المصريين
في تفهم الموسيقى الغربية وأداء أدق القطع لأهمهر الموسيقيين الإيطاليين والفرنسيين .

مدارس الوحدات

لم تهمل حكومة محمد علي تعليم جنود جيشنا . فهيأت مدارس بفرق الجيش
ووحدات الأسطول يتعلم بين جوانحها الجنود (جنود البر والبحر) القراءة والكتابة
والحساب . وكانت الحكومة تولى تشجيعها للمتفوقين منهم بترقيتهم قبل أقرانهم .

البعثات العسكرية

ورأى محمد علي باشا — بعد إنشاء النظام العسكري الحديث في مصر وتأسيس
المدارس الحربية والمؤسسات التي لا غنى لجيش وطني — أن حاجة البلاد الى
الأجانب من مديرين ومدربين لا تزال حيث كانت . ولما كانت نفسه الطموحة
لا تريد أن تحتاج البلاد الى شيء ما من الخارج . عول على إيفاد البعثات من الشبان
الذين أهلتهم معاهد العلم بمصر الى أوروبا ليتلمذوا دراستهم بها ليتبهاً تمصير تعليم
الجيش . وشرع يرسل التلاميذ تبعاً الى مختلف البلدان الأوروبية لتكون منهم
نواة لإحياء المجد العلمي بمصر الحديثة ، وتخريج مسيو جويمار رئيساً للبعثات المصرية
بفرنسا وغيرها للاشراف على البعثات العلمية .

بعثة الجيش الاولى

كانت أولى البعثات التي أوفدها محمد علي — عام ١٨١٣ — للتخصص في الشؤون
الحربية وكان أعضاؤها :

دويدار مصطفى مختار — أرسل لتعليم الإدارة الحربية . ومن المناصب التي تولاها مدير ديوان الجهادية عام ١٨٣٥ ثم مدير ديوان المدارس (١٨٣٦) . وكان أول ناظر للمعارف في مصر .

محمد مظهر — تخصص في دراسة الرياضيات والهندسة وبعودته الى مصر عين ناظرا لمدرسة المدفعية بطرة ، ومن أهم أعماله إنشاء فدار الاسكندرية برأس التين . أحمد يكن مصطفى القلبي — تعلم صناعة الدخيرة .

البعثة الثانية

كان عدد أعضاؤها قليلا وقد سافروا عام ١٨١٨ . ومن أظهر أفرادها عثمان نور الدين (باشا فيما بعد) وقد ترقى الى أرفع المناصب العسكرية ثم رئيسا للأسطول المصري (١٨٢٨) .

البعثة الثالثة

أوفدت عام ١٨٢٦ — وقد تخصص معظم طلبتها في الصناعات العسكرية فتعلم أميني أفندي وأحمد حسن حنفي صب المدافع وصناعة الأسلحة . ودرس المدفعية عمر أفندي وسليمان لاظ (الطرازوني) . وتلقى علوم الإدارة الحربية رشيد أباطة وسليمان الجركسي .

البعثة الرابعة

أوفدها محمد علي في عام ١٨٤٤ وهي أعظم البعثات العسكرية وبلغ عدد تلامذتها سبعين تلميذا ثم لحق بهم غيرهم . ومن أعضائها :

أحمد حلمي بك وكان من أهم الوظائف التي شغلها ناظر المدرسة الحربية بالقلعة السعيدية .

أحمد خير الله بك .

أحمد راسخ بك .

على ابراهيم (باشا) عين في عهد الخديو توفيق ناظرا للمعارف ثم ناظرا للحقانية .

على شريف (باشا) .

على فهمى (باشا) .

على مبارك (باشا) تقلد عدة مناصب عسكرية في الجيش وفي المعاهد واشترك في حرب البلقان وعين في عام ١٨٧٧ لادارة الأوقاف والمعارف ثم أسندت اليه نظارة الأشغال واشترك فيما بعد في عدة نظارات واستعفى في مايو ١٨٩١ وأدركته الوفاة في ١٤ أكتوبر عام ١٨٩٣

محمد اسماعيل الطوبجى — محمد خفاجة — محمد راشد (باشا) — محمد شريف (باشا) وكان من أعظم رجال مصر .

محمد صادق (باشا) قام بعدة أعمال جغرافية في وادى النيل وبلاد العرب .

محمد عارف (باشا) .

مراد حلمى (باشا) .

ولى حلمى (بك) ... وآخرون

ولا ريب أن مصر قد أفادت من خدمات هؤلاء الرجال الذين نشأوا على عهد محمد على وبرزوا على أيام أحفاده ... بل نستطيع القول بأنهم كانوا العمود الذين ازدهى بهم بناؤه .

وحدات الجيش

آلاى المشاة الأول (١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٢٣ وألغى في سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العربية .

ثم أعيد إنشاؤه في أواخر السنة الآتية وأرسل إلى السودان ضمن حملة هكس باشا وأبعد عن آخره في صحارى كردفان مع أفراد الحملة في نفس العام .

- الأمير أحمد رفعت .
أحمد عجيلة السبكي بك وكان من كبار رجال الرى في مصر .
أحمد عبيد بك وله عدّة مؤلفات عسكرية مترجمة .
أحمد نجيب (باشا) .
الخديوى اسماعيل باشا .
حسن أفلاطون باشا — عين في عهد سعيد باشا رئيسا للصانع الحربية
بالخوض المرصود .
الأمير حسين باشا .
الأمير محمد عبد الحليم باشا .
حماد عبد العاطى باشا — تخصص في المدفعية — وفي عام ١٨٥٤ عين مديرا
لمصنع الخوض المرصود ، وله عدّة مقالات عسكرية نشرت في مجلة أركان
الحرب المصرية .
حنفى هند بك .
خورشيد بك برتو بك .
سعيد نصر (باشا) تقلد عدّة مناصب مدنية وعسكرية وقضائية .
سليمان بخاتى (بك) عين مأمورا لإدارة المدرسة الحربية بالعباسية في عهد
الخديو اسماعيل .
شافعى يعقوب رحى (بك) . اضطلع بعدة أعمال طبوغرافية واشترك مع
المهندسين العسكريين في عمل أبحاث شق قناة السويس .
شحاتة عيسى (بك) كان في عهد الخديو اسماعيل ناظرا لمدرسة أركان الحرب .
صادق سليم شنن — عبد الرحمن محمد — عبد الفتاح بك — عثمان شريف —
عثمان صبرى — عثمان نورى (باشا) .

حصارها وسقوطها في سنة ١٨٨٥ أبيد هذا الآلاى وكان أطول آلايات الجيش عمرا .

آلاى المشاة السادس (٦ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٢٣ واشترك في حرب سورية سنة ١٨٣١ ولم يعد منها خيانة قائده الذى سلمه لجيش الحلفاء بعد وقعة بيروت في سنة ١٨٤٠ ومع كونه منتصرا على هذا الجيش فقد فعل هذا خوفا من إبراهيم لغاطة كان قد اقترفها في غضون القتال .

وعقب عودة الجيش من هذه الحرب ، في سنة ١٨٤١ ، أعيد إنشاء هذا الآلاى من جديد .

وفي سنة ١٨٧١ ، عندما نسق نظام الجيش على وتيرة فرق منفردة ، حمل هذا الآلاى رقم (٢ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وبعد تخفيض الجيش في سنة ١٨٧٩ ، لسوء مالية مصر ، نمر بخرته الأصلية . وفي الثورة العربية ، عندما زيد الجيش لمحاربة الإنجليز ، نمر مرة أخرى (٢ جى بيادة ٢ جى فرقة) . ثم ألغى بعد الثورة الآنف في سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

وعندما هيا الخديوى إسماعيل الجيش في فرق منفردة في سنة ١٨٧١ ، وزاده في سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى : ٣ جى فرقة ، أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) . ثم ألغى في سنة ١٨٧٩ م عندما خفض الجيش لسوء المالية المصرية في ذلك العهد . ثم أعيد إنشاؤه مرة خامسة في سنة ١٨٨٢ م وقت الثورة العربية عندما زيد الجيش لمواجهة الانجليز ونمر مرة أخرى : (١ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى مع باقى وحدات الجيش بعد الثورة المذكورة في سنة ١٧٨٢ م .

آلاى المشاة العاشر (١٠ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٢٥ . ثم توجه لحرب سورية سنة ١٨٣١ م ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد . وبعد عودة الجيش من هذه الحرب في سنة ١٨٤١ م

آلاى المشاة الثانى (٢ جى آلاى بياذة)

هـىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرباية .
ثم أنشئ من جديد فى أواخر السنة المذكورة وأنفذ إلى السودان ضمن حملة
(هكس) باشا وانقضى عن آخره فى صحراوات كردفان مع بقية أفراد الحملة فى نهاية
تلك السنة .

آلاى المشاة الثالث (٣ جى آلاى بياذة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ عقب الثورة العرباية .
ثم أعيد إنشاؤه من جديد فى أواخر السنة الآتفة وأرسل إلى السودان ضمن قوات
(هكس) باشا وأبید فى فلوات كردفان مع باقى أفراد الحملة فى أواخر تلك السنة .

آلاى المشاة الرابع (٤ جى آلاى بياذة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرباية .
ثم أعيد إنشاؤه فى أخريات السنة المذكورة وأرسل إلى السودان ضمن جيش
(هكس) باشا وتلقى إباده فى صحراوات كردفان مع بقية أفراد الحملة فى أواخر تلك
السنة .

آلاى المشاة الخامس (٥ جى آلاى بياذة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ ، وفى سنة ١٨٧١ ، عندما أدخل الخديوى
إسماعيل نظام الفرق فى الجيش ، فاتخذ هذا الآلاى رقم (١ جى بياذة ٢ جى فرقة) .
وبعد التخفيض الذى أصاب الجيش فى سنة ١٨٧٩ ، لسوء حالة القطر المالية ،
نمر فى سنة ١٨٨٠ بالتمرة الأصلية . ثم فى الثورة العرباية حينما زيد الجيش لمحاربة
الإنجليز نمر مرة أخرى (١ جى بياذة ٢ جى فرقة) وألغى بعد الثورة فى سنة ١٨٨٢ ،
وحدث أن أعيد إنشاؤه من جديد تحت رقمه الأصلى فى أخريات السنة المذكورة
وأرسل إلى السودان بين حملة (هكس) باشا وظل فى الخرطوم لحامية لها . وبعد

وعندما زيد الجيش في تلك السنة الأخيرة لمحاربة الانجليز نمر مرة أخرى (٤جى بياذة ٢ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العرابية في سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

آلاى المشاة التاسع (٩ جى آلاى بياذة)

أنشئ هذا الآلاى في عام ١٨٢٤ بعد عودة الجيش من حرب سورية في عهد محمد على باشا ، ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدا للدولة العلية في حرب روسيا المعروفة بحرب القرم من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى في سنة ١٨٥٦ بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٦ وألغى في سنة ١٨٧٠ .

الآلاى الحادى عشر المشاة (١١ جى آلاى بياذة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٢٥ م . ثم ألغى في سنة ١٨٤٢ بعد أوبة الجيش من حرب سورية في عهد محمد على باشا . ثم أعيد إنشاؤه من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدا للدولة العلية في حرب روسيا من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م ، وحدث أن ألغى في سنة ١٨٥٦ م وأُنشئ مرة ثالثة ثم ألغى في سنة ١٨٧٠ م .

وعندما نظم الخديو اسماعيل الجيش في فرق منفردة ، في سنة ١٨٧١ م ، وزاده في سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هي ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره : (٣ جى بياذة ٣ جى فرقة) ثم ألغى في سنة ١٨٧٩ م عندما خفض فيها الجيش لسوء مالية مصر . ثم أنشئ مرة خامسة في سنة ١٨٨٢ وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمواجهة الانجليز ونمر مرة أخرى : (٣ جى بياذة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى عقب الثورة المذكورة في سنة ١٨٨٢ م مع بقية وحدات الجيش .

الآلاى الثانى عشر المشاة (١٢ جى آلاى بياذة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٢٥ وألغى في سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة الجيش من الحرب السورية في عهد محمد على باشا . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش

أعيد إنشاء الآلاى المذكور لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب روسيا من سنة ١٨٥٥ وبعد انتهاء الحرب المذكورة ألغى فى سنة ١٨٥٦ م . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٠ .

وعندما هيا الخديوى اسماعيل الجيش فى فرق منفردة ، فى سنة ١٨٧١ م ، وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره . (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى فى سنة ١٧٨٩ م عندما خفض الجيش لسوء المالية المصرية فى ذلك العهد . وأعيد إنشاءه للمرة الخامسة فى سنة ١٨٨٢ م حينما زاد العربيون الجيش لمحاربة الانجليز ونمره نمرة أخرى : (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى مع باقى الجيش بعد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ م .

آلاى المشاة السابع (٧ جى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ ، وفى عام ١٨٧١ ، حينما استحدث نظام الفرق فى الجيش ، أخذ هذا الآلاى رقم (٣ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما أصاب الجيش التخفيض لسوء مالية مصر فى ذلك العهد . وعندما قبض العرابيون على أزمة الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى بنمرته الأصلية . ثم نمر مرة أخرى لدى زيادة الجيش فى تلك السنة لمحاربة الإنجليز بنمرة (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ مع باقى وحدات الجيش .

آلاى المشاة الثامن (٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ ، وفى سنة ١٨٧١ عندما استحدث نظام الفرق فى الجيش نمر الآلاى الآنف (٤ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ حينما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك العهد ، وعندما قبض العرابيون على زمام الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى بمرقه الأصلية .

وعندما زيد الجيش في تلك السنة الأخيرة لمحاربة الانجليز نمر مرة أخرى (٤جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العرابية في سنة ١٨٨٢ مع باقي الجيش .

آلاى المشاة التاسع (٩ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى في عام ١٨٢٤ بعد عودة الجيش من حرب سورية في عهد محمد علي باشا ، ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدا للدولة العلية في حرب روسيا المعروفة بحرب القرم من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى في سنة ١٨٥٦ بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٦ وألغى في سنة ١٨٧٠ .

الآلاى الحادى عشر المشاة (١١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٢٥ م . ثم ألغى في سنة ١٨٤٢ بعد أوبة الجيش من حرب سورية في عهد محمد علي باشا . ثم أعيد إنشاؤه من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدا للدولة العلية في حرب روسيا من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م ، وحدث أن ألغى في سنة ١٨٥٦ م وأنشئ مرة ثالثة ثم ألغى في سنة ١٨٧٠ م .

وعندما نظم الخديو اسماعيل الجيش في فرق منفردة ، في سنة ١٨٧١ م ، وزاده في سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره : (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى في سنة ١٨٧٩ م عندما خفض فيها الجيش لسوء مالية مصر . ثم أنشئ مرة خامسة في سنة ١٨٨٢ وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمواجهة الانجليز ونمر مرة أخرى : (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى عقب الثورة المذكورة في سنة ١٨٨٢ م مع بقية وحدات الجيش .

الآلاى الثانى عشر المشاة (١٢ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٢٥ وألغى في سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة الجيش من الحرب السورية في عهد محمد علي باشا . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش

أعيد إنشاء الآلاى المذكور لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب روسيا من سنة ١٨٥٥ وبعد انتهاء الحرب المذكورة ألغى فى سنة ١٨٥٦ م . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٠ .

وعندما هيا الخديوى اسماعيل الجيش فى فرق منفردة ، فى سنة ١٨٧١ م ، وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره . (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى فى سنة ١٧٨٩ م عندما خفض الجيش لسوء المالية المصرية فى ذلك العهد . وأعيد إنشاؤه للمرة الخامسة فى سنة ١٨٨٢ م حينما زاد العربيون الجيش لمحاربة الانجليز ونمره نمرة أخرى : (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى مع باقى الجيش بعد الثورة العربية فى سنة ١٨٨٢ م .

آلاى المشاة السابع (٧ جى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ ، وفى عام ١٨٧١ ، حينما استحدث نظام الفرق فى الجيش ، أخذ هذا الآلاى رقم (٣ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما أصاب الجيش التخفيض لسوء مالية مصر فى ذلك العهد . وعندما قبض العربيون على أزمة الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى بنمرته الأصلية . ثم نمر مرة أخرى لدى زيادة الجيش فى تلك السنة لمحاربة الإنجليز بنمرة (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العربية فى سنة ١٨٨٢ مع باقى وحدات الجيش .

آلاى المشاة الثامن (٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ ، وفى سنة ١٨٧١ عندما استحدث نظام الفرق فى الجيش نمر الآلاى الآتف (٤ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ حينما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك العهد ، وبعدما قبض العربيون على زمام الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى برقه الأصلية .

في وقت الثورة العربية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر : (٢ جى بياذة
٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع باقي الوحدات العسكرية .

الآلاى الخامس عشر المشاه (١٥ جى آلاى بياذة)

أنشئ في سنة ١٨٣١ م وألغى في سنة ١٨٤١ م في عهد محمد علي باشا بعد
عودة الجيش الذى كان في جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من
جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية
في حرب الروس من ١٨٥٣ — ١٨٥٥ م وألغى في سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه
الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٧ وألغى في سنة ١٨٧٠ م . ثم أنشئ مرة
رابعة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العربية حينما زيد الجيش لمحاربة الانكليز
ونمر : (٣ جى بياذة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع باقي
الوحدات العسكرية .

الآلاى السادس عشر المشاة (١٦ جى آلاى بياذة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٣١ وألغى في سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من
الحرب السورية في عهد محمد علي باشا وعودته من جزيرة كريت التى كان فيها هذا
الآلاى . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول
مساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ م وألغى في سنة
١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٧ وألغى في سنة ١٨٧٠ م
ثم أنشئ مرة رابعة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العربية عندما زيد الجيش لمحاربة
الانكليز ونمر : (٤ جى لبيادة ٤ جى فرقة) . وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م
مع باقي الجيش .

الآلاى السابع عشر المشاة (١٧ جى آلاى بياذة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٣١ وألغى في سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش
من حرب سورية في عهد محمد علي باشا . ثم أنشئ من جديد لتأليف الجيش

المرسل من قبل عباس باشا الأول لمساعدة الدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ وألغى في سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٧ م وألغى في سنة ١٨٧٠ م وعند ما استحدث الخديو اسماعيل في الجيش الفرق المنفردة في سنة ١٨٧١ م وزاده في سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هي ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلى من جديد ونمره : (٤ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى في سنة ١٨٧٩ م عند ما خفض الجيش اسوء مالية مصر في ذاك الوقت . ثم أنشئ مرة خامسة في سنة ١٨٨٢ م في وقت الثورة العربية حينما زيد الجيش لمقاتلة الانكليز ونمر مرة أخرى : (٤ جى بيادة ٣ جى فرقة) وألغى بعد الثورة الآتفة في سنة ١٨٨٢ م مع بقية وحدات الجيش .

الآلى الثالث عشر المشاة (١٣ جى آلى بيادة)

أنشئ في سنة ١٨٢٨ وألغى في سنة ١٨٤٢ في عهد محمد علي باشا بعد عودة الجيش الذى كان في جزيرة العرب . وكان هذا الآلى قسما منه . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول لمساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ - ١٨٥٦ وألغى في سنة ١٨٦٦ م بعد انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٧ وألغى في سنة ١٨٧٠ ثم أنشئ للمرة الرابعة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العربية عند ما زيد الجيش لمهاجمة الانجليز ونمر (١ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

الآلى الرابع عشر المشاة (١٤ جى آلى بيادة)

أنشئ هذا الآلى في سنة ١٨٣٠ م وألغى في سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من حروب سورية في عهد محمد علي باشا ثم أنشئ من جديد لتأليف الجيش المرسل من قبل عباس الأول لمعاونة الدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى في سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٧٧ وألغى في سنة ١٨٧٠ م . ثم أنشئ مرة رابعة في سنة ١٨٨٢

الآلای العشرون المشاة (٢٠ جى آلاى بیاة)

أنشئ فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٤١ فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٤م لتكوين الجيش المصرى المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ وألغى فى سنة ١٨٥٦م بعد تصرف هذه الحرب . ثم أنشئ للمرة الثالثة فى سنة ١٨٨٢ م فى وقت الثورة العراقية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكاز ونمر (٤ جى بیاة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى الحادى والعشرون المشاة (٢١ جى آلاى بیاة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤١ فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه .

الآلاى الثانى والعشرون المشاة (٢٢ جى آلاى بیاة)

أنشئ فى سنة ١٨٣٤ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الثالث والعشرون المشاة (١٣ جى آلاى بیاة)

أنشئ فى سنة ١٨٣٤ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الرابع والعشرون المشاة (٢٤ جى آلاى بیاة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد ارتداد الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

المرسل من قبل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى في سنة ١٨٥٦ عقب انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٦٧ م وألغى في سنة ١٨٧٠ ، ثم أنشئ مرة رابعة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العربية عند ما زيد الجيش لمجابهة الانكليز ونمر (١ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع بقية الجيش .

الآلاى الثامن عشر المشاة (١٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى في سنة ١٨٣١ م وأرسل مع الجيش الى حرب سورية ولم يعد منها ولعله أسرا أو أبيع في معاركها . ثم أنشئ من جديد في سنة ١٨٥٤ لتكوين الجيش المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م وألغى في سنة ١٨٥٦ م عقب انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ للمرة الثالثة في سنة ١٨٦٧ وألغى في سنة ١٨٦٨ ، ثم أنشئ للمرة الرابعة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العربية عندما زيد الجيش لمجابهة الانكليز ونمر : (٢ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى التاسع عشر المشاة (١٩ جى آلاى بيادة)

أنشئ في سنة ١٨٣١ وألغى في سنة ١٨٤١ م في عهد محمد على باشا بعد أوبة الجيش الذى كان في جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من جديد في سنة ١٨٥٤ لتكوين الجيش المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية في حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م وألغى في سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة في سنة ١٨٨٢ في وقت الثورة العربية عند ما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر : (٣ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة في سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلای الثانی والثلاثون المشاة (٣٢ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٨ ولم یشارك فى حرب من الحروب وألغى فى سنة ١٨٤١ م عقب أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم یعد إنشاؤه .

الآلای الثالث والثلاثون المشاة (٣٣ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٨ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد رجوع الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلای قسما منه ولم یجدد إنشاؤه .

الآلای الرابع والثلاثون المشاة (٣٤ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٨ م وأرسل مع الجيش المحارب فى سورية ولم یعد منها ولعله أسر أو أبید فى معاركها الحربية ولم یجدد إنشاؤه .

الآلای الخامس والثلاثون المشاة (٣٥ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٨ م وأرسل مع الجيش فى حرب سورية ولم یعد من هذه الحرب من هذا الآلای سوى تسعة جنود فحسب ، لأنه كان یكون حامية عكا وفى خلال دفاعه من هذه المدينه قبالة أسطول الحلفاء انفجرت (جبخانته) وأفتت أكثر جنوده وألغى فى سنة ١٨٤١ ولم یجدد إنشاؤه .

سلاح الخیالة

الآلای الأول (١ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٧٢ م .

الآلای الثانی (٢ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٨٢ م .

الآلای الخامس والعشرون المشاة (٢٥ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٥ وأرسل مع الجيش فى حرب سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبید فى معاركها الحربية ولم يعد إنشاؤه .

الآلای السادس والعشرون المشاة (٢٦ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ وأرسل مع الجيش المحارب فى سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبید فى معاركها الحربية ولم يعد إنشاؤه .

الآلای السابع والعشرون المشاة (٢٧ آلای جى بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلای قسما منه ولم يعد إنشاؤه .

الآلای الثامن والعشرون المشاة (٢٨ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلای قسما منه ولم يعد إنشاؤه .

الآلای التاسع والعشرون المشاة (٢٩ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ م وأرسل مع الجيش المحارب فى سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبید فى المحاربات ولم يعد إنشاؤه .

الآلای الثلاثون المشاة (٣٠ جى الآی بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه .

الآلای الحادى والثلاثون المشاة (٣١ جى آلای بیادة)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه .

الآلای الثامن (٨ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد أوبة الجيش من معارك سورية • ثم استعيد مرة ثانية فى سنة ١٨٤٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ •

الآلای التاسع (٩ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد رجوع الجيش من وقائع سورية ثم أنشئ مرة ثانية فى حرب القرم فى سنة ١٨٥٣ وألغى بعد انتهائها فى سنة ١٨٥٥ •

الآلای العاشر (١٠ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد عودة الجيش من معارك سورية ثم أعيد إنشاؤه مرة ثانية فى حرب القرم فى سنة ١٨٥٤ وألغى عقب انتهائها فى سنة ١٨٥٥ •

الآلای الحادى عشر (١١ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة القوات المصرية من حرب سورية •

الآلای الثانى عشر (١٢ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد عودة الجيش من حرب سورية •

الآلای الثالث عشر (١٣ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة الجيش من الحروب السورية •

الآلای الثالث (٣ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . ثم أنشئ للمرة الثانية فى سنة ١٨٦٥ وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذياك العهد . وفى الثورة العرباية، عندما زيد الجيش فى سنة ١٨٨٢ لمحاربة الانكليز، أثنى مرة ثالثة وألغى بعد هذه الثورة فى تلك السنة مع باقى الجيش .

الآلای الرابع (٤ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . ثم أنشئ ثانية فى سنة ١٨٦٥ وألغى فى سنة ١٨٧٩ حينما أصيب الجيش بالتخفيض لسوء مالية مصر آنذاك . ثم فى الثورة العرباية عندما زيد الجيش لمجابهة الانكليز فى سنة ١٨٨٢ أنشئ لثالث مرة وألغى عقب هذه الثورة فى تلك السنة مع باقى الواحدات العسكرية .

الآلای الخامس (٥ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حرب الشام ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٤٨ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . وحدث أن أنشئ لثالث مرة فى سنة ١٨٧٤ وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء المالية فى ذياك العهد .

الآلای السادس (٦ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حرب الشام . وأنشئ مرة تالية فى سنة ١٨٤٨ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . ثم أعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٤ م وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك الوقت .

الآلای السابع (٧ جى آلای سوارى)

أنشئ هذا الآلای فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حروب سورية ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٤٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ .

المدفعية

آلاى المدفعية الأول (١ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية مع
باقى الجيش .

آلاى المدفعية الثانى (٢ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٨٠ بعدما قبض العرابيون
على أزمة الحكم وزادوا الجيش فى أوائل عام ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى . ثم ألغى
بعد الثورة العرابية فى السنة المذكورة مع باقى الجيش .

آلاى المدفعية الثالث (٣ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد أوبة الجيش من
معارك سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٧٤ وألغى
فى سنة ١٨٧٩ . ثم أعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية
عندما زيد الجيش لمحاربة الانكيز وألغى بعد هذه الثورة فى السنة المذكورة مع باقى
وحدات الجيش .

آلاى المدفعية الرابع (٤ جى آلاى طوبجية)

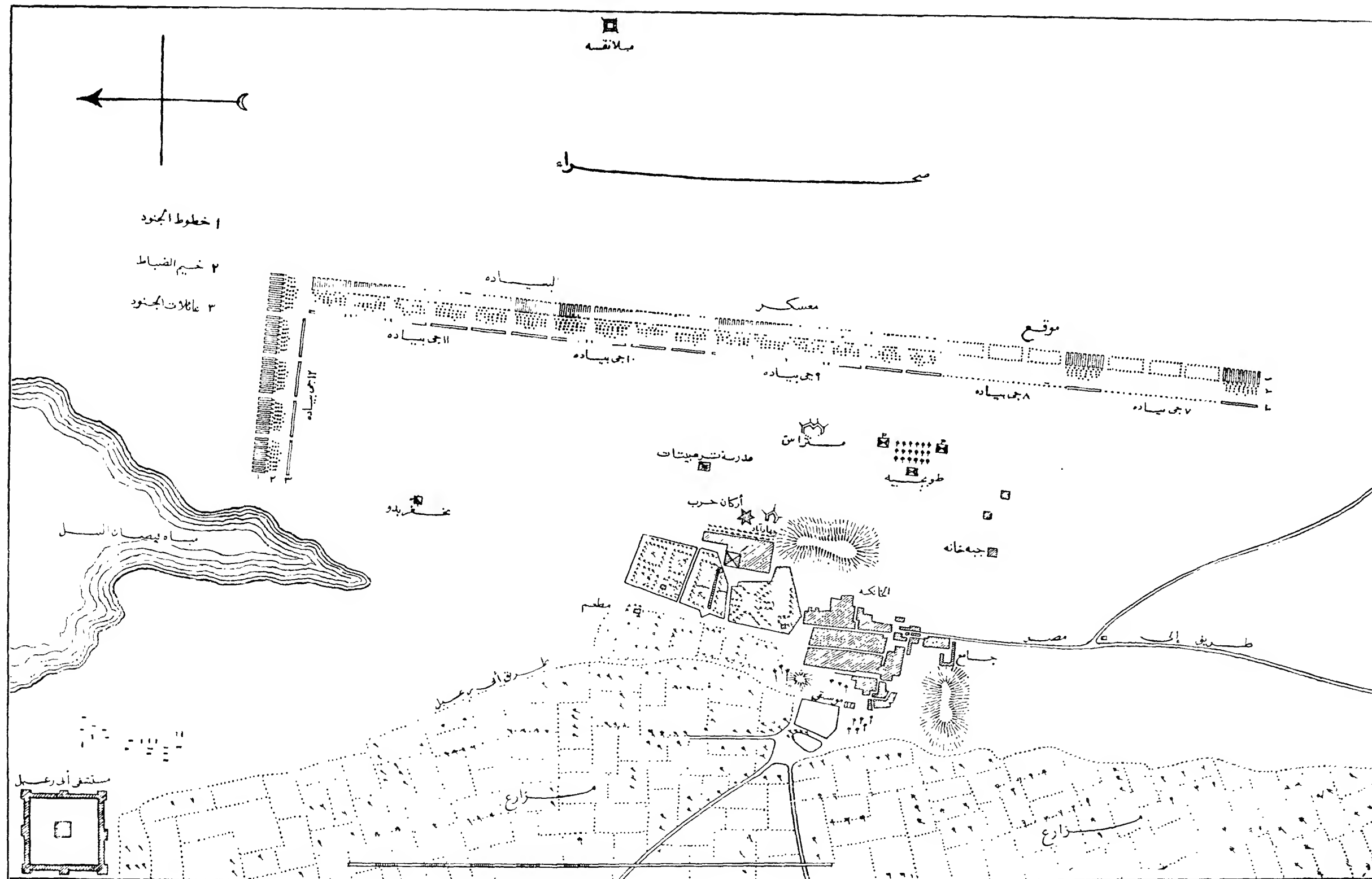
أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش
لمحاربة الانكيز ثم ألغى بعد هذه الثورة فى السنة الآتية مع بقية وحدات الجيش .

١ جى آلاى طوبجية سوارى

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من
حرب سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشئ للمرة الثانية فى سنة ١٨٥٣ وألغى
سنة ١٨٥٦ . ولم يحدد إنشاؤه .

٢ جى آلاى طوبجية سوارى

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ م وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش
من حروب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يحدد إنشاؤه بعد .



رسم معسكر جهاد آباد وناحية الخانكة عمل يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٢٦م بمعرفة حسين افندي وسليمان افندي مميش الیوز باتیين بأركان حرب الجيش المصرى

مدفعية السواحل

الآلأى الأول سواحل (١ آلأى سواحل)

أنشئ هذا الآلأى فى سنة ١٨٤٦ م وألغى فى سنة ١٨٨٢ م بعد الثورة العرابية

مع باقى الجيش .

الآلأى الثانى سواحل (٢ جى آلأى سواحل)

أنشئ هذا الآلأى فى سنة ١٨٥١ م وألغى فى سنة ١٨٨٢ م بعد الثورة العرابية

مع باقى الجيش .

الآلأى الثالث سواحل (٣ آلأى سواحل)

أنشئ هذا الآلأى فى سنة ١٨٧٤ م وألغى فى سنة ١٨٨٢ م بعد الثورة العرابية

مع باقى الجيش .

المهندسون العسكريون

البلطجية والكبروجية

ذكر القومندان « بلانا » أن عدد المهندسين العسكريين فى الجيش بلغ

فى عام ١٨٢٨ القوات الآتية :

عدد
١٢ بلوك بلطجية عددها ١٢٠٠ جندى بمعدل بلوك مهندسين لكل آلأى

مشاة يلحق به وقت الحرب .

١ بلوك كبروجية عدته مائة جندى .

وقد استهل فى ذياك الوقت فى تنظيم بلوك للآلغام .

وأورد البارون بو الكونت إحصائية للجيش المصرى عام ١٨٣٣ جاء فيها أن

عدد المهندسين العسكريين كان ٢٩٤٢

وفى إحصائية الجيش لعام ١٨٣٩ التى تأتت فى كتاب كلوت بك (ج ٢ ص ٣٥١)

ورد ذكر المهندسين العسكريين على الوجه التالى :

وحدات الحرس الخيالة

آلاى حرس الخيالة الأول (١ جى آلاى سوارى غارديا)
أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م ، ثم أعيد لإنشاؤه
فى سنة ١٨٥٢ وألغى فى سنة ١٨٥٤ ، ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٦ وألغى
فى سنة ١٨٧٩ م .

آلاى حرس الخيالة الثانى (٢ جى آلاى سوارى غارديا)
أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م ، ثم أعيد لإنشاؤه
فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٤ م ، ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى
فى سنة ١٨٧٩ م .

وحدات الحرس المدفعية

آلاى حرس المدفعية الأول (١ جى آلاى طوبجية غارديا)
أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من
حرب سورية فى عهد محمد على باشا ، ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٧٤ وألغى
فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى حرس المدفعية الثانى (٢ جى آلاى طوبجية غارديا)
أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش
من المعارك السورية فى عهد محمد على باشا .

من الوثائق التاريخية

والحديث عن إنشاء الوحدات العسكرية السابقة قد لا تستوعبه المجلدات ،
وتقتصر ولا ريب دونه الصفحات ، الشئ الذى حدا بنا — فى هذا السياق الى
أن نأتى — على سبيل المثال — فيما يلى ببعض الوثائق الخاصة بالولايات السابع
والثامن والتاسع المشاة .

٨١٢	الآلاى الأول من البلطجية فى عكا
٧٥٨	آلاى المهندسين فى أدليب
٨٠٨	آلاى البلطجية فى الإسكندرية
٩٤	وحدات اللغامين فى القاهرة
٢٤٧٢	المجموع

وحدات الحرس المشاة

آلاى الحرس الأول (١ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م . ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ ، وأعيد إنشاؤه للمرة الثالثة فى سنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الثانى (٢ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٥٩ ، ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ ، وأعيد إنشاؤه للمرة الثالثة فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الثالث (٣ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ ، ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ ، وأعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الرابع (٤ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

إنشاء أورطة الرجال العسكرية

”من الجناح العالى إلى الصاغقول والصول قول أغاسية واليوزباشية والملازمين الأولين والثانيين وسائر الضباط بأورطة العساكر الجهادية :

”كنت آمل أن تلاميذ السنة الدراسية الثالثة قد اتقنوا بفضل الجهود المبذولة التعاليم الخاصة بالبيادة والطوبجية وتعلموا الحساب ومجموعة المهندسين وأصول الهندسة والمثلثات المسطحة مما أقدرهم على تخطيط البلدان واستطلاع أحوال الأراضى ورسم الخرائط أو الاستحكامات الخفيفة والقوية وأنهم برعوا فى هذه المواد نظريا وعمليا حتى تكونت لديهم القدرة على إجراء كل علم منها وسهل عليهم المثلثات الفلكية وإنشاء الخرائط بالهندسة كما أنهم قد ترجموا من اللغة الفرنسية بعض أشياء مما يفيد مصلحتنا ويوافق أصولنا (وكنت أقول أنهم لم يقفوا عند هذا الحد) بل شرعوا فى دراسة فن الحرب وكذلك تلامذة السنة الدراسية الثانية هم أيضا يستفرون جهدهم ليحققوا بتلامذة السنة الثالثة ويبلغوا مستواهم كما هى الحالة فى تلامذة السنة الأولى فانهم لا يرضون بجهد فى بلوغ مرتبة تلاميذ السنة الثانية (أجل كنت أمنى النفس بهذا) إلا أنه قد ظهر من نتيجة الامتحان التى عرضت على أخيرا أن الصول قول أغاسية : حسين أفندى وعلى أفندى من القول أغاسية ، سليمان أفندى ممش زاده وأحمد أفندى الخربوطلى من اليوزباشية والملازم الثانى عبد الله أفندى من تلامذة السنة الدراسية الثانية هم وحدهم من بين سائر التلاميذ قد اجتهدوا طبق أمرى ووفق مرضاتى وبذلوا المساعى لتحصيل العلوم وكسب المعارف وقد ظهر أيضا من النتيجة الآتفة الذكر أن تلامذة السنة الدراسية الأولى قد بلغ بهم الكسل مبلغا أقعدهم عن الحضور وتلقى الدروس بالمدرسة فضلا عن الجهد والسعى فلما علمت هذا قد أمرت بترقية الصول قول أغاسيين المذكورين إلى رتبة الصاغقول أغاسى وترقية اليوزباشيين إلى الصول قول ، والملازم الثانى إلى الملازم الأول ، ثم إنى بقدر ما سررت من مساعى هؤلاء قد

ففى الثانى من ذى القعدة عام ١٢٤٠ هـ (١٨ يونيو ١٨٢٥) كتب محمد على الى ابنه الخطاب الآتى :

من الجنباب العالى إلى الباشا السمر عسكر^(١).

”ونحمد الله تعالى حمدا مضاعفا على أن جعلنا مظهرا لآثار فيض نعمه بما عزمنا عليه من تشكيل الآلايات ١٠ جى و ١١ جى و ١٢ جى بيادة فقصد بدأنا مستعينين بالله تعالى بإعدادهم وتهيئة ما يلزم لهم من الضباط حتى القائمقامات من الآلايات ٧ جى و ٨ جى و ٩ جى بيادة وأورطة الأوجان وأخذنا بتنظيم الجنود اللازمة لها وبفضل الله تعالى فى أقرب وقت سيكون ذلك رهين محاسن الكمال بأكمله ولم ينقصها (أى تلك الآلايات) إلا الرؤساء وقد رأينا من المناسب تعيين أحمد أفندى المنكلى وسليم أغا قائمقام الآلاى ٢ جى بيادة المأمور للحجاز وصالح أغا قائمقام الآلاى ٤ جى بيادة المأمور للورة وبما أن أحمد أفندى هنا قصد أعلمناه بذلك وأرسلنا الخبر للحجاز وأحلنا إرسال صالح أفندى لعهدة سعادتك وأن أحمد أفندى وإن كان لازما ثمة فقد اضطررنا لحسن مأموريته إلى ترقية لرتبة الميرالاي حسب الإيجاب .

وقد كتبنا لكم ذلك ليكون معلوما لكم إن شاء الله تعالى “.

تشكيل الآلايات ١٠ و ١١ و ١٢

وإذا خَلَفْنَا ذلك نجد أنه فى السابع عشر من شوال عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) قد صدر أمر الوالى إلى ابراهيم باشا بأنه تيسر تشكيل الآلايات ١٠ و ١١ و ١٢ وتعيين القواد والضباط اللازمين لها . وبتعيين أحمد المنكلى المبعوث المعين بين الطرفين سابقا أميرالاي لأحد تلك الآلايات وأنه لاتسع نطاق النظام العسكرى قد جدد ترتيب علاوة على النسق القديم وتعيين لواء يكون تحت قيادته الآلايين

(١) وثيقة رقم ٤٣ — دفتر ٢٠ معية تركى ورقة ١١ بتاريخ ٢ ذى القعدة ١٢٤٥ هـ

إحصائيات الجيش

ونورد فيما يلي إحصائيات، تنبئ عن مدى قوات الجيش المصرى ، فى أبرز سنواته . استقيت من عشرات المراجع والموارد، التى تضمنت الحديث عن أعداده ورجاله ووحداته .

ومثل هذه الإحصائيات التى تخيرناها، تغنى — ولا مرأى — عن استظهار أعداده، خلال سنينه الطويلة، التى كان يتجاذبها المد والجزر، وتتدافعها الاستعادة والبتير ...

الجيش المصرى فى عام ١٨٢٨ م

الوحدات	القواد	مراكز الوحدات	القوة عند القوة التكوين الحالية
الآلاى الأول المشاه	رستم بك	٣ أورط فى سنار وأورطتان فى كردفان	٢٥٠٠ ٤٠٠٠
» الثانى »	محمد بك	القاهرة ومكنت فى حرب المجاز ثلاث سنوات قبل رجوعه الى القاهرة	٣٢٠٠ ٤٠٠٠
» الثالث »	—	—	— —
» الرابع »	—	—	— —
» الخامس »	—	مورة تحت قيادة إبراهيم باشا	١٦٠٠٠ ٢٨٠٠٠
» السادس »	سليمان بك	وخسر هذا الجيش نحو	
» السابع »	حسن بك	نصفه فى هذه الحرب	
		ماعد الآلاى العاشر	
» الثامن »	حسين بك	—	— —
» العاشر »	أحمد بك	—	— —
» التاسع »	محمود بك	المجاز تحت قيادة أحمد باشا يكن	٧٠٠٠ ٨٠٠٠
» الثانى عشر »	عابدين بك		

شعرت بخيبة الأمل في حزن مضاعف وتأثر كبير من فتور التلاميذ القدماء ولا سيما من تواني القول أغاسية وكسل التلاميذ المستجدين وقد انبعث هنا عثمان بك رئيس رجال الجهادية لأنه لم يعرف هذه المسألة ما يستحقه من العناية والاهتمام ولم يأخذ التلاميذ الكسالى بالشدة ليجملهم على الجحد والسعى وتساهل في معاقبة من لم يرجع منهم إلى الرشد والإنصاف بما يستأهله لكي يكونوا عبرة لغيرهم ولما كان اليوزباشى خورشيد أفندى أخذ إلى الكسل ولم يحصل شيئا يذكر بالرغم من هذه المدة الطويلة ولم يقدر قدر الرتبة التي يحوزها فقد خفضت رتبته درجة، ثم إنى كما أعطف على المجتهدين لكسب العلوم والمعارف وأبذل لهم مكافأة على مساعيهم لا أتناحر عن إنزال العقاب على المتكاسلين وعلى الذين يقصرون جهدهم على تحصيل نظريات أى فن من الفنون ويحول كسلهم دون إجادة تطبيقه العملى ، هذا وقد تقرّر أن أصحاب الرتب الذين لم ينالوا رتبهم عن جدارة ولا يسعون أيضا ليكونوا جديرين بها لا يتركون منعمون بهذه الرتبة بل تنزل رتبهم إلى درجة تليق بأحوالهم ولذلك ينبغي أن تنظم جداول في أواخر كل شهر يبين فيها مبلغ كل منكم من العلم والأخلاق ثم تعرض هذه الجداول علينا لنعلم أحوالكم ونعامل كل واحد منكم بما يليق بحاله كما يجب عقد امتحان لكم جميعا في كل ثلاثة أشهر مرة في حدود الأصول الجهادية وتعرض نتيجته علينا للاطلاع .

”وقد أصدرنا أمرا هذا من الإسكندرية حيث نقيم فيها الآن وأرسلناه إليكم فتم وصل بمنه تعالى وعلمتموه فالواجب عليكم أن تبذلوا ما في وسعكم من الجهود على أداء مهمتكم وفق إرادتى وطبق مرضاتى على وجه يتفق والقواعد الإنسانية لكي تنالوا عطفى فتسعدوا في ظلى وتمتازوا بين أقرانكم وتكونوا نافعين لى ولأنفسكم ولديننا وشعبنا جميعا^(١) .

(١) وثيقة رقم ٢١٣ — دفتر ٢٦ معية تركى ص ٥٩ — بتاريخ ٢١ ربيع سنة ١٢٤٤ هـ (١١ نوفمبر

الجيش المصري في عام ١٨٣٣

أسماء البلاد والأماكن التي بها قوات الجيش	الفرسان	المشاة	المصفون	فرق الهندسة	فرسان بالنبوق	عرب	مغاربة	فرنسيون	مدارس حربية	أجناس مختلفة	أركان الجيش	تحت القيادة
مصر .	٢٧٦٠	١٧٤٣٧	٤١٠٢	٢٩٨٩	٧٠٠	—	—	١٥	—	—	—	—
مكة والحجاز .	—	٦٨٧٠	—	١٠١	٧٠٠	٦٦٨	١٧٧	—	—	—	—	—
السودان .	—	٥١٥٧	—	—	٤٨٤	٦٠٤	—	—	—	—	—	—
الأمم .	٥٢٩٢	٢٥٥٤٣	٢٣٥٥	٨٥٢	١٥٥١	٤٠٩٨	٣٤	—	—	—	—	—
كندي .	—	٥٠٠٤	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
الأساطيل بالإسكندرية .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	١٦٧٨٥	—
الترسانة بالإسكندرية .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٨٣٥٨
مدرسة أركان الحرب بقصر المعني .	—	—	—	—	—	—	—	—	١٥٢٦	—	—	—
المدرسة البحرية بالإسكندرية .	—	—	—	—	—	—	—	—	١٢٥٠	—	—	—
حاسيون في مصالح الجيش .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٣٠٠	—	—
كتبة ومترجمون بالترسانة .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٤١٢	—	—
الجملة	٧٩٦٢	٧٠٠١١	٦٣٥٧	٣٩٤٢	٣٤٣٥	٥٣٧٠	٢١٢	١٥	٢٧٧٦	٧١٢	١٦٧٨٥	٨٣٥٨

(تابع) الجيش المصرى فى عام ١٨٢٨ م

الوحدات	القنود	مراكز الوحدات	القوة عند التكوين	القوة الحالية
الحدادى عشر	سليم بك	جهاد أباد	٤٠٠٠	٤٠٠٠
أوردتان غير مرفومين	—	اسكندرية	١٦٠٠	١٤٠٠
ثلاث أوطر مدفعية	أدهم بك	جهاد أباد ولا تزال فى حالة التكوين	٢٤٠٠	١٨٠٠
أربعة وعشرون بلوكا للهمات	—	جهاد أباد ولا تزال فى حالة التكوين	٧٤٤	٣٠٠
بلوكا للجنود	مصطفى بك	جهاد أباد	٢٠٠	١٥٠
مدفعيون أترك	—	موزعون فى حصون مصر	—	٨٠٠
اثنا عشر بلوكا بلطجية	—	بلوك مع كل آلاى مشاه	١٢٠٠	٧٠٠
بلوك للواد الملتبهة	—	اسكندرية	١٠	٨٠
بلوك للكارى والجسور	—	اسكندرية	١٠٠	٨٠
أساس الضباط	—	جهاد أباد	٨٠٠	٥٠٠
مدارس حربية	—	—	—	١٠٠٠
مشاه ألبانيون	—	٢٠٠٠ بمورة والباقي بمصر وجزيرة كريد	—	٦٠٠٠
فرسان أترك	—	موزعون فى مصر ومورة وشبه جزيرة العرب	—	٦٠٠٠
باشبوزق غير نظاميين	—	—	—	—
			٥٥١٤٤	٥١٥١٠

(تابع) المشاة

رقم الآلى	المركز	القطر	قوة الآلى
			ضباط وصف ضباط وعساكر
١٨	عكا	سورية	٢٠٤٩
١٩	الحجاز	جزيرة العرب	٢٣٤٩
٢٠	البحرين	»	٢٦٧٧
٢١	الحجاز	»	٢٣٦٣
٢٢	أورفة	سورية	٢٢١٢
٢٣	ينبع	جزيرة العرب	٢٣٤٢
٢٤	أنطاكية	سورية	٣١٣١
٢٥	القدس	»	١٧٥٥
٢٦	القاهرة	مصر	٣٣١٨
٢٧	الجديدة	»	٢١٢٩
٢٨	»	»	٢٤٤٦
٢٩	أذنة	سورية	٣١٧٢
٣٠	حماة	»	٢٩٢٥
٣١	حلب	»	٢٤٠١
٣٢	القاهرة	مصر	٣٣١٨
٣٣	اسكندرية	»	٢٦٠٤
٣٤	كاس	سورية	٢٥٦٤
٣٥	القاهرة	مصر	٣٣١٢
		الجملة	٩٦٩٩٩

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م
المشاة

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى
			ضباط وصف ضباط وعساكر
١ حرس	عينتاب	سورية	٣٠٤٨
٢ »	مرعش	»	٢٦٤٥
٣ »	حلب	»	٢٤٣٥
١	سنار	السودان	٤٥٤٧
٢	عينتاب	سورية	٢٢٥١
٣	اليمين	جزيرة العرب	١٥٢٦
٤	مرعش	سورية	٢٥٩٣
٥	أذنة	»	٢٦٢٩
٦	كلس	»	٢٣٦٢
٧	الحجاز	جزيرة العرب	٢١٩٢
٨	سنار	السودان	٣٣٩٦
٩	حلب	سورية	٢٣٠٤
١٠	»	»	٢٠٥٤
١١	أورفة	»	٢٣٣٨
١٢	عينتاب	»	٢٣٢٦
١٣	الحجاز	جزيرة العرب	١٢٢٥
١٤	حلب	سورية	١٩٨٨
١٥	الدرعية	جزيرة العرب	٢٥٥٥
١٦	كندية	جزيرة كريد	٣١٤٩
١٧	أورفة	سورية	٢٣٦٩

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى	رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى
١	٢	٣	٤	١	٢	٣	٤
المهندسون				المدفعية			
١٣٧٢	سورية	حماة	١	١٣٧٢	سورية	حماة	١
٢٣٤٩	مصر	اسكندرية	أورطة	٢٣٤٩	مصر	اسكندرية	٢
١٩٤٩	سورية	حلب	»	١٩٤٩	سورية	حلب	٣
٩٨٢	»	حمض	»	٩٨٢	»	حمض	١
١٠٠٧	»	دمشق	»	١٠٠٧	»	دمشق	٢
٣٢٢٥	مصر	القاهرة	الجملة	٣٢٢٥	مصر	القاهرة	٣
٣٧٩	جزيرة العرب	الحجاز	»	٣٧٩	جزيرة العرب	الحجاز	أورطة
٣٣٧	سورية	عكا	»	٣٣٧	سورية	عكا	٤ بلوكات
١١٦٠٠	الجملة			١١٦٠٠	الجملة		

وهذا بيان توزيع الجيش المصرى
على الأقطار

عدد	مصر
٢٦٥٦٨	مصر
٦٧٩٥٧	سورية
١٧٦٠٨	جزيرة العرب
٧٩٤٣	السودان
٣١٣٩	جزيرة كريد
١٢٣٢٢٥	

مجموع قوة الجيش النظامى المصرى
عام ١٨٣٧

عدد	المشاة
٩٦٩٩٩	المشاة
١١٦٨٤	الفرسان
١١٦٠٠	المدفعية
٢٩٤٢	المهندسون
١٢٣٢٢٥	

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م
الفرسان

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
١ حرس	أنطاكية	سورية	٧٩٦
٢ >	بيسان	»	٨٤٤
١	أورفة	»	٨٢٥
٢	زنبه	»	٨٣٠
٣	القاهرة	مصر	٨٣٢
٤	أدنة	سورية	٦٧٨
٥	القاهرة	مصر	٨٣٢
٦	دمشق	سورية	٧٧٠
٧	طرسوس	»	٧٤٢
٨	دمشق	»	٧١٢
٩	اسكندرية	مصر	٨١٦
١٠	عكا	سورية	٧٦٨
١١	كلس	»	٧٥٦
١٢	طرسوس	»	٦٦٢
١٣	أورفة	»	٨٠٦
الجملة			١١٦٨٤

(تابع) الجيوش النظامية

عددتها	مراكزها	نوعها	وحدتها
٢٠٥٤	حلب	من المشاة	الآلای العاشر
٢٣٣٨	أورفة	» »	» الحادى عشر
٢٣٢٦	عيتاب	» »	» الثانى عشر
١٢٢٥	الحجاز	» »	» الثالث عشر
١٩٨٨	حلب	» »	» الرابع عشر
٢٥٥٥	الدرعية	» »	» الخامس عشر
٣١٤٩	كندية	» »	» السادس عشر
٢٣٦٩	أورفة	» »	» السابع عشر
٢٠٤٩	عكا	» »	» الثامن عشر
٢٣٤٩	الحجاز	» »	» التاسع عشر
٢٦٧٧	اليمين	» »	» العشرون
٢٣٦٣	الحجاز	» »	» الحادى والعشرون
٢٢١٢	أورفة	» »	» الثانى والعشرون
٢٣٤٢	ينبع	» »	» الثالث والعشرون
٣١٣١	أنطاكية	» »	» الرابع والعشرون
١٧٥٥	القدس	» »	» الخامس والعشرون
٣٣١٨	القاهرة	» »	» السادس والعشرون
٢١٢٩	الجديدة	» »	» السابع والعشرون
٢٤٤٦	»	» »	» الثامن والعشرون
٣١٧٢	أدنة	» »	» التاسع والعشرون

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٩ م
الجيش النظامية

وحداتها	نوعها	مراكزها	عددتها
الآلاى الأول	من مدفعية الحرس	حماة	١٣٧٢
» الثانى	من المدفعية المشاة	الاسكندرية	٢٣٤٩
» الثالث	» »	حلب	١٩٤٩
» الأول	» الراكبة	حمص	٩٨٢
» الثانى	» »	دمشق	١٠٠٧
أربع كتائب	من المدفعية	عكا	٣٣٧
الأورطة الأولى	» »	الحجاز	٣٧٩
الآلاى الأول	من مشاة الحرس	عينتاب	٣٠٤٨
» الثانى	» »	مرعش	٢٦٤٥
» الثالث	» »	حلب	٢٤٣٥
» الأول	المشاة (الأورطة الخامسة)	السودان	٤٥٤٧
» الثانى	من المشاة	عينتاب	٢٢٥١
» الثالث	» »	اليمين	١٥٢٦
» الرابع	» »	مرعش	٢٥٩٣
» الخامس	» »	أدنة	٢٦٢٩
» السادس	» »	كلس	٢٣٦٢
» السابع	» »	الحجاز	٢١٩٢
» الثامن	» »	السودان	٣٣٩٦
» التاسع	» »	حلب	٢٣٠٤

(تابع) الجيوش النظامية

وحداتها	نوعها	مراكزها	عددتها
الالاي الثالث عشر	من الفرسان	أورفة	٨٠٦
أورطة	الجنود الأقدمين	القاهرة	٣٩٨٠
الآلاي الأول	من حملة البلط	عكا	٨١٢
الأورطة الأولى	من الجنود الأقدمين	الاسكندرية	٧٩١
أورطتان	» »	طرابلس	١٦٤١
أورطة	» »	دقلة	٨٥٥
»	من المهندسين	أولب	٧٥٨
»	من حملة البلط	الاسكندرية	٨٠٨
كتيبة	للأنغام نسافون	القاهرة	٩٤
أساس الضباط	»	»	٢٨٥
١٦ بلوكا	من الجنود الأقدمين	موزعين في أنحاء مصر	١٦٧١
صانعو المفرقات		مصر القديمة	١٨٥
آلاي قرايه	ذوو القرايينه	في معية رئيس القوات	١١٥٢
كتيبة قرايه	» »	الحجاز	١٠٦
بلوكان	من الجنود الأقدمين	»	٢٠٠
المجموع			١٣٠٣٠٠

(تابع) الجيوش النظامية

وحداتها	نوعها	مراكزها	عددتها
الآلاف الثلاثة	من المشاة	حماة	٢٩٢٥
» الحادى والثلاثون	» »	حلب	٢٤٠١
» الثانى والثلاثون	» »	القاهرة	٣٣١٨
» الثالث والثلاثون	» »	الاسكندرية	٢٦٠٤
» الرابع والثلاثون	» »	كلس	٢٥٦٤
» الخامس والثلاثون	» »	القاهرة	٣٣١٨
» الأول	من فرسان الحرس	اللاذقية	٧٩٦
» الثانى	فرسان الحرس المدرّعون	بيسان	٨٤٤
» الأول	من الفرسان	أورفة	٨٢٥
» الثانى	» »	زميمة	٨٣٠
» الثالث	من الفرسان فى الطريق إلى	الاسكندرية	٨٤٧
» الرابع	من الفرسان	أدنة	٦٧٨
» الخامس	من الفرسان فى الطريق إلى	الاسكندرية	٨٤٧
» السادس	من الفرسان	دمشق	٧٧٠
» السابع	» »	طرسوس	٧٤٢
» الثامن	» »	دمشق	٧١٢
» التاسع	من الفرسان فى الطريق إلى	الاسكندرية	٨١٦
» العاشر	من الفرسان	عكا	٧٦٨
» الحادى عشر	» »	كلس	٧٥٦
» الثانى عشر	» »	طرسوس	٦٦٢

حرب كريت والمورة

(١٨٢١ - ١٨٢٨)

للبيكاشى (٢٠١)

أحمد فهم بيومى

مدرس بكلية أركان الحرب الملكية

محتويات البحث

مقدمة :

جدول زمنى يبين تواريخ الأحداث المختلفة والمعارك الهامة التى وقعت إبان

حرب المورة وكريت .

١ - الفصل الأول : ثورة الاغريق :

الجمرتحت الرماد .

اشتعال نيران الثورة .

٢ - الفصل الثانى : مراحل الحرب فى اليونان ،

مراحل الحرب الثلاث :

المرحلة الأولى .

المرحلة الثانية .

المرحلة الثالثة .

مشماتات الموضوع

- تمهيد .
- ميلاد النظام العسكري فى وادى النيل .
- سير العمل .
- الوحدات العسكرية الجديدة .
- أوامر محمد على إلى ضباطه .
- الجيش فى نظر محمد على .
- تنظيم الجيش .
- معنويات الجند .
- التجنيد ومصالحة الشعب .
- خدمة الجيش واجب نبيل .
- استقدام بعثة عسكرية .
- تعيين القادة .
- تعليمات محمد على إلى قادة الجيش .
- ديوان الجهادية .
- المدارس الحربية .
- مدرسة القلعة — مدرسة البيادة بأسوان .
- مدرسة البيادة بالخانقاه — مدرسة أركان الحرب .
- مدرسة السوارى — مدرسة المدفعية .
- مدرسة الموسيقى العسكرية — مدارس الوحدات .
- البعثات العسكرية .
- وحدات الجيش .
- المشاة — الخيالة — المدفعية — المهندسون .
- إحصائيات متنوعة عن قوة الجيش .

- المواصلات .
- حالة الأتراك عند نزول القوات المصرية إلى المورة .
- خطة إبراهيم باشا للغزو .
- الاستكشاف والوقاية .
- إنقاذ كورون .
- حصار نفارين .
- استسلام نفارين .
- التحليل الفنى لهذه المعركة .
- مبدأ المحافظة على الهدف .
- مبدأ ادّخار القوى .
- مبدأ خفة الحركة .
- مبدأ التعرض أو القتال الهجوى .
- مبدأ المفاجأة .
- مبدأ التعاون .
- مبدأ الوقاية .
- مبدأ حشد القوى .

الدروس المستفادة من هذه المعركة :

- (١) أهمية القائد فى المعركة .
- (ب) أهمية الضبط والربط فى النيران والتدريب الجيد للجنود .
- (ج) أهمية التعاون بين القوات المحاربة .

٣ — الفصل الثالث : المرحلة الأولى :

- أعمال الثوار .
- أعمال الأتراك .
- عصب الثورة .
- الانحراف عن مبادئ الثورة .
- إستعانة تركيا بالأسطول المصرى .
- الحملة المصرية على كريت .
- الحملة المصرية على المويرة .
- المنظار الذى يجب أن ننظر به لهذه الحملة .
- الاستعداد للحملة .
- الحرب البحرية على شواطئ الأناضول .
- توحيد القيادة .
- القائد المصرى إبراهيم باشا .
- تأمين خطوط مواصلاته .
- انتهاء المرحلة الأولى من هذه الحروب .

٤ — الفصل الرابع : المرحلة الثانية :

- (١) تخليص كودون والاستيلاء على تقارين .
- مسرح العمليات .
- طبيعة أرض المويرة .
- موارد المياه .
- المناخ .

(و) » المفاجأة .

(ز) » التعاون .

الدروس المستفادة من هذه المعارك :

(١) أهمية تأمين قاعدة للعمليات .

(ب) » اتخاذ قوات العدو دون المواقع الجغرافية هدفا للهجوم .

(ج) » خفة الحركة في الهجوم والمطاردة في الأراضي الجبلية .

(د) أثر الروح المعنوية في القتال .

(هـ) أهمية الاستكشاف وتأمين خطوط المواصلات .

(و) أهمية توفير المطالب والشئون الإدارية محليا للوحدات .

٦ — الفصل السادس : تابع المرحلة الثانية :

(٣) فتح ميسولونجى وأثينا .

حالة الأتراك أمام ميسولونجى .

مسارعة إبراهيم باشا لنجدة رشيد باشا .

خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على ميسولونجى .

سقوط ميسولونجى .

حصار أثينا .

التحليل الفنى لمعركة ميسولونجى :

(١) مبدأ المحافظة على الهدف .

(ب) مبدأ حشد القوى .

(ج) مبدأ القتال التعرضى .

(د) أهمية الخيالة في الأراضى الوعرة لقطع مواصلات العدو .

(هـ) أهمية المطاردة .

الروح التى خاض بها إبراهيم باشا غمار هذه المعركة :

مهاجمة السفن اليونانية لسواحل مصر .

الموقف العام بعد هذه المعركة .

٥ — الفصل الخامس : تابع المرحلة الثانية :

(٢) احتلال المورة .

تطهير بيليا .

حشد قواته فى نيسى .

تأمين خطوط مواصلاته قبل الزحف .

فتح كالاماتا .

الاستيلاء على تريبوليتسا .

توفير المؤن وتنظيم الشئون الإدارية .

احتلال بتراس .

الموقف فى نهاية عام ١٨٢٥

التحليل الفنى لهذه المعارك :

(١) مبدأ المحافظة على الهدف .

(ب) « القتال التعرضى .

(ح) « خفة الحركة .

(د) « الوقاية .

(هـ) « حشد القوى .

مقدمة

تعدّ حرب المورة وكريت إحدى الأعمدة الرئيسية^(١) التي شاد عليها عاهل مصر العظيم محمد علي باشا الكبير بنيان امبراطوريته الرائعة ... والحق إن هذه الحملة، رغم قصر عمرها وقلة مواقعها الرئيسية وكثرة انتشار سحابات المأسى المحزنة في سماء أحداثها، تضم بين جوانحها أروع المثل القيمة وأسوأ النتائج المؤلمة ! . فهي تظهر لنا جلّيا ما أصاب « الرجل المريض »^(٢) من سوء مآل عندما أحسّت أجزاء امبراطوريته بالضعف وقد بدأ يدب في جسده السقيم ... وتوضح لنا ضرامة أتون الثورات الاستقلالية وسريان انتشارها في البلاد كسرى النار في الهشيم ... ثم تطلّعوننا على ثعلبة رجال السياسة ومكرهم الذي لا يفيض ... وخلال ذلك كله تبهر أظفارنا بقوة « محمد علي باشا الكبير » وروعة شبّه « إبراهيم باشا » الذي أذاق الثوار العصاة حذّة حسام المصريين وضراوة بأسهم وقوة شكيמתهم ، والذي أخاف دول أوربا من سطوع شمس العسكرية المصرية فعملوا في خبث ودهاء وتحت أستار ظلام الخديعة على تحطيم قوة مصر البحرية الناشئة التي — رغم استقرار معظمها قبل نهاية هذه الحرب في قاع اليم — لم تنج تلك الشعلة بل كانت تتقد وتترايد لتذهلهم بعد ذلك في حروب أخرى لامعة .

والحديث عن هذه الحملة جدّ شيق وطويل يؤدّ الباحث في أنحائه المتشعبة لويقف به الزمن فيتسّح له الاطلاع الوافي على جميع المراجع العديدة والمختلفة ولو تطلق يده من عقاها لتسطر المحلّلات الضخمة الحاوية لشتى العوامل والأحداث والمعارك محللة تحليلا عسكريا دقيقا ومذيلة بالدروس المستفادة من كل منها .

... أما وأن ذلك غير متاح لنا في مجالنا الآن فسأوجز رسالتي هذه في ذلك الحيز المضروب جاعلا جل اهتمامي للناحية العسكرية غير مهممل جميع الأحداث التاريخية أو المقدمات الباعثة لهذه الحرب .

(١) كتاب « مؤسس مصر الحديثة » لدودويل ص ٦٨ (٢) الاسم الذي أطلق على تركيا إبان ضعفها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . مجلة « الكاتب المصري » عدد ٦ مجلد ٢ ص ٢١٤

(د) مبدأ المفاجأة .

(هـ) مبدأ التعاون .

الدروس المستفادة من معركة ميسلونجى .

(١) أهمية الخطة والدقة فى تنفيذها .

(ب) أهمية إحباط نوايا العدو للمفاجأة .

الموقف العام بعد سقوط ميسلونجى وأثينا .

اتهاء المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة .

٧ — الفصل السابع : المرحلة الثالثة :

معاهدة لوندرة .

مقدمات معركة نفارين البحرية .

معركة نفارين البحرية .

موقف إبراهيم باشا بعد معركة نفارين .

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نفارين .

الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء الجيش المصرى لبلاد المورة .

عودة إبراهيم باشا ورجاله .

اتهاء المرحلة الثالثة .

٨ — الخاتمة : نتائج حرب المورة وكريت :

خسائر مصر فى هذه الحملة .

ما كسبته مصر من هذه الحملة .

(١) الكسب المادى .

(ب) الكسب المعنوى .

استقلال مصر .

(تابع) الجدول الزمني

رقم مسلل	التاريخ	الحادثة أو المعركة	ملاحظات
١٤	{فبراير ١٨٢٥ — {يونيو ١٨٢٧}	المرحلة الثانية	
١٥	٢٦ فبراير ١٨٢٥	نزول إبراهيم باشا وجنوده في أرض المورة	
١٦	٥ مارس ١٨٢٥	إنقاذ كورون	
١٧	١٨ مايو ١٨٢٥	الاستيلاء على نقارين	
١٨	١٢ يونيو ١٨٢٥	» » كالاماتا	
١٩	٢٣ يونيو ١٨٢٥	» » تريبوليتسا	
٢٠	٢٧ يوليو ١٨٢٥	» » بتراس	
٢١	٢٢ أبريل ١٨٢٦	» » ميسولونجي	
٢٢	يونيو ١٨٢٧	» » أثينا و انتهاء المرحلة الثانية	
٢٣	{يوليو ١٨٢٧ — {أكتوبر ١٨٢٨}	المرحلة الثالثة	
٢٤	٦ يوليو ١٨٢٧	معاهدة لوندره	بين إنجلترا وفرنسا وروسيا
٢٥	٢٠ أكتوبر ١٨١٧	معركة نقارين البحرية	
٢٦	أغسطس ١٨٢٨	الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء المورة	
٢٧	أكتوبر ١٨٢٨	إبحار الجيش المصري من المورة إلى مصر	
		اتهاء المرحلة الثالثة	

جدول زمنى يبين تواريخ الأحداث المختلفة والمعارك الهامة
التي وقعت إبان هذه الحرب

رقم مسلل	التاريخ	الحادثة أو المعركة	ملاحظات
١	عام ١٨١٥	بدء تكوين جمعية الأصدقاء في موسكو وبخارست وتريستا	
٢	٦ مارس ١٨١٥	مذبحتى جالاتز وياسى	سببت تخلى روسيا عن هبسلنت
٣	أول أبريل ١٨٢١	اشتعال الثورة اليونانية والاستيلاء على كالاماتا	
٤	(يونيو ١٨٢١ -) فبراير ١٨٢٥	المرحلة الأولى	
٥	يونيو ١٨٢١	سقوط نقارين في أيدي الثوار	
٦	٥ أكتوبر ١٨٢١	سقوط تريبوليتسا في أيدي الثوار	
٧	٢١ يونيو ١٨٢٢	تقدم الدراملى لغزو الموره	
٨	عام ١٨٢٣	هزيمة الدراملى وسقوط نوبلى في أيدي الثوار	
٩	٢١ أغسطس ١٨٢٣	وصول أول قرض بريطانى للتوار مع لورد بيرون	
١٠	يونيو ١٨٢٤	إنحاد ثورة كريت وقبرص	
١١	١٦ يناير ١٨٢٤	إصدار فرمان بدعوة محمد على باشا إلى تجريد جيشه على الثوار في الموره	
١٢	يوليو ١٨٢٤	إبحار الحملة من الاسكندرية	
١٣	ديسمبر ١٨٢٤	عودة إبراهيم باشا إلى كريت وانتهاء المرحلة الأولى فبراير سنة ١٨٢٥	

فى اليونان من الشبان والأعيان ورجال الدين إليها وتولى زعامتها الميجر جنرال "هيسلنت" - وهو ضابط يونانى كان يعمل ياورا لدى قيصر روسيا "اسكندر الأول" - فى ٢٧ يونيو عام ١٨٢٠ بفعل هدفه الأول طرد الأتراك من أوربا وبدأ بقيادة الثورة فى (ياسى) من أعمال ولايتى البغدان (ملدافيا) والأفلاق (رومانيا) فهاجم (ولاشيا وملدافيا) حيث دخل عاصمة الأخيرة فى ٦ مارس عام ١٨٢١ دون مقاومة تذكر وهناك جرّد الأتراك من سلاحهم وأعدمهم عن بكرة أبيهم فى مذبحتى (جالاتز وياسى) مما أثار حفيظة قيصر روسيا عليه فأسقط اسمه من كشف الجيش الروسى وتخلّى عن مؤازرته رغم أن هيسلنت هذا قد اختار هذه البقاع خصيصا لحركاته الأولى كى يكون بمقربة من روسيا فتمدّه بالجيش والعناد !! على أن هذا كله لم يمنع اليونانيين من تحديد شعار ثورتهم وهو "اليونان لليونانيين كما وأن رومانيا للرومانيين"^(١) فأحست تركيا بوجود الجمر المتقد الحار تحت الرماد وشرعت تعمل جاهدة على استعادة "ملدافيا" .

اشتعال نيران الثورة :

وكانت ثورة على باشا تبلان حاكم "يانينا" على السلطان عام ١٨٢٠ هى الريح الصرصر التى أذهبت بالرماد المتراكم والتى ألهمت الجمر فأذكت نيرانا متقدة ... فقد رأى اليونانيون فى ثورته هذه وفى انشغال تركيا فى إخمادها هى والثورات فى شرق الدانوب ، الوقت المناسب لإعلان ثورتهم سافرة غير مقنعة .

فبعد شهر من عبور "هيسلنت" لنهر بروث اندلعت نيران الثورة فى المورة وتكونت فى "البلوبونيز" جمعية الأصدقاء السبع (إيفورز)^(٣) وكان "الكسندر

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلرس ٥٨

(٢) كتاب إبراهيم مصرلكرينس ص ٤٦

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلرس ٧١

الفصل الأول

ثورة الاغريق

الجمرت تحت الرماد :

أهل القرن التاسع عشر على اليونان وهى ترسف فى أغلال الاحتلال يحكمها
الولاة الأتراك الذين ترسلهم حكومة الأستانة ليدلوا رقاب أبنائها وليخنقوا حرية
أفرادها، ولكن أهلها رغم تظاهرهم بالولاء والاستكانة كانوا يتطلعون إلى الاستقلال
شأن كل شعب حر كريم لا يقبل المذلة أو يرضى بالضميم . ولذلك نشط شبانهم
وأعيانهم فى تأليف الجمعيات السرية لتنظيم الثورة والخروج على ذلك الحال البغيض
يبحث تعاليمهم فى أنحاء البلاد واستمالة رأى العام فى الدول الأوروبية المختلفة فكثرت^(١)
فى عام ١٨١٥ أول هيئة سرية لهم جعلوا مقرها فى موسكو وبخارست وتريست^(٢)
لتكون على اتصال بالحكومات الأوروبية التى تعطف على مبادئهم وبمنجاة من
اضطهاد الحكام الأتراك وأطلقوا عليها اسم "جمعية الأصدقاء" (فيليكه هيتاريا)^(٣)
وكانت أهدافها :

(أولا) إقناذ الشعوب الهيلينية من ذل الاستعمار .

(ثانيا) طرد الأتراك من بلادهم .

(ثالثا) التخلص من حكم ولاية الأستانة .

(رابعا) إحياء الامبراطورية الأرثوذكسية فى الشرق^(٤) .

ولقد نجحت هذه الجمعية بعض النجاح فى غرس بذور العصيان خلال الأعوام
الثلاث الأولى من بدء تكوينها ثم ما لبث أن قوى نفوذها بانضمام كل ذى مكانة

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٦

(٢) ابراهيم مصر لكريتس ص ٤٦

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٥٨

(٤) كتاب التيارات الرئيسية للتاريخ الأوروبى لهيرنشو ص ١٦٢

الفصل الثانى

مراحل الحرب فى اليونان

مراحل الحرب الثلاث :

والباحث المتقرب فى ثنايا تاريخ هذه الحرب يجد أنها تنقسم إلى ثلاث مراحل رئيسية متباعدة يتميز كل منها عن الآخر فى النتائج والعمليات^(١) وهذه المراحل هى :

(أولا) المرحلة الأولى :

وتبدأ عام ١٨٢١ حين اتخذت الثورة اليونانية طابعها الجدى الخطير وتنتهى فى أوائل عام ١٨٢٥ ، وفى هذه المرحلة أحرز الثوار انتصارات خاطفة سريعة حاسمة على الأتراك فقوى ذلك ساعدتهم وجعل النجاح يحالفهم رغم بعض الانتصارات القليلة الأولية التى حصل عليها الأتراك . هذا إلى أن هذه المرحلة تشمل الحملة المصرية إلى كريت واستعدادات الحملة المصرية إلى المورة .

(ثانيا) المرحلة الثانية :

وتبدأ فى أوائل عام ١٨٢٥ عندما وطئت أقدام إبراهيم باشا وجنوده أراض المورة وتنتهى فى منتصف عام ١٨٢٧ ، وفى هذه المرحلة أشاح الحظ بوجهه عن الثوار فأنزل بهم الهزائم المتتالية بفضل بسالة الجنود المصريين وعبقريه قائدهم " إبراهيم باشا " وفيها أيضا أحرز الأتراك تحت قيادة " رشيد باشا " انتصارات رائعة عاونهم فيها المصريون فى بلاد اليونان .

(ثالثا) المرحلة الثالثة :

وتبدأ فى منتصف عام ١٨٢٧ بيدى تدخل ثلاث من دول أوربا وهى فرنسا وبريطانيا وروسيا وتنتهى فى أكتوبر عام ١٨٢٨ بانتهاء هذه الحرب وعودة المصريين إلى بلادهم .

مافر كورد اتوس“ قد وصل من روسيا في مارس عام ١٨٢١ إلى البغدان (ملدافيا) على رأس قوته الصغيرة فرفع “جيرمانوس” كبير أساقفه “بتراس” راية العصيان في “كلفريتا” في بلاد المورة^(١) وبدأت الثورة بهجمات متقطعة ومنفصلة عن بعضها على الأتراك ظلت تشتد وتتركز متخذة الطابع الديني الخطير حتى أصبحت عامة في أوائل أبريل حيث حاصر اليونانيون الأتراك في “كلفريتا” واستولوا على معسكراتهم في “كالاماتا” وبسقوط هذه الأخيرة اشتدت الثورة في “بتراس” واشتط اليونانيون في شعارهم فجعلوه تلك الأغنية المشهورة لديهم «لن يبقى أى تركى على أرض المورة» وكأتم تلك الكلمات قد ألهمت حماسهم فترجموها من الغناء إلى الأعمال فذبجوا الآلاف من الأتراك في شبه الجزيرة واستولوا على “فالتنسى” قرب “تريبوليتسا” وامتدت ثورتهم عبر “خليج كورنث” حيث استولوا على “سالونا” واحتل أبناء بارنز “أميندا” وإن لم يستولوا على الأكروبول إذ حصنه الأتراك وقاوموا فيه حتى منتصف صيف ذلك العام .

وفي الغرب انضمت “ميسولونجى وفارا كورى” إلى الثوار وبذلك أصبح الإقليم بأسره جنوب “مالياك وأمبراكان” عدا القلعة في أيدي الثوار ولما تمضى ثلاثة أشهر على بدء ثورتهم^(٢) .

وفي كريت قام “السفاكيوتس” وتعدادهم يزيد على ١٦٠,٠٠٠ نسمة بثورة سافرة استولوا فيها على “خانية” بعد أن حاصروها .

وقصارى القول لقد حلق “مارس” بجناحيه في ربيع عام ١٨٢١ ليظلل أرض اليونان وليجعلها مسرحا لحرب ضروس .

(١) كتاب إبراهيم مصر لكريتس ص ٤٦

(٢) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٧١



أمير البحر اسماعيل جبل طارق

الفصل الثالث

المرحلة الأولى (يونيو ١٨٢١ — فبراير ١٨٢٥)

اعمال الثوار :

لم تكن ثورة اليونان هذه وليدة أيام أو شهور بل كانت ربيبة سنين طوال كما رأينا فلا عجب إن آتت أكلها ناضجة شهية في بدء اندلاعها وهذا ما نلمسه واضحاً جلياً في المرحلة الأولى من مراحل هذه الحرب فقد أحرز الثوار اليونانيون انتصارات خاطفة سريعة زادت في قوة ثورتهم رغم أن هذا النجاح قد حصل عليه قادة مستقلون عن أى سلطات مركزية .

ففى يونيو عام ١٨٢١ استولى الثوار على "مونمفاسيا ونافارين" وذبحوا حاميتي الأتراك في هاتين المينائين فأحالوا مياه البحر الزرقاء في تلك البقاع إلى اللون الأحمر القانى لكثرة ما تدفق فيها من دماء الأتراك^(١) .

وفى أكتوبر تمكن الثوار من الاستيلاء على "تريبوليتسا" عاصمة الأتراك في المورة وأعقب ذلك مذبحة سالت فيها دماء ثمانية آلاف ما بين مسلم ويهودى .

وكان من المتوقع بعد سقوط العاصمة أن تهدأ الأمور قليلا ولكن هذا لم يحدث بل اندفع الثوار في غلوائهم تحمسهم انتصاراتهم السريعة والروح الوطنية المستعرة بين جوانحهم وأعلنوا تكوين الحكومة اليونانية ورفعوا العلم اليونانى "الأزرق والأبيض" على "أكركورنت"^(٢) .

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلرس ٧٥

(٢) نفس المصدر ص ٧٥

اعمال الأتراك :

ولم تقف الأتراك مكتوفة الأيدي أمام هذه الانتصارات والمذابح المزعجة التي لم تقض مضجعهم فحسب بل زادت أيضا في صعوبة أعمال خورشيد باشا ضد علي باشا تبلان حاكم "يانينا" في "تساليا ويانينا"... ولكن إثر انتصار خورشيد باشا على علي باشا في ٥ فبراير عام ١٨٢٢ أمر السلطان بالهجوم المزدوج على الثوار من الشرق والغرب وأسند قيادة الجيش الغربي إلى "الدراملي" الذي تقدم في ٢١ يونيو عام ١٨٢٢ فألقى الذعر في نفوس الأتنيين بغزوه السريع للمورة وأكر كورنث ووصله إلى أرجوس رغم تسليم الأكربول لأوديسيوس قبل بدء تقدمه هذا^(١) ولكن هذه العمليات السريعة الناجحة استنفذت الكثير من جهد رجاله فتفشيت فيهم الأمراض وتقصت التعيينات والذخائر والعلائق فاضطر ثمانية إلى الانسحاب والتراجع إلى شبه الجزيرة .

وفي نفس الوقت تقدم "عمر فريونس" الذي خلف علي باشا في "يانينا" جنوبا وحاصر "ميسولونجي" .

وسرعان ما انبرى القائد اليوناني "تيودور كواو كوترونز" الملقب "بأكل الأتراك" إلى الدرامل فهزمه وأوقف غزوه الأتراك للمورة عام ١٨٢٢ واستولى الثوار على "نوبلي" التي اتخذتها الحكومة الثورية مقرا لها عام ١٨٢٣ .^(٢)^(٣)

وعندما انتهى السلطان من حروبه مع إيران التي اضطرت له للحرب في آسيا وأوروبا في وقت واحد سير بعض جيوشه لليونان فافتحموا "تساليا" ونهبوا كنوز دلفي وتقدمت قواته من "سكوتاري" في ألبانيا ونزلوا في غرب اليونان .

(١) نفس المصدر ص ٧٦

(٢) نفس المصدر ص ٧٧

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر .

الانحراف عن مبادئ الثورة :

وكانما بريق ذلك الفوز السريع قد أعمى بصيرة اليونانيين فأبعدهم عن الهدف الأساسي لثورتهم وأصم آذانهم عن شعارهم الخالص الذى اتخذوه لأعمالهم فازداد الثوار عتوا بما نالوه من نصر فى بحر الأرخبيل حيث أحرقوا الكثير من السفن التركية وعاثوا فى البحر فسادا وأحيوا عهدا من القرصنة^(١) لم ير العالم ما يماثلها فى الشدة والفظاعة^(٢) اكتوت بنسيرانها أساطيل أمم أوروبا التجارية مما جعلها تشكو لتركيا وتطلق يدها فى إخماد تلك الثورة^(٣) .

هذا إلى أن وهج الذهب الذى وصل إلى الثوار مع "لورد بيرون" نمت بذور الغيرة والمنافسة التى بذرتها نتائج الانتصارات المنفصلة الأولى بين حزبي "الهيسلنت" (جمعية الأصدقاء) و "البلوبوتيز" (إيفورز) ندب الشقاق بين الثوار وبدأت سحب الحرب الأهلية تجتمع فى سماء الأحداث فى تلك البقاع لتصادق على قول بلوتارك المأثور : "إن التاريخ يعيد نفسه" فقد ولدت اليونان الحديثة فى مهد النزاع والشقاق ولم تذق للسلم الداخلى طعما حتى وقت أن كانت تكافح فى سبيل وجودها ولعل هذا ما نشاهده فى أيامنا هذه الآن^(٤) .

استعانة تركيا بالأسطول المصرى :

ولما استفحل أمر قرصنة هؤلاء اليونانيين فى البحر أرسل السلطان محمود إلى محمد على باشا يعهد إليه أن يجرد أسطوله لتطهير البحر من هذه السفن وكان ذلك عام ١٨٢١ أى قبل الحملة المصرية على كريت^(٥) بعام فأعد محمد على باشا أسطولا

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٩

(٢) كتاب نقارين لدوين ص ٣

(٣) كتاب ابراهيم باشا لبدران ص ٦٦

(٤) نفس المصدر ص ٧٥

(٥) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ١٩٩

ولكن سرعان ما فاز الثوار بانتصارين سريعين إذ استعادوا قلعة "كورنث" في الغرب وفكوا حصار "أنا توكلين"^(١).

عصب الثورة :

ولا شك في أن سر نجاح هؤلاء الثوار يتلخص في عظم استعدادهم وحسن تنظيمهم لأعمالهم فلقد وفروا لثورتهم ذلك الثالوث الضروري لنجاح الثورات ألا وهو :

المال والدعاية والروح الوطنية العالية .

فبفضل الأموال تتدفق سيول الأسلحة والعتاد بل والأفراد اللازمة لاستمرار استعار نيران القتال . وبالدعاية يحصل على الرأي العام فتعطف الدول الكبرى على الثوار وتحتضن صراهم وتغذيه بالمال والرجال وهذا ما حدث في تلك الثورة التي نحن بصدددها الآن إذ كسب الثوار عطف دول أوربا فلم تضن عليهم بالقروض الكثيرة المختلفة ولم يتوان رجالها الأفذاذ عن الإسراع للانضمام إلى الثوار كالورد "بيرون" الذي حمل وإياه للثوار في ٢١ أغسطس عام ١٨٢٣ أول قرض بريطاني بمبلغ ٨٠٠,٠٠٠ جنيه وأنشأ لهم أول جريدة لإشعال الروح الوطنية "ذى جريت كرونيكل" في ١٢ يناير ١٨٢٤^(٢)؛ وأما الروح الوطنية فهى التى توفر القوى الآدمية وتبعث الروح المعنوية ذات الأثر الحاسم في نجاح الحروب .

فهذا الثالوث الذى قد توفر للثوار قويت أعصاب ثورة اليونانيين واستفحل أمرها فكتبت لها الحياة مرارا بعد أن كانت شمسها تؤذن بالمغيب .

(١) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر .

(٢) نفس المصدر السابق .

الى أن ظفر المصريون بالشوار وضيقوا عليهم الخناق وحصروهم على الساحل في "سفاكيا" التي أضحت آخر معقل لهم^(١) ثم سرعان ما شتتوا شملهم ففر الكثيرون منهم الى الجزر اليونانية الأخرى واستتبّت السكينة في الجزيرة^(٢) .

وكذلك أحمد ألقان من الجنود المصريين تحت قيادة صلاح بك الثورة في جزيرة قبرص^(٣) .

الحملة المصرية على المورة :

ولا شك في أن النجاح الذي أحرزته قوات محمد علي باشا في كريت جعلها محط أنظار السلطان فطلب منه عوناً آخر بأن أصدر في ١٦ يناير عام ١٨٢٤^(٤) فرماناً يدعو فيه محمد علي باشا إلى تجريد جيشه على الثوار اليونانيين ونحوه حق ولاية المورة .

وهنا يختلف المؤرخون في سر هذا المطلب فيرجعه بعضهم إلى عجز القوات التركية عن إخماد الثورة بعد أن تكبدوا خسائر فادحة كما أسلفنا فتلفت السلطان حوله يبحث عن العون وحينئذ أشار عليه سفير النمسا بذلك السيف الذي ما زالت تقطر منه دماء النصر والفتوح وهو محمد علي باشا قاهر الوهابيين وفاتح السودان^(٥) ويعتقد البعض الآخر بأن التجاء الباب العالي إلى محمد علي باشا إنما كان ينطوى على الرغبة في إضعافه بإشراكه في تلك الحرب وحرمانه من المضى في تنظيم جيشه ومضاعفة قواته إذ كان يخشى أو استمر ماضياً في سبيله هذا أن يقوى على تركيا

(١) نفس المصدر .

(٢) كتاب عصر محمد علي للرافعي بك ص ٢٠١

(٣) كتاب التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه لفيضان ص ٢٣٣ ج ١

(٤) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدردويل ص ٧١

(٥) كتاب حروب محمد علي لسيد فرج ص ٨٤

مؤلفا من ستة عشرة سفينة تامة التسليح والعتاد بها ثمانمائة مقاتل بقيادة
”طبوزاوغلى“ وأقبح هذا الأسطول من الاسكندرية فى ١٠ يوليو عام ١٨٢١
متجها إلى مياه ”رودس“ لمطاردة سفن القرصنة اليونانية والتقى بالأسطول التركى
فى الدردنيل ثم عاد إلى الاسكندرية فى ٨ مارس عام ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة
المصرية إلى ”كريت“^(١) مع بعض القطع البحرية الخاصة بالجزائر وتونس وطرابلس
وتركيا^(٢).

الحملة المصرية على كريت :

ولم تقتصر استعانة السلطان محمود بمحمد على باشا على القرصنة اليونانية فقط
بل لقد عرض عليه عام ١٨٢٢ ولاية جزيرتى كريت وقبرص إذا تمكن من إخماد
الثورة التى قد أشعل نيرانها ”السفاكيوتس“ كما أسلفنا فى نفس الوقت الذى
سبب فيه ثورة بلاد المورة وجزر الأرخبيل وانتصر فيها الثوار على الحاميات التركية^(٣)
التي اضطرت إلى التحصن فى بعض القلاع بالجزيرة فأعد محمد على باشا حملة بلغ
تعداد رجالها خمسة آلاف مقاتل وخمسمائة فارس بقيادة حسن باشا مصطفى وأقبح
بهم الأسطول المصرى من الاسكندرية قاصدا جزيرة كريت فقتل الجنود إلى البر^(٤)
فى يونيو عام ١٨٢٢.

ولقد كان الثوار فى الجزيرة كثيرو العدد وشجعان فقاتلهم المصريون قتالا
شديدا مدى عامين أنقذوا فى خلالها القوات التركية المحاصرة فى القلاع وقدمت
حسن باشا خلال الفتح خلفه حسين بك فى قيادة القوات المحاربة واستمر القتال

(١) كتاب تاريخ مصر فى حكم محمد على لما نجان ج ٢ ص ٢٤٠

(٢) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه لقيجيان ج ١ ص ٢٣٣

(٣) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودو يل ص ٧٠

(٤) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٠١

(٥) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودو يل ص ٧٠

وليحاول في مقابل الخدمات التي يسديها إليه التخلص من سلطته ليفوز في الوقت عينه بتنظيم المورة وليستفيد من نشاط اليونانيين في خدمة مصر وليبسط حكمه على جنوب أوربا فيحول شرق البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة مصرية^(١).

تلك كانت أغراض محمد علي باشا الحقيقية وهي أغراض سياسية محضة تحقق أمنيته التي وقف عليها كل قواه وهي تعزيز قوى مصر في الداخل وبسط نفوذها في الخارج^(٢) ويدلنا على صدق ذلك ما أكد لوثرنى نقلا عن سليمان باشا بأنه كان واثقا من أن محمد علي باشا سيمنح البحارة اليونانيين عفوا عاما بشرط أن يحيئوا إلى مصر بعائلاتهم^(٣). هذا إلى أنه وابنه إبراهيم باشا كانا كراما إلى أقصى حدود الكرم في معاملة الجالية اليونانية الكبيرة في مصر وليس أدل على هذا من أن "الفليكي هيتارى" كانت تبث دعوتها بنشاط في مصر وكان "ثيودور تسزرا" أكثر أعضائها نشاطا وجلدا. ولم يكتف الباشا بعدم مقاومة الثورة الإغريقية في مبدئها بل إنه ظاهرها وأعانها على أغراضها^(٤).

فلتكن هذه الأغراض بمثابة المنظار الذي نرى من خلاله أعمال الحملة المصرية في المورة حتى يمكننا الحكم الصائب عليها.

الاستعداد للحملة :

ولقد بذل محمد علي باشا همه كبرى وجهودا مضنية جبارة مدى الستة أشهر التي تلت صدور هذا فرمان^(٥) في تجهيز معدات الحملة على المورة فأعد قوات برية

(١) كتاب الامبراطورية المصرية للدكتور صبرى .

(٢) نفس المصدر .

(٣) كتاب محمد علي لكریم ثابت بك ص ١١٧

(٤) الهيلينية ومصر الحديثة لاثنازي ج ١ ص ١٨٩

(٥) نفس المصدر .

(٦) آب مؤسس مصر الحديثة لدودويل ص ٧١

ويحقق فكرة الانفصال عنها وإعلان استقلاله بمصر . وتجمع فئة ثالثة بين السببين فتقول إنما السلطان قد قصد بذلك تحقيق غرضين : أولهما الاستعانة بالجيش المصرى على إخماد الثورة بعد عجز الأتراك والثانى صرف محمد على باشا عن المضى فى تنظيم جيشه ومضاعفة قوته^(١) .

وأى من هذه الأغراض كان السبب فى ذلك العرض ليس مجال بحثنا الآن إذ أن ما يعيننا فى هذا المقام هو أن محمد على باشا قد قبل هذا العرض الذى يرفع من شأنه ويزيد فى مكانته باستنجد تركيا به وذلك بعد أن استشار كبار رجال حكومته فأقروا جميعا إجابة دعوة الباب العالى^(٢) .

المنظار الذى يجب أن ننظر به لهذه الحملة :

وقبل أن نبدأ بالتحدث عن هذه الحملة وأعمالها فى المورة يجب أن نكون على بينة تامة من أمر هام سيكون هو العامل الأساسى فى الحكم على هذه الأعمال ألا وهو غرض محمد على باشا الأساسى من قبول هذه الحملة وما كان يرمى إليه عند إرسالها .

لقد زعم بعض الكتاب الإفرنج بأن غرضه الأساسى كان نحو اليونانيين أو بالأحرى المسيحيين وإبادة شعب المورة لبنى على أنقاضه دولة إسلامية وهذا^(٣) ولا شك زعم خاطئ فمنذ نشوب الحرب فى المورة بين تركيا واليونان أخذ محمد على باشا فى تتبع أخبارها وتحولها أملا منه بأن يدعوه الباب العالى الى مساعدته على إخضاع العصاة ... لأنه وهو صديق لليونانيين والمسيحيين لم يرفى هذه الحرب سوى فرصة سانحة ليظهر فيها للعالم مدى قوته النقية وتفوقه على الباب العالى

(١) كتاب عصر محمد على للراعى بك ص ٢٠١

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٢

(٣) كتاب محمد على لكریم ثابت بك ص ١٧٧

الحرب البحرية على شواطئ الأناضول :

وعندما أبحرت القوات المصرية من نهر الإسكندرية في شهر يوليو عام ١٨٢٤ لم تكن الآستانة قد استقرت رأيها على من يعقد له لواء الحملة المشتركة ولم تقصد هذه القوات شبه جزيرة المورة رأسا بل اتجهت إلى مياه "رودس" ومنها إلى خليج "ما كرى" على شاطئ الأناضول لتلتقي بالأسطول التركي الذى نيط به مطاردة السفن اليونانية فى مياه بحر الأرخبيل وتطهير البحر من قرصتها وإنحاد الثورة فى الجزر والاستيلاء على "بسارا" الذى تم فى ٣ يوليو^(٢) .

ولما وصلت العمارة المصرية إلى خليج "ما كرى" أنزل إبراهيم باشا جنوده إلى البر تهيأ للإقلاع بأسطوله فقط شمالا ليتصل بالأسطول التركى الذى جاء من الدردنيل بقيادة خسرو باشا فالتقى به فى ميناء "بودروم" على شاطئ الأناضول فى أواخر أغسطس وهناك ظهر الفرق جليا بين نظام الأسطول المصرى وفوضى الأسطول التركى الذى قد لاقى الأهوال من مهاجمة سفن الثوار اليونانيين حينما اعترضت طريقه فى مياه جزيرة "ساموس" فأحرقت بارجة الأدميرال وسفینتين آخرين فتراجعت العمارة التركية جنوبا حتى آلتقت بالأسطول المصرى .

وهاجمت السفن اليونانية العمارتين بالقرب من بودروم ودارت رحى القتال بين الفريقين فلاذ الأسطول التركى بالفرار من الميدان أما إبراهيم باشا فقد صمد بأسطوله للسفن اليونانية إلى أن اضطرها للتقهقر فى سبتمبر عام ١٨٢٤

واتصلت العمارتان المصرية والتركية ثانية ومخرتا عباب السيم سويا إلى جزيرة "مدلى" ثم تابعت العمارة التركية سيرها شمالا إلى الدردنيل بينما عاد الأسطول المصرى جنوبا فاعترضته السفن اليونانية فى مياه جزيرة "سافز" واشتبكت معه فى معركة

(١) كتاب إبراهيم باشا ترجمة بدران ص ٥١

(٢) كتاب مؤسس مصر الحديثة لدودريل ص ٧٢

من جيشه النظامى الجديد أسلم قيادتها إلى نجله الأكبر إبراهيم باشا بطل الحجاز وقاهر الوهابيين وبلغت هذه القوات في بدء الحملة ثمانية عشر ألف مقاتل من المشاة مؤلفين من الآليات الآتية :

الآلات الثلاث بقيادة الأميرالاي خورشيد بك .

» الرابع » » حسين بك .

» الخامس » » سليم بك .

» السادس » » سليمان بك (الفرنساوى) ^(٢) .

ومعها قواتها المعاونة وهى أربع بلوكات من مهندسى الطرق ^(٣) وثمانمائة فارس بقيادة حسن بك ومقدار كبير من مدفعية الميدان والحصار ^(٣) وجهازهم بأحدث ما لديه من أسلحة وعتاد وذخيرة وأعدت السفن البحرية اللازمة لنقل هذه الحملة بعتادها على أن يتولى حمايتها الأسطول المصرى المرافق لها بقيادة الأميرال "إسماعيل أغا الجبل الأخضر" ^(٤) فبلغت هذه العمارة في مجموعها إحدى وخمسين سفينة حربية ومائة وستة وأربعين سفينة نقل ^(٥) تجمعت كلها في ميناء الإسكندرية فكان منظرها يأخذ بالآلأباب ... إذ لم ير الشرق حملة بحرية تدانيها في ضخامتها منذ حملة بونايرت وكان الشرق بذلك قد أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوربا عليه وهكذا تتقلب الأطوار في سير التاريخ ^(٦) .

(١) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٣٥

(٢) كتاب الجيش المصرى في عهد محمد على لعبد الرحمن زكى ص ٣٧

(٣) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٣٦

(٤) كتاب مصر في القرن التاسع عشر لأدوارجون ص ٦٦٣

(٥) وثيقة رقم ١٤ من وثائق المورة وهى رسائل المسيوروفنى قنصل فرنسا الى وزير الخارجية الفرنسية .

(٦) كتاب تاريخ اليونان السياسى لدريوخ ج ١ ص ٢٥٧

فمن هذا نرى أن مطلب محمد علي باشا وإبراهيم باشا في توحيد القيادة لم يكن وليد الرغبة في حظوة إبراهيم باشا بها بل هي عقيدة يقدر قيمتها هذان العسكريان وهما في ذلك لم يتجنبا أو يطالبا بما هو مخالف للأسس العسكرية السليمة فقد قال نابليون: "لا شيء أهم من توحيد القيادة"^(١) ولقد ردّد هذا النداء "جيوليود وهيت" في تعاليمه الأساسية للحروب الجوية وصمم "إيزنهاور" على تحقيقه عند تفكير الحلفاء في غزو أوروبا وتدمير حائط الأطلنطيق فقد اشترط ضرورة توحيد الأعمال البرية والجوية تحت قيادته وقد سلمت رئاسة هيئة أركان حرب جيوش الحلفاء بوجهة نظره^(٢).

ولقد أثمر خطاب محمد علي باشا هذا ثمرة المرجو فولى إبراهيم باشا قيادة الحملة التركية المصرية وكانت هذه التولية هي الحجر الأساسى الذى بنيت عليه جميع انتصارات هذه الحملة.

ولقد صحت عزيمته إبراهيم باشا بعد ذلك على أن يقضى الشتاء في جزيرة كريت^(٣).

القائد المصرى إبراهيم باشا :

لا شك وأن أهم جانب في دراسة التاريخ العسكرى هو دراسة شخصيات القادة إذ أن أعقد ما يواجهه الدول عند نشوب الحروب هو انتخاب القائد العام فبتقرير ذلك قد يخلق جيش يحلق في سماء النصر وقد يذهب بجهود الأمة بأسرها لأن جميع الجنود تحارب جيدا إذا قيدت جيدا.

وليس أدل على أهمية القادة في المعارك من قول فوش : "تتوقف النتائج في الحروب على القادة لدرجة كبيرة والتاريخ يحق في جعلهم أصحاب النصر فيمجدهم

(١) تاريخ العالم العسكرى لميتشل ص ٦

(٢) تقرير بعثة ضباط الجيش عام ١٩٤٧ لانجلترا وفرنسا ص ٧٢

(٣) كتاب إبراهيم باشا ترجمة بدران ص ٧٥

شديدة أفضت إلى غرق سفينتين مصريتين (أكتوبر سنة ١٨٢٤) فقط وعاد إبراهيم باشا بأسطوله إلى ميناء «بودروم» .

ولقد أدرك إبراهيم باشا من هذه الوقائع البحرية أن هزيمة اليونان لن تكون فوق سطح البحر حيث لهم السفن المسلحة المنبثة في نواحيه وإنما ستكون بالقضاء على قواتهم في البر أى في شبه جزيرة المورة فرجع أدراجه إلى ميناء «مرمريس» جنوباً ثم أفلح إلى جزيرة كريت في ديسمبر عام ١٨٢٤ ورسى بعمارته في خليج السودة حيث أخذ يتحين الوقت المناسب للإقلاع إلى ساحل المورة . ولقد برهن إبراهيم باشا خلال هذه المرحلة الابتدائية على شجاعته التي امتاز بها في حروب البر فإنه قد صمد عدة أشهر لقتال السفن اليونانية التي اشتهرت بعظم قدرتها على خوض غمار البحار ومهارتها في مهاجمة السفن الحربية ولولا عزيمته ورباطة جأشه في مواجهة المخاطر لتشتتت شمل العماره المصرية ولتبددت أمام هجمات السفن اليونانية^(١) .

توحيد القيادة :

ولا شك في أن مسلك خسرو باشا العجيب أمام شاطئ «رودس» لم يزد محمد على باشا وابنه إلا بغضا لفكرة القيادة^(٢) المزدوجة إذ كانا من بادئ الأمر غير موافقين على فكرة تقسيم القيادة ولذلك كتب محمد على باشا إلى الباب العالي في ١٣ سبتمبر عام ١٨٢٤ كتاباً جمع فيه بين الأسف وشيء من الغبطة الشخصية فقال :

”يؤسفني كل الأسف أن ما طلبته من توحيد قيادة الأسطول كله لم يجب وأن هذا الشرف لم ينله ولدى إبراهيم . وليس بخاف أن النصر في المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد ذلك بأن اختلاف الرأي لا بد وأن يؤدي إلى هذه النتيجة السيئة . وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على صدق هذه العقيدة“^(٣) .

(١) كتاب عصر محمد على للرافعي بك ص ٢٠٣ (٢) كتاب إبراهيم باشا بدران ص ٧٤

(٣) مجموعة رسائل محمد على وثيقة رقم ١٥٨

ولم يعرف عنه أنه ضحى يوما بشرفه فسفك دماء أحد في ساعة من ساعات غيظه^(١) وتراه في ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه هدوءه إذا دنت ساعة الخطر أو ثارت عليه القبائل من حوله ، يثبت في جنوده روح الشجاعة والإقدام ويضرب لهم بنفسه خير مثل في البسالة وخوض الغمرات وكثيرا ما استعان ببعد نظره وصدق فراسته على كشف ما يدب له من المصائد وينصب له من المكائد... ولولا جهود إبراهيم لما استطاع والده أن ينجز نصف ما أنجز وأعلم الناس بذلك هو محمد على نفسه^(٢) .

تلك هي صفات إبراهيم باشا وكلها تنبئ بأن صاحبها لا شك واصل إلى نصر سريع حاسم بفضل شخصيته القوية وصفات خلقه المتينة على أن أهم ما يجب أن نذكره هو أن إبراهيم باشا كان قائدا عسكريا فذا دالت له أصول الاستراتيجية فعرف كيف يستخدمها الاستخدام الرائع الذي لا يزال يأخذ بألبابنا كلما تعمقنا في دراسة خططه وأساليبه في القتال وهذا ما سيتضح لنا جليا في إبان بحثنا في هذه الجملة .

تأمين خطوط مواصلاته :

ولم يقف إبراهيم باشا مكتوف الأيدي خلال فترة انتظاره في خليج السودة متحينا الفرص كي يقلع إلى شاطئ المورة وإنما عمل على الاستيلاء على "كاسوس" لتكون كقاعدة لصيانة كريت من الغزوات المفاجئة كما أنه أنزل ضربات سريعة مفاجئة بسفن الثوار جعلتهم يلوذون بأذيال الفرار وبذلك أمن خطوط مواصلاته مع كريت التي كانت في أيدي القوات المصرية في ذلك الحين^(٣) .

(١) تاريخ مصر وحالها في الوقت الحاضر (١٨٤٢) لباتس الجزء الثاني ص ١٧٤

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٧

(٣) كتاب الامبراطورية العثمانية لميلر ص ٨٩

أو المسئولين عن الهزيمة وحينئذ ينقدهم ... وبدون القادة لا توجد معارك ولا تتحقق الانتصارات^(١) .

ولم ينس نابليون أن يشير إلى ذلك أيضا فقال : ”لم يغزو الفرق الرومانية الغال بل هزمها قيصر... ولم ترتجف روما فرقا أمام القرطاجيين وإنما أمام هانيبال ... ولم تفتح الهند بالفلانكس المقدونية وإنما غزاها الإسكندر“^(٢) .

فلا عجب إن أضحي لزاما علينا أن نلم بصفتا إبراهيم باشا ذلك القائد الذي قاد الحملة المصرية على المورة كي نلمس بوضوح مدى قوة شخصية هذا الرجل القذ الذي قاد النصر طائعا مختارا للقوات التي تحت إمرته .

ولعل أصدق ما يجب أو يورد في هذا المجال هو ما قد أبدعه يراع كاتب عرف صفاته كلها دون واسطة فوصفه وصفا مفصلا قال فيه :

”هو رجل لا تفارقه الهيبة ولا حب العدالة ... أمره مطاع ... ثابت العزيمة شجاع رحيم لين العريكة لكنه شديد الحرص على النظام لا يرضى أن يعمل أحقر رجل في جيشه ما لا تطاوعه نفسه هو على عمله . يطيعه الناس ويخشونه أكثر من سواه لأن في يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب جنده . وإذا كانت الرتب العالية لا تتعارض في نظر أبناء العرب مع الصراحة فإن الجند كثيرا ما كانوا يطاعونه على أسرارهم الخاصة ... وكنت تراه في الحروب الأخيرة دائم اليقظة لا يغفل عن الرقابة . يدهش الناس بسرعة تنقله بين الجند دون أن يشعروا به وكثيرا ما كان ينام على الثلج في العراء ليضرب بذلك المثل لغيره ... وهو حذب على جنوده يعطف عليهم ويحادثهم ويصنئ إلى قصصهم ويبت في قلوبهم الشجاعة ويشاركهم في شعورهم واجتماعهم ويجلس معهم في مضاربهم كأنه واحد منهم ولكن لا ينسى قط مقامه .

(١) كتاب الاستراتيجية الألمانية لبام ص ١

(٢) نفس المصدر ص ٢

المعارك المختلفة ودراستها الدراسة العسكرية الحقة حتى نكون على بينة واضحة من جميع المؤثرات في تلك العمليات وحتى يمكننا أن نحكم على قدرة القوات التي خاضت غمار هذه المعارك .

طبيعة أرض المورة ^(١) :

تكاد المياه تحيط بشبه جزيرة المورة من جميع الجهات عدا تلك الأرض الضيقة الصغيرة التي تتر بكورنث وتصلها بشبه جزيرة تساليا أو بالأحرى بأوربا ... وتمتاز شبه المورة بشعب امتداد أراضيها في داخل البحر وهذا مما يوفر لها الموانئ الصالحة لرسو السفن والمضائق الكثيرة الصالحة لأن تكون أوكارا للسفن التي تعمل في البحر ... وطبيعة أراضيها جبلية عالية إذ تمتد فيها سلاسل من الجبال المرتفعة أهمها تلك السلسلة الساحلية التي يزيد ارتفاعها على ٢٠٠٠ متر والتي تسير مخاذية لخليج "كورنث" وتمتد إلى خليجي "أجين و بتراس" وأعلى قممها "تريكالوا و بيمانث" ثم تتحد متجهة صوب الجنوب إلى البحر الأبيض المتوسط على ضفتي خليج "ماراتون" وتسمى "أركاديا" (في الوسط) و "بلاكوني وتايجيت" (في الجنوب) وتقع سلسلة جبال "مسيني" في الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة غرب نهر "برماترا" وتكاد تكون شبه منطقة مستقلة وهذه المناطق الجبلية بأسرها وعرة وقاحلة وشديدة البرودة عدا في بعض المناطق حيث توجد بعض الأدغال كما في "أركاديا ومسينا".

أما في وسط شبه الجزيرة فميز بانخفاض عميق توجد فيه "تريبوليتسا" العاصمة التركية القديمة كما توجد بها مساحات صحراوية شاسعة بها بعض المناطق الصالحة للزراعة وهذه تتوافر بجوار السواحل وعلى شواطئ الأنهار القليلة التي تتفرق تلك السلاسل من الجبال .

اتهاء المرحلة الأولى من هذه الحروب :

وبانتهاء عام ١٨٢٤ انتهت المرحلة الأولى من مراحل الحملة على كريت والمورة وفيها كما قد رأينا أحرز الثوار انتصارات سريعة على الأتراك وهزموا جيوشهم شر هزيمة ولكن سرعان ما دب بينهم الشقاق كما أسلفنا من قبل فألحاهم ذلك عن الخطر الأكبر الذى كان يهددهم وأغمض أعينهم عما حل بكريت فلم يفكروا فى أنهم سيلقون نفس المصير من ذلك العاهل العظيم الذى كان يتربص الفرص المواتية ليقلع إلى شواطئهم . وقد واثته هذه الفرصة طيبة مختارة عندما وقع الاضطراب بين بحارة السفن اليونانية لتأخر عطاءهم وتنازع زعمائهم من رؤساء الحكومات الثورية فأبى البحارة الاستمرار فى القتال ، وما كاد إبراهيم باشا يعلم بذلك إلا وأقنع بعمارته من "خانية" إلى "مودون" جنوبى المورة فأنزل جنوده إلى السبر فى ٢٦ فبراير عام ١٨٢٥^(١) وبذلك بدأت المرحلة الثانية من مراحل هذه الحرب وهى المرحلة التى تخلى فيها الحظ عن الثوار ولمع فيها نجم القوات المصرية بفضل عبقرية قائدهم الفذ الذى ظل طوال وقته يقظا متحفزا للوثوب إلى هدفه .

الفصل الرابع

المرحلة الثانية (٢٦ فبراير ١٨٢٥ - يونيو ١٨٢٧)

١ - تخليص كورون والاستيلاء على نفارين

مسرح العمليات^(٢) :

لاشك وأن طبيعة أراضى مسرح الحرب وطبوغرافيتها ومناخها وموارد المياه بها من أهم العوامل المؤثرة على سير العمليات التى تجرى عليها فلا غرو إن أضخى وصف مسرح العمليات فى حرب المورة أول مايجب أن نلم به قبل البدء فى سرد

(١) كتاب التاريخ العسكرى محمد على وأبنائه لفيجان ص ٢٣٦

(٢) معظم المعلومات عن مسرح العمليات مستقاة من كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه للجنرال

فيجان ج١ ص ٢٣٩



أمیر البحر حسن الاسکندرانی باشا

موارد المياه :

وشبه جزيرة المورة فقيرة جدا فى موارد المياه وذلك لأن أغلب أراضيها كما رأينا جبلية قاحلة أو صحراوية جافة على أن أهم الموارد بها هى نهر "ايروتاس" الذى يصب فى خليج "ماراتون" ونهر "برماتزا" الذى يصب فى خليج "مسينى" ونهر "ألفى" الذى يصب فى خليج "أركاديا" وهذه كلها أنهار صغيرة تعترضها العوائق الرملية الكثيرة بالقرب من منابعها .

المناخ :

ومناخ شبه جزيرة المورة حار بالقرب من السواحل وغير صحى لوجود مستنقعات كثيرة بها أما وسط شبه الجزيرة فجوة مرهق للقوات المحاربة إذ أنه حار جدا فى الصيف وبارد جدا فى الشتاء وفى منطقة "تريبوليتسا" تهب رياح شمالية دائمة .

المواصلات :

ولقد كانت المواصلات لهذه الأراضى قليلة جدا بل لقد أصبحت متعذرة بسبب تلك الثورة التى دامت خمس سنوات دمر فيها الثوار الطرق وقطعوا وسائل الاتصال^(١) .

ومن هذا كله يتضح لنا جليا أن طبيعة مسرح العمليات فى المورة فى صالح المدافعين لأنه يلقى عبئا كبيرا على عاتق المهاجمين إذ يحدد طرق تقدمهم ويجعلهم تحت رحمة المدافعين أو حصنوا مواقعهم الحاكمة على طرق التقدم فى الجبال والممرات .

حالة الأتراك عند نزول القوّات المصرية إلى المورة :

ولقد ألحق إبراهيم باشا، عند نزوله وقواته فى ميناء "مودون" فى فبراير عام ١٨٢٥ ، القوات التركية فى أسوأ حال لغلبة الثوار عليهم بحرا وبرا لاسيما وقد سقطت "نقارين"

عند نزول القوات المصرية ولم يبق في شبه الجزيرة تحت أيدي الأتراك سوى "مودون" و"ميناء" "كورون" التي كان يحاصرها الثوار^(١).

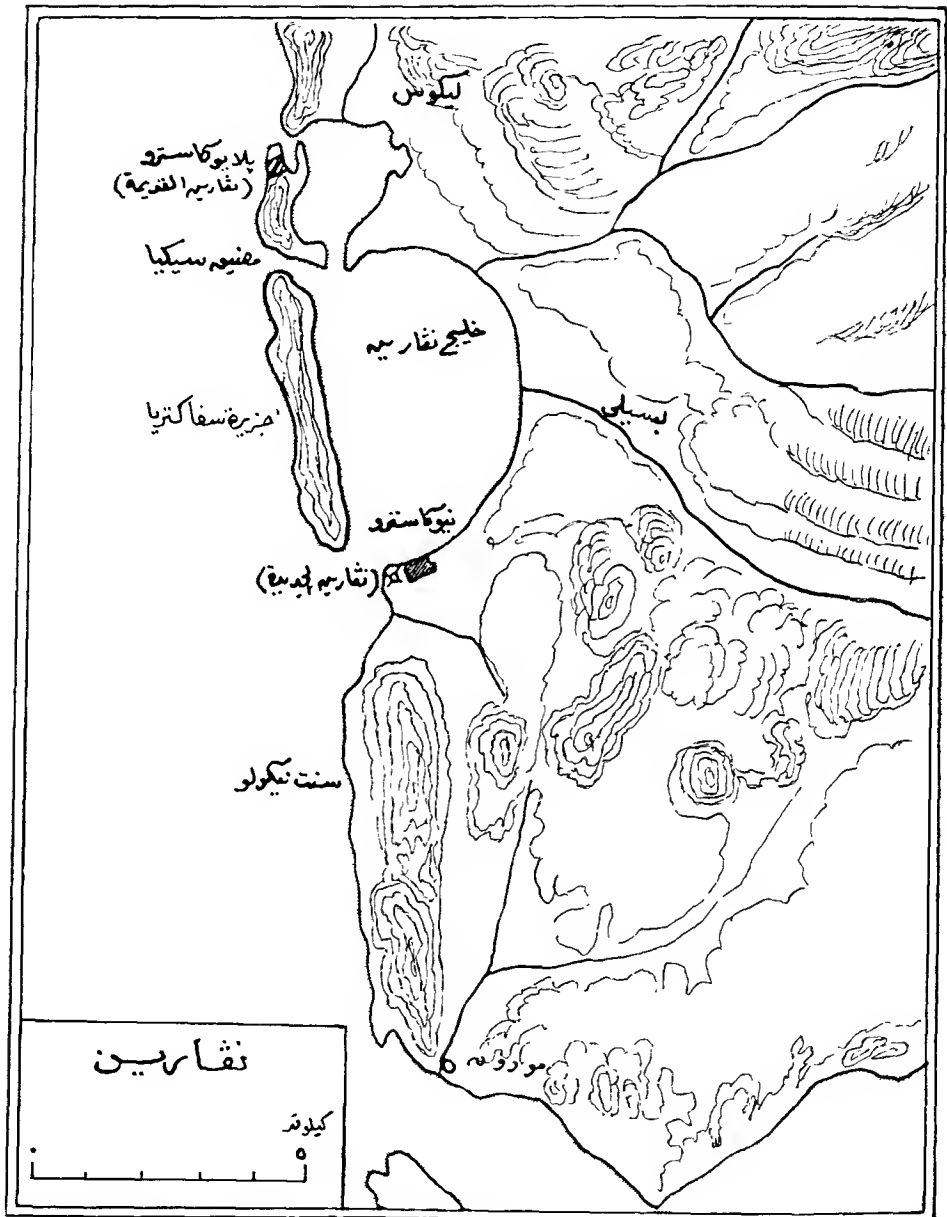
خطة إبراهيم باشا للغزو :

ولو أن المراجع التاريخية لم تحدثنا بوضوح عن خطة إبراهيم باشا التي اعتمد اتباعها ونفذها في غزو شبه جزيرة المورة إلا أنها بسردها لأعماله المختلفة قد رسمت لنا الأسس التي قد بنى عليها ذلك القائد الفذ خطته التي تتمشى مع أحدث أساليب الحرب الآن والتي تثبت أنه كان استراتيجيا من الطراز الأول فبوصوله إلى "مودون" أيقن بأن شبه جزيرة "بيليا" هي أصلح مكان لتكون قاعدة لعملياته وأدرك لأقول وهلة بأن "مودون" هذه لا تكفي لأن تكون رأس الكوبرى الذي يقيم عليه حملته وذلك لمعرفته التامة بقوة عدوه البحرية التي قد تضرب مع قواته البرية الحصار التام عليه فتضطره إلى التسليم في البر أو الاندحار في البحر ولذلك رأى أن يوسع رأس الكوبرى هذه باستيلائه على سلسلة الموانئ المجاورة له في "بيليا" كي يوفر لقواته قاعدة تثبت فيها أقدامها ويمكنها أن تعمل منها بحرية تامة لا تعوق حركاتها ضيق المواجهة ولا يجعلها ذلك الضيق عرضة لإلقاءها في البحر إذا هاجمها العدو. ولا شك في أن الدهشة ستأخذ بتلابيبنا إذا عرفنا أن نفس هذه الفكرة هي التي خطرت لما رشال "مونجمرى" عند وضع خطط غزو أوروبا فقد عدل خطة "كوساك" التي قد وضعها هيئة أركان حرب "إيزنهاور" من قبل فزاد في مواجهة رأس الكوبرى المقترح وهذا يحقق لنا صدق قول "البارون دي جوميني": "إن الاستراتيجية أيام قيصر هي بعينها أيام نابليون وإن لم تدق في أي كتاب"^(٣).

(١) كتاب عصر محمد علي للرافعي بك ص ٢٠٦

(٢) كتاب عمليات النصر جيتجاند ص ٣٤١ ٣٤٤

(٣) كتاب الاستراتيجية كما استخدمت في الحرب العالمية الثانية للكولونيل هـ بورن .



الاستكشاف والوقاية :

وفى اليوم التالى لوصول إبراهيم باشا عهد إلى قواده العناية بترتيب المعسكرات وإقامة المخازن والمستودعات وتنظيم شئون الوحدات الادارية ثم استصحب فصيلة من المشاة وأخرى من الفرسان ليستطلع بنفسه الأماكن القريبة من "نفارين" وبعد أن تم له الوقوف على ما أراد من معلومات عاد بعد الظهر إلى المعسكر بجملته قطعان من الأغنام والماشية استولى عليها خلال ذلك الاستطلاع^(١) وأصدر أوامره لبعض الوحدات كي تقوم بحماية الطرق الرئيسية المتفرعة من "مودون" حتى لا يدمرها الثوار وحتى يوفر الوقاية التامة لقواته فى أما كنهم بمودون .

إنقاذ كورون :

وفى ٣ مارس تقدم إبراهيم باشا بقوات كبيرة لتخليص "كورون" فأزال كل مقاومة أراد بها الثوار صده عن مواصلة التقدم وتمكن فى ٥ مارس من اختراق خطوط الحصار وانصل بالقلعة وأبعد المحاصرين عنها وعسكرت جنوده تحت أسوارها أسبوعا صعدوا فى خلاله كل الهجمات المضادة التى وجهها إليهم أشياع اليونان وبعد أن عزز حامية هذا الموقع وزوده بما فوق حاجته من المؤن والماشية التى غنمها فى غزواته عاد إلى مركز قيادته العام^(٢) .

ولقد أظهرت تلك العملية الأولى مدى قوة الجنود المصريين المشاة وأهمية الفرسان المعاونة لهم التى أزججت الثوار فى الجبال وفى السهول والتى كانت دائما وأبدا تغير على مواصلات العدو فتأتى بأعمال حاسمة مفيدة وتؤثر على الروح المعنوية فى قواته كما أبرزت دقة المدفعية المصرية التى كانت منظمة على أحدث النظم الأوربية وقتئذ^(٣) .

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٦٦٦

(٢) نفس المصدر ص ٦٦٧

(٣) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه لفيجان ص ٢٤١

ولم يمض إبراهيم باشا سوى ست ساعات فقط في مركز قيادته عاد بعدها إلى استئناف الإيغال في داخل المورة لحس نبض الأعداء في جملة من مواقعها المختلفة واستولى على بعض المواقع الدفاعية الهامة على جبل "هاجيو ديمتري" كي يبق خطوط المواصلات إلى "كورون" ثم عاد إلى "مودون" في ١٥ مارس واستراح ليوم واحد فقط سافر بعده في اتجاه الشمال الشرقى لاستكشاف مدخل "مسيني" وهو الباب الغربى للمورة ولم تصادفه أى مقاومات للعدو حتى عاد يوم ٢٢ مارس إلى قاعدته .

من هذه العمليات البدائية ندرك لأول وهلة مدى استيعاب إبراهيم باشا لمبادئ الحروب فأقول ما عمل عليه هذا القائد هو وقاية قواته التى أنزلت فى أرض العدو فبدأ بالاستطلاع وملك ناصية المبادأة بالأعمال الهجومية فأثار الرعب فى نفوس الثوار وأمن طرق مواصلاته مع قاعدة عملياته ومع "كورون" التى استولى عليها وفى كل ذلك لم يتغاض عن توفير الشؤون الادارية لقواته باستغلاله للوارد المحلية فى التو واللحظة . وكل هذه الخطوات لا شك وأنها تنبئنا بمدى ما سيقومنا به إبراهيم باشا من عمليات حربية رائعة إبان هذه الحملة .

حصار نفارين :

بعد أن استولى إبراهيم باشا على "كورون" التى تحمى قاعدته من الجنوب تلفت شمالا ليقتر احتلال "نفارين" التى تعتبر أهم الموانئ فى شبه جزيرة المورة لكبرها ولاعتصام الثوار بها .

وتحوى "نفارين" هذه قلعتان حصينتان على جانبي خليج نفارين الذى يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب ٥٥٠٠ متر وطوله من الشرق إلى الغرب ٣٥٠٠ متر وعمقه يسمح بإيواء أكبر قطع الأسطول كما أنه يحميها ضد عواصف البحر الأيونى لوجود جزيرة "سفاخترى" عند مدخله وتوصل بعض الطرق الرملية إلى هاتين القلعتين .^(١)

(١) كُتِب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج — ١ ص ٢٤٢

و بينما كان إبراهيم باشا منهمكا في حصار القلعة الجديدة فطن اليونانيون للخطر الذى سيحدث بهم لو تمكن القائد المصرى من إحكام حصاره فتقدمت قوات منهم بلغت ٣٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الكابتن ”يانى“ لمهاجمته وسرعان ما أرسل إليهم إبراهيم باشا ثلاث أوطرط بقيادة عثمان أغا ومصطفى أغا وآكل سولاي أغا فشنت شمل قوات ”يانى“ وأسرته مع الكثيرين من جنوده ... ولقد حاولت الحامية مرارا الخروج بقيادة ”نيكولاؤس“ الذى كان اليونانيون المتواردون لنصرته يعززون جانبه خارج الموقع لكن هذه المحاولات لم تجدهم نفعا وتمكن المصريون من أسر ”نيكولاؤس“ نفسه في إحداها^(١).

وفى ١٩ إبريل تناهت إلى إبراهيم باشا الأخبار باحتشاد ١٠,٠٠٠ من الشوار فى قرى ”كرميدى“ على بعد ٩ ميل جنوب ”نفارين“ وأنهم قد تحصنوا فى ثلاث من القرى وجبلين واقعة كلها على مسيرة ١٢ كيلومترا من المعسكر فلم يتردد إبراهيم باشا فى المسارعة إليهم فى ٣,٥٠٠ مقاتل من وحدات الآلاى الثالث والرابع و ٤٠٠ فارس وتولى هو بنفسه قيادة الفرسان فعهد إلى عمر أغا وكوجك عثمان بمهاجمة الجبلين من جهتين متقابلتين لأنهما مفتاح الموقع وأمر باقى الجنود بمهاجمة القرى الثلاث فلما فوجئت الجيوش اليونانية بالهجوم من كل ناحية وفى وقت واحد فشلت مقاومتها فقتل منها الكثير واستسلم الباقون وضرب إبراهيم باشا بعد ذلك كل الحصون والاستحكامات فدمرها ثم عاد الى معسكره فى ٩ مايو^(٢).

وشدد إبراهيم باشا الحصار على ”نفارين“ ولكن قلعتها لم تستسلم لتوالى ورود الإمدادات لها من البحر وعند ذلك أيقن إبراهيم باشا بأن مفتاح الموقف فى الاستيلاء على جزيرة ”سفاخترى“ فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة إلى

(١) كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوار جوان ص ٦٦٩

(٢) كتاب مصر الحديثة لقولابل جزء ١٢ ص ٣٢١

أرسل إبراهيم باشا يوم ٢٣ مارس الآلايين الثالث والرابع بقيادة خورشيد بك وحسين بك ومعهما المعدات اللازمة لحصار نفارين فأسرع الثوار لنجدة هذا الموقع ولكن أورطى عثمان أغا ويوسف أغا بادرنا بمهاجمتهم فألحقنا بهم الهزيمة عند أول اشتباك ولم يتمكن القواد اليونانيون من النجاة بأنفسهم مع بعض رجالهم إلا بشق الأنفس أما الباقيون فقد قتل فريق منهم وأسر الفريق الآخر وحاولت الحامية تعزيز حركتهم فخرجت لمهاجمة القوات المصرية لكنها عندما شهدت ما حل بقوات نجدها أسرعت بالعودة إلى المدينة بعد أن تكبدت خسائر فادحة واغتنم المصريون هذه الفرصة فطاردهم حتى وصلوا بهم إلى القنطرة الممدودة على خنادقهم والموصلة لمدينتهم^(١) .

وفي ٢٥ مارس سار إبراهيم باشا ببقية قواته من مودون فعسكر أمام الأسوار التي نيط الدفاع عنها بالقائد اليوناني (نيكولاؤس) وكانت الأوامر قد صدرت إلى الثوار في المورة بالتحرك لإمداد "نفارين" فأخذ إبراهيم باشا يصد هذه القوات كلما هاجمته مستعينا على ذلك بالأورط الثلاث التي كانت تحت قيادة مصطفى أغا وعثمان أغا وسليمان أغا^(٢) .

ولقد كانت خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على "نفارين" تتلخص في الهجوم المزدوج على القلعتين في آن واحد فأرسل حسين بك ومعه أورطة من كل من الآلايين الثالث والرابع وبعض الخيالة لمحاصرة القلعة القديمة ومهاجمتها بينما يقوم هو بجيشه بأكمله بالهجوم على القلعة الجديدة^(٣) بعد حصارها ولكن اليونانيون تمكنوا من إمداد القلعة القديمة فقاومت هجوم حسين بك مقاومة شديدة .

(١) كتاب مصر في القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ٧٦٨

(٢) نفس المصدر .

(٣) كتاب التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه ج ١ ص ٢٤٣

البارود ولكن ذلك كله لم يفت في عضد إبراهيم باشا ولم يجعله يتحول عن هدفه الأساسي بل شدد الحصار على القلعة حتى استولى اليأس على المحصورين فأرسلوا في ١٦ مايو وفدا من وجوههم يلتمسون الأمان فأمنهم إبراهيم باشا على حياتهم بشرط أن تسلّم إليه المدينة بقلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة فاستجابوا لهذه الشروط وفي ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ دخل إبراهيم باشا وجنوده المدينة فكان ذلك أعظم الانتصارات التي تزين تاريخه الحربي وكان اسقوط "نفارين" أثر بالغ في الموقف الحربي إذ جعل اليأس يدب في صفوف اليونانيين ووطد مركز الجيش المصري باستكمال قاعدته اللازمة للعمليات في داخل المورة^(١).

التحليل الفنى لهذه المعركة :

لا شك وأن هذه المعركة تختل المكان الأول من الأهمية و حملتنا هذه لأنها حجر الزاوية التي بنى عليها النجاح المستقبل ولذلك نحب علينا أن نحللها التحليل الفنى المسهب لنذكر ما فيها من روعة أعمال الجيش المصرى وعبقريّة قائده الغد إبراهيم باشا الذى تمكن من تطبيق مبادئ الحرب تطبيقا قلميا يوفق إليه أى قائد قديم أو حديث ولننظر الآن كيف طبق إبراهيم باشا جل مبادئ الحرب فى هذه المعركة حتى أوصلته إلى ذلك النصر الحاسم السريع .

مبدأ المحافظة على الهدف :

إن أول مبدأ من مبادئ الحرب عمل إبراهيم باشا على تحقيقه هو مبدأ المحافظة على الهدف فلقد كان هدفه الأساسى الاستيلاء على نفارين ولم يصرفه عن هذا الهدف كل ما قام به الثوار من مختلف الأعمال والهجمات كما رأينا ففى كل موقف من المواقف التي هاجمته فيها قوات الثوار أو شرعت فى الاحتشاد لمهاجمته لم يترك "نفارين" ويتوجه إليهم بل كان يسارع لتشيت شملهم فى الوقت الذى لازالت

سليمان (باشا) الفرنسي^(١) وأرسل معه بلوكين من الأورطة السادسة المشاة إلى (مودون) حيث أبحرهما في ١٥ سفينة مسلحة فلما علم اليونانيون بأن هذه القوة آتية لاحتلال الجزيرة عززوا حاميتها بقوات مختارة من المحاربين والبحارة ولما سارت السفن المصرية في مرمى نيران مدفعية السواحل للعدو أطلقت قلاعها النيران عليها ولكنها أجهتها بالمثل بينما راحت تنزل الجنود في الزوارق فقصدها الجزيرة تحت وابل من النيران وتمكنوا من الوصول إلى البر واحتلوا الجزيرة ورفعوا العلم المصري على استحكاماتها وقد قتل في هذه العملية بطل اليونان "تسامادوس" وجرح سليمان باشا وفر «مافركوردتوس» وهربت بقية السفن اليونانية وذلك تم تطهير خليج "نقارين" من الأسطول الهليني .

استسلام نقارين :

وفي ليلة ١٢ — ١٣ مايو هاجم ٣,٠٠٠ من القوار مؤخرة حسين بك ولكن جنوده كانت متاهة للقائهم بل والهجوم عليهم فشنت شملهم وفي الوقت نفسه حاول المحصورون في القلعة القديمة الزحف عليهم تحت جنح الظلام ولكن القوات المصرية قبلتهم بنيران حامية أوقفت تقدمهم وجعلتهم يلوذون بالقلعة أنية فطاردهم الخيلة المصرية وفتكت بهم وأسرت الباقين واستسلمت القلعة القديمة في ١٣ مايو .

وفي هذا اليوم أورد الأميران (ميلونيس) اليوه في النذر لمقتل (تسامادوس) أعار أسطوله على "مودون" وأشعل النيران في بعض قطع الأسطول المصري وزادت والرياح العاصفة في شتعل النيران حتى امتدت إلى المدينة فدمرت بعض محازن

(١) كتاب مصر حبيبة لقوة ج ٢ ص ٣٢١

(٢) كتاب تاريخ عسكري محمد علي وفتح ١ ص ٢٤٣

(٣) كتاب عصر محمد علي ص ٢٠٩

(٤) كتاب تاريخ عسكري محمد علي وفتح ١ ص ٢٤٥

مبدأ المفاجأة :

ولا شك في أن أهم مبدأ استخدمه إبراهيم باشا وأتى بثماره ناضجة شبيهة هو مبدأ المفاجأة فأثنى علم باقتراب جيوش التخليص لم يتخبط في العمل الذي يجب أن يقوم به بل أسرع بقواته المهيأة لذلك والمتوفرة لديه كاحتياط مجهز وفاجأ تلك الجيوش التي لم تكن تتوقع هجومه مطلقاً ، كما وأن نقطة قواته وقواده أخفقت الكثير من محاولة العدو مفاجأة هذه القوات تحت جناح الظلام أو في حصرها بين هجوميين من داخل القلاع وخارجها .

مبدأ التعاون :

وأروع دليل على مدى استخدام إبراهيم باشا لمبدأ التعاون وتفهمه لأهمية هذا المبدأ جيداً هو ذلك الحصار البري والبحري الذي ضربه حول ”نصارين“ ، وأيضاً تعاون مدفعيته ومشاته في الحصار أثناء إسرائه هو وفرسانه وبعض المشاة الملاقاة جيوش التخليص المتتالية ثم يتضح لنا ذلك جلياً في تعاون مشاته المحمولة في المراكب مع بحريته إبّان الهجوم على جزيرة ”سفاختريا“ واحتلالها ، والحق إننا لنلمس في كل أعماله هذه روح التعاون الوثيقة المطلوبة وهي التي نادى بها ”جيوليود وهيت“ والتي أصبحت أساساً لتنظيمات وحدات العمليات المشتركة ، ونواة لوحدة الأسطول البرية والجوية التي استخدمت في الحرب الأخيرة .

مبدأ الوقاية :

وفي جميع عمليات إبراهيم باشا منذ وصوله إلى أرض المسورة حتى سقوط ”نصارين“ أبرز لنا بوضوح أهمية الوقاية فعملياته الاستكشافية الدائمة وتأمينه لخطوط المواصلات الموصلة للأماكن التي احتلها ولقاعدة عملياته كانت خير دليل على عظم قيمة هذا المبدأ فهو دائماً وأبداً كان يقي قواته شر مفاجأة العدو لها أو محاصرتها وإن وقوفه في كل آن على نيات العدو وتحركات قواته وفر لجيوشه الأمن اللازم وجعلهم يواجهون العدو أثنى فبكر في الإغارة عليهم .

قواته المحاصرة تشدد قبضتها على القوات المحصورة . فالأهداف المفاجئة لم تجعله يهمل هدفه الأساسى ، هذا إلى أن كارثة حرق بعض قطع أسطوله فى ”مودون“ ونسف ذخيرته لم يفت فى عضده ولم يصرفه عن تحقيق هدفه الأساسى فلا عجب إذا أمكنه تحقيق ما قد رعى إليه وحصوله على النصر الحاسم فى النهاية .

مبدأ ادخار القوى :

ولم تدفع رغبة تحقيق الهدف الأساسى إبراهيم باشا إلى تجاهل مبدأ ادخار القوى فتجعله يجازف بكل قواته فى حصار نفارين بل لقد عمل على تحقيق مبدأ ادخار القوى بإرساله بعض قواته فقط لحصارها واحتفاظه بقوة احتياطية كبيرة (ثلاث أوروپ وبعض الخيالة كما أسلفنا) لمواجهة جميع المفاجآت التى حاول الثوار تحقيقها بهجماتهم المختلفة التى تصدى لهم فيها إبراهيم باشا ودحرم المزة تلو الأخرى حتى أصبح هدفه الأساسى أقرب ما يكون إلى المنال بواسطة هذه العمليات منه بالحصار الدائم .

مبدأ خفة الحركة :

ويدهشنا إبراهيم باشا فى هذه العمليات بتطبيقه الرائع لمبدأ خفة الحركة ففى جميع الأحوال التى كانت الأنباء تصله باحتشاد قوات للعدو للقيام بهجمات مفاجئة كانت قواته المجهزة والمستعدة تهرع فى خفة وإسراع إلى الذهاب بجهود العدو ودحر قواته ولقد عرف إبراهيم باشا كيف يستفيد من خفة حركة فرسانه بعمليات التطويق التى قام بها عند هجومه على جموع العدو فى قرى ”كرميدى“ وأيضا فى مطارداته الدائمة للقوات المنسحبة التى أمامه وكأنه فى ذلك كان يحقق قول نابليون : ”أن سر الحرب هو أن تمشى إثنا عشر فرسخا وتخوض غمار المعركة ثم تمشى إثنا عشر فرسخا أخرى للطاردة“^(١) .

(٢) عدم التوسع الغير ضرورى فى هذه القاعدة حتى لا تكتسح أجنابها بسهولة .

(٣) مهاجمة أجناب العدو دون قلبه .

(٤) هزم قوات العدو المشتبك معها نهائيا قبل البدء فى عمل أى هجوم آخر

جديد .

وإن نظرة فاحصة لما قام به إبراهيم باشا خلال هذه العمليات ترينا بوضوح أنه قد قام بتنفيذ هذه التعليمات بدقة تامة فعمل على تهيئة قاعدته على مساحة مناسبة كما أسلفنا وهاجم ” كورون “ أولا حتى هزم قوات العدو وأمنها ثم اتجه إلى ” نفارين “ وطوق أجناب العدو فى حصاره ” لنفارين “ وفى هجومه على قرى ” كرميدى “ . فله دزه من قائد كان يعرف كل صغيرة وكبيرة من فنون الاستراتيجية التى لم تكن قد دؤنت أو نشرت تعاليمها .

الدروس المستفادة من هذه المعركة

ويستخلص من هذه المعارك بعض الدروس الهامة الآتية :

(١) أهمية القائد فى المعركة :

إن هذه المعركة قد أظهرت لنا بوضوح أهمية القائد وقدرته فى المعركة فالتعاليم الاستراتيجية تعتبره العقل المحرك لكل آلة الحرب وعلى قرارات هذا العقل وتصرفاته تتوقف النتائج النهائية لها ... ولا شك فى أن من حسن طالع القوات المصرية أن كان قائدها إبراهيم باشا الذى عرف كيف يتصرف فى كل المواقف المختلفة التى طرأت إبان هذه المعارك من هجمات جيوش التخليص والذى كان دائما وأبدا بعيد النظر وعلى جانب كبير من الصواب فى جميع قراراته .

(٢) أهمية الضبط والربط فى النيران والتدريب الجيد للجنود :

ولقد رأينا الثوار يهاجمون القوات المصرية تدفعهم فى ذلك روحهم الوطنية العالية وحماستهم المتأججة ولكن ثبات القوات المصرية وهدهودها وعدم إطلاقها

مبدأ حشد القوى :

أما مبدأ حشد القوى فهو كفيل بذاته لإثبات وجوده دائماً في هذه المعارك وإنه ليتضح جلياً في ما أقدم عليه إبراهيم باشا من حشد قواته لمحاصرة "نفارين" وفي ذهابه لملاقاة جيوش التخليص وفي مهاجمته لقرى "كرميدى" ومرتفعاتها بل وفي محاصرته النهائية "لنفارين" نفسها ، حيث جمع كل قواته البرية والبحرية المتوفرة لبلوغ هدفه الرئيسى فى النهاية .

تلك هى مبادئ الحرب التى نصت عليها أغلب تعليمات الكتب العسكرية الاستراتيجية وقد حققها إبراهيم باشا جميعها فى هذه المعارك إلا أن الكتب العسكرية الأميركية الحديثة تضيف مبدأ آخر ألا وهو مبدأ البساطة^(١) وهذا المبدأ يعتبر من أهم المبادئ حقاً فالخطط العسكرية المبسطة دائماً وأبداً تأتى بنتائج طيبة ولا شك فى أن إبراهيم باشا قد حقق هذا المبدأ إلى حد كبير جداً فخططه بأسرها كانت مبسطة ورائعة وتهدف دائماً إلى دحر العدو دون ما تعقيد فى تنفيذ ذلك فهو عند نزوله فى المورة لم يفكر فى القيام بحركة تطويق كبيرة بإنزال قواته فى جانبي شبه الجزيرة ولم تسموه أهمية سقوط "نوبلى" عاصمة الثوار بل لجأ إلى أخذ الأمور من أبسط نواحيها وهى النزول فى المنطقة التى فى يد الأتراك والتى تصلح لأن تكون قاعدة لعملياته ، هذا إلى أنه وضع نصب عينيه أن يعمل دائماً بقول نابليون : " فيما يختص بى فىنى دائماً أعمل على خطوط داخلية^(٢) " فلم يفكر فى العمل على الخطوط الخارجية وكأنما فى كل ذلك كان يحقق تعليمات "البارون جوميني" حيث قال : إن أربعة شروط ضرورية لنجاح العمليات على الخطوط الداخلية وهى : (١) ضرورة توفير قاعدة مناسبة للعمليات تعمل منها القوات بحرية ولا تحاصر فيها .

(١) كتاب تاريخ ماء عسكري نيتشل ص « ٦ » .

(٢) كتاب الاستراتيجية كما استخدمت فى حرب عالمية ثمانية نابليون .

وإنما هو قد أثر ألا يلجأ إلى العنف والبطش والشدة والضربات الحاسمة القاصمة في أول معركة له بسبب أوامر والده له التي قد أوردنا بعضها فيما سبق . هذا إلى أنه كان يتوقع استسلام الثوار من الروح التي قد قوبل بها في ”مودون“ ومما تنهى لأسماعه من الآثار السيئة التي فعلها المال الذي أحضره وإياه اللورد ”بيرون“ وليس أدل على ذلك مما ذكره اوثرني في كتاب ”ذكريات عن اليونان“ عن هذه الآثار الذي استنتج منها أن إبراهيم باشا لم يكن يستحيل عليه أن يصل إلى نغارين بشرائه ضمائر اليونانيين إلى أن قال : ”ولو تم له ذلك لنادى به السكان واليا على المورة ولأعلن هدنة عامة لإرضاء لليونانيين الذين استسلموا له ويؤيد رأي هذا ما شهدته بنفسى في سهول مودون فقد رأيت الفلاحين اليونانيين يقبلون يد إبراهيم وهو يأمرهم بالانصراف قائلا لهم : ”أبلغوا الناس جميعا أنى أبوكم وأنى لن أقسو إلا على العصاة^(١) النافرين“ فهذه هى الروح التي خاض بها إبراهيم باشا هذه المعركة وأنا لرى أن الحامية كادت تستسلم له في أول الأمر لولا هروع جيوش التخليص لها فهذه الفكرة الهامة لم تفت ولا شك تفكير ذلك القائد الفذوها نحن رأيناه عندما اشتدت مقاومة الثوار صمم على تنفيذها وحصل عليها في التق واللحظة وقسى على العصاة النافرين كما أعلن من قبل .

مهاجمة السفن اليونانية لسواحل مصر :

وتطالعنا هذه الحملة ببعض أعمال تشير في النفوس الدهشة لوقوعها في ذلك العهد لأنها تشبه إلى حد كبير أعمال إغارات ”الكومندوز“ في الحرب الأخيرة فلقد استهدفت السواحل المصرية في خلال تلك الحملة لقرصنة السفن اليونانية التي أحفظها اشتراك مصر في الحرب فأقبلت في شهر يونيو ثلاث من حراقات اليونان إلى بوغاز الاسكندرية ودخلت واحدة منها إلى الميناء أمام طابسية ”صالح“ وأشعلت النار في نفسها تريد بذلك حرق الأسطول المصرى الذى كان راسيا أمامها وهذه طريقة

(١) ص ٦٧ من كتابه هذا .

النيران حتى الوقت والمرمى المناسب أذهب بكل جهود المهاجمين وأذاقهم علقم الهزيمة ولا شك في أن هذا العمل لن يتأتى إلا من قوات مدربة بلغت الذروة القصوى في ضبط وربط واستخدام النيران وهذا من أهم عوامل النجاح في هذه المعارك .

(٣) أهمية التعاون بين القوات المحاربة :

وتبدولنا أهمية التعاون التام في تلك المعركة في ذلك الحصار البرى والبحرى على "نقارين" الذى لولاه لذهبت جهود الجنود المحاصرة هباء منثورا ولطال أمد الحصار دون جدوى طالما تصل إليها الإمدادات من البحر .

(٤) أهمية الخيالة في الأراضي الوعرة وقطع مواصلات العدو :

وتبرز لنا الخيالة في هذه المعارك لترينا أهميتها في الأراضي الوعرة وخفة حركتها في تطويق أجناب العدو وقطع خطوط مواصلاته وذلك ما لم يغفله إبراهيم باشا بل لقد رأيناه يقودها بنفسه في مهاجمة قوات العدو بقرى كرميدى والمرتفعات العالية بها .

(٥) أهمية المطاردة :

ولا شك في أن أعظم درس مستفاد من هذه المعارك هي أهمية المطاردة فقد قال نابليون : "الانتصار لا يعد شيئا إذ يجب إتمام وتعزيز هذا النصر بالمطاردة"^(١) وهذا ما اتبعته قوات إبراهيم باشا دواما إذ كان ديدنها دائما وأبدا مطاردة العدو المنسحب وقد رأينا ذلك في كل عملية كبيرة أو صغيرة خلال هذه المعارك .

الروح التى خاض بها إبراهيم باشا غمار هذه المعركة

ولقد يتساءل بعض الباحثين عن السر في عدم إصدار إبراهيم باشا أوامره المباشرة منذ بدء الحصار بالاستيلاء على جزيرة "سفاختريا" وقد يعزون ذلك إلى أنه قد غاب عنه أن هذه الجزيرة هي مفتاح الموقف مدى تلك الأسابيع الطويلة التى أمضيت في الحصار . ولكن لا شك في أن هذا لم يغيب عن ذهن إبراهيم باشا مطلقا

الفصل الخامس

تابع المرحلة الثانية

٢ - احتلال المورة

تطهير بيليا : (أنظر خريطة رقم ١)

بعد أن حصل إبراهيم باشا على موقع إستراتيجي محصن بثلاث قلاع (مودون — نفارين — كورون) في "بيليا" صمم على اختراق البلاد واحتلال أراضيها ثم السير إلى "تريبوليتسا" العاصمة القديمة للسنجق التي سقطت في أيدي الثوار في ٥ أكتوبر عام ١٨٢١ ولكن قبل تقدمه رأى أن يطهر "بيليا" تماما من الثوار فاتبع تكتيكات رائعة في تقدمه وهي أنه كان يدفع بقوات الخيالة أمام مشاته لتسببها باحثة عن العصابات فإذا عثرت على بعضها عملت على قطع مواصلاتها من الخلف وعزلها حتى إذا حاولت الانسحاب ضيقت عليها الخيالة الخناق أما إذا ثبتت في مواقعها جتمتها المشاة من الأمام بينما تطوقها الخيالة من الأجناب وتحاصرها من الخلف فيقضى عليها . ولقد نجحت هذه التكتيكات نجاحا باهرا فأزالت الكثير من مقاومة العصابات اليونانية وظهرت "بيليا" من الثوار فبدأ إبراهيم باشا في تحقيق تقدمه إلى "تريبوليتسا"^(١) .

حشد قواته في نيسي :

ولقد جعل إبراهيم باشا بلدة "نيسي" الواقعة شمال شرق "كورون" على الشاطئ الأيمن لنهر "بيرماتزا" مركزا لحشد قواته من مختلف الميادين حتى يتمكن من التقدم بها إلى داخل البلاد .

تأمين خطوط مواصلاته قبل الزحف :

ولم يقف إبراهيم باشا مكتوف الأيدي خلال إتمام ذلك الحشد بل تقدم ومعه

(١) كتاب التاريخ العسكري لخميد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٩

قد اشتهرت بها الحراقات اليونانية ودمرت بها الكثير من السفن العثمانية ولكن حراس القلعة بادروا بإطلاق المدافع على السفينة اليونانية وبادرت السفن الحربية المصرية إلى إرسال زوارقها المسلحة بالمدافع فهاجمتها وأنحدرت نازها وبرهنت في تلك الحركة على مهارتها ويقظتها فلما رأت السفينتان الأخریان ما حل بالأولى لاذتا بالفرار ولما علم محمد على باشا بهذه المحاولة الجريئة أصدر أمره إلى محرم بك أميرال الأسطول المصرى ووكيله بلال أغا بالخروج مع خمس سفن حربية لتعقب الحراقتين اليونانيتين وخرج محمد على باشا بصحبة هذه الحملة على ظهر السفينة الحربية (جناح بحرى) ولكن الحملة لم تسطع اللحاق بالحراقتين وقد تابع محرم بك تجواله بالأسطول حتى بلغ مياه "رودس" حيث كانت السفن اليونانية راسية هنالك فلما أبصرت الأسطول المصرى لاذت بالفرار وأقلعت إلى مياه الأرخبيل^(١).

ومن تلك الحادثة العابرة ندرك مدى ما كان عليه هؤلاء الثوار من قوة وقدرة على التفكير ونحكم على مدى عبقرية إبراهيم باشا لتمكنه من الانتصار السريع عليهم وعلى يقظه القوات المصرية فى كل آن .

الموقف العام بعد هذه المعركة :

ولقد أحس الثوار بعد هذه الموقعة بخرج موقفهم فإنهم بالرغم من تمكنهم من تهريب بعض رجالهم ومدفعيتهم وذخيرتهم بواسطة المراكب البريطانية والنمساوية إلى "كالاماتا ومسينى" فان "بيوتى" كانت مهددة بالأترك وفى "ميسولوجى" مات "يرون". فهرع الكثير من اليونانيين الذين فى الخارج إلى بلادهم ليدافعوا عنها وأفرجوا عن القائد "كولوكوترونىس" الذى كان فى السجن فى "هيدرا" لاتهامه بتبديد بعض الأموال لكن وصوله للورة جاء متأخرا إذ أصبحت الأرض التى شهدت نصر "الأرجوس" و"الإسبارطيين" و"كورنث" تحت رحمة قائد الجيوش المصرية إبراهيم باشا^(٢).

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢١٠

(٢) كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه ج ١ ص ٢٤٧

سليمان بك وحسين بك ورشوان أغا يحمون إبراهيم باشا في زحفه وصعوده في الجبال وقد صعدوا فيها معه للاستطلاع وكان "كولو كوترونييس" و "بترافكو" قد تحصنا بقمة جبل (تركي خورا) لمقاومة الجيش المصري . ووقف إبراهيم باشا على نيتهما فانقض عليهما ودحرهما ودمر استحكاماتهما وقتل خمسمائة من رجالهم ومنهم الجنرال "بترافكو" وما أقبل المساء حتى انضم إبراهيم باشا إلى جيشه الأساسي .

وفي ١٩ يونيو تاهب للزول في سهل "ليونداري" وعلم أن الأعداء ينصبون له كميناً فأنفذ إليهم فصيلة دحرتهم وكان "كولو كوترونييس" قد اتخذ له في النقط الخلفية موقعا متيعا لكن جنوده لم تجرؤ على البقاء فيه خيفة أن يدهمهم إبراهيم باشا فينكل بهم ولذا فروا على وجوههم في الجبال لا يلبون على شيء وبذلك بات الطريق مفتوحا للجيش المصري فدخل في ٢٣ يونيو وفي طليعته إبراهيم باشا مدينة "تريبوليتسا" بعد أن هجرها سكانها وأشعلوا فيها النار^(١) .

ولم يستم إبراهيم باشا إلى هذه الانتصارات السريعة فقرر على الرغم من المشاق التي كابدها جيشه في المواقع الأخيرة أخذ (نوبلى دى رومانيا) التي اتخذها الثوار عاصمة لهم فترك لهذا الغرض في عاصمة المورة جيشا احتياطيا قويا وتحرك في ٢٥ يونيو في قوة مؤلفة من ٥٠٠ فارس وأورطة مشاة وبعض المدفعية والهاون فوصل في اليوم الثالث من زحفه إلى سهل "أرجوس" حيث أحرق كل ما فيه من أشجار الزيتون ثم انقض على طواحين "نوبلى" التي كانت في حراسة "إبسلانتى" و ٣٠٠ من جنوده المشهورين باسم (الباليكار^(٢)) فترامت القوّات بالنيران وتصنع إبراهيم باشا حركة رجعية قصد بها إلى استدراج العدو في طريق "تريبوليتسا" فكانت هذه الخدعة بالنجاح واستولى على جميع مواقع الأعداء ثم استأنف السير حتى عاد إلى معسكره في ٣٠ يونيو

(١) كتاب مصر في القرن التاسع عشر لادوارد جون ص ٦٧٩

(٢) نفس المصدر .

١٥٠٠ مقاتل قاصدا ممر "ليونندارى" وهو أحد منافذ هضبة "أركاديا" الذى يجرى فيه نهر "أنفى" وكان يحتله (البابا فلشياس) من الهنرى ومعه بعض رجاله الأقوياء لمنع تقدم المصريين لاحتلال قلب "أركاديا" وليهدد خطوط مواصلاتهم إذا تقدموا جنوبا فى "تايحيت" فصمم إبراهيم باشا على الاستيلاء على ذلك الموقع الاستراتيجى الهام فهاجم عصابات "فلشياس" فى ١٠ يونيو بتكتيكاته المعتادة الرائعة فهزمهم بعد مقاومة عنيفة دامت لست ساعات . وبعد أن فتح إبراهيم باشا ذلك الباب الموصل "لأركاديا" حصنه وأسند حراسته لبعض قواته ثم عاد إلى "نيسى" حيث تم حشد قواته فأمر بالتحرك بعد ثلاث ساعات إلى "كالاماتا" .

فتح كالاماتا :

تقع "كالاماتا" على الشاطئ الأيمن لنهر "برماتزا" وكان "بترو" القائد العام للشوار فى تلك البقاع قد حشد فيها ٤٠٠٠ مقاتل وحصن مواقعه وحفر الخنادق حولها فهاجمه إبراهيم باشا فى الحال بثلاث آليات وفرقة من الفرسان ولم يكد اليونانيون يبصرون بالجنود المصرية حتى ولوا الأدبار لما تنهى إلى أسماعهم من أنباء عن هزيمة "فلشياس" وقواته فأرسل إبراهيم باشا فرسانه خلفهم فطاردتهم وقتلت نحو ٥٠٠ منهم وأحرقت بعض القرى منها "كتيريا" بلدة "بيترو" واستولى على الميناء . وفى اليوم التالى حاصر ٢٠٠٠ من الثوار فى دير بلدة "فلاميديا" القائم على أسمة عالية فاستولى عليه وأسره .

الاستيلاء على تريبوليتسا :

وفى ١٨ يونيو تقدم إبراهيم باشا فعبّر سلسلة جبال "تايحيت" وسار إلى "تريبوليتسا" عاصمة جزيرة المورة فمرّ بعض الجيش بإقليم "أركاديا" والبعض الآخر بإقليم "ليونندارى" فغرب القولان فى طريقهما قريتي "كالافيا وبولاكى" وكان

التحليل الفنى لهذه المعارك

لا شك وأن هذه المعارك الخاطفة التى قامت بها القوّات المصرية بقيادة إبراهيم باشا تثير دهشتنا . ففى أقل من شهرين من بدء زحفها إلى داخل المورة احتلت كل أراضيها وبلادها عدا "نوبلى" ومثل هذه النتائج لا تتأتى إلا من خطط رائعة قد أحكم تديرها ونسق تنفيذها فأنت بأكلها سريعة شمية . والحق إنه بتقرير إبراهيم باشا جعل جميع عملياته على الخطوط الداخلية كنبليون ضمن وقاية قواته وخطوط مواصلاته وتمكن من التقدم بمنة ويسرة بالتوالى حتى لا يعرض أجنابه للعدو مطلقا فباحتلاله "كالاماتا" ثم "أركاديا" و"تريبوليتسا" و"أرجوس" ثم "بتراس" تمكن من الحصول على نصر سريع بفضل تجميع قواته واستخدامه لأصول الحرب فى كل معاركه ولننظر كيف طبق إبراهيم باشا مبادئ الحرب فى هذه المعارك :

(١) مبدأ المحافظة على الهدف :

قال نابليون : "إنى لأرى دائما شيئا واحدا وهو جيش العدو الرئيسى" والحق إن الهدف الأساسى لأى جيش مهاجم هو قوات العدو وليست الأهداف الجغرافية كعاصمة مملكته لأنه إذا هزمت تلك الجيوش إنهارت مقاومة العواصم^(١) ولقد كان هدف إبراهيم باشا خلال هذه المعارك قوات العدو المختلفة فأنى وجدت هذه القوّات هاجمها ودحرها ولم يلق بالالعاصمته "نوبلى" إذ أنه كان موقنا من الاستيلاء عليها بعد تهيئته للفرص المناسبة، هذا إلى أن انتصاره على قوات العدو أنى صادفها فى المورة أوصلته إلى احتلال المورة بأسرها عدا "نوبلى" كما رأينا .

(٢) مبدأ القتال التعرّضى :

ولقد حرص إبراهيم باشا طوال حروبه فى المورة على الاحتفاظ بالمبادأة وهذه لا تتأتى إلا بالقتال التعرّضى دواما ففى جميع عملياته هذه كان رائده الهجوم المستمر

توفير المؤن وتنظيم الشؤون الإدارية :

وأول ما اهتم به إبراهيم باشا عند عودته إلى عاصمة المورة هو تدبير الوسائل اللازمة لإقامه جنوده بها في فصل الشتاء فخصد ودرس ما لم يتيسر للأهالى أن يخصصوه أو يدرسوه من الحبوب ونقله على الخيل التي غنمها منهم إلى المخازن والمستودعات ولكي يضمن للعمال الذين قاموا بهذه الأعمال الأمن على حياتهم بث الداوريات حولهم للاستطلاع وكان يختلف دائماً إلى النقط الأمامية منها ليشرف بنفسه على أحوالها وقاد بعض الدوريات المحاربة بنفسه ومعه فرسان حسين بك لأخذ الطواحين اللازمة لطحن الحبوب المحصودة فقاتل الثوار واستولى على ما أراد^(١) .

احتلال بتراس :

وفي ٢٧ يوليو عرج إبراهيم باشا على وادي "لكونيا" حيث كان الثوار يرابطون في معاقلهم فهزمهم واستولى على استحكاماتهم ثم احتل "بتراس" وبذلك صار شبه جزيرة المورة في قبضة الجيش المصرى عدا مدينة "نوبلي" عاصمة الحكومة الثورية فأخذ يتأهب لحصارها^(٢) .

الموقف في نهاية عام ١٨٢٥ :

لقد أصبحت شبه جزيرة المورة بأسرها في يد إبراهيم باشا عدا "نوبلي" ولكن كان الثوار يزعمون معسكراته بمناوشاتهم وهجماتهم الجزئية فأرسل إبراهيم باشا إلى محمد علي باشا في طلب إمدادات له فيجهزله عاهل مصر الآلايين السابع والثامن بقيادة حسن بك وحسين بك للإبحار إلى "نفارين" وبرفقتهم بلوكين من المهندسين وقوة كبيرة من الفرسان ومدفعية حصار وجبلية فبلغت القوة في تعدادها جميعا ١٠,٠٠٠ وصلته في ١٠ يناير عام ١٨٢٦^(٣) .

(١) نفس المصدر ص ٦٨١

(٢) كتاب عصر محمد على للرافعي بك ص ٢١١

(٣) كتاب التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه ج ١ ص ٢٥٤

(٦) مبدأ المفاجأة :

ولقد حققت خفة حركة قوات إبراهيم باشا واستخدامه لها الاستخدام المنتج مبدأ المفاجأة دوماً في هذه المعارك . فدائماً وأبداً كانت قواته الخفيفة تقطع خطوط مواصلات العدو فتفاجئه بظهورها خلف قواته ولقد بلبل إبراهيم باشا أفكار التوار باتخاذ تلك الخطة السريعة في الهجوم التي كانت في أهدافها تتجه يمنة ثم يسرة دون أن يقف العدو على نواياه فكانت هذه سلسلة من المفاجآت لقوات العدو جعلتها تستسلم لقوات إبراهيم باشا أنى ظهرت أمامها .

(٧) مبدأ التعاون :

كما وأن قوات إبراهيم باشا قد حرصت على تطبيق مبدأ التعاون بين أسلحتها المختلفة حرصاً كبيراً فالفرسان والمشاة باتباعهم لتكتيكات إبراهيم باشا، التي لا تختلف عن تكتيكات الجيوش الحديثة الآن في شيء كانوا يظهرون مدى أهمية التعاون بين الأسلحة المختلفة في إحراز النصر السريع .

الدروس المستفادة من هذه المعارك

ومن هذه المعارك نستخلص الدروس الهامة الآتية :

(١) أهمية تأمين قاعدة للعمليات :

لقد أوضحنا لنا هذه المعارك أهمية وجود قاعدة مؤمنة للعمل منها إبراهيم باشا باتخاذ "بيليا" قاعدة له أمن خطوط مواصلاته وسهل تحركاته لعملياته وبذلك تم له اكتساح قوات التوار في شبه جزيرة المورة في هذه الفترة القصيرة . والحق إن أهم ما يرمى إليه أى قائد ينبغي القيام بعمليات سريعة هجومية هو أن يؤمن قاعدة لقواته حتى يمكنه العمل بحرية وفي طمأنينة تامة .

على قوات العدو لإجلائها عن مواقعها التي لو تحصنت فيها ودافعت عنها دفاع المستميت لعرقلت تقدم قواته وهذا الهجوم قد ثبت روح العدو المعنوية فجعله يفز من أمام قواته إذا سمع باقترابها وبذلك حقق له النصر السريع .

(٣) مبدأ خفة الحركة :

ولا شك في أن هذا القتال التعرضي المستمر لم يكن ليصبح طوع بنان إبراهيم باشا لولا توفيره التام لمبدأ أخفة الحركة لقواته فباتباعه لتلك التكتيكات الرائعة ، التي سبق أن أشرنا إليها ، أعطى وحداته قوة دافعة جعلتها تسير من نصر خاطف إلى آخر سريع إذ استخدم كل سلاح فيما هو أهل له فعرف كيف يستفيد بخصائص كل سلاح وأمكنه الاستعانة التامة بخفة حركة الخيالة التي لم تقتصر أعمالها على تطويق أجناب العدو وقطع خطوط مواصلاته فقط بل لقد دأبت دوما على مطاردة فلوله الهاربة لتوقع الخسائر الفادحة في صفوفها .

(٤) مبدأ الوقاية :

وإننا لا نجد مبدأ حظى بعناية إبراهيم باشا كمبدأ الوقاية فهو في كل أعماله هذه كان يطبقه التطبيق الرائع المنتج فباستكشافاته السريعة الدائمة كان يوفر الوقاية لقواته المتقدمة وبتأمينه لخطوط المواصلات قبل التحرك كان يثبت صمام الأمن الذي يعطى لقواته الحرية في العمل باطمئنان ويدفعه للدوريات المحاربة باستمرار كان يبق قواته من أى عمل مفاجئ يخفيه له العدو .

(٥) مبدأ حشد القوى :

ولقد حرص إبراهيم باشا في جميع أعماله في المورة على تطبيق مبدأ حشد القوى فقبل بدء تقدمه حشد قواته كما أسلفنا في ”نيسى“ وفي كل معركة من المعارك التي خاضها كان يوفر القوات اللازمة لإحراز النصر فيها وإننا لنلمس ذلك في أنه لم يضطر لإمداد أى قوات قد دفعت لأى معركة إذ كانت القوات المحشودة دائما وأبدا كافية لدحر العدو ومطاردته .

(٥) أهمية الاستكشاف وتأمين خطوط المواصلات :

ويطالعنا إبراهيم باشا في هذه العمليات بدرس رائع هو أهمية استكشاف القائد بنفسه لمسرح عملياته وتأمينه لخطوط مواصلاته فبمراعاته لهذا العمل الحربي الضروري طوال حملته أمكنه أن يؤمن قواته من شرور مفاجأة العدو لها وأمكنه الحصول على الكثير من المعلومات التي أفادته في هجماته المفاجئة على قوات العدو .

(٦) أهمية توفير المطالب والشئون الإدارية محليا للوحدات :

وأخيرا يضرب لنا إبراهيم باشا أروع المثل على ما يجب أن يعمل عليه كل قائد لتوفير مطالب وحداته وتنظيم شئونها الإدارية في كل آن حتى ولو كان ذلك محليا ... لقد كان دائما وأبدا يعمل على سد مطالب وحداته بل ها نحن قد رأيناه يعمل على توفير المؤن لهم ويحمي العمال أثناء الحصاد بل ويقا تل من أجل الطواحين وذلك ليقينه بصدق قول « نابليون » : ” إن الجيوش تسير على بطونها “ فبتوفيره كل الشئون الإدارية لوحداته تمكن من حفظ روحهم المعنوية وجعلهم دائما وأبدا صالحين لكل الأعمال الحربية المطلوبة منهم .

الفصل السادس

تابع المرحلة الثانية

٣ - فتح ميسو لونجى وأثينا

حالة الأتراك أمام ميسو لونجى :

في الوقت الذى كانت فيه قوات إبراهيم باشا تنتقل من نصر إلى فوز في أنحاء المورة كان محمد رشيد باشا المعروف بكوتاهية نسبة إلى وطنه كوتاهية بالأناضول قد فت في عضده اليأس من استيلائه على ”ميسو لونجى“ إذ سبق له أن رفع عنها

(٢) أهمية اتخاذ قوات العدو دون المواقع الجغرافية هدفا للهجوم :

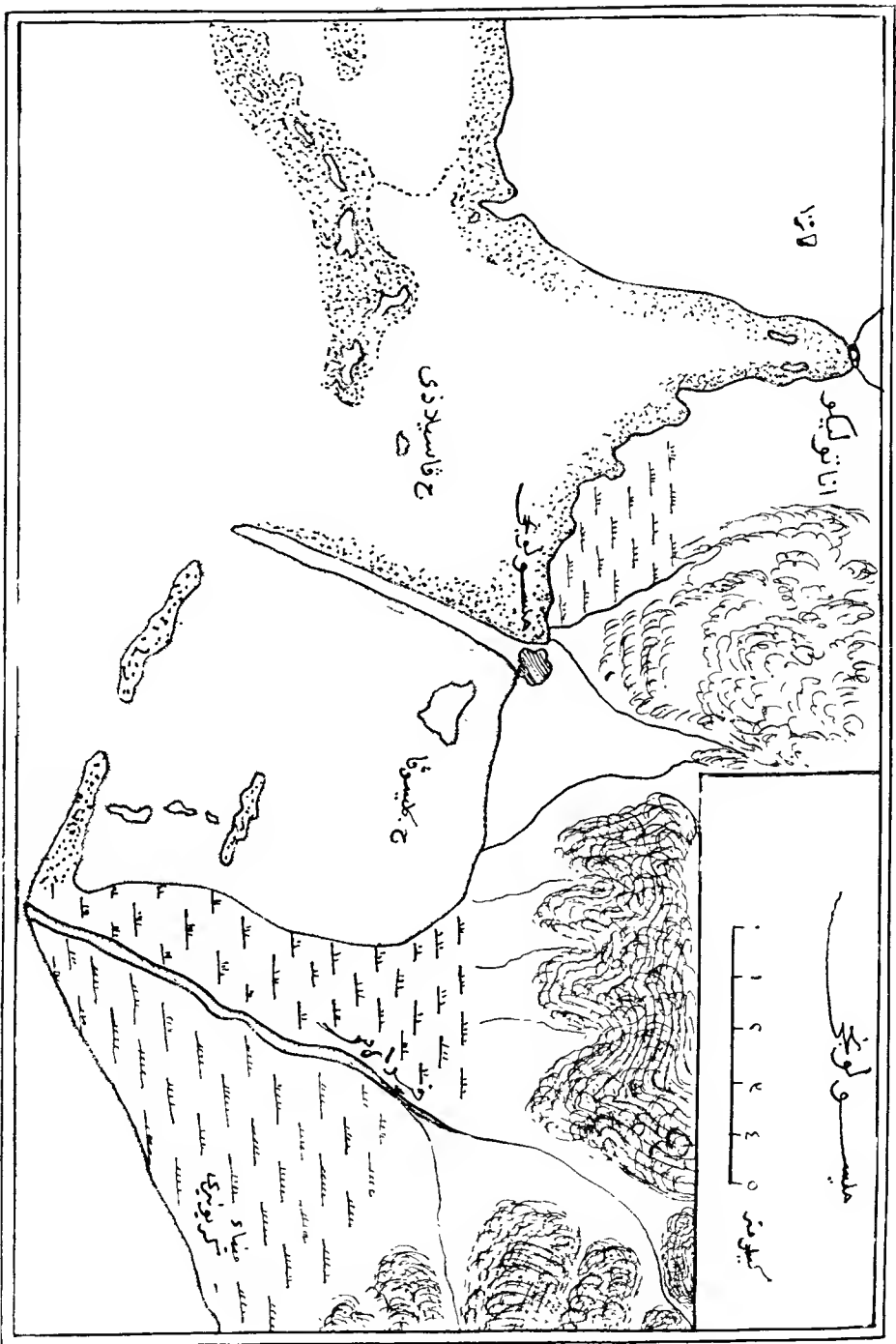
ولقد أبانت لنا هذه المعارك أهمية اتخاذ قوات العدو هدفا للهجوم دون التفكير في الاستيلاء على المواقع لإبراهيم باشا في احتلاله للمورة كان هدفه الأساسى قوات الثوار كما أسلفنا فأنى وجدها دحرها وأوصله ذلك للاستيلاء على البلاد الهامة بل إن الثوار عجزوا عن علمهم بأنه قد اقترب من ” تريبوليتسا “ هربوا منها وذلك لأنهم عرفوا مدى قوته في مهاجمة قواتهم المختلفة التي صادفته .

(٣) أهمية خفة الحركة في الهجوم والمطاردة في الأراضي الجبلية :

وأبرزت لنا هذه المعارك أهمية خفة الحركة في الهجوم والمطاردة في الأراضي الجبلية والوعرة لإبراهيم باشا بتوفيره خفة الحركة لقواته بفضل تنظيماته لها وتأمينه لخطوط مواصلاته واستخدامه للتكتيكات الرائعة أمكنه القيام بذلك العمل الهجومي الدائم ومطاردة فلول الثوار أنى هربوا فنتجح في احتلال كل شبه الجزيرة الجبلية تقريبا في ذلك الوقت القليل .

(٤) أثر الروح المعنوية في القتال :

وتوضح لنا هذه العمليات مدى أثر الروح المعنوية في القتال فالثوار في كل هذه المعارك لم يصمدوا للقوات المصرية المهاجمة لانهايار الروح المعنوية فيهم ... لقد كانت طبيعة الأرض وتعذر طرق المواصلات في الجبال خير معين لهم على عرقلة تقدم القوات المصرية ... بل إن المنافذ المختلفة للهضاب والطرق كانت أفضل أعناق للزجاجات التي تمكنهم من إيقاف تحرك القوات المصرية ولكنهم لم يصمدوا أمام أى هجوم سريع أقدم عليه إبراهيم باشا وذلك لضعف الروح المعنوية فيهم بل ها نحن نراهم أمام ” تريبوليتسا “ يهربون منها ويشعلون فيها النيران .



الحصار هو والأميرال عمر يونس في ١٣ يناير سنة ١٨٢٤ بكيفية ألصقت به العار، إذ تحدته القوات اليونانية واضطرته إلى فك الحصار ولما أيقن السلطان بتردده في الاستيلاء عليها أنفذ له أوامره في كلمتين ”إما ميسو لونيحي وإما رأسك“ فعاود مهاجمتها عام ١٨٢٥ ولكن باءت كل هجماته بالفشل وهنا لم يجد أمامه سوى الاستنجاد بإبراهيم باشا^(١).

مسارعة إبراهيم باشا لنجده :

ولقد وصل استنجاد رشيد باشا هذا إلى إبراهيم باشا في الوقت الذي وصلته الإمدادات من محمد علي باشا فعدل مؤقتا عن مهاجمة ”نويلى“ وسارع لنجدة رشيد باشا لأهمية ”ميسو لونيحي“ إذ أن مصيرها باعتبار أنها عاصمة اليونان الغربية يؤثر ولا شك تأثيرا قاطعا في مصير شبه الجزيرة كلها، هذا إلى أن هذا الثغر على مقربة من الفتحة الشمالية خليج ”ليبانت“ وكانت تصل منه إلى أهل ”سولى“ مهمات القتال الضرورية كما أنها كانت تيسر سبل الاتصال بالبحر المشايعة لليونان في أوربا^(٢).

سار إبراهيم باشا ومعه ١٨ أورطة نظمها من آلاياته الست بلغت قوتها ١٠.٠٠٠ مقاتل و ٥٠٠ فارس إلى ”باتراس“ وعبر الخليج مبحرا إلى ”ميسو لونيحي“ في فبراير عام ١٨٢٦ بعد أن ترك في المورة باقي قواته في حامياتها المختلفة وأسلم القيادة فيها للكولونيل سيف (سليمان باشا) الذي اتخذ ” تريبوليتسا “ مقرا له واشترك إبراهيم باشا مع رشيد باشا في حصار ”ميسو لونيحي“ ولكن ذلك لم يفت في عضد الثوار بل هاجموا المحاصرين لهم واصطنعوا الانسحاب أمامهم فسارعت القوات المصرية كدأبها لمطاردتهم ولكنهم أوقعوهم في منطقة قد بثوا فيها الألغام الأرضية فكبدهم خسائر فادحة . ووقعت بعد ذلك معركة أخرى مماثلة لها خسر فيها المصريون ثلثائة مقاتل^(٣).

(١) كتاب مصر في القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ٦٨٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٨٦ . (٣) نفس المصدر ص ٦٩١ .

خطة إبراهيم باشا للاستيلاء على ميسو لونجى :
عند ذلك بدأ إبراهيم باشا يستكشف الموقع بنفسه وبمعاونة السنيور "رومينى"
الإيطالى ثم قرر أن خير وسيلة للإلزام "ميسو لونجى" على التسليم هى المجاعة فقتر سد
المسالك الموصلة إليها من ناحيتى البر والبحر وهذه المواقع هى : إيتوليكا ، فاسيلادس ،
كليسوفا (أنظر الخريطة رقم ٣) وقد كان القواد الأتراك قد أهملوا احتلال هذه
المنافذ فتمكنت قوات إبراهيم باشا من احتلالها بعد مقاومة شديدة وبذلك شدد
الحصار على الميناء .

سقوط ميسو لونجى :

ولقد أراد إبراهيم باشا كدأبه دواما فى هذه الحملة أن يتفادى أهوال القتال
وسفك الدماء فطلب من المدينة التسليم ولكن أهلها أبوا وأجمعوا أمرهم على المقاومة
حتى النهاية مهما كلفهم ذلك من تضحية وأرسلوا إلى القائد اليونانى "كرايسكاكى"
وكان على مقربة من المدينة بأنهم قد عزموا على الخروج جميعا فى ليلة ٢٢ ابريل
عام ١٨٢٦^(١) وطلبوا إليه أن يهاجم الجيش المصرى من الخلف فى تلك الليلة
كى يشغله بهجومه فلا يفتن لخروجهم فلما أقبل "كرايسكاكى" فى ذلك الموعد كان
إبراهيم باشا له بالمرواد إذ وضع على قمم الجبال فرقة من جيشه لتحول دون تقدم
المدد المنتظر وصوله لتعزيز الحامية المحصورة ومن جهة أخرى لتصد هذه الحامية
إذا خرجت من "ميسو لونجى" فلما خرجت هذه الحامية فى الوقت المعلوم فى هدوء
وسكون مستترين فى جنح الظلام قابلهم الجيش المصرى بنيران حامية حصدت
صفوفهم فارتدوا إلى المدينة فى غير نظام فطاردتهم القوات المصرية حتى دخلت
فى أعقابهم ودحرتهم .

ولما ضاقت السبل بالبقية الباقية من المدافعين اجتمعوا فى مستودع الذخائر
وكان عددهم نحو ألفين ما بين شيوخ وأطفال ونساء وقد اتفقت كلمتهم على إيثار

لقد خبر إبراهيم باشا بنفسه الموقف أمام "ميسو لونجى"، وحاول الاستيلاء عليها بحصارها حسب خطة رشيد باشا، ولكنه سرعان ما أدرك بأن هذه الخطة لن توصله إلى النصر السريع المطلوب، فالحصار الذى كان مضروبا عليها لم يكن بالحصار الحق الذى يجعل هؤلاء المستميتين فى الدفاع أن يستسلموا إذ كانت المؤن والعتاد والذخائر تصلهم، وكانت الأنغام ماثوثة حول معقلهم، بل إنهم حذقوا دروب الخديعة أيضا، فكانوا يهاجمون الوحدات المحاصرة ويتظاهرون أمامها بالانسحاب والانزهاج، فتندفع وراءهم القوات المصرية التى ديدنها المطاردة السريعة لتظهر بهم، ولكنه سرعان ما تجد نفسها وسط حقول الأنغام التى تتمد بالأرض من تحت أقدامهم، وهنا أيقن إبراهيم باشا بأن حل هذا الموقف الشائك فى يده هو، فقام بالاستطلاع الدقيق بنفسه، وسرعان ما لمعت الفكرة الصحيحة فى ذهنه المتوقد بالذكاء، لقد عرف أن مفتاح الموقف فى احتلال "إيتويكا وفاسيلادس وكليسوفا"، وهى المسالك البرية والبحرية التى تذهب بالحصار المضروب من البر ومثلها فى ذلك مثل جزيرة "سفاختريا" فى معركة "نفارين"، فصمم على احتلال هذه المسالك، وبذلك أصبح للحصار المضروب قوة منتجة جعلت القوات المحاصرة فى الداخل تسعى إلى الخروج من معقلها للقتال حيث دارت عليهم الدائرة. ولا شك فى أن نجاح خطة إبراهيم باشا هذا النجاح السريع يرجع إلى تطبيقه الرائع لجل مبادئ الحرب فى هذه المعركة، ولننظر كيف طبق هذه المبادئ.

(١) مبدأ المحافظة على الهدف :

لقد صمم إبراهيم باشا على الاستيلاء على "ميسو لونجى"، عندما استنجد به رشيد باشا فعزف عن التقدم إلى "نوبلى" كى يجعل له هدفا واحدا فلا يجزئ قواته بين هدفين فى آن واحد ولا يعمل فى جهتين فى نفس الوقت وظل إبراهيم باشا محافظا على هدفه هذا لا تصرفه عنه صلابة المدافعين أو خدعهم الكثيرة أو قوات التخليص بتميادة "كرايسكا كى" حتى ظفر بهدفة فى النهاية.

الموت على التسليم فوضعوا البارود وأشعل رئيسهم النار فانفجر ونحر المكان على من فيه وقتلوا جميعا . ولقد تكبد المصريون في فتح المدينة خسائر جسيمة إذ بلغ عدد قتلاهم في المهيمة الأخيرة فقط نحو ألفي قتيل^(١) .

حصار أثينا :

و بعد فتح "ميسولونجي" انفصل الجيش المصرى عن التركى فعاد إبراهيم باشا إلى المورة وقصد الجيش التركى مدينة أثينا لفتحها ولم يكن بها من القوة ما يكفى لصدد هجماته فبادر القائد اليونانى "كرايسكاكى" والكولونيل "فافييه" الفرنسى إلى نجدة المدينة ولكن رشيد باشا أحكم حصارها وما زال يشتد الحصار حتى سلمت في يونيو^(٢) عام ١٨٢٧

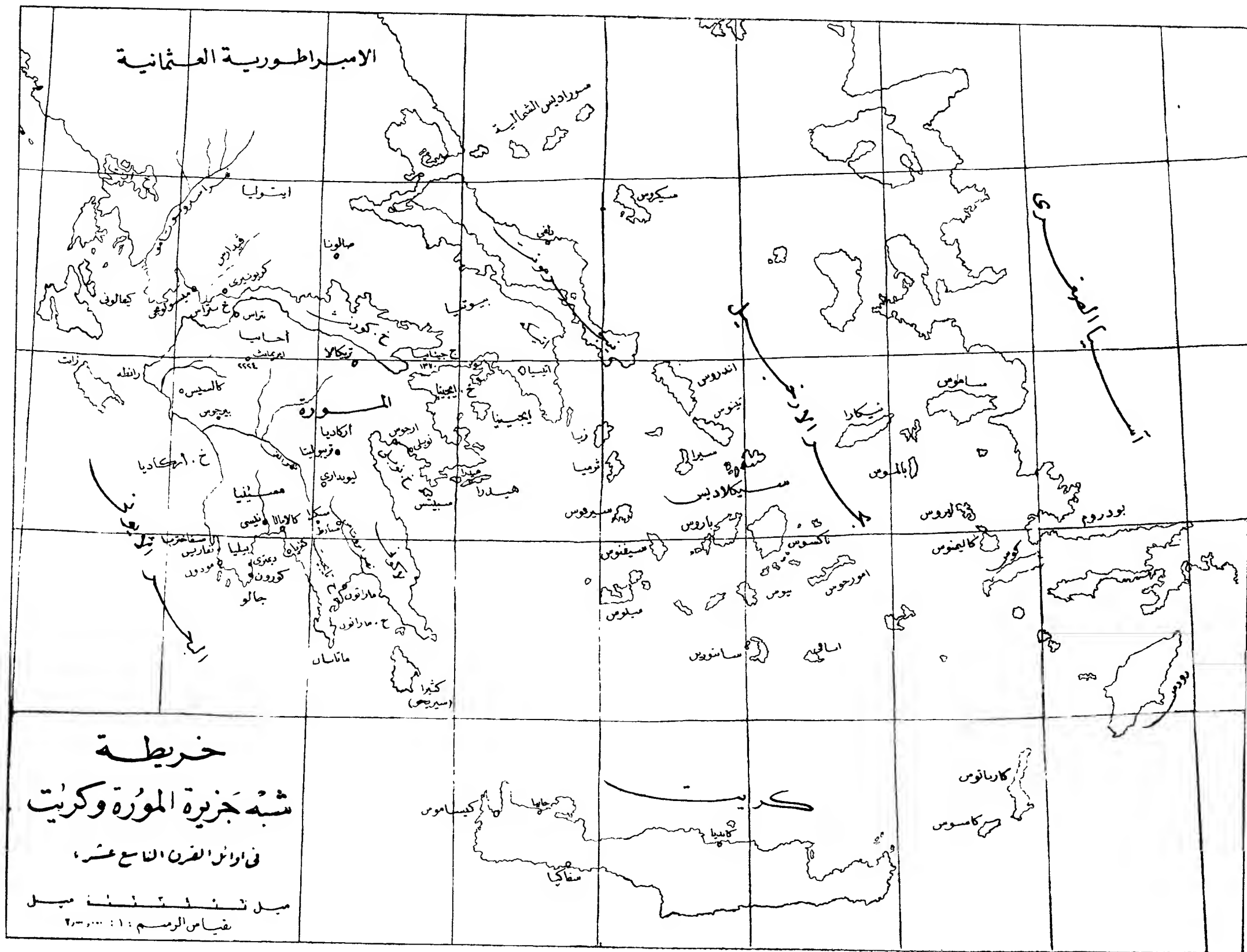
التحليل الفنى لمعركة ميسولونجي

إن أهم ما يسترعى الانتباه فى الاستيلاء على "ميسولونجي" هو صمودها لأكثر من عامين أمام القوات التركية ثم انهيارها أمام قوات إبراهيم باشا فى أقل من ثلاثة أشهر ... وليس مرّد ذلك إلى ضعف القوات التركية بل هو يرجع فى الحقيقة إلى قوة وصلابة مراس المدافعين عن "ميسولونجي" فلقد رأينا العجب العجيب من إصرارهم على المقاومة بل والانتحار عند التسليم وليس أدل على ذلك مما جاء فى خطاب رشيد باشا إلى إبراهيم باشا عندما استنجد به فقد نعمتهم بأنهم سحرة لا يهزمون . وهنا يخطر لنا ذلك السؤال المحير كيف تمكن إبراهيم باشا من إخضاعهم فى تلك الفترة القصيرة؟ والإجابة عليه لا شك وأنها واضحة وسهلة وميسورة إنها تتلخص فى عبقرية القائد ونظرته الفاحصة وتقديره الذى لا يخيب .

(١) كتاب عصر محمد على للراعى بك ص ٢١٢

(٢) نفس المصدر .

(٣) يراجع ذلك الخطاب فى كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوارد جوان ص ١٨٥



(٢) مبدأ حشد القوى :

لقد حشد إبراهيم باشا "ميسولونجى" جميع القوات اللازمة والمتوفرة لديه في ذلك الوقت وقد بلغت نيف وعشرة آلاف مقاتل وذلك كي يظفر بهدفة في أقرب الأوقات دون أن تلاحظه أدنى هزيمة ونقد مكنته هذا الحشد من الصراع الشديد والاستمرار في محاصرة "ميسولونجى" رغم تكبده خسائر كثيرة في ذلك الحصار كما أنه تمكن بفضل هذا الحشد من مواجهة قوات "كرايسكاكى" التي قد أزمعت فك الحصار بمعاونة الثوار المحصورين .

(٣) مبدأ القتال التعرضى :

ولم يركن إبراهيم باشا خلال ذلك الحصار المضروب إلى التزام أى خطة سلبية بل كان يعمل دوما على تحقيق مبدأ القتال التعرضى بمهاجمة قوات الثوار ومطاردتهم رغم تكبده الكثير من الخسائر، هذا إلى أنه في مهاجمته للقوات المتحصنة في "إيتوليكا وفاسيلادس وكليسوفا" واستيلائه عليها أظهر أهمية القتال التعرضى حتى في معارك الحصار الثابتة البطيئة .

(٤) مبدأ المفاجأة :

ولقد فاجأ إبراهيم باشا القوات المحاصرة باستيلائه على المسالك البرية والبحرية بغلغها توقن بقرب هلاكها وأعاد إحكام المفاجأة لها عندما هرعت في الخروج ليلا للتعاون مع قوات "كرايسكاكى" فأذهب بما كانوا يضمرونه من مفاجأة لقواته وطاردتهم حتى ألحق بهم الهزيمة النهائية .

(٥) مبدأ التعاون :

وإن أهم مبدأ حققه إبراهيم باشا في هذه المعركة هو التعاون فبتعاونهم التام مع رشيد باشا أمكنه تشديد الحصار على العدو ، وبتعاون بحريته مع قواته الأرضية أمكنه ضرب الحصار برا وبحرا على الثوار في ميسولونجى مما اضطرهم إلى الخروج للقتال ثم الاندحار والتسليم .

الدروس المستفادة من معركة ميسلوننجي

وأهم الدروس المستفادة التي تطلعنا بها معركة ”ميسلوننجي“ هي :

(١) أهمية الخطة والدقة في تنفيذها :

لقد وقف الأتراك أمام ”ميسلوننجي“ ذلك الوقت الطويل لعقم الخطة التي وضعها رشيد باشا إذ لم تكن خطته محكمة حيث أغفل الاستيلاء على مفتاح الموقف وعندما رسم إبراهيم باشا خطته الحصيفة للحصار التام تمكن بدقة تنفيذها من جعل الثوار يستسلمون في شهور فلائل وهذا يعدّ أروع مثل لأهمية القائد في المعركة إذ هو العقل المدبر الذي يرسم الخطط التي توصل للنجاح .

(٢) أهمية إحباط نوايا العدو للفتاكة :

وتطلعنا هذه المعركة بدرس آخر له قيمته العظمى وهو أهمية توافر المعلومات المستديمة عن العدو والوقوف على نواياه حتى لا تفاجأ قواتنا به وهذا يتضح لنا جليا من يقظة إبراهيم باشا وإحباطه لخطة الثوار عند استنجادهم ”بكراسكا كي“ لقد رغبوا في مفاجأة القوات المصرية ولكن إبراهيم باشا فاجأهم بيقظة هذه القوات واستعدادها فأحبط خططهم وجعلهم يستسلمون .

الموقف العام بعد سقوط ميسلوننجي وأثينا

لقد كانت حالة الثورة اليونانية بعد سقوط ”ميسلوننجي“ و”أثينا“ في منتصف عام ١٨٢٧ تدعو إلى اليأس ، فلم يكن في أيدي الثوار سوى ”توبلي“ في بلاد المورة ، وتركزت قوة الثورة في جزيرة ”هيدرا واسبتريا“ من جزر بحر الأرخيل ، وقد عاث الثوار في البحر فسادا وازدادت فرصتهم .

انتهاء المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة

وبسقوط ”ميسلوننجي“ و”أثينا“ انتهت المرحلة الثانية من مراحل حرب المورة ، وهي كما رأينا كانت المرحلة الهامة في تاريخ هذه الحملة حيث وقعت فيها تلك

لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول إلى شاطئ اليونان وإرسال المدد إلى الجيش المصرى والتركى بها وأسندوا القيادة العامة لأساطيلهم الثلاثة إلى الأميرال الانجليزى "كودرنجتون"^(١).

مقدمات معركة نفارين البحرية :

ووصل إلى ابراهيم باشا المدد الذى كان يعدّه له محمد على باشا بناء على طلبه وكان مكونا من الآلاى العاشر بقيادة أحمد بك وأسلحته المعاونة وبلغت هذه القوة في تعدادها ٤,٦٠٠ مقاتل محملة في أربعين مركب نقل وبرفقتها أسطول مصرى بقيادة محترم بك مكونا من ١٨ سفينة حربية مصرية و ١٦ سفينة تركية و ٤ سفن تونسية و ٦ حراقات، فرست هذه العمارة بميناء "نفارين" في ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ وانضمت إلى أسطول تركى أخر جاء من الآستانة بقيادة الأميرال طاهر باشا وعدده ٢٣ سفينة وتولى ابراهيم باشا القيادة العامة لقوات البر والبحر وأخذ يتأهب لحملة بحرية على جزيرة "هيدرا" وحملة برية ينفذها الى شمالى المورة^(٢).

وساء الحلفاء وصول العمارة المصرية والتركية إلى "نفارين" وإيوائها إلى مكان حصين فتحركت سفنهم وقصدت إلى تلك الميناء لإملاء شروط الحلفاء على ابراهيم باشا . ولقد قبل ابراهيم باشا مبدئيا قرار الهدنة فأوقف حملاته رغم أنه لم يفتنه سوء نية الحلفاء في إطلاق يد الثوار وغل أيدي القوات المصرية وعندما تحقق له انتهاء الثوار لهذه الهدنة وقيامهم بحركات عدائية في خليج "كورنث" واعتزامهم مهاجمة "باتراس" التى يحتلها الجيش المصرى لفت نظر الأميرال "كودرنجتون" كى يوقف هذه الأعمال المنافية للهدنة ولما لم يلق جوابا مقنعا أبحر إلى "باتراس" في عمارة من بعض السفن الحربية وهنا ثارت ثائرة الحلفاء وعدّوا هذا العمل مناقضا للهدنة فالحق الأميرال "كودرنجتون" وأسطوله بعمارة ابراهيم باشا تجاه رأس (ياباس) واضطرها إلى الرجوع إلى "نفارين" حيث ألتم ابراهيم باشا خطة الدفاع بناء عن أوامر والده التى أرسلها إليه .

المعارك الحاسمة التي كادت تقضى على الثورة قضاء مبرماً ، أولاً ما قد بدأ يتلبد في سماء أحداث العواصم الأوربية من سحب منذرة بهبوب رياح عامل جديد ، ألا وهو تحرك الرأى العام الأوربى لمناصرة اليونان ، وهذا هو بدء المرحلة الثالثة من أحداث هذه الحرب .

الفصل السابع

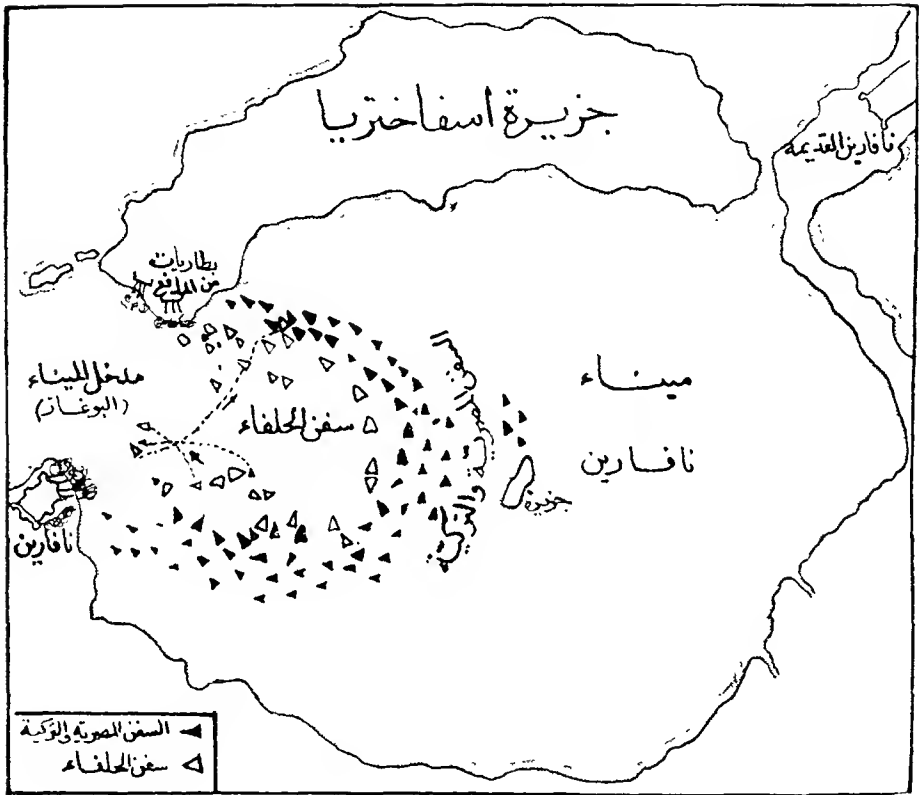
المرحلة الثالثة (يوليو ١٨٢٧ — أكتوبر ١٨٢٨)

معاهدة لوندرة (٦ يوليو ١٨٢٧) :

في غضون المرحلة الثانية من هذه الحرب كانت الدول الأوربية لا تفتأ تتفاوض لإنقاذ الثورة في اليونان وذلك بفضل أعمال الجمعيات اليونانية المنبشة في بعض العواصم الأوروبية والتي كانت كما أسلفنا تحرك الرأى العام الأوربى وتستصرخه للأخذ بناصر اليونان وكان إسقوط "ميسولونجى" والبسالة التي أظهرها أهلها في الدفاع تأثير كبير في ازدياد عطف الأوروبين على الثوار فنشطت المفاوضات بين الدول حتى أسفرت عن إبرام معاهدة (لوندرة) التي اتفقت فيها كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا على التدخل بين تركيا واليونان لتقرير مصير المسألة اليونانية .

ولقد كانت هذه المعاهدة إنقاذاً للثورة اليونانية لأنها أبرمت في الوقت الذي أشرفت فيه الثورة على الاحتضار وكادت تلفظ النفس الأخير وقد تحاذل زعمائها وسرى اليأس إلى نفوس أنصارها فلما أبرمت هذه المعاهدة ابتهج لها اليونانيون ابتهاجاً عظيماً عاودهم الأمل في تحقيق مطالبهم بمعونة الدول الأوربية .

وكان الحلفاء في هذه المعاهدة يعلمون أن تركيا ستصر على رفض طلباتهم الخاصة بوقف القتال تمهيداً للوساطة فاتفقوا على إرسال أساطيلهم إلى مياه اليونان



معركة نفارين البحرية (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧)^(١) :

واضطر إبراهيم باشا إزاء ازدياد حركة الثوار في المورة إلى الزحف بجزء من جيشه داخل المورة لنجدة الحاميات المصرية وأوصى الأميرال محرم بك قائد الأسطول المصرى والأميرال طاهر باشا قائد الأسطول التركى ألا يتحزبا بالأساطيل الدولية المتحالفة لأن العلاقات بين الحلفاء وتركيا ومصر لم تكن قد قطعت ولا أعلنت الحرب بين الفريقين . وبعد أن بارح ”نفارين“ أرسل إليه قواد أساطيل الحلفاء إنذارا يبلغونه فيه أنه قد نقض الهدنة علما بأنه لم يفعل ذلك فهو إنما تعهد بعدم مهاجمة جزيرة ”هيدرا“ ولم يتعهد بالامتناع عن نجدة الحاميات المصرية في المورة كما وأنه كان مقروضا أن يحترم الثوار الهدنة ولكنهم نقضوها ولم يجدوه رسولهم . في ”نفارين“ عندما وصلها فعاد بالرسالة الى الأميرال ”كودرنجتون“ ولم تكن هذه الرسالة إلا ذريعة لإنفاذ الخطة التى اتفق عليها الحلفاء وهى القضاء على أسطول إبراهيم باشا^(٢) .

فتشاور قواد الحلفاء وقرروا فيما بينهم الدخول إلى ميناء نفارين وتدمير الأسطول المصرى والتركى كى يضطر إبراهيم باشا للعودة ثانية وفى صبيحة يوم ١٩ أكتوبر جمع الأميرال ”كودرنجتون“ قباطين الحلفاء على ظهر بارجته آسيا وأصدر إليهم تعليماته فيما يجب عليه عمله عند بدء القتال وأحكم قواد الحلفاء تدابيرهم فى الوقت الذى كان الأميرال محرم بك والأميرال طاهر باشا مطمئنين إلى الموقف وموقنين أن ليس ثمة حرب أو قتال .

وفى الساعة العاشرة من صبيحة ٢٠ أكتوبر بدأت سفن الحلفاء تتأهب لدخول الميناء عند أول إشارة تصدر إليها وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصدر ”كودرنجتون“ أمره إلى أساطيل الحلفاء بالتأهب للقتال وعند تمام الساعة الثانية اقتحمت البوغاز فأرسل الأميرال محرم بك رسولا إلى ”كودرنجتون“ ينبئه بأن يمنع

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٢٠

(٢) سأورد هذه المعركة فى إيجاز تام حيث أنه غير مطلوب شرح المعارك البحرية بالتطويل .

أساطيل الحلفاء من الرسو في "نفارين" ولكن الأميرال الإنجليزي أجاب في لهجة جافة بأنه لم يحى ليتلقى الأوامر بل جاء ليلقى أوامره وسرعان ما اصطفت سفن الحلفاء على شكل نصف دائرة تقريبا مواجهة للسفن المصرية والتركية (انظر خريطة رقم ٤) وقد اقتربت منها حتى أصبح واضحا أنها قد جاءت لتتحداها للقتال .

وابتدأت المعركة في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر واستمرت إلى نحو الساعة الخامسة وانتهت بالقضاء على البحرية المصرية والتركية فقد هلك معظمها نسفا وغرقا وجنحت البقية الباقية على السواحل فأحرق بحارتها أغلبها حتى لا تقع في أيدي الأعداء وبلغ عدد القتلى المصريين والأتراك ٣٠٠٠

وتعدت معركة "نفارين" من المعارك القليلة التي يتمثل فيها الغدر ونقض العهود والمواثيق فإنها وقعت من غير أن تعلن حرب بين تركيا والدول المتحالفة وأخذ الحلفاء السفن المصرية والتركية غيلة من غير أن تنذرها أو تستعد للقتال وكل ذلك مناف لأبسط قواعد الحروب المنفق عليها بين الدول المتمدينة .

موقف إبراهيم باشا بعد معركة نفارين :

لم يشهد إبراهيم باشا معركة نفارين لأنه كما أسلفنا كان قد تقدم إلى داخل بلاد المورة لنجدة الحاميات المصرية بها فلما بلغه نبأ تدمير الأسطول المصرى عاد إلى "نفارين" وشاهد آثار المعركة فأمر بإعداد بعض السفن التي نجت من الكارثة وتعويم بعض التي غرقت وأنفذها إلى الإسكندرية ثم رأى أن يلزم خطة للدفاع فأخلى معظم مدن المورة وامتنع بمعظم جنوده في مينائى "كورون ومودون" حتى تصله أوامر والده .

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نفارين :

ولقد اختلفت وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة "نفارين" هذه فيما يخص بحرب المورة فأما تركيا فقد أصرت على رفض مطالب الدول المتحالفة وطالبها بتعويض عما لحق أسطولها من الدمار ووقفت موقف الصلابة والعناد بإزاء الحلفاء

عودة ابراهيم باشا ورجاله :

وعندما أبلغ ابراهيم باشا وهو فى اليونان هذه الشروط سخط كثيرا لرؤيته جهود جيوشه قد ضاعت فضلا عن الخسائر التى تكبدها وخاصة إغراق الأسطول المصرى ولكنه اضطر للإذعان فأصدر أوامره بإخلاء الممدن اليونانية والسير إلى الموانئ حيث أقفلت بهم السفن إلى مصر فى أكتوبر عام ١٨٢٨

انتهاء المرحلة الثالثة :

وبذلك انتهت المرحلة الثالثة من حرب المورة وكريت وقد امتازت هذه المرحلة بالتواء الأهداف السياسية فيها وبعدم قيام حملات برية كثيرة إذ طغت معركة "نفارين" البحرية على كل ماعداها من أحداث. والحق إن هذه المعركة وإن قادها الأسطول البريطانى والفرنسى فإنها كانت فوزا لا أساس له من السياسة القوية والنظر الصادق الحكيم لأنه أفضى بالدولة العثمانية إلى الوقوع بين براثن روسيا بعد أن جردت من أهم الوسائل لديها للذود عن حماها فى البحر الأسود وبحر الأرخبيل وبحر سورييا ولشدت مأسف الانجليز لوقوع هذه النكبة التى وصفها بعض رجالهم بالطامة الكبرى وقد وصف أحد كبار رجال الحكومة الفرنسية هذا الانتقام الذى أنزلته الأساطيل الأوروبية الثلاثة بالمصريين والعثمانيين بأنه تهوس وطنى انقادت لعوامله اعتبارا ومن غير روية كل من الدولتين الفرنسية والانجليزية لخدمة المصالح الروسية فقط ولقد أعرب إبراهيم باشا إلى قادة هذه الأساطيل عن سخطه على هذا التصرف فكان جوابهم له أن نشوب المعركة كان نتيجة سوء تفاهم بسيط وأن حالة الحرب لم تكن موجودة بين الفريقين وأن الأوربيين ما برحوا^(١) أصدقاء أمناء للعثمانيين والمصريين .

فأعلنت روسيا الحرب عليها واحتلت "أدرنة" وأرسلت فرنسا إلى بلاد اليونان جيشا مؤلفا من ١٨,٠٠٠ جندي بقيادة الجنرال "ميزون" لإجلاء المصريين والأتراك عنها ولقد انتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنة (١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وفيها وافقت تركيا على قرارات الدول في معاهدة لوندرة فاعترفت باستقلال اليونان استقلالا داخليا وألا يكون لها عليها سوى حق السيادة الاسمية .

وأما مصر فقد رأى محمد علي باشا بثاقب فكره أنها ان تجنئ شيئا من مواصلة القتال بعد فقدتها لأسطولها في معركة "نفارين" وانقطاع المواصلات البحرية مع جيوشها في المورة واعتقد أنه من الحكمة ألا يجعل سياسة مصر مقيدة بسياسة تركيا وأن يتفق مع الحلفاء .

الاتفاق بين مصر والحلفاء على إخلاء الجيش المصرى لبلاد المورة :
ولقد عقد الاتفاق في أغسطس عام ١٨٢٨ على وقف القتال وجلاء الجيش المصرى عن بلاد المورة بالشروط الآتية :

- (١) يتعهد محمد علي باشا بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم في مصر .
- (٢) يتعهد الأدميرال الانجليزى بإرجاع الأسرى المصريين وإعادة السفن المصرية التى أسرت أثناء القتال .
- (٣) أن تخرى الجنود المصرية المورة وينقلهم محمد علي على سفنه .
- (٤ ، ٥) تقوم بحراستها ذهابا وإيابا سفن حربية انجليزية وفرنسية .
- (٦) ألا يكره اليونانيين المقيمون بمصر على الرحيل عنها ولا يجبرون على البقاء فيها وكذلك يسمح لمن يشاء منهم أن يصحبوا الجيش المصرى في عودته .
- (٧) يجوز لإبراهيم باشا أن يترك في المورة عددا من الجند لا يزيد على ألف ومائتين للمحافظة على "مودون" و "كورون" و "نفارين" و "باتراس" و "كستل توريذة" أما المواقع الأخرى فتخرى فوراً^(١) .

- (٢) اكتسب الجيش المصرى فى تلك المواقع مرانا على الكفاح وممارسة لفنون الحرب وخططها وأساليبها الحديثة .
- (٣) كانت هذه الحرب خيرا إعلان عن قوة جيش مصر وحسن نظامه وكفاءة قواده وشجاعة جنوده .
- (٤) ظهر أن الجيش المصرى أرفع شأننا وأشد بأسا من الجيش التركى فكان لهذه الخبرة أثرها فى توطيد دعائم الدولة المصرية الفتية وإعلاء شأنها حيال تركيا .
- (٥) اكتسبت مصر مركزا دوليا ممتازا لأن دول أوروبا فاوضت محمد على باشا رأسا دون وساطة تركيا وأرسلت إليه الحكومة الإنجليزية تبدي شديد أسفها على ما لحق الأسطول المصرى فى واقعة ” نقارين ” وتظهر رغبتها فى جعل علاقتها به علاقة ودية بل وفاوضته فى أن تبقى على الحياد إذا نشب القتال بين تركيا ومصر .

استقلال مصر :

ولا شك فى أن أكبر مغم غنمته مصر من هذه الحرب هو أنها صيرتها دولة مستقلة فعلا عن تركيا وأهم مظهر لذلك هو عقد دول الحلفاء الثلاث اتفاق أغسطس ١٨٢٨ رأسا مع مصر وقد وقع هذا الاتفاق بوغوص بك وزير خارجية مصر وهذه أول وثيقة سياسية أبرمها وزير خارجية مصر مع دولة أجنبية فى عصر محمد على^(١) .

(١) نفس المصدر ص ٢٢٩

الخلاصة

نتائج الحرب اليونانية

خسائر مصر في هذه الحملة :

لقد عاد الجيش المصرى من بلاد المورة في أكتوبر عام ١٨٢٨ وقد أنهكته الحروب والأمراض وتكدت مصر في هذه الحملة متاعب وضحايا هائلة ونفقات جسيمة وحسبنا أن نعرف أن الجيش الذى جردته في حرب اليونان بلغ اثنين وأربعون ألفا خسرت منه ثلاثين ألفا وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥ ألف جنيه وفقدت أسطولها الحربى في واقعة "نفارين" لندرك أن خسائرها في هذه الحملة كانت فادحة وتضحياتها بالغة^(١) .

ما كسبته مصر من هذه الحملة :

(١) الكسب المادى :

لم تنل مصر من الحرب اليونانية من الوجهة المادية أى من وجهة التوسع والفتح شيئا سوى ضم جزيرة "كريت" إليها إذ قد عهد السلطان محمود إلى محمد على باشا ولاية تلك الجزيرة مكافأة له على خدماته في حرب المورة .

(ب) الكسب المعنوى :

أما من الوجهة المعنوية فقد كسبت منزلة كبيرة تتلخص فيما يلى :

(١) ارتفع شأن مصر في نظر الدول الأوروبية لأن جيشها قد برهن على كفاءته وأثبت أنه يضارع أرق الجيوش الأوروبية في أول حرب أوروبية خاض غمارها .

(١) كتاب عصر محمد على للرافعى بك ص ٢٢٧

- ٢١ — صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي ... سمو الأمير عمر طوسون
- ٢٢ — كتاب تاريخ مصر من الفتح العثماني ... عمر الاسكندري وسليم حسن
- ٢٣ — كتاب مصر من عهد المماليك الى نهاية
حكم اسماعيل جورج يانج
- ٢٤ — كتاب تاريخ مصر وحالها في الوقت الحاضر
١٨٢٤ ياقس
- ٢٥ — كتاب حروب محمد علي سيد فوج
- ٢٦ — مقالات الدكتور محمد بك رفعت بمجلة الكتائب المصرية
- ٢٧ — رسائل محمد علي
- ٢٨ — كتاب الاستراتيجية الألمانية نيام
- ٢٩ — كتاب الاستراتيجية البريطانية ف . موريس
- ٣٠ — كتاب تاريخ العالم العسكري ميتشل
- ٣١ — كتاب عمليات النصر جينجاند
- ٣٢ — كتاب الاستراتيجية كما استخدمت في الحرب
العالمية الثانية بورن
- ٣٣ — كتاب ذكريات عن اليونان لوفرنى
- ٣٤ — كتاب فن الحرب على الأرض بورن

المراجع الهامة التي استخدمت في هذا البحث

- ١ — كتاب مؤسس مصر الحديثة دودويل
- ٢ — كتاب التاريخ العسكرى لمحمد على وأبنائه للجنرال فيجان
- ٣ — كتاب عصر محمد على عبد الرحمن الرافعى بك
- ٤ — كتاب مصر فى القرن التاسع عشر ادوار جوان
- ٥ — كتاب إبراهيم مصر كريتس
- ٦ — كتاب إبراهيم باشا لكريتس ترجمة محمد بدران
- ٧ — كتاب الامبراطورية العثمانية ميلر
- ٨ — كتاب التيارات الرئيسية للتاريخ الأوروبى هيرنشو
- ٩ — كتاب نفارين دوين
- ١٠ — كتاب تاريخ مصر فى حكم محمد على مانجان
- ١١ — كتاب مصر الحديثة فولابل
- ١٢ — كتاب محمد على كريم ثابت بك
- ١٣ — كتاب الامبراطورية المصرية الدكتور محمد صبرى
- ١٤ — كتاب الهيلينية ومصر الحديثة اثنازى ج . بولتيس
- ١٥ — كتاب الجيش المصرى فى عهد محمد على عبد الرحمن زكى
- ١٦ — كتاب تاريخ اليونان السياسى دريو
- ١٧ — كتاب حملة كريت والمورة دريو
- ١٨ — كتاب سوريا ومصر ج ٢ باركر
- ١٩ — البطل الفاتح ابراهيم باشا لداود بركات
- ٢٠ — أعلام الجيش والبحرية فى مصر أثناء
القرن التاسع عشر عبد الرحمن زكى

حملة الشام الأولى والثانية

(١٨٣٩ - ١٨٣١)

للجڤائى عبد الرحمن زكى

عضو الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

مقدمة

لا يتسع المجال لكآبة مقدمة فى فضل التاريخ الحربى المصرى على التربية القومية ، فقد أهملت دراسته إهمالا شائئا ، ولم تنسج فصوله بعد باللغة العربية .

ولولا بضعة أسطر فى كتب التاريخ المصرى العام عن فتوح محمد على فى بلاد المشرق الوسيط ، لما نالت هذه الصفحات النواصع من تاريخنا القومى أية عناية - رغما عن أنها كانت موضوع بحث ودراسة الكثرين من المؤرخين الأوروبين ، آخرهم الجنرال فيجان الذى وضع كآبين عريضين فى فتوح محمد على البرية والبحرية ، منذ اثنى عشر عاما .

وأخيرا واتت الفرصة الذهبية - وهى الاحتفاء بمرور مائة عام على انقضاء البطل ابراهيم باشا - أب الجيش وصدىق رجاله - فكانت أن اهتمت رئاسة الجيش المصرى والجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، بتوجيه ضباط الجيش الى الكآبة فى موضوع حروب ابراهيم وبحثها بحثا فنيا عسكريا ، على ضوء ما تعلموه فى معاهد الحرب .



ولقد حاولنا أن نتجنب الطريقة الجافة في كتابة التاريخ الحربى بالاقصرار على وصف المعارك ، وسير الجنود ، وذكر أعداد القتلى والجرحى وما إليها ، أو المغالاة في وصف الانتصارات بأسلوب أخاذ ، بعيدين عن روح النقد السليم ، لكننا تناولنا الموضوع في آفاقه الواسعة ، معنيين بالأفق السياسى . أفليست الحرب متممة لأعمال السياسة والسياسيين كما قال كلوسويتز وغيره ، وأوضحنا دوافع محمد على الحقيقية للحرب الشامية ، معتمدين على الوثائق التاريخية أو الخطابات المتبادلة أو التصريحات الرسمية ، وتناولنا المناخى الاقتصادية التى أحاطت بمصر والموارد المالية ، التى بفضلها حافظ محمد على على ملكه وكرامته ، وموارده البشرية من رجال هياهم قادة الجيش للقتال ، فضلا عن قوة التنظيم والإدارة التى اتصف بها رجالان من طراز محمد على وإبراهيم ، ثم عرجنا على وصف الجيشين المتقاتلين بعدما انتهينا من وصف الأحوال المحيطة بالدولتين ، ولم نهمل وصف طبيعة الأرضى التى قامت عليها المعارك ، فالأرض تسيطر على شكل العملية التى يتبعها القائد لاستحواذه على النصر .

وحاولنا — قدر استطاعتنا — أن نزود الموضوع بالخارطات الضرورية التى تبين ملامح المعارك ، كما أثبتنا فى نهايته ثبنا بالمراجع التى أفدنا منها .

ونسأل الله أن نكون موفقين فى بسط هذا الموضوع ، كما نساهم بلبنة متواضعة فى تاريخ مصر الحربى ، وهى أمنية سوف تتحقق بإذن الله بفضل جلالة الملك المعظم — الفاروق — القائد الأعلى حفظه الله .

محتويات البحث

مقدمة عامة :

(١) سياسة محمد على العسكرية :

آلة الفتح — سياسته الاقتصادية — الهدف — الشرق أم الغرب .

(٢) دوافع الحرب بين مصر وتركيا (١٨٣١ — ١٨٣٢) :

الدوافع الحقيقية لحرب الشام الأولى :

نيات الباب العالي السيئة حيال مصر — استقلال مصر — مصر لا تنفى
باحتياجات الدول الناهضة — مصر والشام وحدة طبيعية وجغرافية .

(٣) حملة الشام الأولى (الجولة الأولى) :

الجيش المصرى فى عام ١٨٣١ — الخطة العامة — وصف ميادين الحرب
(الشام وفلسطين) — سير الحملة — الترتيبات الإدارية — معارك حصار
عكا — معركة الزراعة — أهمية موقع بعلبك — عود الى عكا — أوضاع
القوات فى الاقتحام .

(٤) معركة حمص (الجولة الثانية) :

ساحة الحركات — معركة حمص — أوضاع الجيش التركى والمصرى —
حركات الجيش المصرى — تقدم عمليات الجيشين .

(٥) معركة بيلان (الجولة الرابعة) :

مواقع الجيش التركى الدفاعية — خطة الجيش المصرى — المعركة — بعد
معركة بيلان .

(٦) معركة قونية (الجولة الرابعة) :

الجيش العثمانى — الجيش المصرى — الى قونية — ١٧ نوفمبر — عودة
الى الجيش التركى — المصادمات الأولى — معركة قونية — الجيش المصرى
فى تشكيل القتال — سياسة التردد — الى أين ؟ — القوات المصرية
فى فبراير ١٨٣٣

سياسة محمد على العسكرية

لم تكن القوة ، في نهج محمد على ، إلا وسيلة لا غاية . لم تكن إلا آلة العيش الكريم ، والحياة الحرة . فقد كان بطبعه وطبيعته كارها لسفك الدماء ، مؤثرا للاعتدال ، لا يضع سيفه حيث يكفيه سوطه ، ولا سوطه حيث يكفيه لسانه .

وفي هذا المعنى يقول رفاعة الطهطاوى عن حروب محمد على إنها ”لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود ، إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضائه لملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود“ .

كان قبالة محمد على ، بعد ترتيب نظام داره (ملكه) وتنظيم شئون ولايته ، أن يتطلع بأفقه الواسع إلى الميدان الفسيح الأرجاء المحيط به . رأى البحار العربية وسواحلها أجزاء أساسية من العالم العثماني ، أهمها السلاطين إهمالا مشينا ، وهى شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، تصلبت ولا بد أن يجرى فيها الدم الجديد . وخلف تلك السواحل ، فى أفريقية ، أجزاء من دار الإسلام مشتتة ، فارة الحياة . فسعى فى السنوات الأولى من حكمه لينشئ صلات بينه وبين السلطات البريطانية فى الهند . ثم ساعد الباب العالى على إنحمار ثورة الوهابيين ، فى بلاد العرب ، ونجداً ، واليمن . ثم فتح السودان ، وضم أوصاله إلى أمه مصر . وعاون العثمانيين ضد اليونانيين فى ثورتهم ، وانتصر ابنه إبراهيم عليهم فى عدة معارك ، وفقد أسطوله فى سبيل مرضاة السلطان . واولا تدخل الدول لظلت اليونان ولاية عثمانية . وأخضع محمد على جزيرة كريت وما حولها من الجزائر الصغرى .^(١)

ولقد سجل محمد على هذه الفعال ، بل نلقاه قد اعترف بما يجيش فى صدره من آمال فى حديثه مع الفرنسي بوالكميت :

(١) محمد شفيق غربال بك — محمد على الكبير . من سلسلة أعلام الاسلام .

(٧) هدنة مسلحة بين حريين (١٨٣٣ — ١٨٣٩) :

اتفاقية كوتاهية — الإدارة المصرية في الولايات — ثورة فلسطين — ثورة
الدروز في حوران — الدولة العثمانية في ١٨٣٩

(٨) معركة نزيب (الجولة الخامسة) :

الجيش العثماني في عام ١٨٣٩ — الجيش المصري بعد صلح كوتاهية —
الجيش المصري في معركة نزيب — الحوادث الممهدة لمعركة نزيب -- معركة
نزيب — أزمة دقيقة — تحليل معركة نزيب ونقدها .

(٩) خاتمة النصر (الجولة الأخيرة) :

خطة ابراهيم في آسيا الصغرى — موقف الجيش المصري في آخر يوليو —
أوربا ضد محمد علي — اتفاقية لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠ — الاعتداء على
الشام وتهديد الاسكندرية — العودة الى الوطن .

ابراهيم القائد .

مراجع الموضوع .

أما حير وصف لإبراهيم خال من الغلو أو الإسراف هو قول الماريشال الفرنسي فييجان عنه :

“Vainqueur, L'histoire doit légitiment lui laisser les lauriers de la victoire”.

آلة الفتح :

استعان محمد على بالقوة للوصول إلى مراميه . فثله وهو الرأس المفكر ما كان ليغيب عنه هذه العقيدة التي ما زالت إلى اليوم مبتغى القادة في تحقيق أهدافهم ، أو التوصل إلى أطباعهم . فمن يستطيع أن يمارى في أن القوة أهم وسائل السلطان والسيادة .

إن الحديث عن الجيش والأسطول ، في عهد محمد على ، يتطلب عشرات المجلدات ، وليس بوسعنا ، ونحن نتناول فتوح إبراهيم باشا في الشام ، أن نغفل هذه الناحية ، وهى بمثابة القاعدة ولا سيما ونحن في مناسبة الحديث عن الخطوط الرئيسية لسياسة محمد على العسكرية .

فعلى الرغم من قلة عدد سكان مصر، في أوائل القرن التاسع عشر، وما أورثها حكم الأتراك والمماليك من الفقر والجهل، وما قاوم به الترك والشراسة مشروعاته لإنشاء جيش، استطاع محمد على أن ينشئ جيشاً حديثاً وأسطولاً قوياً، وأن يدمهما بكل ما يحتاجان إليه مما يصنع في قلب البلاد، ولولا ذلك لعجزت البلاد عن القيام بأعباء الكفاح الحربى الطويل ، الذى اضطر إليه محمد على في البلدان المجاورة .^(١)

وفى هذا المضمار استعان محمد على ببعثة عسكرية فرنسية، استقدم ضباطها من فرنسا، وآخرين من اسبانيا وإيطاليا . كما عني بإرسال البعث العسكرية المتباينة إلى المعاهد الحربية .

(١) الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير لليوزباشى عبد الرحمن زكى (١٩٣٩) .

”لقد وضعت يدي على كل شيء، ولكن لكي أجعل كل شيء مثمرا، والمسألة مسألة إنتاج، وإذا لم أقم به أنا، فمن يقوم به غيري ... أين الذي كان يقدم الأموال اللازمة، ويشير بالخطط التي تنتهج، والمزروعات التي تزرع. أين الذي كان يتبناها أن يأخذ الناس بطلب العلوم والمعارف، التي ترتب عليها تفوق أوروبا. أعتقد أن أحدا في هذه المملكة خطر له أن يجلب القطن والحرير والتوت. لا أحد. كان لا مناص لي أن أقود هذه البلاد قيادة الأطفال. وأن تركها لنفسها يسلمها للفوضى التي أخرجتها منها ...“.

أنشأ محمد علي قوات مصر الدفاعية — ولأجلها نهض بجميع مرافق البلاد : من تعليم وصحة وتجارة وصناعة وزراعة . ولما ندعى بأنه وصل بقوات الدفاع، في عام ١٨٣٢ إلى درجة الكمال — كلا، فقد كانت للجيش المحمدي العلوي مزاياه وعيوبه . تدرّب أفراد في خلال العشرين عاما، على حروب المورة، وكريت، وبلاد العرب، والسودان . بغاهدوا وناضلوا، واكتسبوا ميزات شتى . وكان قادته بين بين، أي عاديين، خبروا القيادات الصغرى . أما الجنود فلم يكونوا آلات كما كانوا في حروبهم السابقة، بل أصبحوا — بعد ممارستهم فن القتال في ميادين العراك التي خاضوها — نخورين بما أحرزوه من نصر . ثققتهم بقائدهم أو قادتهم كبيرة لاحد لها . مياين إلى النظام ويخشون الخروج عليه، خوفا من بطش أبيهم وقائدهم إبراهيم — وهذا إبراهيم بطلمهم ورمز مجدهم، في يده مقاليد القيادة العليا، رأس عسكرية أثبتت أن صاحبها من طراز القادة الجبار، تزينا الشجاعة والجرأة، وكذلك البطش، فضلا عن اتصال روي بأولاده الجند الذين ارتبط بحبهم وتقديرهم كلما أتقنوا واجبه .

وكان سليمان بك، رئيس أركان حرب إبراهيم، نابغة في أمور التكتيك والاستراتيجية، يتحلى ببديهة نشطة، وروح وثابة، ونشاط ديناميكي . متفاهم مائة في المائة مع قائده وصديقه وتلميذه إبراهيم . تبادل الاثنان المحبة والاحترام .

سياسته الاقتصادية :

اعتمد رأس الأسرة العلوية على مبدأ الأرض للحاكم... لحسن طرائق الزراعة ، وراقب عمل الفلاح وزوده بالنصائح ، بل وأمدّه بآلات ، وحفر له الترع والمصارف — كما أدخل المحصولات الجديدة كالذخان والنييلة والقطن والحبر وزراعة الأشجار . فضلا عن إدخاله مساحات كبيرة من أراضي الصحراء وأصلحها للزراعة ... وبذا استطاع هذا الموفق أن يبيع المحصولات المصرية في الأسواق الأوروبية . فأحرز ربحا وافرا سهل له مواصلة إصلاحاته الكثيرة بدون ضيق أو عناء .

وكما أن محمد على صار المزارع الوحيد^(١) أضحي التاجر الوحيد، ثم الصانع الوحيد، أى أنه احتكر اقتصاديات البلاد، أو بعبارة حديثة أسسمها ليضبط موارد البلاد بيد مدبرة، ولينفق منها ما شاءت إرادته، كما يقتضيه الصالح الوطني .

وكانت الضرائب موردا هاما لزيادة الدخل . وكانت منها ضريبة الأرض (الميرى) وضريبة ” فردة الروس “ التي فرضها على كل فرد مصري بلغ سنّ الثانية عشرة ، وتفاوت بحسب ثروة الرجل . فكانت تتراوح بين ٥٠٠ قرش و ١٥٥ قرشا في السنة — هذا فضلا عن عوائد الجمارك والذبح والسفن .

وتسنى لمحمد على ، بتشجيعه الصناعات ، أن يستغنى تدريجا عن الواردات والبضائع الأجنبية ، بحمايته تجارته وصناعته، ولولا ذلك لما تمّ لها أن ينهض بقوات مصر الدفاعية وجعلها تعتمد على موارد البلاد، على قدر الإمكان .

ومما يذكر أنه لم يتوفر المال لمحمد على، في بدءا الأمر، لأن أبواب الإصلاح كانت مفتوحة على مصراعها ، فضلا عن مطالبة السلطان بالتمجيدات العسكرية

(١) ليس المقصود أن محمدا عليا كان يضع يده على جل محصول الفلاح ، بل كانت الحكومة تترك

له كيانها من المحصول ليبيعه بحرية .

وأنشأ مدارس شتى للتعليم العسكرى، وقسمه إلى أنواع : منها مدرسة للدفعية وللهندسين ومدرسة للفرسان وأخرى لأركان الحرب ومثلها للمشاة وواحدة للموسيقى ، فضلا عن المشافي ومدرسة للطب .

ولما كان إنشاء جيش قوى يتطلب أن تكون فى البلاد كل حاجاته من السلاح والذخيرة والمؤونة والأدوات والملابس وما إلى ذلك — فقد أقام هذا العاهل مصانع السلاح فى مصر، فأنشأ فى ترسانة القاعة مصانع لصناعة الأسلحة وصب المدافع من أنواع شتى . كما شاد معامل للبارود فى جزيرة الروضة والبدرشين والفيوم... وأنشأ مصانع للغزل والنسيج والبطاطين ليمتد الجيش والشعب بحاجاتهم ومصانع للبال والطرايش وسبك الحديد وطرق ألواح النحاس وديغ الجلود وشيد الحصون والقلاع ، على ساحل مصر ، لأغراض الدفاع ، وأمدّها بالمدافع والشكّات والورش .

أنشأ محمد على كل هذا ، حتى صارت البلاد كلها تعمل للجيش ، فى بابى الزراعة والصناعة ، وما يتعين إبرازه — فى هذا السياق — إنه استطاع أن ينظم جيوشا كبيرة وأسطولا ضخما محاربا ، وأن يقيم جل هذه المصانع والمعاهد ، لتدريب الجيش وتخرج رجاله وتغذيته بمطالبه جميعا ، وأن يستمر على ذلك زمنا طويلا ، ويخوض حروبا عدّة ، معتمدا على مرافق البلاد وقدرتها الاقتصادية دون سواها . ومن غير أن يقترض قرشا واحدا من الخارج — وهذه وحدها حسنة تدعو إلى تجميل ذكرى هذا الرجل ، فى كل آونة . ولولا ذلك لكانت منشآته الضخمة الواسعة النطاق نكبة على الأمة

ولا نستمرئ الكلام عن تنظيم الجيش ، ومدارسه ، ومصانعه ، وبعثاته إلى الخارج . وأساسه وما إليها مما خلقه محمد على فى مصر خلقا . فقد كتب فى هذا الكثيرون ، وسيتبدى من حديثنا عن الحملات الكثير من التفاصيل الفنية التى تكمل استجلاء هذه المناهى .. .

عندئذ بدأ لا يرحب بطلبات الباب العالي للنجادات العسكرية في حربه ضد روسيا أو في البلقان ، مكتفيا بإرسال إعانة مالية . فما كان من السلطان إلا أن اشتد حنقه على واليه في مصر ، وراح يوقع بين محمد علي وابنه ابراهيم .

ونرى محمدا عليا ، بعد معركة نفارين ، يعتد نفسه لما عسى أن يحصل في المستقبل . فلما استقر جنود حملة المورة بمصر ، شرع ابراهيم باشا يهيئ عقول الضباط لاستقبال السياسة الجديدة مع الباب العالي . ومثل هذه السياسة تتجلى في الخطبة التالية ، اتى ألقاها خلال وليمة للضباط :

” ما ذا استفدنا أنا وأتم من السلطان . ألسنا في الحقيقة كلنا أولاد محمد علي الذى ربانا وعلمنا . ألم نأكل جميعا من خيره . إن مصر حق لمحمد علي . حق اكتسبه بالسيف ولا نعرف لنا ملوكا غيره .^(١)

الشرق أم الغرب :

ولم تكد الجنود المصرية ترد إلى أوطانها بعد معارك الروم حتى يقدم دورقي مندوب فرنسا في مصر إلى محمد علي مشروعا يتعاون فيه الباشا مع فرنسا لفتح الجزائر وتونس وطرابلس ، وإخضاع شمال إفريقيا لهما . وامتدت الأحاديث بين الرجلين شهورا — واشترط محمد علي طائفة من الشروط الهامة في صدرها تقديم سفن حربية ومدفعية ثقيلة وتمويل الحملة وغيرها وقبلت فرنسا غالبية الاقتراحات ولكن محمدا عليا وازن القيم الاستراتيجية لهذا القطاع من شمال إفريقيا وتلك التي للشام والعراق . وتبدت له أيضا ثمرات النصر في الحالتين .

وأخيرا اعتمد على نفسه ، وعلى جيشه ، وعلى الله أولا ، وأهمل نهائيا مشروع الجزائر . وهل بعد ملك الشام شيئا آخر . إن امتلاكها يحجمه ضد عدوان السلطان ،

المستمرة . فلم تنعم مصر بحالة سلم طويلة المدى ، في ظل حكم محمد علي . ولم يكد يقضى الأعوام الخمسة الأولى (١٨٠٥ — ١٠) في التعرّف إلى حاجيات مصر وما يستدعيه التنظيم الجديد للدار ، حتى التجأ إليه السلطان يطلب نجدة في حرب الوهابيين (١٨١١ — ١٨١٨) . ثم شغل في حروب السودان ودارفور (١٨١٨ — ١٨٢٠) . وعقب ثلاثة أعوام طالبه السلطان بنجدة في حملة المورة القاسية (١٨٢٢ — ١٨٢٨) فصرف كل دخله بوجه التقريب على إعداد الأسطول والجيش والعتاد . وفي عام ١٨٣٠ ظهرت بوادر سوء التفاهم بين محمد علي وعبد الله الجزائر ، ونشبت الحرب بينهما سنة ١٨٣١ ثم أعلن السلطان الحرب عليه (١٨٣٢ — ١٨٣٣) .

أما المدة بين ١٨٣٣ و ١٨٣٩ فكانت هدنة مسلحة أعد نفسه لحرب كبيرة حتى لا يؤخذ على غرة^(١) . وهكذا استنزفت الحروب معظم ما كان يحنيه محمد علي من موارد الدولة إبان السلم .

المهدف :

والآن ، وقد انتهى محمد علي باشا من وضع أسس دولته ، وخط الخطوط الرئيسية لسياسته وأهدافه التي هيأها نصب عينيه ، ننسل إلى توضيح هذه الأهداف ، التي أرغم على تحقيقها مستعينا بالقوة ، وكان ينبغي أن يتوصل إليها بالسياسة .

فعلى أثر انسحاب الجيوش المصرية والتركية من المورة ، عقب معركة نفارين ، بدأ محمد علي يراجع خطته السياسية العامة . فرأى أن الباب العالي لم يكافئه على خدماته وتضحياته حسبما وعده . فقد منحه حكم جزيرة كريت .

A. E. Crouchley; The Economic Development of Modern (١)
Egypt; pp. 41 - 43.

لا يستطيع التغاضي عن مناهضة الدول الأوروبية الكبرى إذا ابتغى أن يبدل الحالة الراهنة في الآستانة .

إذن لم يك في عزيمة محمد علي أن يحل محل السلطان على عرش الآستانة . فإذا كانت غايته من حروبه ؟ هل كان يرمى إلى إقامة عرش له في وادي النيل فحسب ؟ نحن نذهب مع أصحاب هذا الرأي ، فلقد ثبت أن محمدا عليا طفق يذكر الاستقلال في أحاديثه حوالي سنة ١٢٨٥ . وأثبت الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية في مصر ما قاله له محمد علي حينما تناول أمنية الاستقلال هذه . والعبارة التالية مقتبسة من رسالة بعث بها الجنرال بيار في الثامن عشر من يوليو عام ١٨٢٥ . قال فيها ما ترجمته :

” أسهبته إليك في كتاب سابق عما يتعلق بانتصارات ابراهيم باشا في اليونان ، وأودّ أن أطلعك الآن على حديث سرى دار بيني وبين محمد علي باشا حدثني في خلاله عن أمانيه . قال محمد علي : أنا أعرف أن السلطنة تسير يوما فيوما إلى الردى ، وأنه ليصعب على أن أنشلها مما هي فيه . فلماذا أحاول المستحيل بوسائل القليلة ؟ على أنى سأقيم على أنقاضها مملكة كبيرة ولدىّ جل الوسائل التي تساعدني على الفور . إنني أستطيع أن أفتح عكا ودمشق وبغداد بكلمة واحدة مني وبوساطة مقدرتي وجيوشى . وأبني المنتصر سيتوجه في أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التي أسعى في إنشائها ، وسمكته شجاعته العظيمة من الفوز“^(١) .

الدوافع الحقيقية لحرب الشام الأولى

(١) تلقى المحفوظات الملكية المصرية ضوئا تبتدى خلاله دوافع الحرب المصرية التركية (الأولى) وفي طليعتها — ولا مرأى — نيات الباب العالي السيئة

وليستر جناحه الأيمن ويمنحه السيادة على بيت المقدس ، حصن الأديان الثلاثة ، ويعطيه دمشق إحدى مدن الثقافة الإسلامية ، وتلبى معظم حاجياته الاقتصادية .

ولم تك رغبة محمد علي في الاستحواذ على فلسطين (فقط) نتيجة لمشروع الجزائر... كلا — فإن محمدا عليا صرح في عام ١٨١٢ للقنصل الإنجليزي في مصر عن عزمه لفتح فلسطين عندما تحين الفرصة^(١) بيد أنه لم يقدم لأسباب شتى أظهرها عدم انتهائه من تنظيم قواته العسكرية على الأساليب الحديثة . ونجدته للسلطان في حرب الجزيرة العربية . كما أنه خشي الأثر الروحي للسلطان في ولايته . فلما واته الظروف ، امتشق الحسام ، وكان ما سنتناوله في هذا المقال .

دوافع الحرب بين مصر وتركيا

١٨٣١ — ١٨٣٢

يتفق فريق من المؤرخين على أن النزاع بين محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني لا يرتد لأسباب قومية أو جنسية . والدليل على ذلك تصريحات محمد علي لبكار الساسة أو ما خلفته لنا المحفوظات التاريخية .

فقد قال إبراهيم باشا ، في خلال حملته الأولى في الشام (١٨٣٢ — ١٨٣٣) إن أبي لا يزال العبد الخاضع للسلطان ، والمحامي عن الدين الحنيف^(٢) . ثم أكد محمد علي للكواويل هودجس (Hodges) في سنة ١٨٤٠ إخلاصه لعرش الآستانة قائلا ما ترجمته : "أما من حيث تأييد العرش التركي فمن أكثر مني حمية في ذلك ؟ . إن الشعب الملتف حولي يشور علي^(٣) إذا حاولت أن أقلب ذلك العرش " . أضف إلى ذلك أن محمدا عليا كان على جانب وفير من الفطنة السياسية ، فعرف أنه

(١) Missett, June 20, 1812 (F. Office. 24 - 4).

(٢) St. John, Egypt and Mohamed Ali. Vol. II, Page. 522.

(٣) Paton, History of the Egyptian Revolution. Vol. II, p. 169.

ولكى يذهب السلطان بعيدا في الكيد لمحمد على ، فقد منح منصب الصدارة العظمى الى خسرو باشا ، عدوه اللدود القديم .

وجمل القول أنه منذ تقلد محمد على حكم مصر ، لم تفتزعزيمة السلطان عن إنتاج كل سبيل ، اعزل والى مصر من منصبه — ولذلك لانهجب مطلقا إذا نهض محمد على بحاربة السلطان ، تستحثه الى ذلك غريزة الدفاع عن النفس . يحارب للحفاظة على جاهه ، ومنصبه ، ومقامه . وأكثر من ذلك ، من المحتمل أنه كان يحارب للحفاظة على حياته أيضا .

٢ — استقلال مصر :

هذه النوايا السيئة ، التى كان يضمهرها السلطان لمحمد على ، خلال السنوات ١٨٠٥ — ١٨٣١ أيقظت الحذر بين جوانح محمد على ، الذى كان يتوقع نشوب الحرب فى أى وقت . لذلك رأيناه يعيى موارد دولته ، ويؤمم تجارتها وصناعاتها بل وأرضها ، وينشئ القوات الدفاعية ليحمى ذمارها ، من العدوان المرتقب . ولكى يعلن الاستقلال فى الوقت الملائم — وان نضاله فى سبيل استقلال مصر أبانت عنه طائفة من الرسائل الرسمية المتبادلة بين الباب العالى وكبار رجاله ، الذين يشغلون المناصب الهامة ، فى حكومة الشام . وكذلك فى الخطابات المتبادلة بين محمد على وابراهيم .

وكان فى طليعة أعداء محمد على من هؤلاء الموظفين — عبد الله باشا الجزار والى عكاء ، فكان يكبل التهم جزافا ضد محمد على ، وكان يطلق عليه الثائر والخارج عن طاعة السلطان . وكثيرا ما طالب رعايا السلطان أن يعلنوها حربا شعواء لاهوادة فيها ، لنصرة السلطان على محمد على .

وكان ابراهيم يعبر بصراحة عن الاستقلال ، سواء فى مجالسه الرسمية ، أو فى مكاتباته مع والده أو كبار الموظفين . كتب مرة من حلب الى حاكمها التركى

حيال مصر . وأول دليل على ذلك ما كتبه ابراهيم باشا فى خطاب الى والده يقول له فيه :

”إن سوء النية والخديعة كامنان خلف المفاوضات ، التى تستر من ورائها الضربة القاصمة ، التى تعدها حكومة الآستانة ضد ابراهيم ووالده“^(١) .

وكان محمد على قد رفع شكواه الى الأميرال الكبير خليل باشا من المؤامرات التى تحاك حوله فى العاصمة التركية^(٢) . وكان ابراهيم ، على الرغم من انتصاراته فى الوقائع الثلاث عكا وحمص وبيلان ، على بينة من أن هزيمته فى الأناضول ستكون سببا لخلاص مصر من أسرة محمد على^(٣) . وكان القائد لا يأمل فى توطيد سلم حقيقى بينما يجلس السلطان محمود على عرش آل عثمان .

ولا يغيب عنا أنه فى عام ١٨٠٥ ولى السلطان مكرها ولاية مصر لمحمد على ، وقد حاول فى السنة التالية أن ينقله الى ولاية سالونيك . وفعلما وصل الى مصر موسى باشا ، والى سالونيك ، يحمل فرمان سيده . وفى عام (١٨١٣ — ١٨١٤) اجتذبت الآستانة ، الى صفها ، لطيف باشا أحد رجال الحكومة المصرية ، وساحته بفرمان لتقليده ولاية مصر ، إذا كللت مساعيه بالنجاح لقلب حكومة محمد على ، الذى عرف سر المؤامرة . وفى عام ١٨٢٩ شئت الآستانة أن توغر صدر محمد على ضد ابنه ، حينما نصبت ابراهيم باشا على مكة ، أظهر المناصب الشريفة فى الامبراطورية العثمانية . وفى السنة التالية ، اقترح الباب العالى على الباشا (محمد على) أن يولى إدارة الثغور المصرية : إسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، الى قبودان باشا ، عدوه القديم ... الخ .

(١) وثيقة رقم ٥٨ محفظة ٢٣٢ بتاريخ ٢٣ رمضان عام ١٢٤٧ هـ من ابراهيم الى محمد على .

(٢) وثيقة رقم ٩ — ١٠ محفظة ٣ بتاريخ أول ربيع و ٢٥ جمادى الأولى عام ١٢٤٨

(٣) وثيقة رقم ٤٣ محفظة ٢٤١ بتاريخ ١٩ رجب عام ١٢٤٨ من ابراهيم الى محمد على .

(٤) Driault, Mohammed Ali et Napoleon (1807 - 1814)

. pp. 233-239.

لا توافق عليها الحكومات الأوروبية . فليس هناك خوف من تدخلهم . وإذا لم يرضوا بإجراء اتنا فلن يستطيعوا معارضتنا والوقوف أمامنا . فإذا أحبطوا علما بما تم . نكون قد وضعناهم أمام الأمر الواقع “ .

” إننى فى طريقى الى بروسه ومودانيا وسأسرع للوصول اليها . وسوف لا أستطيع القعود فى مكانى مدة أطول وإلا ساءت الأحوال لأن المؤنة فى قونية وما حولها لا تكفى قوتنا “ .

وفى أثناء فترة الهدنة المسلحة ، وقيل نشوب الحرب الثانية بين الدولتين . كتب ابراهيم لأبيه من كوتا هية رسالة تفصح عن أهدافه لما علم بوصول خليل باشا مندوب الباب العالى ، والجنرال مورافيف الروسى ، الى محمد على ، لعقد الصلح على صورة مرضية . قال ابراهيم : ” إن أهم ما يلزم البحث فيه معهما هو طالب الاستقلال وطلب إلحاق جزيرة قبرص وألوية انطاكية وعلائية وجزر ايجه الى مصر — ثم ضم تونس وطرابلس الغرب اذا أمكن “ .

وقال له أيضا : ” إننا إذا تهادنا فى طلب الاستقلال يذهب كل عملنا الذى عملناه هباء وسدى . ولا يمكننا فيما بعد أن نخلص أنفسنا من إرهاب تلك الدولة بالتكاليف التى لا تنقطع . وما اليها مما تأتى فى هذه الوثيقة الهامة “ .

ولا ندرى — الى أى مدى — كان الأب متفقا مع الابن ؟ هل شاركه فى سياسته أم كان له نظرة أخرى . ولكن الشئ الذى لا ريب فيه أن مجدا عاليا كان يهدف أيضا الى الاستقلال . فقد تحدث عنه فى بداية عام ١٨٢٥ ، ففى الخطاب الذى صاغه الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية فى الجيش المصرى الى الجنرال بليار (١٨ يوليو ١٨٢٥) . وقد سبق ذكره .

(١) الوثيقة رقم ٨٥ عابدين محفظة ٢٤٣ بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٢٤٨ هـ

محمود باشا، الذى هزمه فى حصص معبرا عن تصميمه على الاستيلاء على الأراضى العربية، وليقطع نهائيا صلتهم بالحكومة التركية^(١).

وبعد أيام قلائل، صرح ابراهيم باشا للأمير بشير بعزمه على احتلال أدنة، ليغلق الاتصال بالآستانة. وقد ثبت ذلك فى نشرة الجيش بتاريخ ٤ ربيع الأول عام ١٢٤٨ هـ. وفى مكتبة أخرى لإبراهيم نادى أبيه بلفظ يا صاحب الجلالة وذكر كلمة مصر المستقلة^(٢). وفى تقرير سرى آخر من ابراهيم لأبيه أشار الى الجهود المخلصة التى اضطلع بها لتدعيم أسرتهما^(٣).

وعقب انتهاء معركة قونية، وقبل احتلال كوناية، وبينما كانت مفاوضات السلم دائرة، كتب ابراهيم باشا الى أبيه الخطاب التالى، يقول له فيه :

”... وطالما يتربع على العرش — السلطان محمد — فسوف لا نصل بقضيتنا الى حل مقبول وأنه بالرغم من الظروف والأحوال التى قد تظهر فى صالحنا، فإنه سيعمل كل ما فى وسعه لتنفيذ مآربه الظالمة، مما يجعل الأمة الاسلامية لا تعيش فى سلام — ولذلك فإن التزاماتنا الدينية والشخصية نحو العالم الاسلامى تتطلب منا أن لا نفكر فى مصالحنا فقط. بل وفى صالح رفاهية وسعادة الأمة الاسلامية. وعلى ذلك سنحاول جهد طاقتنا لطرد هذا الخلق اللعين لئلا يحاس على العرش العثمانى وريشه حسبما يتفق مع سياستنا السابقة. وبالتخاذنا هذه الخطوات يمكن إنهاض العالم الاسلامى. وإذا طرأ فى ذهن أى أحد أن هذه الإجراءات سوف

(١) نشرة الجيش التى كان يقوم بها وحيد أفندى. وثيقة رقم ١١٩ محفوظة ٣٣٦ عابدين بتاريخ

٢٠ صفر عام ١٢٤٨ هـ.

(٢) من ابراهيم باشا الى محمد على باشا — وثيقة رقم ٧٢ عابدين محفوظة ٢٣٨ بتاريخ ٩ ربيع الثانى

عام ١٢٤٧ هـ.

(٣) من ابراهيم باشا الى محمد على باشا — وثيقة رقم ١٩٠ عابدين محفوظة ٢٤٠ بتاريخ ٢٧ جمادى

الثانى عام ١٢٤٨ هـ.

كذلك كان لبنان غنيا بالمعادن ، من حديد ونحاس وذهب وفضة وزنك ، وقد كانت لأبحاث بعض المعدنين ، الذين أوفدهم محمد علي للبحث عنها ، من أقوى العوامل على تقرب محمد علي من ولاية سورية ورغبته في ضمها الى مصر .

هذا كان موقف محمد علي من المواد الرئيسية لصناعة الحرب وعتادها . كذلك كانت حاجته الى المادة البشرية — وهى الرجال — أهم خامات القتال .

لا ريب ان مصر أمدته في كل حروبه بالرجال المكافون . ولكن بعد فشل جهوده لتجنيد السودانيين ، رأى في رجال الشام مادة تعينه . فتطلع اليهم لأنهم كانوا بطبيعة بلادهم شديدي البأس كما أنهم كانوا كثيرى العدد . يعادلون سكان مصر آنذاك^(١) وقد رحل من هؤلاء عدد وفير من أشدائهم الذين لجأوا الى والى عكا . لذلك لا نعجب إذا ألقينا محمدا عليا يعتمد على أهل الشام في جيوشه . وهو القائل ” من جبال لبنان أجند جنودى . فأدرب منهم جيشا كبيرا ولا أقف به إلا على ضفاف دجلة والفرات^(٢) “ .

والى جانب الرجال أراد المال وهو عصب الجهاد . رأى أن يطبق الاجراءات التى نفذها بنجاح في مصر ودرّت عليه المال اللازم للجيوش — في الشام أيضا . والقطران يمكن أن تؤلف منهما وحدة اقتصادية واحدة فيجعلهما سوقا واحدة للصادرات والواردات . وكانت أسواق مصر فى حاجة الى الحرير والصابون وزيت الزيتون والتبغ والماشية ، فضلا عن الخشب والمعادن .

اذن كانت الشام وضمها الى وادى النيل أظهر العوامل فى نشوب الحرب لأنها كما يقول المؤرخ أسد رستم :

Supplementd Egypt in a number of its economic necessities and offered an endless number of possibilities for the monopolies of the Pasha.

Guys: Beyrou et Liban. Vol. I, 275 - 276. Vol. II, 209 - 210. (١)

Correspondance des Generaux Beillard et Boyer, p. 79. (٢)

وبعد خمس أو ست سنوات ، كتب محمد على لابنه رسالة سرية ، كانت تتم عن رضاه التام بخطة الابن في استقلال مصر التام ، بيد أنه كان حذر للغاية في طريقة تنفيذ الخطة ، أى في نوع التكتيك ، وإن كان هدفهما واحد وهو (استقلال مصر) .

مصر لا تفي بحاجيات الدولة الناهضة (المواد الخام) :

قبالة أمنية محمد على وإبراهيم للاستقلال بوادى النيل ، ارتأى الاثنان أن يعجلا بوضع أيديهما على الشام ، للاشراف على مقدراتها^(١) .

لقد كانت مصر ، منذ مائة عام ونيف ، بالرغم من خصوبة تربتها لا تفي سكانها . وما كان يزرع فيها من أشجار الحمير والسنط لم يسد حاجة الأسطول والتعمير الى الخشب . فكانت مصر تستورد معظم الوقود والأخشاب التي تدعو اليها حاجتها ، في الحرب والسلم ، في بناء السفن التجارية لنقل الغلال ، عن طريق النيل الى اسكندرية ، وبحرا الى مرفئ الشرق الأدنى . وصنع البوارج والنقلات الحربية ، التي لم يكن هناك مندوحة من إنشائها في حروبه .

نعم ، زادت ثروة مصر من الحاصلات الزراعية ، كالقطن والتيلة ، ومختلف المواد الغذائية . فلم يكن من الصواب في شيء أن تزرع فيها الغابات ليستعاض بأخشابها عن الاستيراد ، كما أنه لم يستفد من خشب السودان بعد أن تم فتحه . فاضطر محمد على الى أن يحذو حذو تيمورلنك الثالث ورمسيس الثانى وابن طولون للبحث عن الخشب ، في سورية وبلاد القرم . وقد عرف رجال محمد على الانتفاع بجراج الشام والأناضول ، في الفترة بين ١٨٣٢ و ١٨٤٠ ، فأرسلوا الى مصر مئات من جزوع الأشجار ، انتفع بها في بناء البوارج ، وفي معامل الذخيرة والسلاح في مصر .

(٥) ابراهيم والقومية العربية المصرية :

يقول الأستاذ المؤرخ شفيق غربال بك إن محمدا عليا بدا وعاش وانتهى عثمانيا مسلما، وإن مهمته كما حددها من مستهل الأمر الى آخره كانت إحياء القوة العثمانية في ثوب جديد . ورمى الى أن يجد مكانا لعالمه العثماني الحى ، فى الدنيا الجديدة ، التى خلقها الانقلاب الاقتصادى فوصل بين أجزائها (بلاد العرب والشام ووادى النيل) وصيرها وحدة حقيقية على الرغم من المنافسات القومية^(١) .

وفى مكان آخر من كتابه عن محمد على الكبير يجب المؤرخ عن السؤال (وما قدر مصر فى تفكيره وغاياته ؟) بالجاب الآتى :

ان قدرها فى عينه عظيم عظم المشروع كله . هى القلب من الجسم الحى الذى يروم أن يرى . وأبنائها أعوانه فى البناء الكبير . نالت من حبه ونالوا من حبه القدر الأكبر رفض أن يتخذ منها عالما صغيرا ضيقا محدود الآفاق ضعيف الآمال . كما رفض أن يكون معول الهدم فى العالم العثماني حتى ولو كان الهدم اسمه الاستقلال والباعث المحرك له اسمه العصبية القومية . وكان خير من يعلم أن انقسام الوحدة العثمانية معناه تشتت قوتها وأجزائها ووقوع الأجزاء جزءا جزءا فى حكم الدول الغربية . لقد أحب محمد على مصر الحب كله . أولم يقل فى منشوره من تلك المنشورات المتعة التى يعبرها عن كل ما يحول فى نفسه : ” إن نيلنا لوطن عدم النظير كهذا هو من النعم الجسيمة وعدم القيام بالسعى والاجتهاد فى عمارتها يكون عين المكفران بالنعمة وهذا ما لا تقبله شيم جبلى وتأبى نفسى أن أكون شريكا لكم فى ذلك “ .

وعن ذلك يقول المؤرخ رفاعه الطهطاوى : ” إن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلوية وتسلطنت على قلبه وأخذت يجمع

(١) الأستاذ محمد شفيق غربال بك — محمد على الكبير — سلسلة كتب أعلام الاسلام .

(٤) مصر والشام وحدة طبيعية وجغرافية :

ارتأى محمد على ، مثلما ارتأى أسلافه الأيوبيين والمماليك ، أنه لا يتسنى التوسل بالسلم وحدود بلاده مفتوحة في وجه سلطان آل عثمان . فان صحراء سيناء وحدها لا تعدّ خطاً منيعاً للدفاع — والدفاع عن وادى النيل من الشرق يبدأ خطه الأول في جبال طوروس كما لا يخفى . كذلك جبال سوريا الشاهقة وأوديتها العميقة وشعابها الضيقة . هذه وتلك كانت حاجزا طبيعيا دون تقدم جيوش السلطان محمود جنوبا ، إذ لم تك فيها طرق صالحة لسير الجيوش . وهى مقبرة لجيوش الفرنج في العصور الوسيطة ، كما كانت لجيوش المغول والحيتيين من قبلهم .

كان على الجيش العثماني ، الذى يقدم على غزو الشام ، أن يجتاز جبال طوروس من طريق واحد أو طريقين . وهذا أمر كان يعوق تقدمه كثيرا . وكان متعيّنا عليه أن ينقل جل مهماته وحاجياته في طريق وعر . فاذا أكره على التراجع استهدف لخطر كارثة تحمل به في ارتداده على عقبيه لاجتياز جبال طوروس ثانية .

أما محمد على فكان له وراء هذا الخط الأول من خطوط الدفاع خط ثان في لبنان ، حيث كان في وسعه الاعتماد على تأييد الأمير الشهابي واتباعه . كذلك كان له خط ثالث في جبل الكرمل . وخط رابع في صحراء سيناء . فضلا عن انتفاعه بالثغور على الساحل الممتد من اسكندرونة الى اسكندرية .

والخلاصة أن الشام ومصر كانتا ، منذ مائة عام ، تؤلفان وحدة اقتصادية وجغرافية طبيعية . وقد اعترف محمد على بهذه الحقيقة منذ أوائل عهد ولايته . ورغب بحروبه في أن يجعل الإقليمين وحدة سياسية أيضا . فقد كتب الى وكيله في الآستانة نجيب أفندى يقول ” إن الشام لازمة لسلامة مصر “^(١) .

(١) وثيقة رقم ٨ — عابدين مخففة ٣ بتاريخ ٣ محرم سنة ١٢٤٨ هـ من محمد على باشا الى نجيب أفندى .

تنتسب إلى شعب أنبل وأكثر تنقرا إلى هذا الشعب العربى الذى سبق أوروبا فى مضار الحضارة . وزين تاريخه باقامة المدن المزدهرة والآثار الفخمة التى غطى بها وجه الأرض من جبال الأندلس إلى وادى النيل إلى حدود إيران .
وانتهت فكرة ابراهيم إلى تحويل الدولة التى أنشأها أبوه إلى دولة عربية صميمة ينتسب فيها الحاكمون والمحكومون الى شعب واحد . وإعطاء الجنس العربى جنسيته الخاصة وكيانه السياسى كما أن له لغته الخاصة وأدبه الخاص وتاريخه الخاص .
ولقد كانت أعمال ابراهيم ورجال حكومته فى بلاد العرب والشام خير برهان^(١) صادق على إخلاصه فى عقيدته ، يؤيد ذلك ما قام به من المشروعات فى البلدان ، التى خضعت للحكومة المصرية^(٢) .

ويتفق مؤرخو مصر الحديثة : شفيق غربال . ومحمد رفعت ، ومحمد صبرى ، وأسد رستم ، فيما كتبوه عن عقيدة ابراهيم العربية . الذى يعتبر بحق المؤسس الأول لمنظمة الجامعة العربية ، التى أعيد التفكير فيها بعد مائة عام من انقضاء الحكم المصرى فى البلاد العربية .

لذلك نعتبر ابراهيم باشا المنادى الأول بالوحدة العربية ، فهو — ولا مريه — يستحق مكان الشرف فى تاريخ الوحدة القومية فى الشرق العربى ، وهو كما قال عنه أسد رستم :

“He is the first Moslem of rank in the Arab World who conceived of an Arab Nationalist Movement and who was determined to make it effectual”.

هذه أهم دوافع النضال التى استثارت الحرب بين محمد على والباب العالى ، وإن كان بعض المؤلفين جروا فى كتبهم على إيراد أسباب سلمية أخرى ، تكاد تتفرع عن الأسباب الرئيسية التى بسطناها . يذكرون من بينها :

George Douin : La Mission de Baron de Bois le comte (١)
l'Egypte et la Syrie en 1833 - p. 249 - 250.
(٢) الأستاذ محمد كرد على — خطط الشام — ج ٣ ص ٧٥

لله . وإنه عمل تماما بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم) ” .

هذه مصر هدف محمد علي . كانت وحدها كل شيء في برنامجي ، فلم يك من عشاق الامبراطوريات كغيره ممن سبقوه . ألم تعرض عليه حكومة فرنسا بوساطة بوليناك وميو وهودار عام ١٨٢٩ معاوتها في فتح طرابلس وتونس والجزائر ليضمها الى مصر فيشملها حكمه ؟ ولكن بعد أن وزن الأمور بميزان حكمته رفض الاقتراح الفرنسي لأنه كان ينطوي على إذلال شعب إسلامي .

أما ابراهيم فقد كان أبعد مرمى من الأب في القضية العربية . فقد كان يرغب باخلاص في إحياء نهضة عربية . فقد حل بالديار المصرية ونشأ في وسط عربي بحث . ثم قرأ تاريخ العرب وثقافتهم مع ما تلقنه من مبادئ العلوم والفنون . وكانت إقامته أعواما طويلة في بلاد العرب والشام . قد قربته الى فضائل العرب وعيوبهم أيضا . فعرف محاسن هذا الجيش ومساوئه وهي خالصة قبل صهرها لدى اختلاطهم بخك هذا خياله وأيقظ عطفه . ومن هذا البحث الشخصي كَوْن ابراهيم خلاصة مشروع الدولة العربية عن عقيدة واقتناع — رأى أن هذه الدولة التي يريد الأب تحقيقها لا تتم ولا تكون كاملة إلا إذا دعمت على أساس متين هو إحياء الشعب العربي وإنهاضه فتكون الدولة شامخة قوية ، روحا وبنينا .

ولقد ينحيل إلى البعض أن تصريحات ابراهيم عن العروبة ، وإحياء التراث العربي ، لا تخرج عن عبارات الدعاية ، التي يلجأ إليها الساسة والفاثون لتخدير الأعصاب . أعصاب الشعوب المغلوبة على أمرها . ولكن يبطل هذا الرأي أن كل الذين كانوا يعملون معه كانوا يؤمنون بالعقيدة نفسها ، فقد صرح مختار بك ياوره في حرب الشام وقد قابل وزير الخارجية الفرنسية في مهمة خاصة إلى محمد علي و ابراهيم عام ١٨٣٣ قائلا : ” لقد قدمنا إلى مصر ولم نكد نجاوز سنّ الطنولة ولذلك لم نعد تركا قط ولم تبقى رابطة تربطنا بذلك الشعب . أننا الآن

وكان في كل آلاى خيالة أربعائة جمل، لنقل المتاع والمياه، كما ألحقت بكل أورطة حملة لنقل حاجياتها وقد أربى تعداد الحملة بأسرها على ٢٥,٠٠٠ جندي ، منها ٣٠٠٠ خيالة .

الأسطول

وتألف الأسطول المصرى من ٢٣ سفينة حربية ، منها ٧ فرقاطات ، و ٦ قرويته و ٣ أباريق ، و ٧ سفن مدفعية وغيرها من النقالات الصغيرة . ومثل هذه الوحدات البحرية كانت تحت إمارة أمير البحر عثمان نور الدين باشا .

الخطة العامة :

تتفق — الى مدى بعيد — خطة فتح الشام بقيادة ابراهيم ومثلتها بقيادة نابليون . والفارق الأوحد أنه لم تك لهذه السيادة البحرية التامة في شرق البحر المتوسط نظرا لوجود الأسطول الانجليزى ومنعه من حرية العمل . بينما اعتمد ابراهيم على تعاون قواته البحرية والبرية ، مثلما فعل تحوتمس ورمسيس من قبل فقد كان الاتصال مستمرا عن طريق البحر ، بين مصر وقوات ابراهيم البحرية الشىء الذى افتقده نابليون ، وبعبارة أبين لم يك متيسرا .

قسمت وحدات الحملة الى قسمين كان رأس القسم الأول ابراهيم ، الذى اتخذ البحر طريقا يصل به الى يافا ، وكانت قاعدته ثغر العريش . أما القسم الثانى فكان يقاتده ابراهيم يكن وقد تحرك برا من الخانقاه .

وصف ميادين الحرب (الشام وفلسطين) :

قبيل الخوض فى الحملات العسكرية ، فى فلسطين والشام ، يتعين أن نأتى بوصف موجز لأراضى هذا الإقليم . التى تتألف منها ميادين المعارك التى يتناولها هذا الموضوع ، لأن الأرض وشكلها — كما لا يخفى — هى التى تملى نوع الحركات

(١) جاء فى كتاب تاريخ الحرب الشامية لكادلفين وبارووصفا موجزا لأبواب المياه ، التى مرت بها الحملة فى طريقها الى يافا وكفاتيها .

إن سوء التفاهم الذى ساد بين عبد الله باشا الجزار وإلى عنكاه ومحمد على باشا -مرجعه هجرة الفلاحين من مصر إلى ولاية الآخر، وعدم وفاء عبد الله بدين عليه ، وسوء نيته ، وطموح محمد على للتسلط والتملك .
وما أشبه من أسباب أخرى .

حملة الشام الأولى (الجولة الأولى)

الجيش المصرى فى عام ١٨٣١ :

كان عدد الجيش النظامى ، حينما أعدت حملة الشام ، حوالى ٧٠,٠٠٠ موزعة بين الأساحة على الوجه التالى :

١٨ آلاى مشاة .

٨ آلاى خيالة .

١ آلاى مدفعية .

وحدات من المهندسين واللغامين وقوات غير نظامية

أما الوحدات ، التى خصصت للحملة بقيادة ابراهيم ورئاسة هيئة أركان حرب سليمان باشا ، فكانت تتألف من :

٥ آلاى مشاة ، وهى الآلايات ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ وآلاى الحرس

٤ آلاى خيالة ، وهى الآلايات ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ المدرعة والراحة

١ أورطة مدفعية تحتوى على ٤٠ مدفع ميدان و ٢٠ مدفع حصار

و ١٠ هاون (زيدت فيما بعد) .

٢٠٠ جندى من المهندسين .

١٤٠٠ خيالة من البدو .

الأردن فضيق وغير مملوء بالمستنقعات ولا يتها عبوره إلا في مناطق قليلة ، ويمتد وادى الأردن إلى الجنوب : ويتصل بوادي العرابة الذى يصل إلى خليج العقبة . وإلى شرقى منطقته الوديان ، تقع الهضبة الشرقية الشاخطة (التى يسميها القدامى جوف سورية) وهى مسطحة فى بعض الأماكن ، جبلية فى البعض الآخر ، ومتصلة بصحراء قاحلة فى كثير من المواضع . ومع ذلك تكثر فيها الأماكن الحصبة الواقعة المياه والثر ، كالأراضى الواقعة حول حلب وحول دمشق وأرض مؤاب . وفى الشمال يكون نهر الفرات وروافده حذا فاصلا ، تصالح فى حناياه العمليات العسكرية الوسيعة الحركات .

هذا هو وصف جغرافية الشام . مسرح العمليات الحربية ، بإيجاز . أما من الناحية الإدارية فقد كانت الشام مقسمة إلى خمس ولايات :

ولاية حلب ، وهى القسم الشمالى من البلاد . ولاية بيروت ، وهى السواحل البحرية وما يليها فى داخلية البلاد ، من اللاذقية شمالى حيفا جنوبا .

ولاية الشام (سورية) وقاعدتها مدينة دمشق ، وهى تشمل داخلية البلاد وشرقيها .

متصرفية القدس ، وهى تتضمن جميع البلدان الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود مصر الشرقية .

متصرفية لبنان ، وهى الخامسة ، وكان لها نظام خاص واستقلال إدارى ولها والٍ تعينه الدول مع الباب العالى كل عشر سنين ، وموقعها فى أواسط بلاد الشام ، بين ولايتى سورية وبيروت .

وكانت مقاليد الحكومة بيد والى الأيالة الشامية ، وكان فى معظم الأحوال مستتبدا ، وكثيرا ما صادر الناس فى أموالهم . أما الشئون العسكرية فكان مرجعها مثير الجيش العثمانى ، ومقره فى دمشق .

العسكرية وعملياتها التي ينفذها القائد الكبير إلى الجندى الصغير . ولا تعدو الحقيقة إذا أورينا بأن الجيش في الميدان أشبه بالماء في الوعاء ، يتشكل به حسبما يشاء ! يتيسر تقسيم سورية إلى أربع مناطق ، تباين في السعة ، تمتد من الشمال إلى الجنوب بموازاة بعضها تقريبا . وأولى هذه المناطق — الشاطئ ويتكوّن من عدة سهول ساحلية تختلف في اتساع رقعتها . ويفصل بعضها عن بعض بالجبال التي تمتد في بعض الجهات إلى ساحل البحر المتوسط ، مثل جبل الكرمل في لبنان ، وجبال أحمر داغ بالقرب من أنطاكية . ومعظم المناطق الساحلية ضيقة ، إلا أنها تتسع في الجنوب لدى سهل شارون . ويبلغ متوسط عرضه هناك حوالى ١٥ ميلا . وكثيرا ما تنتج السهول الساحلية نحو الداخل ، سائرة من مجارى المياه ، ووديان الأنهار ، كسهل اسدراييلون شمال الكرمل ، ووادي العاصي (الأورنت) لصق أنطاكية . غير أنه في الوسط ، حول طرابلس وبيروت ، تضيق المنطقة الساحلية وتشبه شريطا وعرا للغاية .

والمنطقة الثانية تشتمل على الجبال المشرفة على السهل الساحلى ، وهى ثلاث سلاسل جبال الأنصارية في الشمال (كابسوس قديما) ولبنان في الوسط ، وافرايام ويهودا في الجنوب . والسلسلتان الأولتان عبارة عن جبال شاذجة تصل في بعض جهاتها إلى ١١,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . أما الأخيرة فلها سطح فسيح غير منتظم ، وقليل ما يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم . وتحتوى ثانيا رقم هذه الجبال على مناطق خصبة آهلة بالسكان .

والمنطقة الثالثة تشمل الأودية العميقة ، التي تسلك فيها الأنهر الثلاثة : العاصي والليثاني والأردن . ويصب الأوليان في البحر مباشرة — الأول في بّجوة لدى جبال الأنصارية وجبال أحمر داغ : والثاني في بّجوة أضيق لصق صور من الشمال . أما الأردن ، ومعظم مجراه ينخفض عن سطح البحر ، فإنه يصب في البحر الميت المغلق . ويتميز العاصي والليثاني بنحصب وديانها الفسيحة ، أما وادى

محمد باشا هذا نير التفكير ، ميالا الى التجديد الحديث ؛ لذلك انقسم الجيش الى فريقين : فريق المحافظين وفريق المجددين ومما زاد الطين بلة أن أصيب السردار بعلة مضية كانت هي الأخرى سبب الكارثة التي تنتظره .

وكان الجيش الذى وضع تحت قيادته يتألف من ٦٠,٠٠٠ جندى منها ٤٥ ألف من وحدات النظام الجديد ، من الجنود الذين عنى بملبسهم ومأكلهم ورواتبهم تجمعهم فضائل القناعة ، والشجاعة ، والصبر . وكانوا فى الواقع عدّة المعارك ، وآلة القتال الحقيقية . ولكن كانت تنقصهم أظهر ميزات النجاح وهو النظام فضلا عن إسرانهم فى الحصول على الغنائم — وكان ضباطهم على شئ من التدريب . أما قادتهم فكانت تعوزهم الكفاءة .

أصدر السلطان أوامره الى القائد حسين باشا ، بعد أن رقاءه الى رتبة المشير (سر عسكر) ، بأن ينظم جيشا فى الأناضول ، ثم عين عثمان باشا اللبيب حاكما على طرابلس . ومن العجيب أن يكون الاثنان خصمين لدودين ! واستطاع عثمان باشا الحصول على معاونة حاكم حلب ، فأمدّه بالرجال والعتاد ثم تقدم على رأس قواته صوب اللاذقية وطرابلس ، ليتولى شئون ولايته الجديدة . وقد نجح فى تأليب سكان الجهات التى مر بها ضد محمد على ، الخارج على الدولة والدين ! بالرغم من أن محمدا عليا كان قد اكتسب احترام العالم الاسلامى أجمع ، عقب انتصاره الساحق على الوهابيين .

القوات المصرية

وكانت الحامية المصرية ، الموجودة فى طرابلس لحمايتها ، تبلغ ٣٠٠٠ جندى وكان قوامهم من القوات النظامية (الآلاى المشاة ١٨) تحت قيادة القائم مقام ادريس بك ، ومن قوات الأعراب والدروز بقيادة الأمير خليل ، أحد أبناء الأمير بشير الشهابى .

الجيش العثماني النظامي

وهنا يجمل بنا أن نتناول الجيش المقابل ، الذي أعدّه السلطان محمود الثاني ونظمه بهمة ونشاط ، على الأساليب العسكرية الحديثة ، بعد قضائه على قوات الإنكشارية في مذبحه فظيعة (١٦ يونيو ١٨٢٦) . وقد انتهى من ترتيب ٢٠ ألف جندي في أنحريات العام المذكور كانوا نواة القوة المسلحة المنظمة عند خليفة آل عثمان . ولم يك ليتم له هذا الموضع العسكري الجديد في بلاد ارتبط شعبها بالروح الدينية . مما جعل قبوله للنظم الأوروبية المتحدثة أمرا غير مستساغ .

وكان على رأس الجيش العثماني السرعسكر حسين باشا ، الذي تم على أيديه إبادة الإنكشارية . ومثل هذا القائد بدأ حياته حمالا بخاسوسا ثم قائد قلعة ثم مهيجا بخلافا ثم باشا الباشوات . قيل عنه أنه كان سيفاً ماضياً فياً مضى ولكنه الآن سيف لا يخرج من قرابه . وقبل تقلده الجيش ألبسه السلطان محمود كسوة القيادة العليا ، وهي المعطف القصير المزركش بأسلاك الذهب ، وأهدى إليه سيفاً مرصعاً بالماس وجوادين عربيين مطهين ، وقلده رتبة المشيرية ، ولقبه بالمشير الأكرم . وولاه على مصر وكرت والحبشة . ومثل هذا القائد كان نصيبه الفشل في معركتي حمص وبيلان بعد أن كان واثقاً بالنصر فلم تمض ساعتان على نشوب القتال ، حتى بات طريدا شريدا ، فلم يقفوا له على أثر . الى أن كشف أمره . وقد أصيب بالرمد وفقد نظره ، في إحدى مزارع ولاية بروصة .

وكان حسن باشا — بالرغم من مكانته وقوة شخصيته — يمثل الرجعية العسكرية ، لأنه لم يتحول عن تفكيره القديم ، ولم تتطور وجهة نظره ، بالرغم من المستحدثات التي أدخلت على الجيش الذي قدر عليه أن يتولى قيادته . فرأى السلطان أن يدعم الموقف بتعيين قائد آخر معه اسمه محمد باشا ينهض بقيادة جميع الوحدات المنظمة ، فيما عدا قوات الحرس ، وهما دعامة الجيش المقاتل . وكان

وبالرغم من تفوق قوات عثمان باشا على قوات ادريس بك في الناحية العددية فلم يهاجم المدينة بل انتظر للعمل فيما بعد ، حسبما تملى عليه الظروف . وفعلا صادفه الحظ إذ خرج القائم مقام ادريس بك على أورطة الى السهل المكشوف ، خارج المدينة ، وهاجم قوات عثمان باشا ، التي تفوق قواته عددا وعتادا ... فأبديت الكتيبة وفز ادريس تاركا خلفه بقية وحداته .

وشجع هذا النصر السريع عثمان باشا على تدعيم معسكره أمام طرابلس . وفي ٣١ مارس هاجم المدينة فخرجت الحامية المصرية بقيادة محافظها الشجاع مصطفى بربر ومعه ٤٠٠ من الدروز الشجعان بقيادة الأمير خليل ، وأصلت المهاجمين نيرانا حامية ، وأبدوا من ضروب الجرأة والشجاعة ، وأنزلوا بالأعداء هزيمة منكرة — وفروا أمامهم الى مينة .

وصلت أخبار معركة طرابلس الى أسماع ابراهيم باشا في عكا ، وبلغه أن طليعة جيش تركي تتجمع في منطقة حماه ، فرأى أن يزايل عكا تاركا إياها للقوات المحاصرة ، وكان ذلك في التاسع والعشرين من شهر مارس ، وتقدم الى صيدا وبيروت رأس قول مؤلف من ١٠.٠٠٠ جندي منها آلاى الحرس والآلاى السابع الخيالة وستة مدافع .

وفي ٤ ابريل وصل الى بادرون على مبعدة ست ساعات من طرابلس . فلما سمع عثمان باشا بهذا التحول السريع ، واقتراب ابراهيم منه ، استولى عليه الفزع ، وترك مدفعيته وعتاده ، وولى الأدبار الى منطقة حماه ، حيث عسكرت طلائع الجيش التركي .

(١) نهر ينبع في لبنان بالقرب من بعلبك ويمر بحص وحاة وأنطاكية ويصب عند السويديّة ويعرف

باسم نهر العاصي .

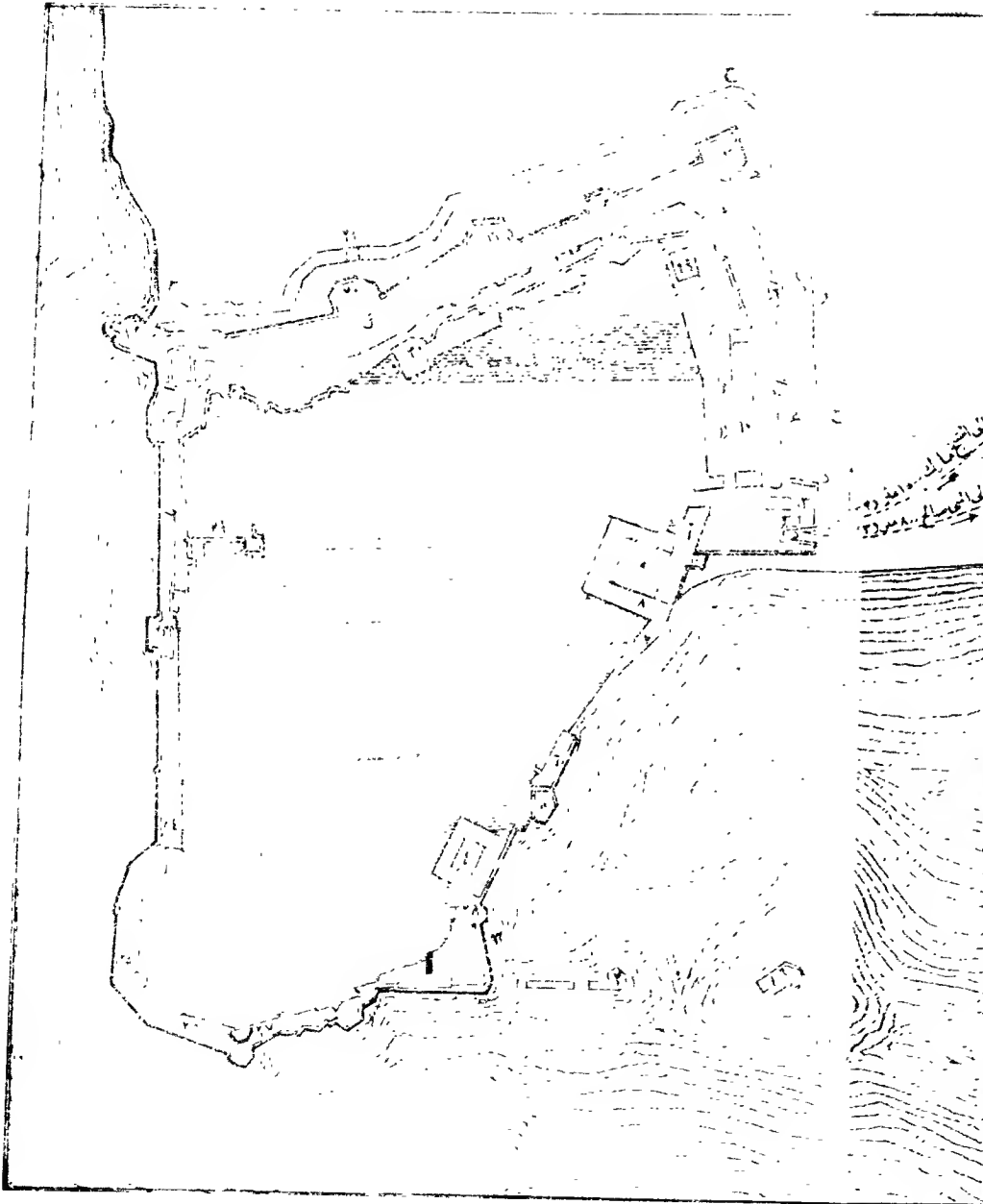
خريطة مدينة عكة

عملها أركلت حرب الجيش المصري شامية
استيلاء هذا الجيش عليها سنة ١٨٣٩-١٨٣٧ م.

- ١ - برج القانوس
- ٢ - برج البوغاز
- ٣ - محل مرور المسافرين
- ٤ - حان السكودوي
- ٥ - برج الخمس
- ٦ - حن برج الخمس
- ٧ - برج الدجج
- ٨ - برج السلطان
- ٩ - حان الخين
- ١٠ - برج الاسكابر
- ١١ - بشارية للنياه
- ١٢ - باب المدينة
- ١٣ - برج الباب
- ١٤ - ترسانة (دار صناعة)
- ١٥ - برج التي صالح
- ١٦ - برج البيل
- ١٧ - برج الزاوية
- ١٨ - برج حديد
- ١٩ - برج محمد
- ٢٠ - برج الخزانة
- ٢١ - حرس
- ٢٢ - برج كرم
- ٢٣ - برج حديد
- ٢٤ - برج الحرس
- ٢٥ - برج العلم
- ٢٦ - برج علي آغا
- ٢٧ - برج أحمد آغا
- ٢٨ - برج الباب الثاني
- ٢٩ - برج علي
- ٣٠ - برج النجوم
- ٣١ - ابتداء القلعة
- ٣٢ - الشيخ مبارك
- ٣٣ - التي صالح

١١١ - السور القديم الذي كان موجوداً وقت حصار
الفرنسيين وكانوا أخذوا في برج علي روم
٢٩ القلعة الكبيرة التي دخلوا منها إلى المدينة
وكنوا فيها وقتاً قصيراً
باب - السور الثاني الذي عده أحمد بننا الحارار
بعد حصار الفرنسيين

ج ج - طريق منقطعة
د د - الترات الأولى التي أخذها إبراهيم بننا
ه ه - الترات التي أخذت فيها مد ودحت فيها
الطود المصرية المدينة
و و - الهجوم التي عملت أمام الترات لهدم متعذر
حائط الخندق لسهولة الزول والصمود
ز ز - باب منخصص أرضه لالة أنصار يطل على
الخندق ووجدت مريحة على بعد ١٦
متر من ناحية الجنوب



وفي اليوم التالي دخل ابراهيم طرابلس ظافرا وأمر باعدام بعض الخونة من كبار الموظفين الذين اتصلوا بالعدو . ثم قرر مطاردة عثمان باشا . فتجاوز لبنان ، وأدرك حمص ، وأصبح مشرفا على وادي نهر الأورنت^(١) على مبعدة مرحلتين جنوبي حماة .

معركة الزراعة

قدر ابراهيم موقفه فرأى أنه لا يبعد كثيرا عن عكاء . ولذلك ارتأى أن يترك حمص حيث لا يتوفر العيش والمؤنة لجيشه ، واعتلى وادي الأورنت (العاصي) حتى وصل الى خان قصير ، حيث عسكرت قواته الى الشرق في سهل الزراعة^(١) .

توهم عثمان باشا أن تراجع ابراهيم عن حمص علامة ضعفه ، فجمع إلى قواته حشدا من أهالي المنطقة والأكراد وفرسان العرب بلغ عددهم ١٥,٠٠٠ مقاتل ، وسار بهم لمقاتلة ابراهيم ، وكان هذا قد دبرله الخطة الناجحة وقسم قواته إلى قولين ، وحشد خلف كل منها مدفعيته في أماكن مستورة عن بصر العدو . وخدع خصمه وأوهمه أنه سيلزم الدفاع . فانخدع القائد العثماني وهجم بكل وحداته على القولين فلبثت هذه صامتا حتى إذا صار الأعداء على مسافة قريبة ارتد المصريون بسرعة عجيبه خلف المدافع وبجتردهم انتفاء الارتداد طفقت المدافع تصب حممها . فخصدت المهاجمين حصدا ، ووقعت بهم الخسائر ، واختل نظامهم وسادهم الهرج ، وفي وقت قصير تفرق جمعهم ، وارتدوا خائبين . فطاردتهم الفرسان المصريون حتى دفعوا بهم الى نهر الأورنت ومن نجا منهم مات غرقا .

انتهت معركة الزراعة (١٤ ابريل ١٨٣٢) بهزيمة الجيش التركي ، وارتد عثمان باشا الى حماة ، وبقي فيها يرتقب وصول الامداد .

(١) قرية جنوبي حمص .

مدفعية كافية ووحدات مساعدة .

قوات غير نظامية .

والآن وقد نظم ابراهيم وأركان حربه سليمان بك (الفرنسي) الأوضاع الجديدة لتوزيع قواته في شمال سورية ووسطها ، واطمأنت نفسه للوقوف العسكرى العام ، عاد الى عكا العتيقة ، التى لم تان صخرتها بعد . وعزم على الخلاص نهائيا من إخضاعها وفتحها ، لأنها لم تزل شوكة في جنب قواته الأيسر . هذا علاوة على ما وصل إليه من أن جيش المشير حسين باشا قد اجتاز البوسفور (١٢ أبريل) وتقدمت طلائعه في خطوات حثيثة .

عود الى عكا

لم يكن الاستيلاء على عكا بالأمر اليسير، فهى التى وقفت صامدة أمام عبقرية نابليون وعزيمته ، وهى التى يدافع عنها الآن عبد الله وهو رجل صارم القلب ثابت الجنان . فقد مرت أشهر أمام شجعان ابراهيم ولم تستطع فى أيديهم . ولم تكن منعها هى الصعوبة التى قاومت قائدنا فحسب بل كانت للخطبة التى انتهجها الباب العالى مانعا . فقد كان السلطان يصب على ابراهيم اللعنات ، ويسلط عليه سيلا من فتاوى شيخ الاسلام . فمن ذلك أنه أصدر خطا شريفا يرمى فيه مصر بالمروق ثم تبعه فى مايو ١٨٣٢ بفرمان شاهانى بتجريد محمد على و ابراهيم وإباحة دمائهما . وهذا — ولا مريّة — له أثره على الروح المعنوية للدافعين . وكان السلطان قد أعلن الحرب رسميا على محمد على فى ٢٣ أبريل .

عاد ابراهيم بعد أن اطمأن للوقوف العسكرى فى الشمال الى عكا فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، وحمل عليها حملة صادقة أشرف عليها بنفسه — وكان إذا حمى وطيس القتال فى مكان طالعته فيه يخوض غماره . وكان يتطلب من ضباطه أن يكونوا مثله صناديد لا يرهبون الموت . وطالت المعركة واشتد سعيها . فلما أذنت

وعاد ابراهيم الى بعلبك ليستعد لجولة أخرى . وفيها التقى بابن أخيه عباس باشا ،
الذى استدعاه من عكا على رأس الآلاى الثانى عشر المشاة والآلاى الخيالة الثالث
وثلاث بطاريات .

أهمية موقع بعلبك :

تقع مدينة بعلبك ، ذات الشهرة التاريخية ، فى وادى نهر اللبثانى الذى يربط
قسمى لبنان (الخارجى والداخلى) ويصل بين وادى نهر الأردن والأورنت —
وفى هذه المنطقة تخرج الأنهر الثلاثة الأردن ، واللبنانى ، والأورنت وتعمل معا
أخدودا طويلا يكاد يكون موازيا للبحر المتوسط — وقد مرت ببعلبك أكثر
الحملات العسكرية فى التاريخ ، سواء القادمة من الشمال أو الشرق أو الجنوب .
فلها موقع استراتيجى هام يسيطر على إقليم الشام . وهى على مسافة متساوية من دمشق
وبيروت وطرابلس — وقد ارتأى إبراهيم أن يسيطر على ما حولها ليحول دون
وصول إمدادات الى الأتراك تلك ويمنع قدوم أية قوة لمعاونة عبد الله الجزار لفك
الحصار عنه . وكان قد أمن على أجناب جيشه بعد اطمئنانه لمسلك اللبنانيين نحوه .
لذلك رأى الاحتفاظ بأى جهد على بعلبك وما حولها ويحرم العثمانيين من
الاستيلاء عليها . واضمان هذا لم يتردد فى إمداد عباس باشا بالآلاى الثامن عشر من
طرابلس ، وبالآلاى الحادى عشر الذى وصل حديثا ، والآى الحرس ، والآلاى
السابع الخيالة ، الذى كان تحت قيادته .

وللاهمية نورد فى هذا السياق بيانا للقوات المصرية التى أصبحت مرابطة
فى بعلبك — وهى بمثابة طليعة الجيش المصرى ، التى ستقابل الصدمة الأولى
فى القتال المقبل :

٤ آلايات مشاة — ١١ و ١٢ و ١٨ والحرس .

٢ آلايات خيالة — ٣ و ٧ .

ومن تحصيل الحاصل القول بأن استيلاء إبراهيم على عكا قد وضع حدا نهائيا للجفوة الناشبة بين محمد على وعبد الله . كما أثار موجة من الاغتياب في وادى النيل ، حيث أقيمت الزينات ثلاثة أيام متواليات ^(١) .

واشتغل المهندسون العسكريون بحفر الخنادق المتعرجة وإقامة متاريس قريبة من الأسوار ونصب المدافع ، وأتموا جل هذه الأعمال في غمار الظلام ، بينما كانت نيران المدفعية تنصب باستمرار على المدينة .

وفي فجر ٢٧ مايو ، عقب شروق الشمس ، صدر أمر القائد العام بالهجوم ، واستمر القتال كما ذكرنا طيلة اليوم . وفي المساء سقطت عكا في قبضة المصريين . ومن ثم جاء أعيان عكا يلتمسون الرحمة — ولما كان دائما من شمية الشجاع تعظيم الشجعان — فرأى إبراهيم في فلول الجيش المنهزم أعداء له يفخر بحاربهم — فلم يسعه إلا أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وبلغ منه أن سمح لهم بأن يحتفظوا بأسلحتهم . أما عبد الله نفسه فلم يعد بأكثر من تأمينه على حياته ، لكنه تلقاه بما هو خليف بمقامه كوزير من وزراء الدولة من الحفاوة .

وكان طبيعيا أن يعمل الجند النهب في عكا ، مثلما يفعل زملاؤهم في الشرق والغرب ، قديما وحديثا ، رغم ما أصدره إبراهيم من الأوامر . انطلق الجنود في المدينة ينهبون محتوياتها ، بيد أن النظام لم يلبث أن أعيد في صباح اليوم التالي . وبذل القائد الكبير كل ما في وسعه ليكفر عن خروج الجند عن النظام ، وكان مما فعله أن أذاع بين الناس أن كل من فقد متاعه سيرد إليه إذا وجد ، وأمر جنوده أن يعيدوا كل ما كان في حوزتهم من الأسلاب .

(١) التقارير الرسمية لحصار عكا ، من البداية الى سقوطها ، كثيرة في مجموعة المحفوظات التاريخية بقصر عابدين ، نذكر من أهمها .

— النشرة الثالثة للجيش المصري في الشام ، في المحرم سنة ١٢٤٨ (٦ يونيو ١٨٣٢) .

— تقرير القائد العام سمي إبراهيم باشا عن الهجوم على عكا والاستيلاء عليها .

— تقرير إبراهيم يكن باشا بتاريخ أول المحرم ١٢٤٨ هـ (٣٠ مايو ١٨٤٢) .

الشمس بالمغيب ، حمل ابراهيم على المدينة حملته الأخيرة . ولكن أبدى المهاجمون لدى مغيب الشمس من ضروب الجسارة والإقدام مثلما أبدوه في أول النهار ، ودافع عبد الله دفاع الأبطال . بيد أن شجاعته لم تغن عنه شيئاً ، وسقط هذا الحصن المنيع بينما كان الليل يرعى سدوله على جدران المدينة وأسوارها .

أوضاع القوات في الاقتحام :

وقد وصف مستر سنت جون^(١) استيلاء ابراهيم باشا على عكا وصففا مسهباً نلخصه فيما يلي :

في صباح يوم ٢٦ مايو عام ١٨٣٢ ، دعا ابراهيم باشا الى خيمته كبار ضباط القوات المهاجمة ، من قادة وأميرالايات وقادة كتائب ، وأصدر إليهم أوامره تتضمن الآتى :

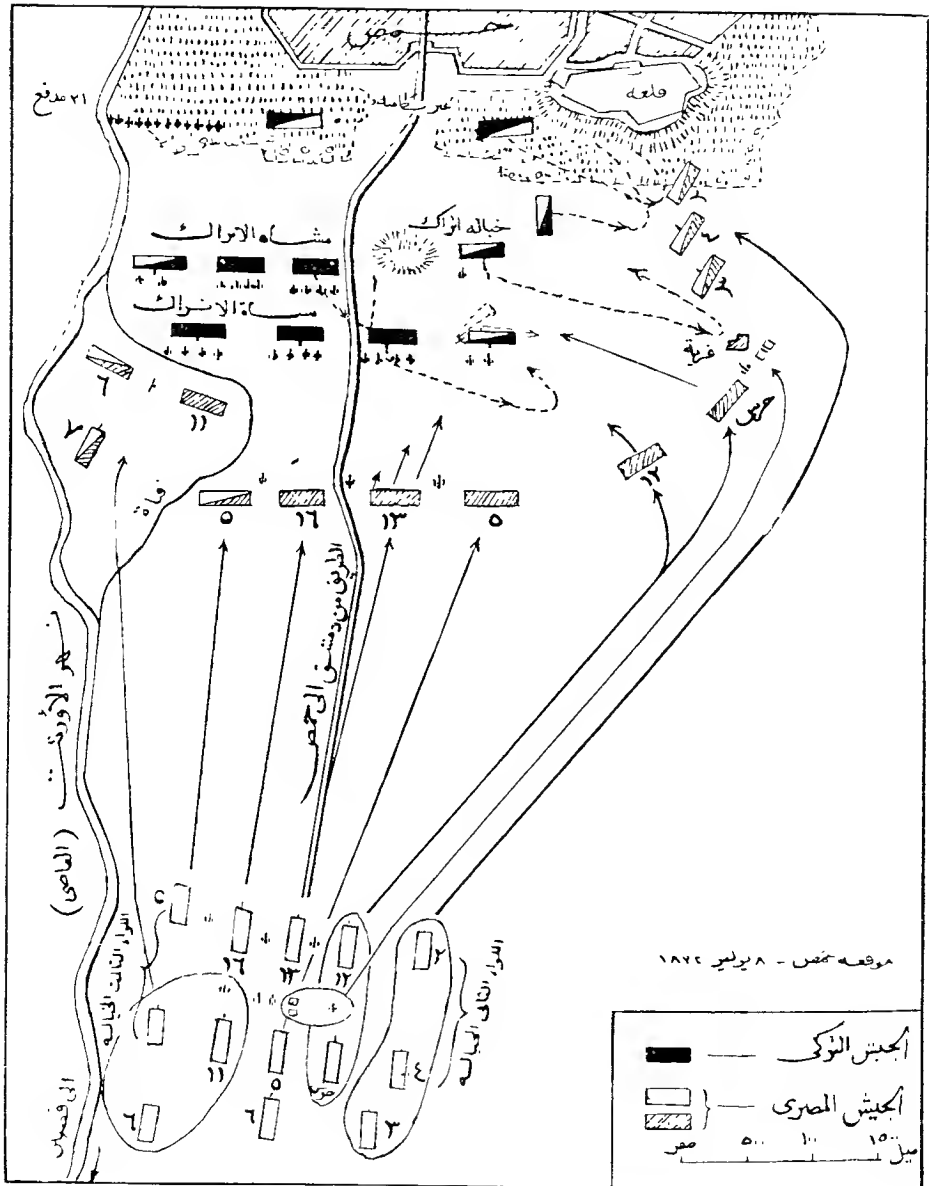
اللواء أحمد المنكلي يتوجه بلوائه ومعه الكتائب الأولى من الآلاى الثانى المشاه للهجوم على برج (قبو برجى — قلعة الباب) .

الكتيبة الثانية المشاه تهاجم الثغرة المقابلة للنبي صالح .
الكتيبة الثالثة المشاه بقيادة عمر بك تهاجم الثغرة المعروفة بالزاوية . وعينت قوة احتياطية من الكتيبة الرابعة (الآلاى الثانى) تحت الثغرة الأولى لمساعدة إحدى القوات السابقة المهاجمة عند الحاجة .

وصدر الأمر الى كتيبة من الآلاى العاشر بقيادة أميرالاي للوقوف تحت الثغرة الثالثة لغرض المتقدم .

وصدر الأمر الى كتيبة أخرى بنقل السلام ، قبيل الساعة الأولى بعد منتصف الليل الى الخندق الواقع بجانب قبو — برجى ، وبأن تكون هناك على استعداد للهجوم . وزود القائد العام — فيما عدا ذلك — كل قائد بالتعليمات الخاصة به .

(١) St John - Egypt under Mohammed Ali. Vol. II, pp. 492 - 496.



الكاتب اللحية "La victoire aime à marcher des gros bataillons." لذلك نشاهده يمد ابنه القائد بالوحدات والعتاد التي يتطلبها الموقف العسكري أولاً بأول . وفي ١٤ يونيو ، وصل ابراهيم الظافر ضواحي دمشق ، برفقة الأمير الشهابي ، على رأس ١٨٠٠٠ من المقاتلين (١٠٠٠ من الجنود النظامية) بعد مصادمة غير عنيفة بالأتراك الذين ولوا أمامه هارين . ودخل دمشق في ١٦ يونيو ، فقبله الأهالي بفرح واعتباط . وجعلها مقر الحكومة المصرية في الشام . ورتب الإدارة فيها على نسق جديد ، وعين عليها ابراهيم يكن باشا حاكماً ، وأقام لها حامية من الآلاى الثانى المشاة وأورطة من الآلاى الخامس والآلاى الخيالة الثامن .

معركة حمص

اضطر ابراهيم أن يمضى أسبوعين في دمشق إزاء الأنباء التي جاءت به بانتشار الكليرا في حمص حرصاً على سلامة جيشه ، ولم يبدد هذه الأيام هباءً ، إذ راح يعد العدة لأسباب التقدم ، ويدرب جنده . أما حسين باشا فإنه — قبالة ضغط ضباطه الأوروبيين — قد تخلى عن مراكره حول أدنه ، وتقدم الى انطاكية ثم أنفذ محمد باشا ، والى حلب ، على قيادة مقدمة الجيش وأمره بأن يحصن نفسه في حمص . والمسافة بين أنطاكية وحماه لا يستهان بها . ولا ندرى كيف أمر السردار أكرم قائد مقدمته بأن يبعد عن الجيش ... هل ياترى نسي تعليمات المقدمة في قانون الحرب ؟ فلما علم ابراهيم بالخطأ الذى اقترفه حسين باشا ، عزم على الاتصال بمقدمة الجيش التركى وسحقها ، ثم مهاجمة باقى الجيش بعد ذلك . فزایل دمشق زاحفاً على حمص^(١) التي كان القائد التركى محمد باشا قد وصل اليها ، واستدعى من بعلبك وطرابلس بعض وحداته التي كانت تحت قيادة عباس حلمى باشا وحسن المناستري .

(١) تقع مدينة حمص على الشاطئ الأيمن من نهر العاصى (أورنت) وموقعها غاية الأهمية لأنها ملتقى عدة طرق . فهى على طريق بعلبك ودمشق جنوباً — وطريق أنطاكية وحلب شمالاً .

فصارت القوة ، التى تجمعت تحت قيادة إبراهيم لدى وصوله إلى مشارف حمص فى الجنوب ، حوالى ثلاثين ألف مقاتل (مانجيان ج ٣ ص ٤٢) ورأى أمامه المعسكر العثمانى إلى جنوبى حمص ذات القلعة المهدامة وتحت أسوارها .

أوضاع الجيش التركى والمصرى :

كان محمد باشا يثق بالانتصار على خصمه ” إبراهيم وفلاحيه “ بل أوهمه اعتقاده أن سيفوز وحده فى معركة حمص وينال المجد بمفرده وبدون سرداره .

وفى صبيحة يوم ٧ يوليو وصل حمص وكانت أسوارها فى حالة طيبة ، تحيط بها الحدائق والقنوات التى يتسنى إعدادها لوسائل الدفاع . أما جنوده فقد أنهكها التعب ، وأسقمها السير الطويل فخطوا بأسلوبهم شمال المدينة ، على شاطئ الأورنت . بينما اقتنع القائد أنه فى مأمن من جنود إبراهيم — فأجل الى الغد وضع خططه وتدابيره وبدأ يستعد لتشريف الحفلة الأنيقة التى أعدّها له ولضباطه — الباشا والى حلب — تكريما لشخصه .

وبينما كان يتنعم بما لذ وطاب مما تشتهيه النفس من أضراب الطعام العثمانى ، وألوان الشراب السورى ، كان جنده غادروا مخيمهم يتضورون جوعا فى أسواق المدينة يخطفون الخبز وشرائح اللحم ، وكلما وصلت إليه أيديهم .

وفى مساء يوم ٧ يوليو (أيضا) كانت وحدات الجيش المصرى قد اجتازت مسافة طويلة وصارت على مسيرة خمس ساعات من حمص . فعلم قائدها الكبير بوصول الجيش التركى إليها .

وكانت الوحدات المصرية تتألف من ثمانية آلايات مشاة وستة خيالة و ٣٨ قطعة مدفعية ، ومجموع القوة حوالى ٣٠.٠٠٠ مقاتل يضاف إليها البدو غير النظاميين . وقد أفاده هؤلاء — وهم مهرة فى أعمال الاستكشاف — بوجود الجيش العثمانى .

وفى الصف الثالث ، الذى امتد بين الأورنت وضبعة مخربة ، تبعد حوالى ١,٨٠٠ متر عن جنوب شرق حمص ، وضع قواته غير النظامية وآلايا من الخيالة النظامية لحماية ميسرته .

وهكذا وزع مشاته وخيالته ، أما توزيع مدفعيته فتم على الوجه الآتى :
وزع مدافعه بين صفوف وحداته الآتفة المذكور بمعدل مدفع فى كل أورطة مشاة ومدفعين فى كل آلاى خيالة . وصف ٢١ مدفعا فى مواقع مختارة خلف مينة قواته .

حركات الجيش المصرى :

وبلما كان الجيش التركى يتخذ أوضاعه المذكورة ، فى أحوال سادها المهرج والمرج ، كان الجيش المصرى ، الذى قضى ليلته على مقربة من طاحونة قديمة بالقرب من قصير ، قد طفق مسيره فى فجر يوم ٨ يوليه متجها صوب حمص .
وكان ترتيب سير القوات كالآتى :

فى المقدمة ” الآلايات المشاة ” ١٢ و ١٣ و ١٨ يتبعها آلاى الحرس .
والآلايان الخامس والحادى عشر (المشاة) واتخذت كل أورطة فى تشكيل قول مزدوج مفتوح (غير كامل الانتشار) أما الآلاى الثامن فكان فى الاحتياط ، خلف منتصف القوة .

أما المدفعية فكانت ثلاث بطاريات منها فى الصف (الخط) الأول ، وأربع بطاريات وأبوسين بين الصف الأول والثانى^(١) .

وكان توزيع الخيالة على النسق التالى :

ثلاثة آلايات على كلا جانبي التشكيل كله — فى ميمته كما فى ميسرته ، وتحرس القوات غير النظامية من البدو أطراف الأجانب للقوات الاحتياطية .

(١) الصف هنا يطلق على الخط بأسره

وتناقل المعسكران المعلومات بوساطة عيونهما ، فأدرك محمد باشا ، وسط ضجيج الحفل والمرح ، تخرج الموقف ، فجمع كبار ضباطه اتقرير المصير . وهنا ارتأى البعض أن الأصوب التقهقر المنظم إلى موقع آخر بينما فضل آخرون خطة التحرك والقضاء على الجيش المصرى .

ولا مرية أنه كان من الأصوب فى مثل هذا الموقف ، الذى كان فيه الباشا وجيشه ، التقهقر تجاه حاب ، للاتصال بقيادته العليا فى أنطاكية وبآلاف الأهالى الموالين للأتراك ، واستهواء إبراهيم إليهم حيث يسهل عليها إدارة المعركة حسب مشيئتها . ولكن هل يتفق هذا الرأى وحبه للجد وهو قاب قوسين أو أدنى منه . إذن ليتقبل المعركة ، ويتحدى إبراهيم ، فى سبيل شهوه المجد .

وفادته فطمته بأن يلترم خطة الدفاع ، ويشبك نفسه بمحص ، متخذاً منها تكأة لحماية ، ومن القناوات والمباني المهتمة والأشجار موانع يقاتل جنده خلفها .

كان هذا حسن لو استبسل رجاله فى الدفاع والتشبث بمواقعهم . وبذا يعرقل تقدم جيش إبراهيم ويؤخره أياما ، فيعطى الفرصة للشير حسين باشا باتخاذ الخطة الصالحة فى الوقت والمكان المناسبين له وفى الصباح المبكر من يوم ٨ يوليو ، أزال محمد باشا معسكره ، ونشر رجل قواته قبالة جنوبى المدينة أمام مزارعها الغناء .

وزع جيشه فى صفوف ثلاثة . وضع فى الصف الأول أربعة آلايات مشاة نظامية عبر الطريق الموصل من حمص إلى دمشق شكى ميمته على الزاوية الكبرى للقناة المتصلة بنهر الأورنت . وميسرته فى فضاء الصحراء . وخلف الصف الأول الصف الثانى ، وضع فيه آلايين وآلاى خيالة عبر الطريق بين الأورنت ودمشق ويدعم بها قلب وميمته الصف الأول . والى شرق الطريق المذكور ، عند أكمة وضع آلايا آخر من الخيالة لتسند ميسرة الصف الأول .

نهر الأورنت والقناة (وتشبه الجزيرة أو الدلتا) لمهاجمة مينة الأتراك وكاحتياطي لها الآلاى السابع المدرع فى الصف الثانى — ولدى ظهورها تولى الرعب قلوب الأتراك، وتحطمت أعصابهم ، فاضطر القائد الى إصدار أوامره الى أورطتين فى اليمين لتغيير مواجهتها لصدد العدو المفاجئ ، ولكن كان الهرج قد عم الميدان . لقد بلغ القتال عنفوانه — المعركة فى الساعة الخامسة مساء والمدفعية المصرية تقذف نيرانها الشديدة على صفوف الأتراك ، فتسدد إصاباتا بكل دقة وإحكام، وترد عليها مدفعية الأتراك بدون خطة محددة، وتتبعثر طلقاتها هنا وهناك . بينما وهنت روح مشاتهم فى المينة فانضموا الى زملائهم فى القلب .

والآن تصل المعركة الى لحظاتها الفاصلة . ورأى ابراهيم باشا أن يستهل الهجوم الساحق ، فأمر آلايات الفرسان ٢ و٣ و٤ ومكانها على مينة صفوفه بالزحف شرقا (كالخطة الموضوعة) لتقوم بحركة الالتفاف حول ميسرة الترك وتولى بنفسه قيادة هذه المعركة لأن على نجاحها يتوقف مصير المعركة .

تحرك الفرسان الشجعان واجتازوا الضيعة المهتمة بنحو ألفين الى ثلاثة آلاف ياردة وتقدموا لمهاجمة الخيالة الترك غير النظاميين الذين كانوا على مقربة من الضيعة وكان الهجوم شديدا ومحكما . فتراجع الترك وتفرقوا . واحتل المصريون الأرض الواقعة بين الضيعة وحدائق حمص ، ولما رأى الفرسان الترك النظاميون ما حل بزملائهم غير النظاميين تقدموا لصدمة المصيريين وقد نجحوا — فأمد إبراهيم باشا فرسانه بقوة من جنود الحرس والمشاة (١٢ آلاى) والمدفعية فأوقعوا بهم وفزقوهم ، ثم هجم معهم المشاة المصريون من القلب فارتبكت ميسرة الأتراك بعد مقاومة عنيدة ثم تفهقرت الى الوراء وبذلك هزم الجناح الأيسر التركى برمته وتحلى عن مواقعه .

أما قلب الجيش التركى وقد اصطدم بنيران المصيريين المحكمة . وفى الوقت الذى لم تمتد مدفعيته بمعاونة كافية من النيران ، فبدأ ينثنى . وقام محمد باشا بوزن

وقد كان يسمح هذا التوزيع أو التشكيل لقائد الجيش — ابراهيم باشا بأن يقوم بالمناورة بحرية واسعة، حسبما تمليه عليه طبيعة الأرض التي سيتقدم عليها، وحسبما تصله المعلومات عن حركات العدو، إذا غير خطته في اللحظة الأخيرة الى هجوم مضاد . وكانت الأرض الى شرق الضيعة المخربة تسمح لابراهيم بمناورة يقوم بها بحركة التفاف واسعة حول ميسرة الأتراك، وهى أضعف نقط في خط دفاعهم، والتي لم ترتكز على موانع قوية تكسر من حدة الهجوم المصرى إن لم نقض عليه .

وأخيرا اتخذ ابراهيم قراره النهائى :

” يقوم قلب الجيش المصرى بالهجوم على واجهة الجيش التركى بكل قوته ، يطغى بمشاته وخياله ومدفعيته نحو ميسرة الأتراك فى حركة التفاف واسعة ، بينما تقوم بعض مشاته بهجوم خادع بموازاة نهر الأورنت لشغل مينة الأتراك فى خطيه الأول والثانى، وبذلك يربك عملهم نهائيا .

” يتجه لواء الخيالة الثانى (الآلايان ٢ و ٤) والآلاى الثالث الرماحة المدزعين نحو الضيعة المهتمة، وعند وصولها لأنسب المواقع تفتح تشكيلها بين الضيعة المذكورة والمزارع (جنوبى حمص) وتلف حول ميسرة المؤخرة التركية .

” آلاى الحرس والآلاى المشاة ١٨ تدعم القوة السابقة وتفتح تشكيلها عند وصولها الى غرب وجنوب غربى الضيعة المهتمة .

” بطارية مدفعية وأبوسان تتخذ مواقعها المناسبة حيال الضيعة .

بينما تجرى هذه الحركات تأخذ الآلايات ١٣ و ١٨ مواقعها فى الأمام ويأخذ الآلاى الخامس مكانه بدلا عن الآلاى الثانى عشر وتفتح وحداتها على طريق دمشق الكبير أمام قوات الأتراك فى الصف الأول .

” فى الوقت نفسه تقوم قوة منفصلة مكونة من الآلاى الحادى عشر المشاة والآلاى السادس والسابع الخيالة و بطارية مدفعية بالتقدم نحو الأرض الواقعة بين

وكانت خسائر الترك في معركة حمص جد جسيمة — ٢٠٠٠ قتلى و ٢٥٠٠ أسرى واستولى المصريون على عشرين من مدافعه علاوة على ذخائره وعتاده . أما خسائر المصريين فلم تزيد عن ١٠٢ من القتلى و ١٦٢ من الجرحى .
وفي اليوم التالي دخل المصريون حمص (٩ يوليو) بينما كان الترك يعدون صوب حلب وأنطاكية . وغلب خيالهم النظامية على أمرهم فاستولوا غير النظاميين على جيادهم يمتطونها ! .

نقد عمليات الجيشين

يجد المعلق الناقد لحركات الجيش التركي مادة مستفيضة من الأخطاء التي اجترحتها القيادة . فبعد أن قررت الخروج من حمص لقبول المعركة صفت قواتها في خطوط متقاربة بدون عمق كاف . فضلا عن عدم تفكيرها بوضع احتياط ينتفع به في الوقت المناسب للقيام بهجوم مضاد . فقد كان صفه الثالث هزيعا (راجع الأوضاع السابقة) وكان تشكيل أوضاعه خطيا (formation lineaire) فلم يك قادرا على القيام بحركة مناورة لها تأثير ناجح على سير المعركة ، ولم تنتفع بطبيعة الأرض إلا من ناحية الميمنة (نهر الأورنت والقناة) ومع ذلك فقد كوم محمد باشا في هذه الجهة معظم قواته ، وترك ميسرة جيشه في الهواء لا تعتمد على قوات أو موانع . كما أنه لم ينتفع بالحدائق أو التخوم التي تحيط بجنوب حمص وتركها والضيعة المهتمة لعدوه الذي انتفع بها تماما .

ولم يعرف كيف يوجه مدفعيته في نيران متجمعة على وحدات المصريين ، بل نثر توزيعها على أهداف كثيرة .

وبالاختصار كانت أوضاع الأتراك وتوزيع قواتهم لا يسمح بأي نجاح سواء في حالة الدفاع أو في حالة الهجوم المضاد . فقد أهملوا المبادئ الرئيسية للقتال الناجح .

وتقدير الموقف الذى أصبح حرجا بعد أن أصبحت ميمته ووسطه فى حالة سيئة تهدد بالانهيار السريع . وكان ينبغي عليه استدعاء قواته الاحتياطية ليعزز بها المراكز التى ضعفت ويقوم بهجوم مضادّ فى ناحية الضيعة . لكن لم يفعل — ووجد حلا يائسا يخرجهم من الورطة فأمر آلاى خيالة فى ميسرة صفه الثانى بالهجوم على مدفعية المصريين الذين وصلوا الى الضيعة كما أمر آلاى مشاة فى قلب الصف الأمامى (وكان هذا الآلاى يرتكز على آلاى الميسرة فى الصف الثانى للقيام بالهجوم بالسونكى لاقتحام الآلاى المصرى الثانى عشر . وأسرع آلاى خياله بتنفيذ الهجوم ولكنه كان متعبا فكان هجومه غير منظم وقابله مدفعية الحرس بنيرانها المحكمة — فدار وولى الأدبار — أما آلاى المشاة (التركى) فتقدم من القلب كالأمر الذى صدر اليه ولكن أوقفته نيران الآلاى الخامس المصرى ثم هاجمه من الجنب الآلاى ١٢ المصرى فى تشكيل مدرج من الميمنة . ولم يفعل شيئا لمقاومة الهجوم المصرى .

ويسدل الليل ستاره . وتحت ظلام الليل يمتطى محمد باشا جواده قاصدا مدينة حمص ، وبدأ كل قائد يبحث عن وسيلة لينقذ نفسه ، واقتدى الضباط بقادتهم ، ثم بدت الفوضى والهزيمة والدعر ، حين تأتى دور الجند فى ترك صفوفهم وولوا الأدبار مدحورين .

ولقد خال المصريون أن الأتراك — بعد لم شعتهم فى الليل — سيعاودون القتال ، إذ كانت قلعة حمص تحمى ظهورهم . ومرت لحظات توقع المصريون أن يعاود الترك الكرة ويستأنفوا القتال ، ولكن شيئا من هذا لم يقع ! ولم يفكر الترك فى معاودة القتال . فتقدم ابراهيم باشا بحذر على رأس جيشه الظافر محملا المواقع التى أخلاها الترك . وأعاد تنظيم قواتها وصفها على شكل مربع ووضع المدافع زواياه الأربع . فازداد مركزه منعة بينما كان الأتراك يمعنون فى الانسحاب مكسورين . وبادر ابراهيم باشا فأرسل الى أبيه ينبئه بهذا النصر الكبير الذى عرف عند المصريين بيوم هزيمة الباشوات .

وفي التقرير الذي رفعه ابراهيم لأبيه عن المعركة ، قال عن العدو :

”لم أرفى حياتي هزيمة كهزيمة العدو . فاني لا أغالى إذا قلت أنه لو زحف على مئتا ألف أو ثلاثمائة ألف من عساكره لما نبض لي بسببهم نبض أو اكثرتهم بهم ، ونحن بمشيئة الله ظافرون بأولئك العساكر أينما وجدوا . وقد أرسلنا الأسرى الى عكا وأمرنا ديوان أفندى بأن يقبل في التقاعد كل من يريد تسجيل اسمه فيه ويرسل من يرغب في العودة الى وطنه اليه في مصر أو غيرها . وقد بلغ عدد القتلى منا ١٠٢ والجرحى ١٦٢ وخسرنا ١٧٢ جوادا .

معركة بيلان

الجولة الثالثة

قضى ابراهيم وجنوده ليلتهم في المواقع التي كانت تحتلها بالأمس جنود الترك ، وفي تاسع يوليو دخل حمص على رأس شجعانه ، وقصد بهم إلى حلب . فبلغ حماه في عاشره وكان رجاله يلتقطون الأسرى وقد ارتضى معظمهم الاندماج تحت رايته . هذا فضلا عن المدافع والعتاد . وفي حماه عثر على خيرات الطعام الوفيرة التي كدستها القيادة العثمانية ، لأنهم رأوا جعل حماه قاعدة لعملياتهم ، وقد سارع ابراهيم في مطاردته العدو ليحرمه من التجمع وإعادة ترتيب صفوفه ، فكان يسير بقواته في الساعات الأولى من النهار ومن ثم يمنحهم الراحة . وقد تقدموا سراعا فاحتلوا ماهينكه يوم ١١ ومعار ونعمان في يوم ١٢ وتل سلطان يوم ١٣ وزيتان يوم ١٥

وهنا يحسن أن نعرض أعمال السردار حسين باشا منذ تركاه بعد إصدار أوامره لقائده محمد باشا . فإنه تقدم على رأس قسم من الجيش بين اسكندرونه وإنطاكية . كان من بينه ٨٠٠ خيال و ٧٠٠ حمل تحمل الذخيرة مميها صوب حمص . وكان يظن أنه سيسبق ابراهيم ويملي عليه المعركة فالتقى في طريقه بفلول جيش محمد على باشا وعرف نبأ هزيمة حمص . وعلى ذلك أرتد إلى حلب ليتخذها قاعدة حربية .

أما فيما يخص بحركات المعركة من الجانب المصرى فقد كانت كل دقائق الخطة محبوكة من الطرفين واتسمت كل حركة بالنشاط والبراعة فى تنفيذها . فقد نظر ابراهيم جليا الى نوع المناورة التى يعملها مهتديا بطبيعة الأرض وبتوزيع قوات خصمه وموقفه — فكانت الأوضاع التى اتخذها فى توزيع قواته متفقة كل الاتفاق مع التكتيك المثالى وطاقته التى يستطيع بها تنفيذ الحركة من تقدم أو هجوم جانبى أو جبهى أو تقهقر (وهذا لم يفكر فيه أبدا) وكانت وحداته موزعة فى عمق كاف يسمح له بالسيطرة على تنفيذ الحركات وفقا لما يبتغى . وأحسن تعبير لبراعة مناورة ابراهيم نجده فى عبارة المارشال فيجان فى كتابه المعروف .

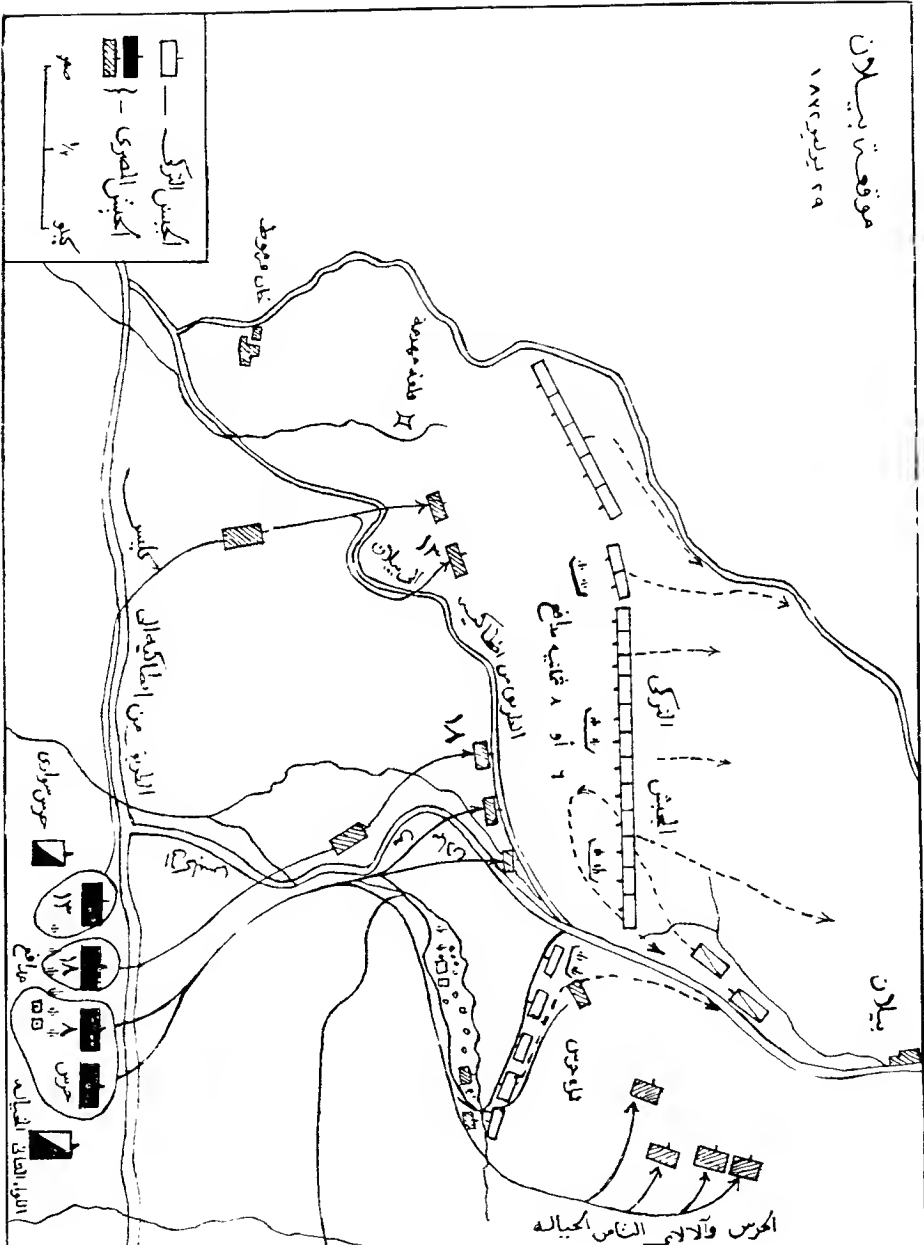
“La manœuvre était en germe dans le dispositif initial de son armée”.

وكانت حركة الالتفاف حول جنب القوات التركية رائعة كما أسلفنا محبوكة فى تفاصيلها ومجموعها . كذلك كان هجومه على ميسرة الترك . وكان استخدام المدفعية يسير حسب خطة موضوعة لا هباء ولا ارتجالا ، وهى قواعد المدرسة الحربية الحديثة التى وضع أسسها نابليون ، وفهمها سليمان بك ، وضمها إبراهيم ، فعرف كيف ينتفع بها . هى الأسس التى أهمها مرونة الخطة ، والقدرة على تنفيذها والسرعة فى إنجازها ، وأثر المفاجأة الذى ستحدثه على العدو .

ففى معركة حمص تقابل وجها لوجه للمرة الأولى جيشين شرقيين ، أسلحتهما واحدة ، وأسلوب حربهما متقنة . فكان النصر من نصيب الجانب الذى تفوق فى تنظيمه ونظامه فى القتال وروح قيادته العليا ، وفى هذه المعركة هدم الجمود أمام الحركة والسرعة .

أجل . فى معركة حمص بانت روح القيادة المنظمة التى تسود الجيش المصرى ومحى الجنود المصريون هزيمتهم ، أو بعبارة أوضح هزيمة أسلافهم التى لحقت بهم فى عام ١٥١٧ (معركة مرج دابق) حينما اعتدى السلطان سليم على استقلال مصر وهزم سلطانها الغورى .

٢٩ بولص ١٨٢٢



وطالب حسين من أعيانها أن يمدوه بالمؤونة والرجال ولكن كان أهلها قد بغضوا الحكم التركي وأشفقوا على مدينتهم أن يحل بها الخراب ، فأبوا أن يدخل أحد من جنوده إلى مدينتهم ، ولم يسمحوا إلا للجنود الجرحى والمرضى بالدخول ، ثم أغلقوا أبوابها ...

أحتفظ حسين باشا بالهدوء وقال مداعبا الذين حوله . إن جوادى لا أستطيع إرغامه على شرب الماء . فقد صمم على أن يرتوى من ماء النيل ...

وقبالة غناد الحلبيين اضطر السردار إلى مبارحة مدينتهم يوم ١٤ يوليو قاصدا اسكندرونة حيث كان يرسو الأسطول العثماني ، فأصبح تحت عاملين ، هل يعود إلى بيلان (جنوبي اسكندرونة) أم ينطلق نحو الشمال ويحصن نفسه بالقرب من مضيق طوروس المفتاح الشمالى . وأخيرا قرّر قراره على اتخاذ مكان حصين لدى مضيق بيلان^(١) وساعدته طبيعة الأرض على الامتناع بها .

أما إبراهيم فقد وصل حاب يوم ١٧ واضطر للإقامة فيها عدة أيام لتستريح جنوده ، وينفضوا عن أنفسهم متاعب القتال والوباء ، الذى تفشى فى بعض صفوفهم ، نتيجة لما خلفه الأتراك وراءهم . وقد أفاد من بقاءه هناك ، بعد أن أوضح للأهالى من جميع الملل أهداف أبيه من قتال الباب العالى . فانضموا إليه بعد أن تبدت نواياه ، وسمعوا خطباء المساجد يخطبون باسم خليفة المسلمين . وفى أثناء إقامته جاءته وفود من أورفا وديار بكر تعلن خضوع المدينتين لحكم محمد على .

(١) تقع مدينة بيلان جنوبي الاسكندرونة وشمالي المضيق والجبل المعروفين باسمها . ويصل إليها طريقان طريق من كايس وطريق من أنطاكية . ويقترّب الطريقان فى سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ٣٠٠ متر ثم يلتقيان فى المضيق جنوبي بيلان — فيصبحان طريقا واحدا يصل إلى المدينة (الحركة القومية — للرافعى ج ٣ ص ٢٥٣) .

وفي ٢٥ يوليو زایل حلب مبتغيا أنطاكية ، وقسم قواته إلى شعبتين : احدهما تؤلف من غير النظاميين اتخذوا طريقهم إلى أنطاكية مباشرة وثانيتهما قواته النظامية عبروا مضيق كليس للالتفاف شمال أنطاكية والاستيلاء عليها من الخلف .
وفي يوم ٢٨ وصل إلى قبالة أنطاكية ، وحدثت عدة مناوشات بين البدو وبضع مئين من الترك ، ثم دخل المدينة وكان حسين باشا قد أعلن أنه سيدافع عنها لكنه لم يفعل .

وقف إبراهيم أمام جبل أمانوس ، وهو من شعاب جبال طوروس أو امتداد لها شاهق العلو ، يرتفع نحو ١,٨٠٠ متر ، يجتازه مضيق بيلان الذي يصل بين سهلي أنطاكية وخليج اسكندرونة ، أو يفصل بين سوريا وكيكيا ، وهو الممر الذي اجتازه جميع من قادة العالم العسكريين لفتح الشرق ، من مصريين وآشوريين وفرس وأغريق ورومان وعرب وفرنج وترك وسواهم . واليوم يدنو منه قائدنا إبراهيم ليجتازه وليس عليه ذلك بعسير . هذا اليوم هو صباح ٢٩ يولييه .

مواقع الجيش التركي الدفاعية :

كان الجيش التركي مؤلفا من نحو ٤٥٠٠ من المقاتلين ، من جميع الأسلحة ، و ١٦٠ مدفعا بقيادة حسين باشا ، يربط في مواقع منيعة — اتخذ مواقعها على قمم جبال بيلان . فاحتشد المشاة وتؤلف من خمس أوط فوق هضبة ، يصل طرفه الأيمن (مينة الجيش) إلى طريق وعري يخترق جبال أمانوس آتيا من خان قرموط إلى بيلان ، وطرفه الأيسر (حيث القلب) إلى الطريق الوسط الواصل في أنطاكية إلى بيلان ويؤلف من ١٤ أوط مشاة . أما ميسرة الجيش (ه أوط) فكانت ترابط على امتداد ذلك الخط فيما يلي هذا الطريق ، تعاونها بعض المدافع الموضوعة على أكمة قريب من الطريق . وأقام الترك أمام صفوف المشاة بعض الموانع والبلانقات وزعوا خلالها المدافع . وفي واد ضيق يقطع الطريق جنوب بيلان كان آلايان من خيالهم .

٤ آليات مشاة

٣ آليات خيالة

٤ بطاريات مدفعية ميدان (وفي مصدر آخر ٢)

٢ مدفع أبوس

وأخذ إبراهيم باشا على كاهله قيادة هذه الوحدات ، لأهمية دورها المطلوب تنفيذه .

وأمر أمير الآلاى حسن بك المناسترى بالاستعداد للهجوم المباشر على قلب ومينة الأتراك والتقدم عن طريق بيلان أنطاكية ، على رأس الآلاى ١٣ وبطارية مدفعية — فتقدم إلى الطريق واحتل الموقع المطلوب بينما تبعه الآلاى الخيالة الخامس كقوة احتياطية له في هجومه على مينة الجيش التركى .

أما اللواء الثانى الخيالة ، والآلاى السادس الرماحين المدرعين ، فطالب منهم العمل بين القوتين الأتنتين ، ومساعدة إحداهما لدى الضرورة ، بينما يكون الآلاى ١٨ المشاة وبطارية ميدان في الاحتياط .

المعركة :

ولما شاهدت القيادة التركية تقدم الشعبتين (القولين) المصريتين حتى أمرت بفتح النيران الشديدة على طريقى تقدمهما فغمرتهما القذائف بعنف . وفى الحال ردت عليهما مدفعية البطارياتين المصرية التى فى القول اليمين بنيران محكمة الغاية وشديدة التأثير — وفتحت فصيلتان من القناصة تشكيلها بسرعة (من الحرس) واخترفت غابة صغيرة وأحمت الجبهة برصاصها السريع . وبعد قليل التحق بالفصيلتين أشرطة من الحرس ومعهما أبوسين واستمروا فى هجومهم الموفق ونجحوا فى إسكات الميسرة التركية ، واستمر وصول بقية آلاى حرس بسرعة مع أفراد الآلاى السابق فى أمواج تدريجية متتالية . وفى نفس الوقت كان الهجوم الجبهى بقيادة المناسترى

وكانت مؤخرة الترك المؤلفة معظمها من المشاة موزعة في خط واحد على قمة أمانوس ، وهكذا ترى من أول نظرة أن حسين باشا لم يك موقفا في وضع خطة دفاعه . فقد اتبع الأسلوب الخطى في توزيع قواته وأهمل العمق ، الذى يسهل عليه القيام بالمانورة ، على مقياس كبير .

خطة الجيش المصرى :

عسكر الجيش المصرى فى السهل المنبسط ، تحت مضيق بيلان ، غربى الطريق المواصل من كليس وأنطاكية ، واتخذ المشاة مواقعهم فى الصفوف الأمامية ، وخلفهم الخيالة والمدفعية فى الوسط ، وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وعتاده .

كشفت إبراهيم باشا مواقع الترك على جبل بيلان ، فوجدها منيعة ، يصعب على قواته أن تنال منها فوزا . وفى مساء يوم ٢٨ جمع مجلسا من ضباطه لوضع قرارهم النهائى فى الخطة التى ستنفذ . فرأى بعضهم تأجيل الهجوم على المضيق إلى بعد الغد ، ورأى الآخرون القيام بهجومهم يوم الغد ليحرموا العدو من تعزيز مراكزه أو وصول إمدادات إليه من اسكندرون .

ومن محاسن الصدف ، أن يقع المستشار الفنى لحسين باشا فى قبضة إبراهيم ، وهو الكابتن الفرنسى (Thévenin) بعد الاستيلاء على حلب ، فحرم الأتراك من معاونته . وينتهى قرار المجلس إلى الأخذ بخطة الهجوم ، فى اليوم التالى (صباح يوم ٢٩ يوليو) ، والقيام بحركة التفاف حول ميسرة الترك من الجنب ، تمهيدا للإحاطة بها ، ثم احتلال بعض المرتفعات المتسلطة على القلب . ويجعل مشاة الأتراك هدفا لنييران المدافع المصرية ، وفى الوقت نفسه يرسل جزءا من قواته للإحاطة بيمينه الأتراك — وكانت خطته صورة لما اتبعه فى معركة حمص — وكانت خطة الالتفاف تتطلب القوات الآتية :

وهكذا فاز ابراهيم بالنصر، لأن تنفيذه للخطة كان دقيقا ورائعا . وأعاد حسين باشا السردار أمام بيلان موقف سلفه القائد محمد باشا قبالة حمص .
وكان نشاط ابراهيم في المعركة ، التي قام بأظهر دور فيها ، بادييا في كل حركة من حركات الجند والضباط ، فاستحق ثناء والده وإعجاب مواطنيه .



قضى الجيش المصرى ليلة ٢٩ يوليو في مواقع الأتراك ما عدا أورتين أمرتا بدخول بيلان وانفصل منهما بلوكان وفصيلة خيالة مدرعة لاستكشاف الطريق إلى اسكندرونة .

وفي يوم ٣٠ يوليو احتل ابراهيم باشا بيلان . أما الخيالة فقد سلكت طريق اسكندرونة بقيادة عباس باشا حلمي . حيث عثروا على كميات مكسدة من الغنائم و ١٤ مدفعا وأصناف التعمين التي تكفي الجنود أربعة أشهر .

وقد تردد حسين باشا في تدميرها . وكان وصول فلوله إلى اسكندرونة ، بعد قيام سفن الأسطول العثماني بدقائق .

احتل ابراهيم ميناء اسكندرونة ، واندفعت الخيالة الى باياس أسرة نحو ١٤٠٠ تركي وسلمت له انطاكية واللاذقية والسويدية . أما حسين فقد أسر نحو اذنه بعد اجتياز مضيق طوروس على رأس شرادم لا يفخر أى قائد في الدنيا أن يكونوا جنوده .

وعقب راحة قصيرة الأجل ، احتل جنود ابراهيم اذنه وطوروس ، وكانت الأولى مفتاح الزحف على الأناضول . وبعد أيام كان العلم المصرى يخفق على أورفا وعينتاب ومرعش وقيصرية .

وبعد هذا النصر، فأى الطرق السياسية يسلكها محمد علي ؟

سأرا على ما يرام ونجحت البطارية التي تحت قيادته في إنزال الخسائر الجسيمة بالأتراك . وهنا انحرف الآلاى ١٣ المشاة إلى غرب الطريق (انطاكية) وهاجم ميمنة العدو . وأخذ الآلاى ١٨ مكانه في الهجوم الخفيف ضد قوات القلب .

وفي اللحظة التي انتهى فيها آلاى الحرس من تحقيق أهدافه الأولى ، تهايا للالتفاف بميسرة العدو فلم ينتظر حسين باشا اللطمة التي كانت مستدة نحوه — وعمل على التفهقر السريع نحو بيلان . واتهز الفرصة بالقناصة المصريين فهجم على بطارية تركية (٦ مدافع) كانت قد تركت وحدها بدون المشاة تحرسها وصعد جنودهما اليها على أكمة تطل عليها وأسكنوها . وحاولت آلايات الخيالة التركية القيام بحركة تقدم إلى الأمام فصعدتها نيران الحرس ، الشيء الذي جعلها تسرع نحو بيلان بغير نظام وقد تبددت جموعهم .

وهكذا أخلى الطريق إلى بيلان من قوات الأعداء ...

وبعد أن ارتدت ميسرة الترك ، وصل المصريون في تقدمهم إلى طريق بيلان نفسه ، وتخرج مركز قلب الجيش التركي ، وأدركت قيادته أن خط الرجعة الى بيلان أصبح مقطوعا بوصول المصريين إلى الطريق . فلاذ العدو بالفرار ، وتخلي عما بقى له من المواقع ، وتشتت وحداته في الجبال .

وكان الآلاى الثالث عشر قد قام بمهمته خير قيام ضد ميمنة الترك ، ووصل رماثهم ومعهم مدفعيتهم إلى أكمة قريبة من أقصى الميمنة . ولما رأى العدو ما حل بالميسرة ، تخلوا أيضا عن مركزهم وتقهقروا نحو الجبال .

وباستيلاء المصريين على مواقع الأتراك انتهت معركة بيلان بهزيمة تامة ، بعد قتال عنيف دام نحو ثلاث ساعات ، قتل فيه ٢٥٠٠ تركى وجرح وأمر منهم نحو ألفين ، وغنم المصريون حوالى ٢٥ مدفعا وكثيرا من الذخيرة والعتاد . ولم تتجاوز خسائر المصريين ٢٠ قتيلًا .

” تقول لى فى كتابك أنك تريد أن تسك المعدن وهو حام . وإنك تريد أن
يخطب باسمى فى جميع المساجد والمعابد — فاعلم يا ولدى أنا لم نصل إلى مركزنا
الذى نشغله الآن إلا بقوة الوداعة وخفض الجانب فإنه يكفينى أن أحمل اسم
(محمد على) خالصا من كل رتبة وزينة فهو أكبر لى من جميع ألقاب السلطنة والمملك
لأن هذا الاسم وحده هو الذى خولنى الشرف الذى يجالنى الآن . فكيف أستطيع
يا ولدى أن أتركه إلى سواه — لا يا ولدى إني أحفظ اسمى (محمد على) وأنت يا أبى
تحفظ اسمك (إبراهيم) وكفى عليك رحمة الله وبركاته “ .

أما فرنسا فقد أبلغت الباب العالى أن إصراره على القتال لا يوصله إلى نتيجة
لضعف قوته دون قوة محمد على التى تتزايد بحرا وبرا .

من الواضح أنه كان قبائله طريقان : فإما أن يعلن الاستقلال ويأمر ابنه أن يستمر في الزحف للقضاء على جيوش السلطان الهاربة فيضطر الخصم إلى التسليم والاعتراف بالأمر الواقع ، أو أن يأمر ابنه بالوقوف أملا أن ينال هدنة عن طريق تدخل الدول . ولم يخل أحد الطرفين من أخطار .

وستبين لنا مسيرة الحوادث ما سيكون بعد معركة بيلان .

احتل إبراهيم باشا طورسوس ، ثم دخل أدنة في ٣١ يوليو سنة ١٨٣٢ ، وفيها تلقى القائد من والده أمرا بالوقوف ، فقد بلغ الغاية التي كان يسعى إليها ، أى الوصول آخر حدود البلدان العربية . ولكنه أرسل آلايين إلى أورفة وقوة من فرسان العرب لمراقبة الطريق من أرضروم وسيواس وديار بكر فاحتلت القوة مرعش كما أرسل قوة إلى نهر الفرات لحماية جناحه الأيمن وبقى إبراهيم في خطة الدفاع منتظرا أوامر أبيه إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢

موقف إنجلترا من نجاح إبراهيم :

وإلى هنا كانت السياسة الإنجليزية أمام النجاح المصري غامضة . أمامها سيلان أولها أن تدع محمد علي يؤسس دولة عربية قوية لصد التيار السلافي الروسي ، والسبيل الثاني أن تحتفظ بتركيا وتقويها لتظل هي الحاجز بينا تهدم الامبراطورية المصرية الناشئة ، لأنها إذا عاشت أصبحت حاجزا قويا على طريق الهند .

فأى السبيلين تتجه إليه سياسة الإنجليز ؟ لقد فضلوا الوقوف في منتصف الطريق فلا تقاوم محمدا عليا ولا تظاهر السلطان خوفا من روسيا . أما سياسة إبراهيم فهي أخذ الأمور بالقوة وإيقاف الدول أمام الأمر الواقع .

لذلك كان يستأذن والده بالزحف على قونية ، ثم الآستانة ، ويرجوه في أن يحمل خطباء المساجد على إلقاء الخطبة باسمه . فكتب محمد علي إلى ابنه في الثامن من شهر سبتمبر يقول :

المتعددة وكسوات التشريفة والخلع الثمينة والسيوف . وكان يداوم على حضور الصلوات مع أفراد جيشه .

ولما ودّع السلطان جيشه قال لرشيد باشا — وقد منحه ولاية مصر والمجاز وكريت وحلب وما إليها — ” انقذ الدولة فإن شكرى لك ولعسا كرك إذا أنت فعلت لا يكون له حدّ “ .

الجيش المصرى :

وكان عدد الجيش المصرى فى الشام بعد وصول الإمدادات إليه من مصر — والأسرى الذين بدأ ينظمهم مع السوريين المجندين يتألف من :

١٠ آلايات مشاة .

١٢ آلايات فرسان .

مدفعية .

٥٠٠٠ وحدات مساعدة .

٢٠٠٠ بدو .

وصل مجموعها إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل تقريبا .

مثل هذا الجيش ، كان من الناحية الإدارية ، أفضل تنسيقا ، من الجيش الآخر . ولا غرو فقد كان أرقى الجيوش كلها ، التى أنشأها محمد على . وفى الواقع ، كان هذا الجيش موضع نخار مصر ، واعتزاز محمد على وإبراهيم وسليمان بك ، بل وحمل عنايتهم الأولى .

ومن بين الوحدات المذكورة قوات كبيرة تعمل على خطوط المواصلات ، أو موزعة فى الحاميات الرئيسية وتبلغ هذه حوالى النصف . ولذلك يتسنى القول بأن ٢٧,٠٠٠ مقاتل لحسب ، هى التى تحت قيادة إبراهيم باشا ، فى عمليات الميدان . يقابلها ٨٠,٠٠٠ تحت قيادة رشيد باشا^(١) هم خليط من أجناس الامبراطورية العثمانية .

(١) فى إحصاء كادلفين ٥٣,٠٠٠ مقاتل — ص ٢٩٥ .

معركة قونية

ال الجولة الرابعة

الجيش العثماني :

أين قادة الترك ؟ لقد دحرم إبراهيم الواحد تلو الآخر . ولم يتبق لدى السلطان محمود إلا القائد رشيد باشا . رمي إبراهيم في حرب المورة ، وزعيم حرب المصابات ... ولكن أين الجيش الذي سيوليه قيادته ، بعد أن افتقد جنوده في فيافي الأناضول !

نادى السلطان وزيره الكبير رشيد باشا ، بطل ميسولوجي وأثينا ، وقاهر ثورة أشقودرة ، فلبى القائد النداء . ومضى إلى الآستانة ليضع حياته في خدمة السلطان . وليعدّ التدابير لجيشه الجديد . وفي أخريات أكتوبر انتظم الجيش الثاني في أربعة أقسام : أولها مؤلف من ٢٠,٠٠٠ من النظاميين والألبانيين يحتشد في أشقودرة حيث كانت الرئاسة العليا للجيش ومقر الوزير ، والقسم الثاني مكون من ٢٠,٠٠٠ في أرضروم واحتشدوا بين سيواس وقيصريه بقيادة عثمان باشا وإلى طرابزون ومعه عثمان آخر ، والقسم الثالث بقيادة سليمان باشا تعدادة حوالى ١٠,٠٠٠ يعدّ حشده في منطقة طوروس على ميسرة إبراهيم باشا لستر "صا تاليا" ، أما القسم الرابع من الجيش التركي فقد تألف من أنقاض جيش حسين باشا وعدده يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ ألف يتجمع لدى قونية بقيادة رءوف باشا .

بلغ الجيش العثماني في مجموعة ٨٠,٠٠٠ أى ثلاثة أمثال جيش إبراهيم ، ولكن هذا التفوق العددي لم يك كل شيء ، فكانت تنقصه قوة الالتحام ، وكان كل قسم منه يختلف عن الآخر في الكفاءة والتدريب والنظام والقيادة والتنظيم العسكى أيضا . أما السلطان فلم يدّخر وسعا لبث الحماسة في جنوده الذين يتوقف عليهم كيان دولته . وتوسل إلى ذلك بشتى السبل ، من طواير العرض إلى مقابلة الضباط والتوسع في إقامة الولائم للجند وتوزيع النياشين على الضباط إلى منح الرتب

منظمة يديها الأتراك فيزيلها بعد قتال شاق ويواصل المطاردة عبر طريق اركلي (هرقله) . ويقضى الجنود ليلتهم في أولان كيشلي وقد أنهكتهم أعمال القتال خلال اليوم .

وفي يوم ٢٣ أكتوبر ، بعدما وصلت أنباء القتال بالتفصيل إلى إبراهيم ، بارح نمرود وتقدم إلى الأمام لعبور طوروس ويصل إلى زانيب .

وفي ٢٥ أكتوبر احتل اركلي ، التي أخلاها الترك لدى اقتراب المصريين ، وقد ابتهج السكان لمقدمهم . ثم استراح في هذه المدينة ثلاثة أسابيع ، في انتظار موافقة أبيه على التقدم في قلب الأناضول . ومثل هذه الفترة لم يبددها سدى ، فقد حشد قواته التي كان معظمها يستجم في جنوب طوروس .

وفي ١١ نوفمبر كان الحشد قد تم .

في ذلك الوقت ، كانت الاتصالات السياسية مستمرة بين الدول الأوروبية والباب العالي من ناحية ، وبينها وبين محمد علي من ناحية أخرى . وفي خلال ذلك كان إبراهيم يتبادل الرأي مع أبيه بوساطة الرسل أو عن طريق المكاتبات . وقد رأى القائد أن يتقدم إلى قونية تمهيدا لوثبة أخرى يهتد بها السلطان . أما الأب السياسي فكان يرى أن يعود من قونية بعد دخولها ويترك النتائج للرأي العام في الآستانة لعله يؤثر في موقف السلطان . وفي الرسالة التالية موقف الرجلين ، حيث رد إبراهيم على أبيه في الثالث من نوفمبر يقول :

”يجب علينا حسب أوامرك أن نتقهقر إلى الورا بعد الاستيلاء على قونية . فالشائع أن الصدر الأعظم يزحف علينا بقوة كبيرة فإذا نحن تقهقرنا عزوا ذلك إلى الجبن والخوف وعلى عجزنا عن مقابلته وفوق هذا كله فإن الصدر الأعظم ينغم الفرصة للزحف على قونية . وقد يتجاوزها للحاق بنا مديعا خبر تقهقرنا ومن يدري ما يكون من وراء ذلك فقد ينضم إليه الشعب . وقد تثور سورية والأناضول علينا ويظل الغرض من تقهقرنا خفيا لا يفهم . وبناء على ما تقدم لا ينبغي لنا أن ندع الفرصة

وبناء على المعلومات التي كانت تصل إلى إبراهيم عن تجمعات الجيش التركي . طلب إلى أبيه أن يوافقه على اجتياز طوروس ، ليقضى على تجمعات الأتراك أولاً بأول ، قبل تكامل استعدادها . ولأنه كان يخشى حلول زمهرير شتاء هضاب الأناضول . وتمت الأيام والمراسلات متصلة بين قائد الجيش ورئيس الدولة (مجد على) أولهما يتكلم بلهجة الجندى ، وثانيهما بلهجة السياسى ، وتعارض آراؤهما . ويجهز إبراهيم على اتهاج خطة الدفاع ، بينما تجمت قواته فى منطقة أدنة — طوروس بين خليج اسكندرونه وكليكا . ثم تصل إبراهيم أبناء وثيقة بأن الفصائل التركية قد استحوذت على مضيق طوروس ، وهو الممر الذى يصل بين أدنة وقونية ، وأن هذه الفصائل بدأت تناوش نقطه الأمامية ، مما دعا إبراهيم إلى التصميم للاستيلاء على المضيق بدون انتظار أوامر عالية ، ليتحكم فى نقطه الأمامية ومخافه القوية . وكان لابد له أن يستولى على هرقله (اركل) وقد دخلها فى يوم ١٥ أكتوبر . وكان هناك طريقان يفضيان من أدنة إلى اركل عبر طوروس ، أحدهما عن سبيل منارة خان وشفث خان وأولان كيشلى وشابان ، والآخر عن سبيل طورسوس ونمرود وشاكال وزانبا .

وأصدر إبراهيم أمره إلى قواته غير النظامية والبدو باتباع الطريق الأيمن ، للهجوم على شفث خان ، بينما يقتاد نفسه قوة مختلطة مؤلفة من آلاى خيالة وآلاى مشاة وبطارية مدفعية ويتبع الطريق الأيسر ليهاجم نمرود .

وفى ١٨ أكتوبر ، وصل إلى نمرود بدون قتال ، وفى اليوم التالى بلغ قول اليمن طوروس ، ثم اجتازت مقدمته مضيق كولك بوغاز . ولما عبر وادى شفث خان اعترض التقدم المصرى قوة تركية فتسدد الطريق فى وجههم واستولت أخرى على بعض المرتفعات الهامة . وقبلالة هذه الحركة الناجحة أمر القائد المصرى سليم بك الحجازى بفتح نيران شديدة كما أمر خيالاته باقتحام صفوف الترك فتبعثرها وتقتل منهم ٢٠٠ وتأسر ٣٠٠ ويستمر سليم بك فى المطاردة ، لكن اتصاله بالمعلومات بمقاومة

المتعددة وكسوات التشريفية والخلع الثمينة والسيوف . وكان يداوم على حضور الصلوات مع أفراد جيشه .

ولما ودّع السلطان جيشه قال لرشيد باشا — وقد منحه ولاية مصر والحجاز وكريت وحلب وما إليها — ” انقذ الدولة فإن شكرى لك ولعسا كرك إذا أنت فعلت لا يكون له حد “ .

الجيش المصرى :

وكان عدد الجيش المصرى فى الشام بعد وصول الإمدادات إليه من مصر — والأسرى الذين بدأ ينظمهم مع السوريين المجندين يتألف من :

١٠ آلايات مشاة .

١٢ آلايات فرسان .

مدفعية .

٥٠٠٠ وحدات مساعدة .

٢٠٠٠ بدو .

وصل مجموعها إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل تقريبا .

مثل هذا الجيش ، كان من الناحية الإدارية ، أفضل تنسيقا ، من الجيش الآخر . ولا غرو فقد كان أرقى الجيوش كلها ، التى أنشأها محمد على . وفى الواقع ، كان هذا الجيش موضع فخار مصر ، واعتزاز محمد على وإبراهيم وسليمان بك ، بل ومحل عنايتهم الأولى .

ومن بين الوحدات المذكورة قوات كبيرة تعمل على خطوط المواصلات ، أو موزعة فى الحاميات الرئيسية وتبلغ هذه حوالى النصف . ولذلك يتسنى القول بأن ٢٧,٠٠٠ مقاتل فحسب ، هى التى تحت قيادة إبراهيم باشا ، فى عمليات الميدان . يقابلها ٨٠,٠٠٠ تحت قيادة رشيد باشا^(١) هم خليط من أجناس الامبراطورية العثمانية .

(١) فى إحصاء كادلفين ٥٣,٠٠٠ مقاتل — ص ٢٩٥ .

معركة قونية

الحوالة الرابعة

الجيش العثماني :

أين قادة الترك ؟ لقد دحرم إبراهيم الواحد تلو الآخر . ولم يتبق لدى السلطان محمود إلا القائد رشيد باشا . رميل إبراهيم في حرب المورة ، وزعيم حرب الحصابات ... ولكن أين الجيش الذي سيوليه قيادته ، بعد أن افتقد جنوده في فيافي الأناضول !

نادى السلطان وزيره الكبير رشيد باشا ، بطل ميسولونجي وأثينا ، وقاهر ثورة أشقودرة ، فلي القائد النداء . ومضى إلى الآستانة ليضع حياته في خدمة السلطان . وليعدّ التدابير لجيشه الجديد . وفي أخريات أكتوبر انتظم الجيش الثاني في أربعة أقسام : أولها مؤلف من ٢٠,٠٠٠ من النظاميين والألبانيين يحتشد في أشقودرة حيث كانت الرئاسة العليا للجيش ومقر الوزير ، والقسم الثاني مكون من ٢٠,٠٠٠ في أرضروم واحتشدوا بين سيواس وقيصريّة بقيادة عثمان باشا وإلى طرابزون ومعه عثمان آخر ، والقسم الثالث بقيادة سليمان باشا تعدده حوالى ١٠,٠٠٠ يعدّ حشده في منطقة طوروس على ميسرة إبراهيم باشا لستر "صاناليا" ، أما القسم الرابع من الجيش التركي فقد تألف من أنقاض جيش حسين باشا وعدده يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ ألف يتجمع لدى قونية بقيادة رءوف باشا .

بلغ الجيش العثماني في مجموعة ٨٠,٠٠٠ أى ثلاثة أمثال جيش إبراهيم ، ولكن هذا التفوق العددي لم يك كل شيء ، فكانت تنقصه قوة الالتحام ، وكان كل قسم منه يختلف عن الآخر في الكفاءة والتدريب والنظام والقيادة والتنظيم العسكري أيضا . أما السلطان فلم يدخر وسعا لبت الحماسة في جنوده الذين يتوقف عليهم كيان دولته . وتوسل إلى ذلك بشى السبيل ، من طواير العرض إلى مقابلة الضباط والتوسع في إقامة الولائم للجنود وتوزيع النياشين على الضباط إلى منح الرتب

منظمة يديها الأتراك فيزيلها بعد قتال شاق ويواصل المطاردة عبر طريق اركلي (هرقله) . ويقضى الجنود ليلتهم في أولان كيشلى وقد أنهكتهم أعمال القتال خلال اليوم .

وفي يوم ٢٣ أكتوبر ، بعدما وصلت أنباء القتال بالتفصيل إلى إبراهيم ، بارح نمروود وتقدم إلى الأمام لعبور طوروس ويصل إلى زانيب .

وفي ٢٥ أكتوبر احتل اركلي ، التي أخلاها الترك لدى اقتراب المصريين ، وقد ابتهج السكان لمقدمهم . ثم استراح في هذه المدينة ثلاثة أسابيع ، في انتظار موافقة أبيه على التقدم في قلب الأناضول . ومثل هذه الفترة لم يبدها سدى ، فقد حشد قواته التي كان معظمها يستجم في جنوب طوروس .

وفي ١١ نوفمبر كان الحشد قد تم .

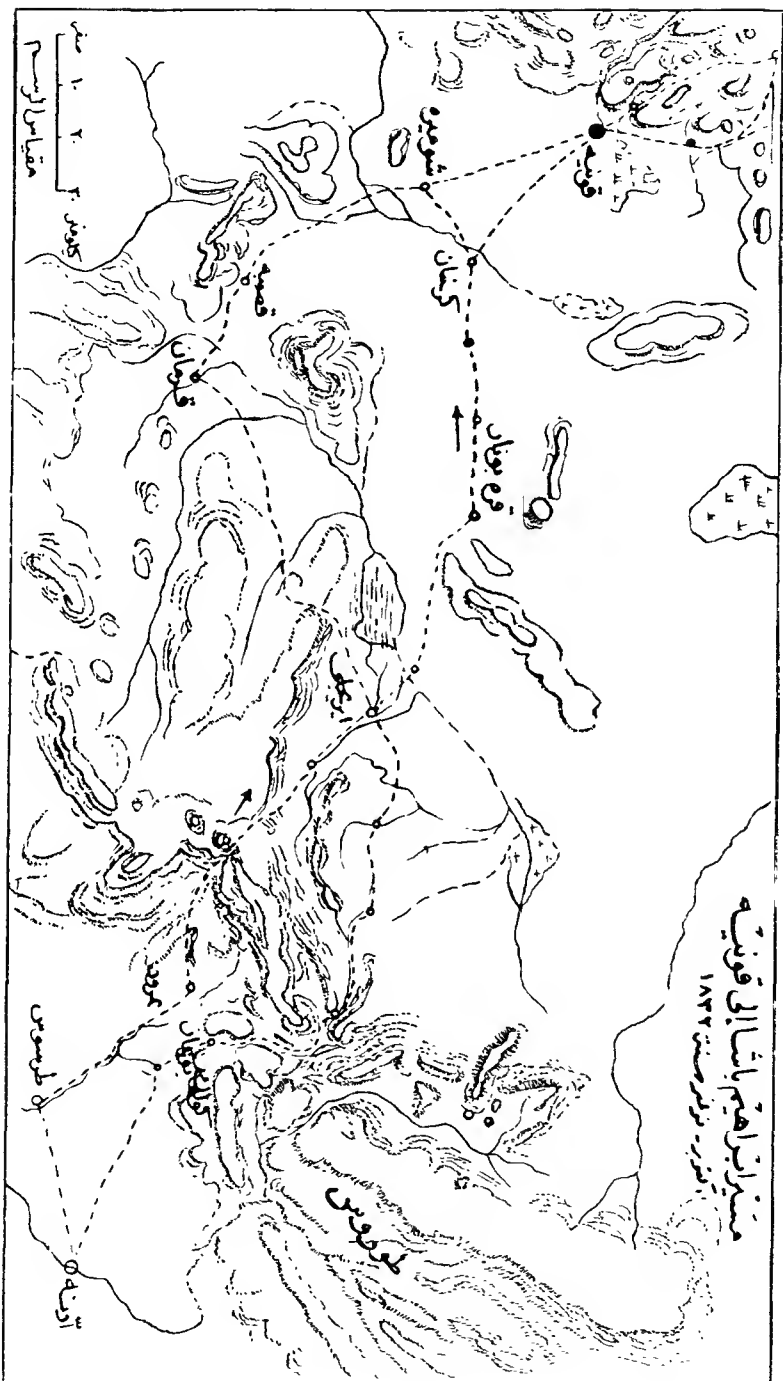
في ذلك الوقت ، كانت الاتصالات السياسية مستمرة بين الدول الأوروبية والباب العالي من ناحية ، وبينها وبين محمد علي من ناحية أخرى . وفي خلال ذلك كان إبراهيم يتبادل الرأي مع أبيه بوساطة الرسل أو عن طريق المكاتبات . وقد رأى القائد أن يتقدم إلى قونية تمهيدا لوشة أخرى يهدد بها السلطان . أما الأب السياسي فكان يرى أن يعود من قونية بعد دخولها ويترك النتائج للرأى العام في الآستانة لعلة يؤثر في موقف السلطان . وفي الرسالة التالية موقف الرجلين ، حيث رد إبراهيم على أبيه في الثالث من نوفمبر يقول :

”يجب علينا حسب أوامرك أن نتفقهقرا إلى الوراء بعد الاستيلاء على قونية . فالشائع أن الصدر الأعظم يزحف علينا بقوة كبيرة فإذا نحن تفقهقرا عزوا ذلك إلى الجبن والخوف وعلى عجونا عن مقابلته وفوق هذا كله فإن الصدر الأعظم يغم الفرصة للزحف على قونية . وقد يتجاوزها للحاق بنا مديعا خبر تفقهقرا ومن يدري ما يكون من وراء ذلك فقد ينضم إليه الشعب . وقد تشور سورية والأناضول علينا ويظل الغرض من تفقهقرا خفيا لا يفهم . وبناء على ما تقدم لا ينبغي لنا أن ندع الفرصة

وبناء على المعلومات التي كانت تصل إلى إبراهيم عن تجمعات الجيش التركي . طلب إلى أبيه أن يوافقه على اجتياز طوروس ، ليقضى على تجمعات الأتراك أولاً بأول ، قبل تكامل استعدادها . ولأنه كان يخشى حلول زمهرير شتاء هضاب الأناضول . وتمت الأيام والمراسلات متصلة بين قائد الجيش ورئيس الدولة (محمد علي) أولهما يتكلم بلهجة الجندی ، وثانيهما بلهجة السياسی ، وتعارض آراؤهما . ويجهز إبراهيم على اتهاج خطة الدفاع ، بينما تجمعت قواته في منطقة أدنة — طوروس بين خليج اسكندرونه وكليكا . ثم تصل إبراهيم أنباء وثيقة بأن الفصائل التركية قد استحوذت على مضيق طوروس ، وهو الممر الذي يصل بين أدنة وقونية ، وأن هذه الفصائل بدأت تناوش نقطه الأمامية ، مما دعا إبراهيم إلى التصميم للاستيلاء على المضيق بدون انتظار أوامر عالية ، ليتحكم في نقطه الأمامية ومخافره القوية . وكان لابد له أن يستولى على هرقله (اركلي) وقد دخلها في يوم ١٥ أكتوبر . وكان هناك طريقان يفضيان من أدنة إلى اركلي عبر طوروس ، أحدهما عن سبيل منارة خان وشفيت خان وأولان كيشلي وشابان ، والآخر عن سبيل طورسوس ونمرود وشاكال وزانبا .

وأصدر إبراهيم أمره إلى قواته غير النظامية والبدو باتباع الطريق الأيمن ، للهجوم على شفيت خان ، بينما يقتاد نفسه قوة مختلطة مؤلفة من آلاى خيالة وآلاى مشاة وبطارية مدفعية ويتبع الطريق الأيسر ليهاجم نمرود .

وفي ١٨ أكتوبر ، وصل إلى نمرود بدون قتال ، وفي اليوم التالي بلغ قول اليمين طوروس ، ثم اجتازت مقدمته مضيق كولك بوغاز . ولما عبر وادى شفيت خان اعترض التقدم المصرى قوة تركية فتسد الطريق في وجههم واستولت أخرى على بعض المرتفعات الهامة . وقبلالة هذه الحركة الناجحة أمر القائد المصرى سليم بك الحجازى بفتح نيران شديدة كما أمر خيالاته باقتحام صفوف الترك فتبعثرها وتقتل منهم ٢٠٠ وتأسر ٣٠٠ ويستمر سليم بك في المطاردة ، لكن تصله المعلومات بمقاومة



تفوتنا فنحن نذهب إلى قونية ونشتت العدو . وننظر فيها وصول الصدر الأعظم لنقهرة إذا أراد مهاجمتنا لذلك أطلب منه يا والدى أن ترسل آلايين من المدد في الحال .

ثم تلقى إبراهيم من والده في الثالث عشر من نوفمبر الأمر ألا يتجاوز قونية ، نظرا لأن التقدم إلى ما وراءها ، في الظروف الراهنة ، لا تنظر إليه الدول بعين الرضا . وفي ١٦ نوفمبر ، أجاب محمد على على كتاب إبراهيم الذي كان قد أرسله إليه في الثالث من نوفمبر فأقره على رأيه . بيد أنه نبه عليه ألا يتجاوز قونية ، لأنه لا يعرف بوجه قاطع رأى الدول .

الى قونية

كان قبالة إبراهيم باشا طريقان يفضيان إلى قونية من اركلي ، أحدهما في اليمين يمر بالمدن : كيجيد — وكارابونار — وكاتانية — وايزميل — وقارخان ، وثانيهما في اليسار يمر بكارامان — وكاسابا — وشوميرة . وقد أمرت القوات النظامية باتهاج الطريق الأول ، والقوات غير النظامية الطريق الثاني .

وفيما يلي أمر التحرك الذي أصدره إبراهيم لقواته النظامية :

يتحرك الجيش بالنظام التالي :

تسير المشاة في قولين :

قول اليمين مؤلف من الحرس والآلاى ١٤

وقول اليسار من الآلاى ١٣ و ١٨

على أن لا يتعد القولان عن بعضهما إلا بمقدار ما يسمح به تشكيل الفتح في صفين :

الحرس والآلاى ٣ في الصف الأول .

والآلاى ١٤ و ١٨ في الصف الثاني .

والمدفعية في تشكيل القطار أو بالأصناف كما يسمح الطريق .

توضع مدفعية في رأس القول على مسيرة الآلايين ١٤ و ١٨

يسير اللواء الخيالة الثاني في المقدمة على قولين — الآلاى الثانى في طليعة

الحرس والآلاى الرابع في طليعته الآلاى ١٣ المشاة .

أما المهمات فتكون خلف المدفعية بثلاثمائة ياردة بالترتيب الآتى :

مهمات القائد العام ورئيس أركان حرب — متاع المدفعية — فالخيالة فالمشاة

ويعمل الترتيب اللازم للمحافظة على المواصلات بين الوحدات .

١٧ نوفمبر —

تحرك الجيش بنظام كامل ، وبدون صعوبة أو مقاومة ، وفي ١٧ نوفمبر غادر قول اليمين كارخان متجها الى شوميرة ليلتقى بقول اليسار . وفي هذا اليوم علم ابراهيم أن العدو أخلى قونية في الليلة السابقة . فلم يبدؤ وقتا ، ونهض على رأس بعض قواته السريعة والمدفعية قاصدا قونية . فدخلها ليلسة ١٧ وفي الصباح اتجه نحو آق شهر فصيلة المطاردة مؤلفة من الخيالة المنظمة والآلاى الرابع الخيالة وبطاريتين مدفعية . وتلحق هذه القوة حرس المؤخرة التركى فى ضواحي ايلجون وتنزل به خسائر فادحة وتعود بسرعة الى قونية لتلحق بقوات ابراهيم .

يلقى ابراهيم نفسه على مبعدة ٢٢٠ كيلومترا من حدود بلاده — وهى مسافة طويلة واستطاعت خطوط مواصلاته ولا بد أن يحتاط لحماية جناحى جيشه — ولذلك أشار فى الحال لأحد قواده محمود بك باحتلال أورفا حيث تؤدى الطرق الى سيواس وأرضروم — مستعينا بالبدو . كما يأمر بكوق ابراهيم (يكن) فى السير على رأس الآلاى المشاة وبطاريتين وخيالة غير نظامية من حلب الى مرعش عن طريق عينتاب — ثم يأمر قائده محمد بك أن يذهب على رأس بعض الأورط وبطارية قيصرية (وكان فى هرقله) . كل هذه العمليات كان الغرض منها مائة

الفين من جنوده في الاحتياط رفض السلطان رجاء قائده وأبان له أنه يريد الاحتفاظ بهم لحماية الآستانة .

ولم يك على رشيد إلا تلبية أوامر الباب العالي ، فزایل آق شهر مینما صوب قونية .

١٨ و ١٩ ديسمبر

المصادمات الأولى

وفي يوم ١٨ ديسمبر ، يتعثر قول تركی في قرية سیلة المنیعة^(١) وكان يحتلها ألفا مصری . فیمتدھم ابراهيم بسرعة بالای مشاة وأورطة من (الآلاى ١٩) والآلاى الثالث الخیالة وخمسمائة فارس غیر نظامیین و بطارية . وكانت النتيجة أن ردت الجنود التركية على أعقابها مدحورة بعد أن أسر منها ٥٠٠ أسیر وتركت ثمانية بیارق وخمسة مدافع وکیة وفيرة من العتاد .

وفي اليوم التالى ، هاجم المصریون حامية تركية كانت تحتل دوكرز لوخان ، التى تبعد ثلاث ساعات من قونية ، على الطريق المؤدى الى لادیک . وقد كان المهاجمون من الحرس والخیالة (٣ آلايات) وثلاث بطاريات . فلم یضیع الأتراك وقهم وبادروا فى التسليم وانضموا الى زملائهم أسرى اليوم السابق فى قيصريه . وقد أفادوا بمقدمهم قوات محمد بك .

وفي مساء ٢٠ ديسمبر ، علم ابراهيم باشا أن رشيد غادر لادیک على رأس قواته فى اتجاه قونية لبدء القتال ، بعد أن وزع على جنوده تعیین بقسمات لأربعة أيام ، وشعر لمدة یومین .

وكان رشيد باشا قد أرسل كتابا الى ابراهيم ، یطلب منه الانسحاب من وجه جيوش السلطان ، فردّ علیه بخطاب جاء فيه : ” لستنا نحن . أنت وأنا بمسؤولین عن الدماء التى تراق ، ولكن التبعة تقع على الذین أمرونا به ولا سبیل الى مخالفة ما أمروا “ .

(١) تقع على بعد ثمانية كيلومترات شمال غربی قونية .

خطوط عملياته ضد جيش عثمان باشا الذى طفق فى الاحتشاد فى أوائل ديسمبر حول منطقة سيواس ثم يأمر عباس باشا حلمى بمغادرة أدنة لرقابة قوات سليمان باشا التركية فى إيطاليا .

واتخذ ابراهيم باشا ضواحي قونية قاعدة عسكرية وأخذ يعدّ قواته لقتال الأتراك ويدرب جنوده على التمرينات فى المواقع ، التى توقع نشوب المعارك فيها . ولئن كان جيشه الذى أصبح تحت يده الآن (بعد التوزيعات المذكورة وحماية خطوط المواصلات) لا يتجاوز عدده ١٨,٠٠٠ مقاتل ، منهم ألف من البدو ، إلا أنه كان يمتاز بحسن النظام ، وكفاية القيادة والتدريب على القتال ، وسمو المعنويات .

كانت وحدات ابراهيم فى موقفه الأخير ، تؤلف على الوجه التالى :

٢٠ أورطة مشاة و ٢٤ بلوك خيالة و ٤٨ مدفعا .

ومما يثير العجب حقا ، أن عدد الجيش المصرى كان ثلث الجيش التركى .

عودة للجيش التركى :

وصل رشيد باشا الى آق شهر ، ونزل فى قديم خان ، على مبعدة تسع ساعات من شمال غربى قونية ، على رأس جيش عدده ٥٤,٠٠٠ موزعين كالآتى :

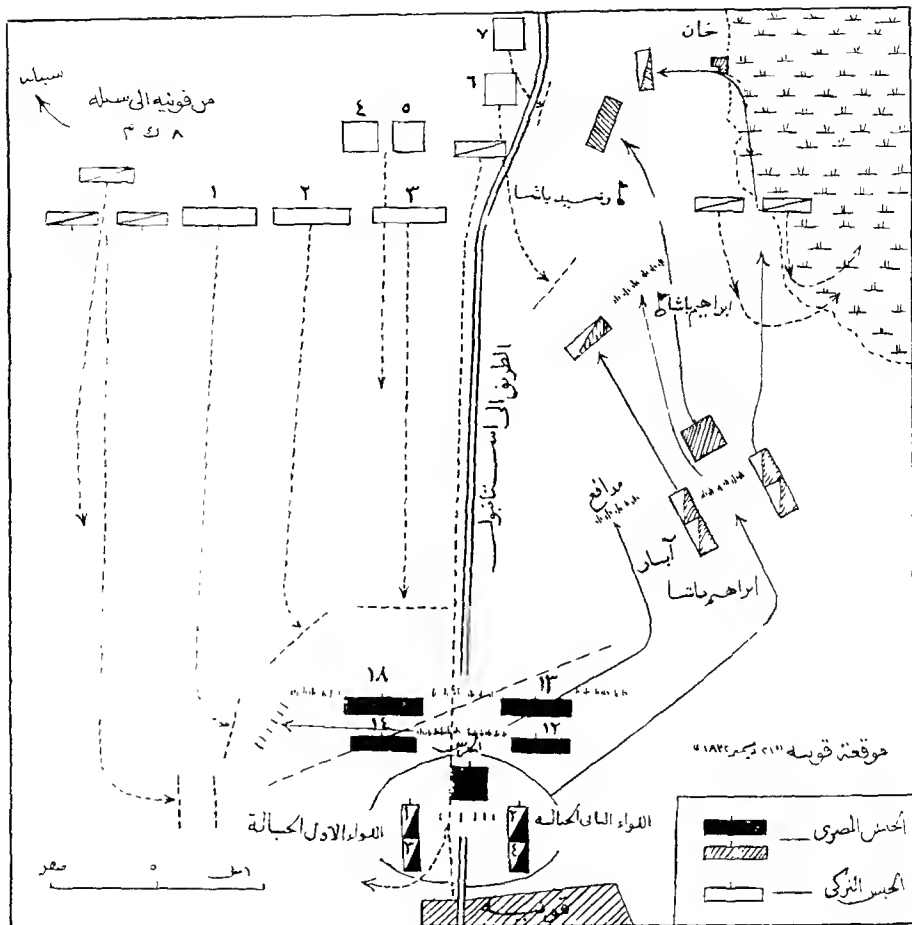
٥٤ أورطة مشاة .

٢٨ بلوك خيالة .

١٠٠ مدفع .

٢٠٠٠٠ من غير النظاميين .

كان رشيد يتسنى له الافادة من طبيعة الأناضول القاسية ، لاستهواء ابراهيم الى عدّة معارك ، تنهك قواته ، وتؤثر عليه تأثيرا مرهقا ، لكنه كانت تحركة تعليمات الصدر الأعظم خسرو باشا . رجل الدولة فى ذاك العهد . وهو الذى أشار اليه مرارا بالإسراع لمهاجمة قوات ابراهيم والقضاء عليها . ولما طلب أن يرسل اليه



معركة قونية

٢١ ديسمبر ١٨٣٢

كان صباح يوم الجمعة ، والضباب يخيم على ميدان القتال ، ونزلت درجة البرد الى ١١ سنتجراد ، وحال الطقس دون اكتشاف كل من القائدين مواقع جيش خصمه ، على أن ابراهيم امتاز على ” رشيد “ بأنه درس أرض المنطقة التي ستدور فيها المعركة دراسة دقيقة ، ودرّب جنوده عدّة مرات على مناورات القتال مدّة كافية .

وقبل وصف توزيع قوّات الجيش ، يتعين علينا أن نرسم صورة للموقع الذي سيدور فيه القتال :

تقع قونية في ملتقى طرق الأناضول ، وتستند على شعاب جبال طوروس ، وقد بلغ عدد سكانها (١٨٣٢) حوالى عشرين ألف نفس ، يحيط بمعظم أحيائها سور قديم لكنه منيع ، وقد امتدّ جزء من المدينة الى خارج هذا السور .

وكانت الأراضي التي سيدور عليها القتال تقع أمام المدينة ، في الاتجاه الشمالى الغربى ، حيث امتدّت هضبة خصبة يقطعها فى أما كن عدّة وديان عميقة ، وقد اتكأ الميدان فى الغرب على ميول تلال سيلة ، وتحدها من الشرق طائفة من المستنقعات ، وكان الطريق الموصل بين لاديك والآستانة يمرّ بمنتصف ميدان المعركة تماماً .

وقد دبر ابراهيم خطته كما فعل فى المعركتين السالفتين ، على المعلومات التي وقف عليها عن جيش العدو ، ومعرفته التامة بأخلاق قائده منذ تعاونوا فى المورة ، فضلاً على معرفته بطبيعة الأرض .

توقع ابراهيم أن ” رشيد “ سيلجأ الى توزيع جيشه الضخم على امتداد الهضبة الفسيحة بين جبال سيلة ومنطقة المستنقعات ، وأنه سيسدّد مرماه نحو قونية ، بالالتفاف حول ميسرة الجيش المصرى .

استعرض ابراهيم ، بمساعدة سليمان بك ، الموقف . وجالت في رأس الباشا خطتان : رأى إن هو هجم على مينة الأتراك فلن تكون النتيجة مجودة ، ذلك لأنها رابطت على سفح الجبل في مواقع حصينة ، بعكس الميسرة التي كانت تستند الى مستنقعات مكشوفة .

ورأى الباشا أن يفاجئ خصمه ، قبل فتح قواته في تشكيل القتال ، وبدأت خطته تبتلور ، وقزر ألا يبدأ فتح نيران مدفعيته ، حتى تصبح قوات رشيد باشا في داخل المرمى ، فيوجهها الى قلبه ، وبذا يستطيع استخدام جناحه الأيمن على خير وجه . وكانت هذه الخطة السليمة خير ما اهتمدى اليها ونتيجة لتفكيره المتواتر ، الذى بنى عليه تدريب الجند ومناوراتهم ، خلال مقامه في قونية .

ويستدل من عدة شواهد على أن رشيد باشا لم يك وانقما ١٠٠ ٪ بالنصر . ومن الأدلة أنه سلم خاتم الدولة الى وكيله أحمد فوزى باشا ، في الليلة السابقة للمعركة .

الجيش المصرى فى تشكيل القتال

وزع ابراهيم باشا قواته فى ثلاثة صفوف ، يرتكز وسطها على طريق لاديك :
الصف الأول بقيادة سليم بك المناسترى يؤلف الالايين المشاة ١٣ و ١٨ .
الصف الثانى بقيادة سليمان بك (سيف) يؤلف الالايين المشاة ١٢ و ١٤ ،
وعلى بعد خمسمائة خطوة من الصف الأول فى تشكيل قول مزدوج .

والاحتياط بقيادة سليم بك ، وهو آلاى الحرس ، على بعد ثلاثمائة خطوة من
الصف الثانى ، فى تشكيل قول مزدوج ومعه اللواءان الخيالة ١ و ٢

والى الطرف الأيمن فى المؤخرة قوات الدلاة والبدو .

أما المدفعية — ٣ بطاريات فى الصف الأول موزعة فى اليمين والقلب واليسار :

بطارتان فى وسط الصف الثانى .

بطارية فى الاحتياط خلف الحرس .

ثم استهلّت المدفعية المصرية عملها في كل الجبهة — نيران شديدة متواصلة من الجانبين ، وإحكام بالغ في التسديد ، حتى لقد زلزلت الأرض في كل الجهات . وفي أثناء المعركة ، كان ينتقل إبراهيم بين الجند مشجعاً ، ويشير لهم قائلاً :
”عفارم — عفارم — أيوه يا ولد — ماشاء الله — عفارم“ .

وصدفة اتجه الى برترقع على يمين الصف الثاني من قواته . وفي خلال لحظة انكشف فيها الضباب إذ زاد علماً بمواقع الترك ، وتبين نقطة الضعف التي يصيب منها الهدف — ذلك أن قوة الخيالة كانت تؤلف ميسرة الجيش التركي وقد أخطأت القيادة التركية في أنها لم تحكم الصلة بين الفرسان والمشاة خلال التقدم . وحدث بينهما ثغرة ، يبلغ طولها نحو ألف خطوة ، جعلت الميسرة في شبه عزلة عن بقية الجيش .

فاتهنز إبراهيم باشا هذه الفرصة ، واعتزم الهجوم بقوات الحرس والفرسان ، خلال هذه الثغرة ، ليخترق صفوف الترك . وبأدب فعلاً فأصدر تعليماته بتحريك هذه القوات ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة . فزحفت قوة الحرس يتبعها الفرسان ، واجتازت البرّ بقليل ، ثم انعطفت نحو الشمال حيث ميسرة الترك وهاجمتها هجوماً عنيفاً ، وشدّت المدفعية أزرها . فصبت قنابلها على الترك ، واكتسحتهم من الجانب . وكان الهجوم شديداً ، والضرب محكماً . فاهتزت مراكز الترك هزاً عنيفاً لقسوة الهجوم ، واضطروا للتقهقر شمالاً من غير نظام ، في المستنقعات . وبذا هزمت ميسرة الجيش التركي .

ومن سوء الحظ ، لم يظاهروا التوفيق لمعرفة أسماء الوحدات المصرية ، التي اضطلعت بهذا الهجوم وإن كانت تتفق جميع المصادر على ذكر «الحرس» واللواء الرابع الخيالة بقيادة أحمد المنكلي والمدفعية والآلای الثاني الخيالة .

دبرت هذه الهجمة على أفضل تدبير ، وبينما كان يستعدّ الحرس للمسير الى خان قديم لمح إبراهيم الى اليسار آلاى من مشاة الترك (اتضح فيما بعد أنه

وكاحتياط ضد حركة تطويق قد يهتد بها العدو، أمر ابراهيم كل آلاى مشاة فى الصف الثانى أن يعين أورطة فى تشكيل مربع على كلا الجانبين ، على مسيرة ١٥٠ مترا من الآلاى .

الجيش التركى فى تشكيل القتال

أما رشيد باشا فقد وزع قواته فى صفوف أربعة : الصف الأول منها فى تشكيل مفتوح ، أما الثلاثة الأخرى فكانت فى تشكيل منظم بالأورط ، وقد تألف الصف الأول من آلاى الحرس و ٢ آلاى خيالة نظامية .

والصف الثانى ٢ آلاى مشاة و ٢ آلاى خيالة .

والصف الثالث والرابع كل منهما آلاى مشاة .

وفى المؤخرة ، الى اليمين وإلى الشمال ، قوات غير نظامية ، وألبانيين ، ورجال البوسنة مشاة وخيالة .

أما المدفعية فموزعة بطارياتها بين الصفوف بمعدل مدفعين فى كل أورطة مشاة ، وأربعة مدافع فى آلاى خيالة .

وتولى رشيد قيادة الميسرة ، وهى أضعف نقطة ، وتولى قيادة قوات القلب سعد الله باشا ، والميمنة خير الدين باشا .

وقد وجدت وحدات العدو صعوبة شديدة فى اتخاذ مواقعها من جراء الضباب ولكن مرت لحظة خفت فيها كثافته ، فاستطاع ابراهيم أن يلمح توزيع الجيش العثمانى ، وكان يبعد عنه حوالى ٣,٠٠٠ متر .

ثم تقدمت صفوف الأتراك حتى صارت على مسيرة نحو ستمائة متر من مواقع القوات المصرية ، وفى الظهر أخذت المدافع التركية تطلق القنابل على المصريين ، فلم يردوا عليها بالضرب ، الى أن تعزف ابراهيم باشا على صوت إطلاق النار مواقع الترك ، وتقدم الصف الثانى المصرى حتى اقترب من الصف الأول ابتغادى فتك الشظايا التى كانت تنصب عليه .

وعم الفرع في قلب القوات التركية ، وفتر الجند غير النظامي الى تلال سيلة ، عن طريق لاديك . وكادت تخرج القوات التركية من دائرة النضال .

ولكن كان هناك بصيص من الأمل لدى القائد العثماني ، الذي تسلم القيادة بعد انهيار ميسرته وقلبه . ورأى أنه إذا نجح في مناورته ، مستعينا بقوات الميمنة ، استطاع الصمود وتحويل نتائج المعركة ، ولكن كانت حركة المناورة البارة التي نفذها ابراهيم في الحال ، أخرت ، بل قضت على خطة خصمه .

الساعة الآن الخامسة مساء ... والقتال مازال مستمرا ، وأصبح موقف الأتراك يعتمد كل الاعتماد على الآليات المشاة الثلاثة التي في الصف التركي الأول وخياله تكون منها خطأ منكسرا للإحاطة بالميسرة المصرية ، التي كان قوامها آلايين مشاة وآلاى خيالة الصف الثاني — وكان الطريق الرئيسى الى الآستانة يسير الى غربها .

وقد واجه المصريون هذا الخط ، الذي هتدهم برباطة جأش وثاب . وفي الحال أبحرت العمليات الآتية — أسرعت بطارية مدفعية الصف الثاني لمعاونة بطارية الميسرة في الصف الأول . ثم صبت المدفعية سواء منها في القلب أو في الميسرة نيرانها صوب الأعداء — فحصد صفوفهم حصدا . واستبسلت الميسرة في الضرب والقتال ، إذ كان على دفاعها يتوقف مصير معركة اليوم . واستمرت الملحمة ثلاثة أرباع ساعة ثم أسفرت عن كسر هجمة الأتراك بل وهزيمتهم وتشيت وحداتهم في السهل وفي قونية .

ثم أراد العثمانيون أن يبذلوا جهدا آخر عليهم يكسبون ظفرا — فتحركت قوة من خيالهم ووصلت تجاه الصف الأول من قواتنا . فلم يحفل بها أبناء النيل ، لأنها كانت صائرة نحو الفشل . فتقدمت الى ما وراء صفوف الجيش وهناك تشيت شمالها .

الآلاى ١٧) يتقدم فى تشكيل منظم وكان رشيد باشا قد أمر قائده لمعاونة الخيالة فى الإطباق على الميمنة المصرية — فأمر ابراهيم الحرس بتغيير مواجهته وأن تنضم إليه فى الحال الآلايين الخيالة ١ و ٢ وبطارية مدفعية للقيام بهجوم ضد الجنب التركى (الآلاى ١٧) الذى انهالت عليه النيران الشديدة من ثلاثة مصادر، وأحاط به المصريون، وأوقعوا برجاله حتى سلموا سلاحهم .

ولما أدرك رشيد باشا أن ميسرته قد وقع فيها الاضطراب والفشل، أراد أن يلم شعها، ويث الحمية فى نفوس رجاله — فقصده مواقع الجند، بيد أنه لم يفز بطائل . وضل الطريق فى الضباب الكثيف . وبينما يمشى فى طريقه وقع فى أيدي العرب المصريين ، فأحاطوا به ، وجردوه من سلاحه ، واقتادوه أسيرا الى ابن محمد على الكبير .

ثم أمر ابراهيم قواته الاحتياطية ، بعد تركها وحدة من المدفعية وأورطة مشاة ، للتقدم مع الحرس فى طريق مواز لطريق لاديك للقضاء على الاحتياطى العثمانى ، وانضم إليها نصف بطارية والآلاى الخيالة الثانى وكان منتظرا أن ينضم إليها اللواء الأول ، ولكنه لم يستطع السير فى الضباب ، وقام بمنورة فيما بعد على مقربة من الخان والمستنقعات ، ثم ساعد أجناح المصرى الأيمن أمام قونية .

أما الآلاى الرابع فكان أكثر توفيقا فى مناورته . فقد تابع مطاردته الخيالة الأتراك فى المستنقعات ، ووصل الى الخان ولحق آلاى الحرس فى الوقت الذى كان يهاجم فيه الآلاى ١٩ المشاة الأتراك ، الذى كان فى الصف الرابع العثمانى . وقد وصل الآن الى موقعه فى الصف الثانى . وكانت نيران الشرنخية المصرية تنصب كالمطر بإحكام ، تساعدها قذائف المدفعية ، على أجناب ومؤخرة هذا الآلاى (١٩) . وكانت إحدى كتائبه تشكلت فى هيئة مربع وباشرت العمل بهمة ، عندما أقدم الآلاى الرابع الخيالة . فاندثرت المقاومة بعد وقت قصير ،

التقدم الى العاصمة الفتانة، ليصل إليها قبل قدوم القوات الروسية، التي جاءت^(١)ها في ١٣ فبراير سنة ١٨٣٣ .

ولم تكد تمضى أيام ، حتى يتبوأ محمد على عرش آل عثمان ، مكان السلطان الذي كانت رعيته تنظر إليه كخليف للروس، بينما كانت في صميمها تنزو حاكم قوى ينتشلهم من الهاوية التي أوقعها السلطان فيها ولنسأل أنفسنا سؤالاً — وماذا يكون موقف المسلمين من محمد على ... وهو في نظر بعضهم ذلك التأثير الذي اعتدى على الخليفة ، وأنزله بقوة السيف ، ونزع السلطة منه .

والجواب على ذلك نراه فيما اعاد عليه البشر — مسلمون وغير مسلمين — وهو الملك لمن يستحق الملك والحق للقوى وليس للضعيف . وما كان محمد على إلا عبقرى من طراز الرجال المصالحين . بدأ إصلاح ولاية مصر ثم أراد إصلاح السلطنة كلها . وكان جديراً بالقيام بهذه المهمة ، وكاد يصل الى هدفه لولا تدخل الدول ، التي كان هدفها العمل على إضعاف الدولة العثمانية لكي يرثوها بعد القضاء عليها . وقد تحققت أهدافهم بعد نصف قرن من الزمان ، وذهبت الامبراطورية العثمانية في عداد التاريخ .

سياسة التردد بين محمد على وإبراهيم

أقام إبراهيم باشا شهراً في قونية ، يعيد تنظيم قواته ، عقب انتصاره الرائع ، ولم يستطع مواصلة فلول جيش رشيد قبل وصول أوامر والده إليه . وقد كتب لأبيه خطاباً في ٢٨ ديسمبر يقول له فيه :

” أستطيع أن أصل إلى الآستانة ومعى محمد رشيد باشا ، وأستطيع خلع السلطان حالا ، وبدون صعوبة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيذ هذه الخطة حتى أتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسائلنا لا تسوى إلا

(١) انتهت معركة قونية في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٢ .

انتهت وقعة قونية بهزيمة قوات الامبراطورية العثمانية ، بعد أن استطال القتال فيها سبع ساعات . إذ بدأت في الظهر وانقضت بعد غروب الشمس بساعتين . وكانت خسائر الترك كالآتي :

٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ أسير وقائد الجيوش وبينهم عدد موفور من الضباط .

٣٠٠٠ قتيـل .

٤٦ مدفعا وعدد كثير من الأعلام العسكرية .

أما ضحايا المصريين فكانت ٢٦٢ قتيلا و ٥٣٠ جريحا .

وفي الساعة الثامنة والنصف مساء . عاد ابراهيم باشا الى قونية ، ليلقى تهنئة ضباطه ورجاله .

وقد قال ادوار جوان (Gouin) عن معركة قونية : ”إن قوة الأتراك كانت ثلاثة أضعاف المصريين ، إلا أنهم كانوا أقل تدريبا وبسالة وخفة“ .

نتائج المعركة :

رأينا المعركة تنتهى بظفر رائع لا مثيل له . وأصبحت الأبواب التي تفضى الى عاصمة الخلافة مفتوحة على مصراعيها ، تستقبل جيوش مصر الغازية . وقد فقد السلطان جيوشه التي اعتمد عليها ، للقضاء على خصمه . يلتفت يمنة ويسرة فلا يجد نصيرا سوى حلفائه الروس ، الذين يكرههم العثمانيون لأنهم أعداء ملتهم ، وخصوم شعبهم ، منذ استولوا على استانبول . وكان جديرا بالقائد العظيم ابراهيم أن لا يعبأ بالمفاوضات والارتباكات السياسية ، ويواصل انتصاراته ، حتى يدخل على رأس جيوشه المظفرة الآستانة ، ويخضع السلطان محمود ويملى عليه إرادته ، بينما يقتحم الأسطول المصرى المياه اليونانية ويعبر الدردنيل ، ويتزل قواته في الثغور العثمانية وما وراءها . ولكن ارتبط ابراهيم بعجلة والده السياسية ، فلم يقدم على

استامبول ليست فيها حركة استعداد للقاومة وهذا يدل على أنهم قد وضعوا جميع آمالهم بالصلح . ولأجل هذا الصلح أرسل إليك خليل رفعت باشا ولكنى أرى جهد ما يصل إليه علمى الضعيف أنه ما دام السلطان محمود المشثوم على العرش لا يمكن أن يكون هناك صالح صحيح ولا نهاية لازمة لأنه سيكون عرضة للظروف يتميزها للانتقام ويعمل لها . كما كان فى الماضى ولجور على هذه الأمة الاسلامية التبعة وظلمها . فبحق حبنا لهذه الأمة وبحق غيرتنا الدينية أرى من الواجب المحتم علينا لا العمل لمصلحتنا فقط ولكن العمل فوق كل شىء وقبل كل شىء لمصلحة هذه الأمة كلها ومن أجل ذلك يجب علينا أن نرجع الى القرار الأول أى خلع هذا السلطان المشثوم ووضع ابنه ولى العهد على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك يحرك هذه الأمة من سباتها العميق .

فإذا اعترضت على بأن أوربا تعترضنا قلت لك أننا لا ندع لها الوقت للتدخل وبذلك نتقى الخطر من ذلك الجانب لأن مشروعتنا ينفذ قبل أن يعرف وبذلك نضع أوربا أمام الأمر الواقع — وإذا كانت أوربا تتغتم الفرصة لإشباع مطامعها من هذه الدولة فأية تبعة تقع علينا . وهل باستطاعتنا أن نمنعها عن تحقيق خطة تسعى لتحقيقها منذ ٨٤ سنة .

... .. ومع الاستعانة بالله لتحقيق ذلك عزمنا على التقدم الى بورصة ومودانيا فلا وقت إذن لتلقى شىء منك أو من استانبول يحرم على التقدم .

أما أنا فإذا بقيت هنا فانى لا أجد أقل وسيلة لتكوين الجيش لفقر البلاد فلم يبق لى إلا الذهاب إلى بورصة ومن هناك أرسل إليك رسولا بما يكون قد قرناه تبعا للظروف “ ...

وكان إبراهيم على أبواب كوتاهية حينما تلقى خطابا من محمد على يأمره بالوقوف عن الزحف حيث يدركه خطابه هو يعلم أنه ليس للسلطان جنسدى واحد

فى استانبول فالواجب أن نذهب الى استانبول حيث نملى إرادتنا وأنى مضطر أن أكرر على مسامعك أن الدعاوة لاتوصلنا إلى أغراضنا وإذا أنت رميت من الاشاعات التى تذيعها الى غرض سياسى بأننا نهدد استانبول لتقبل شروطنا كان من العبث أن نقف فى قونية فلا نتقدم منها الى الأمام . فإن قونية بعيدة عن رجال الآستانة فهم لا يقبلون عقد الصلح معنا إلا إذا دخلنا عليهم فى العاصمة كذلك هم فعلوا مع الروس فإنهم لم يقبلوا إبرام الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى جامجة بضاحية إستامبول . فالواجب اذن أن نواصل الزحف حتى بورصة على الأقل مع احتلال المدن الواقعة على بحر مرمره وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا فى البحر حينئذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التى قد تقضى الى عزل السلطان . وإذا نحن لم نفلح فى إسقاط السلطان توصلنا على الأقل الى إبرام صلح يحقق أماننا وأنا لولا الأمران الأخيران للذان تلقيتهما منك لكنت الآن على أبواب استامبول . وإنى لأسأل نفسى ما هو الداعى الذى دعا إلى اصدار تلك الأوامر الى ؟ .

أهو الخوف من أوربا أم هو شىء آخر لا أعرفه ...

ألتمس منك أن تنيرنى فى هذه المسألة قبل انفلات الفرصة من أيدينا . نعم إنى التمس إبلاغى أمركم القاطع بهذا الصدد ...

وصل هذا الكتاب الى محمد على ، فسلم برأى إبراهيم وأذنه بالتقدم ، وفى التو قام القائد على رأس جيشه فى ٢٠ يناير وقد قسمه الى شطرين . فوصل الى كوتاهية فى ٢ فبراير ، وتحمل الجنود زمهرير الشتاء القارص ، وصار على مبعده ٥٠ كيلومترا من الآستانة .

وكان ابراهيم عندما زحف من قونية الى كوتاهية قد كتب الى أبيه الخطاب التالى :

” اليوم (٢٠ يناير سنة ١٨٣٣) بدأ الجيش بالزحف على قونية تتقدمه سرازم صغيرة لشدة البرد وقللة عدد الجمال للثقل ولا توجد فى طريقنا أية مقاومة حتى

الحيثية التي توقرنا بمطالبها الدائمة وبطلب المال . فمن الآن يجب أن نتخلص من الأعباء البهظة ولا نجد خلاصا إلا بالاستقلال . أما السبب الذي يدعونا لطلب أضيالا وأدنة فهو شدة حاجتنا الى الخشب . لأن مستقبل أسطولنا معلق على ذلك ما دامت بلادنا محرومة من الخشب وأنت تذكر أن انجلترا منعت ورود الخشب إلينا فاضطررنا أن نلجأ الى النمسا التي أزعجنا رفضها إزعاجا لا نستطيع نسيانه . وهل من حاجة بي لأبين شدة حاجتنا الى الخشب . فأنت أنت ذاتك قلت لى فى الأمر الذى أصدرته حديثا كما أنه يجب عليك أن لا تهمل وسيلة من الوسائل لصد الجيش التركى كذلك يجب أن تعمل كل ما باستطاعتك عمله للحصول على الخشب .

أما ضم قبرص الى مصر فهو أيضا لا مندوحة عنه . لسببين : الأول للنفعة الكبيرة لأسطولنا والثانى لمنع الباب العالى من أن يكون له طريق الى أملاكنا وإذا شئت أن تطلب بغداد فلا مانع من طرح هذه المسألة على بساط البحث على أن تتنازل عنها فى المستقبل لأن هذه الولاية لا تنفع شيئا وهى كستارة بعيدة جداعن مصر وتتطلب نفقات باهظة .

هذا ما أعرضه على مسامعك وأوجه إليك مع منتهى الاحترام انظارك .

وفى ٣٠ يناير كان خبر تقدم إبراهيم من قونية الى كوتاهية وقره حصار قد وصل إلى الآستانة فاستشاط السلطان غضبا وبلأ إلى أصدقائه الروس يستنجد بهم . ومن حسن حظهم أنه كان قد وصل لبراهيم أمر أبيه بوقف التقدم . وكان إبراهيم هدد بروسه كما استولى أربعة من جنوده وضابط على أزمير .

وهنا تبدأ الدول تعدل موقفها السياسى من ظفر جيوش إبراهيم . ويرفض محمد على اقتراحاتها المشينة . وتبدأ انجلترا تكشف عن سياستها نحو نجاح محمد على وقد خشيت أن تقف مصر شوكة فى طريقها الى الهند .

في طريقه إلى عاصمة الخلافة . وذكر له أن السلطان أرسل خليل رفعت باشا إليه (محمد علي) ليتفق معه .

وقبل أن يصل إلى بروصة كما اعترم ، تلقى الأمر من والده بأن يقف ، وكان هذا الأمر بعد وصول الجنرال مورافيف مبعوث قيصر روسيا إلى اسكندرية ، ثم وصول خليل رفعت باشا مندوب الباب العالي . يحمل إلى محمد علي عفو السلطان عنه وولايته عكا وماحققتها ، ولكن لصداقة محمد علي له ، اتفق معه على شروط للاتفاق أهمها أن يعطى محمد علي ولاية سورية وأذنة ، وأن تبرم بينه وبين خسرو باشا محالفة تعاون تضع حدا لتزاعهما .

ووصل إلى إبراهيم باشا ثلاثة رسل من الآستانة ، الأول رسول الباب العالي ليبلغه أنهم أرسلوا إلى والده رسولا للاتفاق ، والثاني رسول الجنرال مورافيف ، والثالث رسول سفير فرنسا . وكان إبراهيم يعتقد أن الاتفاق بين خليل رفعت باشا وبين أبيه أمر ممكن ، ولكنه كان يرى أن الصلح الذي يبرم مع السلطان محمود هو صالح غير دائم ، بل يكون بمثابة هدنة ، حتى يتمكن السلطان من العودة إلى القتال . ويتضح رأيه بما كتبه لأبيه^(١) ، في الثالث من فبراير :

”أرى أن يكون الاستقلال مقدما على كل شيء في المناقشات التي تدور بينك وبين الرسولين مورافيف و خليل باشا — فمسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شيء وبعد الاعتراف بالاستقلال يجب أن تطلب اضايا وأذنة و جزيرة قبرص وأن يضم إلى مصر — إن كان ذلك في الإمكان — تونس و طرابلس . ذلك أقل ما يجب أن نطلبه ولا نتساءل عن أى شيء كان مهما كان الأمر لأن مصلحتنا تقضى به . أما إصرارنا على الاستقلال فلكي توطن مركزنا وتحوطه بالضمانات فإذا لم نل الاستقلال ذهب جميع مجهوداتنا ضياعا ومكثنا تحت يد هذه الحكومة

(١) كتبه في كوتاهية بتاريخ ١٣ رمضان سنة ١٢٤٨ - ترجم بتصرف في الملوك .

صریح لا يعتمد على الحرب بل يرغب السلام . وصرح للندوب الفرنسى قائلا :

”إننى رجل سلام لا أهداف إلا لشيء واحد هو أن أقف أياىى الباقية لاسعاد البلدان التى أحكمها ويسألوننى أن أقدم الدليل على سلوكى هذا — فأجيب بأننى أتوسل لأروبا أن تقنع تركيا بأننى لن أهاجمها كما تضمن تركيا فلا تهاجمنى“ .

وقد قضى احتلال الشام عسكريا بتوزيع حاميات الجيش المصرى داخل البلاد الآتية :

(٢)
القوات المصرية فى فبراير ١٨٣٣

الوحدات	مصر	بلاد العرب	السودان	كرت	سورية	المجموع
٢٢ آلاى مشاة	١٧٣٥٢	٩٠١٧	٥١٥٧	٥٠٠٤	٣٥٥٧٧	٧٠٣٣٧
٣ آلاى مدفعية	٤١٠٢	—	—	—	٢٢٥٥	٦٣٥٧
فيلق مهندسين	٢٩٨٩	١٠١	—	—	٨٥٢	٣٩٤٢
١٣ آلاى خيالة نظامية	٢٦٧٠	—	—	—	٥٢٩٢	٧٩٦٢
خيالة غير نظامية (٣)	٧٠٠	٧٠٠	٤٨٤	—	١٥٥١	٣٤٣٥
بدو	—	٦٦٨	٦٠٤	—	٤٠٩٨	٥٣٧٠
المجموع	٢٧٩١٣	٨٥١٦	٦٢٤٥	٥٠٠٤	٤٩٦٢٥	٩٧٣٠٣

(١) مراسلات مستر كامبل قنصل بريطانيا فى مصر الى وزارة الخارجية فى ١٣ مايو سنة ١٨٣٣

(٢) من خطاب كتبه البارون بواليكوت مثل فرنسا فى مصر الى الدوق (Broglie) وزير الخارجية

الفرنسى فى ٢ يوليو سنة ١٨٣٣ .

(٣) فى مرجع آخر وجدنا هذا الرقم ١٩٥٨٠٠

وتتضح سياسة انجلترا هذه من الرسالة التي كتبها بالمرستون إلى ويليام كامبل السفير الانجليزي في كابل ، وذلك بعدما أذيعت شروط الاتفاق الأولى بين تركيا ومصر .

”إن الشروط المعروضة على محمد علي باشا حسنة جدا ما دامت هذه الشروط تحرمه من دمشق وحلب وهما الطريق إلى العراق — وفوق هذا يجب أن يثبت كل سنة فيما أعطى له وإن كان تثنيته في ولاية مصر دائما — وقد كان قصده تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب والمشروع جليل الشأن في ذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به .

أضف الى ما تقدم أن تركيا أفضل دولة تملك طريق الهند، فهي أفضل من أى ملك عربي يقوم على هذه البلاد، نزوعا للعمل كثير الحركة .

فالواجب علينا أن نساعد السلطان على أن يعيد تنظيم جيشه وأسطوله وماليته فإذا استطاع أن يعيد النظام الى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء .

وظلت المناورات السياسية تديرها الدول الكبرى ، بيد أنها ضعفت عندما رأت جيشا روسيا مؤلفا من ١٢٠٠٠ مقاتل وأسطولا كبيرا يحميان السلطنة، بناء على رغبة السلطان . فأقلق بال فرنسا وانجلترا واستمرت الدسائس الدولية تعمل في الخفاء ضد محمد علي للحد من مطالبه وإجباره على سحب قواته ، وإذا بالباب العالي يرضخ لمطالب الوالى العظيم !

فأثرت هذه المفاجأة على خصومه . وأخيرا أبرم بين الطرفين اتفاق كوتاهية (١٤ مايو ١٨٣٣) فوضع حدا مؤقتا للنزاع بين الدولتين . وبهذا الصلح ولى محمد علي مصر والحجاز وكريت وجعل ابراهيم باشا واليا على سورية وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية أدنة، ورفرف العلم المصرى على جل هذه الأقاليم .

وبذا انتهى — ولو مؤقتا النزاع بين الدولتين رغم أنف الدول، التي كانت تهوى الصيد في المساء العكر . وكسب محمد علي ثمرات النصر الحلوة . وبرهن للملأ أنه رجل

عودة البلاد إلى أحضان الدولة العثمانية . نظرا لأنهم لم يستطيعوا العيش وليس لهم
جاه أو سطوة . بعد أن توطد الأمن في ربوع أوطانهم ، وأحييت الزراعة والتجارة
والصناعة على النظم المنتهجة في مصر ، وعمت تربية دودة الحرير ، واستخرجت
بعض المعادن ، ودكت بعض القلاع التي كان يلوذ بها الناثرون وقطاع الطرق .
وأكثر من ذلك قرب إبراهيم العلماء والأدباء ، كما رخص للدول الأجنبية في إرسال
معتديهم إلى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله ^(١) .

ثورة فلسطين (١٨٣٤) : ^(٢)

وسوف نتمر سريعا على أهم الأحداث التي مرت بفلسطين ، لعلاقتها بواجبات
الحمايات العسكرية ، التي لم يعرف رجالها الراحة ، منذ عام ١٨٣٤ ولم يمض عام
ونصف العام على معارك الحملة الشامية المظفرة . وبعبارة أخرى الدوافع التي بثت
فيها بذور الثورة ، وأشاعت بها مظاهر التمرد .

(١) الدعايات السيئة التي اضطلع بها بنجاح رجال تركيا وجواسيسهم ، ووكلاء
الدول الأوروبية ، وقد كانت لها نتائج وخيمة في مقاومة الحكم المصري والعمل
على تقويضه ، ولا سيما في نابلس وبيت المقدس ثم في دمشق وحلب — وكان
الدروز ، إلى حد ما ، اللبنانيون من أوفى أصدقاء إبراهيم . كما لعب الدين دورا
كبيرا في مناهضة باشا مصر . ويتبدى أن الشاميين كبعض المصريين — في صورة
عامة — لم يروا أعمال محمد علي في صورتها الحقيقية إلا بعد وفاته وانقضاء زمن
طويل . وليس هناك أدنى ريب في أن الأب وابنه كانا متقدمين على جياهما
بعشرات السنين .

(١) الأستاذ محمد كرد علي — الحكومة المصرية في الشام ص ٢٢ — ٢٤

(٢) الأمير عمر طوسون — تمرد فلسطين واستخدام الجنود النظامية في قعها — مجلة الجيش

وإلى جانب هذه القوّات المحاربة ، كانت توجد الوحدات التالية :

طلبة المدارس الحربية ٣٤٨٨

قوّاد البوليس المحلية ٦٧٩٩٨

جنود البحرية ودور الصنعة ٢٥١٤٣

صناع وعمال في خدمة الجيش ١٩٣٩٣١

وقد كانت معظم الوحدات موزعة في حاميات الشام ، وقد بلغ عدد أفرادها من القوّات النظامية في عام ١٨٣٣ — ٧١ و٦٣١ ، أما غير النظامية فقد كان ١١٩ و ٧١ ، أكثرها موزعا في أدنه وأورفا وحلب وعكا وعينتاب .

هدنة مسلحة بين حريين

١٨٣٣ — ١٨٣٩

كانت إتفاقية كوتاهية بين الدولتين هدنة لمُدّة سنين قلائل ، استعد الطرفان في خلالها لاستئناف القتال . وكانت حكومة الباب العالي لا تنفك تنفث الدسائس بوساطة أعوانها بشتى الوسائل . فلما ضاق محمد على ذرعا ، وآيس من إصلاح ذات البين ، اعترم على إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول الأجنبية ، وحذّتهم بعزمه ، كما سيأتى :

الإدارة المصرية فى الشام :

وكانت للحكومات المعينة من قبل مصر فى ولاياتها بالشام والبلاد العربية وكريت ... إدارات منظمة ، تعنى برفاهية سكانها ، عادلة فى أحكامها ، فرتبت فى الشام مجلسا للشورى على النظم الحديثة ، ونظمت الشؤون المالية . بل هيا إبراهيم نظاما لجباية الخراج ، ومعاملة الرعايا بالعدل والمساواة ، بغض النظر عن تفاوت الطبقات الدنيوية ، وتباين المذاهب الدينية ، مثل هذا التعديل فى أسلوب الحكم ، جعل الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ يستثقلون الإدارة المصرية ، ويتمنون

(ج) فتنة دمشق وطرابلس (١٨٣٤) وعكار وصفيتا وحلب وأنطاكية وبلبلك وبيروت .

(د) ثورة النصيرية شرق اللاذقية (١٨٣٤ — ١٨٣٥) .

ولا مريّة في أن هذه المعارك أنهكت قوى الجنود بحالة مستمرة . وقد أبدى إبراهيم في قمعها كثيرا من الشدّة ، بيد أنه استحوذ على إعجاب الثائرين أنفسهم ، بتعريض نفسه للخطر بجراحة لا يتصوّرها عاقل . وعلى هذا قيل عنه أن أبا خليل — وهذه هي الكنية التي يكنى بها الشعب — محجّب بحجاب ضد الجروح فعلة محقق ، وأنه بعد كل واقعة كان ينفّض ردائه فينساقط منه الرصاص .

وقبيل آخر العام ، تمت عمليّة التجنيد في سورية ، وتمّ النقص في جميع الآلايات المعسّكة فيها .

ثورة الدروز في حوران (١٨٣٦ — ١٨٣٨) .

ولم يستتب الأمر بعد هدوء الأحوال في الشام ، حتى شبت ثورة الدروز في حوران ، وكان إبراهيم باشا أعفاهم من التجنيد ، ثم ارتأى تطبيق قانونه عليهم لحاجته إلى زيادة جيشه ، استعدادا لملاقاة العثمانيين . فشبت ثورتهم في حوران (نوفمبر ١٨٣٧) ولقد شرحت معارك هذه الثورة بحملاتها الثلاث التي قاد واحدة منها إبراهيم بنفسه في مقال طيب نشره المغفور له الأمير عمر طوسون في مجلة الجيش ونوجز أهمّ حملات هذه الثورات الثلاثة فيما يلي :^(١)

(١) حملة على أغا البصلي ، رئيس الهوارة ، مؤلفة من ٤٥٠ من فرسان . وقد فاز في مستهل الأمر ضد الثوار في بصرى ، ثم استدرجوه إلى الجبال وانقضوا على رجاله وأبادوهم جميعا .

(١) مجلة الجيش — المجلد الخامس — العدد ٤ — ص ١ — ١٣

(٢) توجد معارك أخرى صغيرة لا بعدها بين الحملات الثلاث الكبرى .

تفشى التذمر وعدم الرضى بين الزعماء والمشايخ وأتباع عبد الله الجزار ، ممن حرموا المناصب والوظائف الكبرى التى كانوا يأملونها ، أو فقدوا الجاه والمال بعدما نظمت أحوال البلاد — بخرت عدة وقائع بين المصريين والعكاريين والصافيتين وأهل نابلس (الشيخ قاسم الأحمد) ثم حدثت معارك فى حلب ومثلها فى بيروت — وفد نكل بالكثيرين من زعماء البلاد ولا سيما آل طوقان وأعيان الأتراك .

وعلاوة على ذلك فقد توفرت الأسباب المادية لثورة الشام وفلسطين وأهمها الضرائب الفادحة التى فرضها إبراهيم على الأراضى بعد إصلاحها والجمارك وماجره نظام الاحتكار فى أثره ، والتدخل فى إلزام بعض أصحاب الحرف والصناعات اليدوية بالعمل فيها طبقا لسياسة اقتصادية عليا ، تكفل توطيد الأساليب فى مصر والشام .

وأظهر مسببات التذمر نفرة الناس من الجندية الإلزامية التى فرضها محمد على . فقد كره الشاميون الخدمة العسكرية بعد مرور مئات السنين وهم يفلحون الأرض أو يحترفون الصناعات الدنيا . وأضحوا يعدّون التجنيد من باب إلقاء النفس فى التهلكة — وقد زال من أفكارهم معنى الدفاع عن الوطن بعد أن حكمهم الغرباء قرونا بالسوط — وقد أفضى نظام التجنيد ، الذى ثاروا ضده ، إلى هجرة عدد كبير من أهل الشام ، إلى آسيا الصغرى والعراق والبادية والجبال .

وبالاختصار أفضت هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة إلى :

(١) عصيان بيت المقدس (ابريل ١٨٣٤) وقمعه وكان زعيمه الشيخ قاسم الأحمد وأبو غوشى — وقد اشتدت الثورة فترة مما جعل محمد على يسافر بنفسه على رأس إمداد كبير .

(ب) عصيان صفد وقد أنعمه الأمير بشير الشهابى .

وتدخلت الدول لحل الخلاف بين البلدين ، فباءت مساعيها بالفشل ، لأن إنجلترا كانت من وراء تركيا تحرضها على قتال محمد علي ، واسترداد مصر أيضا من حوزته . ومن المؤكد أن إعلان استقلال مصر تأتى متأخرا ، بالرغم من أن إبراهيم عقب انتصاره فى معركة قونية كثيرا ما ألح على أبيه فى كتاباته أن يعلن هذا الاستقلال . والكتب التى أورد فيها هذا الإلحاح جد كثيرة — كذلك تناولت تصريحاته لرجال الحكومات الأوروبية الشىء الكثير من هذه الرغبة . وفى السابع من المحرم علم ١٢٥١ هـ (١٨٣٥) ، أى بعد أربع سنوات تصرمت على اتفاقية كوتاهية ، كتب إبراهيم إلى أبيه رسالة كانت على قصرها تنم عن الحسرة والألم ، لأن أبا لم يأخذ برأيه لما طلب إليه إعلان الاستقلال ... قال :

”لا بد أنك تذكر حين وقفت بجندى فى قونية وكتبت أطلب إليك بالإلحاح وفى خضوع وتواضع أن ننتهز الفرصة ونعلن استقلالنا فكتبت إلى تقول إنك قانع أن تكون ”محمد على“ وكفى . مع أننا كنا متصرين . وكانت الفرصة سانحة ولكنك لم تشأ . والآن وقد مضى وقت طويل على تسوية النزاع وتعيين الحدود تطلب الاستقلال“ .

وقد كان إبراهيم على حق . لأن الاستقلال يؤخذ ولا يطلب .

الدولة العثمانية فى ١٨٣٩

شاهد القرن التاسع عشر انحلال الدولة العثمانية ، بعدما قطعت شوطا من المجد الفسيح ، فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد جاهد بعض سلاطينها كيما ينشلوها من تفادى هذه الخاتمة ولكن ذهبت محاولتهم سدى بعدما دب الفساد فى جسمها . فالشعب كره الإصلاح ، لأنه لم يفهمه على وجهه . وغمره جهل الغرور وأحلام السيادة ، ووجد فى قبول الإصلاح مسببة له وعارا ، فأصر على العناد . وكانت الدول الأوروبية تعمل مخصصة على مساعدة الشعوب المسيحية الخاضعة للعثمانيين ، لتتملص نهائيا من سيادة الإمبراطورية الهرمة .

(٢) حملة الفريق أحمد باشا المنكلى ، ناظر الحربية ، وكانت مؤلفة من ١٤,٠٥٠ مقاتل من المشاة والفرسان والمدفعية — قام على رأسهم فى ١٢ فبراير ١٨٣٨ وقد ناضلوا فى عدة معارك ، خرجوا من بعضها فائزين ، ولكن كانت نتيجةها مشئومة ، فقد هزمت قبالة الثوار ، وفقد المضربون أكثر من أربعة آلاف جندى وستة آلاف بندقية ومدفعين وخمسين جملا محملة بأزواد وكل متاع الضباط ، واستشهد قائد اللوائين والى بك وراجى بك .

(٣) قبالة انتصارات الثوار ، نظم إبراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل وتولى قيادتها . وتسنى له الإطباق على ثوار حوران ووادى التيم . فسلم التيميون ومن بعدهم بقية الثوار فى منطقة الجأه (أغسطس ١٨٣٨) .
قضى إبراهيم على ثورة حوران عقب امتدادها تسعة أشهر ، بعد أن تكبد خسائر باهظة .

خرج الجيش المصرى من فوزه الختامى ، فى تلك المعارك ، باكتسابه مزايا لاحصر لها ، فى التدريب والقيادة . فقد كانت هذه حروبا مع عدو عنيد مسلح . يكافح لطرده المصريين من بلاده .

وإبان انشغال المصريين فى هذه الحرب ، كان الباب العالى يعمل ما فى وسعه لتخليص سوريه وأقليم أدنة من محمد على ، بينما حاول هذا اكتساب ود السلطان وفعلا أوفد فى عام ١٨٢٧ مندوبه صارم ليفاوض محمد على لتسوية الخلاف بطريقة ودية ، ولكن أخفقت المحادثات ، ولم يتفق الطرفان على شروطهما .

حيال عناد الحكومة العثمانية ، اعتزم محمد على — كما سبق أن أورينا — إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول فى مصر وحدثهم بعزمه هذا فى مايو عام ١٨٣٨ معتمدا على حق مصر^(١) .

(١) كادلفين وبارو — سنان من تاريخ الشرق — ج ١ ص ٢٢ و ٤٦

معركة نزيب

الجولة الخامسة

الجيش العثماني في عام ١٨٣٩ :

تألف الجيش العثماني من حوالي ٨٠ ألف مقاتل و ٢٠٠ مدفع حشد معظمها في منطقة ملطية بشرق الأناضول . وكان هذا الجيش أنظم وأقوى الجيوش العثمانية منذ أن تحلصت تركيا من الجيوش النظامية ، وتوفر عتاده الحربي وأعد منه الشيء الكثير في ملطية وديار بكر . ووضع تحت قيادة حافظ باشا سرعسكر باشا الجيش في آسيا ، بعد وفاة رشيد باشا في عام ١٨٣٦ ، يعاونه هيئة من ضباط أركان الحرب الألمان برئاسة فون مولتك الذي حظى بالشهرة فيما بعد .

وكان قائد الجيش ، الذي وضعت فيه الدولة ثقتها للقضاء المبرم على الجيش المصري ، قد منح رتبة السرعسكر السامية عقب انتصاره على ثورة الأكراد . ولد في عام ١٧٩٦ من أسرة قوقازية عمريقة ، وعنى بتربيته وتعليمه منذ الصغر ، فتلقى اللغات التركية والعربية والفارسية ، وحفظ القرآن وهو في السابعة عشر من عمره ثم التحق بخدمة السلطان في فرقة الـ (Hahigi) حيث ارتقى سريعا . وما أن شكل الجيش النظامي حتى تقدم للخدمة فيه كجندي بسيط في الخيالة ، وبلجده حاله التوفيق فوصل إلى رتبة بمباشي في خلال الحرب الروسية التركية ، إلا أنه أصيب فيها بجرح شفى منه . وحدث أن أنعم عليه برتبة قائد اللواء والفرقة عقب أعوام فلائل . وقاد الحملة العسكرية التي وجهتها تركيا لإخماد الثورة في ألبانيا . وعلى أثر إتمام مهمته ، عينه السلطان حاكما على إقليم سيواس بالأناضول . وفي غضون اضطلاع بمنصبه أمره الباب العالي بإخماد ثورة كردستان ، فأورى في ظل معاركها نبوغا ونظاما وشجاعة ودراية تامة بإدارة الحرب ، وتم له إخضاع الكرد . وكان من جراء نصره الكبير أن أنعم عليه السلطان بنيشان الافتخار وترقيته إلى رتبة سيرعسكر الجيش في آسيا .

حاول السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ — ١٨٠٨) تنظيم جيوشه ، بيد أنه شغل بحاربة روسيا . ثم خسر الحرب ، ونهض في وجهه أنصار الرجعية ، وقتلوا رجاله الذين اعتمد عليهم في تنظيم قواته ، ثم أرغموه على اعتزال عرشه وتخلصوا منه . وقد حاول خلفه السلطان مصطفى الرابع أن ينهض بالجيش . فكان نصيبه الاغتيال — ولم يأس السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) . فقد استطاع بمعاونة بعض وزرائه تنظيم الجيش . وبدأ بادخال التدريب الحديث إلى صفوف الانكشارية بعدما فهم زعمائهم ما جرته تقاليدهم البالية على البلاد من الفساد والفوضى . وبالرغم من أخذهم باللين لم يستطع التخلص منهم إلا باغتيالهم في مذبحه كبرى . فارتاحت الدولة من شرورهم . ومن ثم بدأ السلطان يكثر من الجنود النظاميين ، ويعتدل القوانين ، التي لم تعد صالحة للعصر ، كما طفق يجتد في أنظمة الحكومة .

ولكنه شغل بالفتن والحروب الكثيرة التي لم تكد تنتهى واحدة فيها حتى تبدأ أخرى بتشجيع دول أوروبا التي هدفت إلى القضاء على آل عثمان ، أو على الأقل إلى بقائها دولة هزيلة لا حول لها ولا قوة .

كانت الحروب المتتالية التي شتها روسيا ، أو الدويلات الخاضعة للعثمانيين ، أظهر عوامل القضاء على مكانة تركيا كدولة عظمى ذات بأس و سطوة ، التي كانت تقترب يوما بعد يوم من مقبرتها . ومع هذا الانحلال التدريجي لم يعرف رجال تركيا الانتفاع من كفاءة بعض حكامها ورجالها في الولايات العثمانية وفي طليعتهم محمد علي باشا في مصر وعلى باشا والى يانيا .

كانت هذه حال تركيا ، حينما بدأ سوء التفاهم بينها وبين محمد علي . بلاد أنهكتها الحروب المتتالية ، وأضعفتها ملازمة شعبها إلى عدم التحول عن القديم البالي ، وغباء رجالها الذين اتقادوا في سياستهم العمياء لنصائح بعض سياسى الدول الأجنبية . فعجلوا بدمارها — وجيش جديد بدئ أخيرا في إعادة تدريبه وتسليحه بعد انقضاء فترة قصيرة على التخلص من الانكشارية .

وفيا إلى توزيع وحدات الجيش العثماني^(١) :

قيادة عزت محمد باشا	أنقرة	١٢,٠٠٠	٤ بطاريات مدفعية
» علي باشا ومعه فيشر	قونية	٢٠,٠٠٠	» » ١٠
» حافظ باشا	ملطية	٤٢,٠٠٠	» » ٢٤
» عثمان باشا	قيصريه	٥,٦٠٠	» » ٢
» علي بك	(موزعة في مناطق شتى)	٧,٥٠٠	» » ١٢

٨٧,١٠٠ جندي ٥٢ بطارية

الجيش المصري بعد صاح كوتاهية

وعلى تقيض حال الدولة التركية ، استمرت مصر ، بزعامه مصاحها الكبير ، في نشاطها الصناعي والعلمي والعسكري ، بالرغم من الثورات والفتن ، التي شبت في مناحى الشام وفلسطين وبلاد العرب ، والتي أنهكت الجيش خمسة أعوام طوال ، وأن طموح الباشا ، ورغبته في المحافظة على مركز دولته (ولايته) موطدا ومدعم الأركان وطبيعة ممتلكاته ، جعلت محتما عليه أن يعتمد على قوة كبيرة ، استطاع بفضلها المحافظة عليها ، والسير بسفينته وسط عواصف دعاية الحكومة التركية والبريطانية في كل مكان تدين بالولاء للباشا ، وفضلا عن ذلك كان يرى محمد علي استعداد الباب العالي للقتال ، والعمل على زيادة قواته الدفاعية ، ولم يحف المداد الذي كتبت به اتفاقية كوتاهية ، فوضع نصب عينيه عقيدة ” إذا أردت السلم فاستعد للحرب “ (Si Vis Pacem par Bellum) .

فليس هناك ما يخلق الحرب أكثر من وجود ضعيف وقوى ، وليس هناك أيضا ما يخفف من ويلات الحرب ويطيّل أمد السلم أكثر من تكافؤ القوى ،

(١) ذكرت ” الجورنال دى ديبا ” بتاريخ الاثنين ٣ يونيو سنة ١٨٣٩ نقلا عن ” جازنت

دوجسبورج ” أن قوات الجيش التركى ٦٥ ألف مقاتل ومعهم مائة مدفع ميدان .

وإلى جانب مزايا هذا القائد العسكرية ، كان واسع الأفق في تفكيره ، بعيد النظر في تديره . لم يك جامدا شأن الكثيرين من قادة العثمانيين في القرن الثامن عشر وأكثر من ذلك كبير القلب ، نبيل الشعور ، يمقت إراقة الدماء بدون داع . أضف إلى ذلك أنه كان محبوبا عند الأهالي والجند ، عفوا عن الدسيسة ، مهيب الطلعة ، كريم الخلق والطباع ، محترما للغاية . أما بيته فقد كان مفتوحا على مصراعيه يتناول الطعام على موائده ثمانمائة شخص . دينا لدرجة يقال أنه طلب إلى جنوده الصلاة قبيل الانخراط في القتال .

وكان كثيرون من ضباط أركان حرب الباشا ممن تلقوا علومهم في المدارس الحديثة الحربية في أوروبا ، وفي طليعتهم محمد رشيد بك الذي صار فيما بعد قائدا ومديرا عاما للدفعية التركية وكان من المقترين إلى خسرو باشا ناظر النظار — وقد عين رئيسا لهيئة أركان حرب حافظ باشا فحسده الكثيرون من ضباط الجيش العظام ، الذين أفلحوا في الكيد له عند السر عسكر — لذلك لم ينتفع بمواهبه ظنا منه أن عين عليه ليشغل أخبار الجيش إلى رئيسه .

فلما زایل الجيش التركي قاعدته في ملطية ، أمره القائد بأن يشرف على أعمال الإسعاف الطبي ، والمستشفيات العسكرية !

ويظهر أن التجارب والمحن التي مرت بأحوال الجيش العثماني ، وهزاعه المتتالية ، في معارك ١٨٣٢ ، لم يفد الباب العالي منها شيئا كثيرا ، ولا سيما من ناحية تدخله في الأمور الفنية الخاصة .

وإلى جانب الجيش العثماني النظامي ، كانت هناك وحدات من الاحتياطي غير المدربة تدريبيا كاملا فضلا عن أن معنوياتها لم تك في مستوى معنويات الوحدات المنظمة .

(ب) الخيالة :

١٧٣٨	لواء الحرس — آلايان بقيادة الفريق أحمد المنكلي باشا
١٦٧٩	اللواء الأول الخيالة — آلايان (١١ و ٢) بقيادة أمير اللواء رستم
١٧٢٨	اللواء الثانى الخيالة — آلايان (١٣ و ١) بقيادة الجوخدار
١٦٣٠	اللواء الثالث الخيالة — آلايان (١٠ و ٦) بقيادة ابراهيم بك
٦٧٧٥	مجموع الخيالة

(ج) المدفعية : بقيادة أمير اللواء جعفر صادق بك

١٠٦٦	مدفعية الحرس : بقيادة أمير الآلاى خالد بك
٢٠٦٦	الآلاى المدفعية الثانى المشاة : بقيادة أمير الآلاى محمد العنتبلى
١٠٤٠	آلاى المدفعية الأول الخيالة : بقيادة أمير الآلاى حاذق بك
١٠٦٧	آلاى المدفعية الثانى الخيالة : بقيادة أمير الآلاى زكى بك
٥٦٢٥	مجموع المدفعية

المجموع الكلى للجيش ٥٠,٠٧٣ ضابطا وجنديا بصحبته ١٦٢ مدفعا .

الحوادث المهمة للمعركة نزيب

(سنة ١٨٣٩)

لكى نقدم صورة واضحة للمعركة، مستكملة المعالم، يتعين أن نقفواثر الأحداث التى أفضت الى القتال الحاسم .

- (١) حصنت القيادة المصرية مضيق كولك، أحد مضائق طوروس، وهو منفذ الزحف من الأناضول الى سورية، وزاد عدد الحاميات فى ولاية أدنة .
- (٢) لما علم القائد حافظ باشا بأعمال المصريين، رام تلاقى الزحف من هذا المضيق . والقيام به من منطقة أورفا ودياريكر، حيث لا تواجهه مضائق أو مسالك وعرة أو جبال .

فالسلم لا يمكن أن يوجد إلا إذا كان مسلحا، تجهيه الأسلحة وقلوب المحاربين المتأهبين للذود عنه .

ونظرا لكثرة الفتن والثورات التي عمت في داخلية الشام وفلسطين، اضطّر ابراهيم الى توزيع قواته من البحر الميت الى طوروس، ومن الساحل الى الفرات. ثم التمس من أبيه أن يجنده بامداد قوى . فأرسل اليه ناظر حربيته على رأس جيش مؤلف من ستين ألفا نظاميا وثمانية آلاف غير نظامي معظمهم من الفرسان و٢٥٠٠٠ من البدو وقد ألحق بهم ١٦٠٠٠ مارونى .

وعلى العموم، كان الجيش المصرى مركبا من وحدات مارست الحروب والمناورات، منذ عشرين عاما، فى نظام وتدريب كاملين .

وكانت معنويات المصريين عالية للغاية، ولا دهشة فى ذلك، فقد حاربوا وخرجوا ظافرين من جميع المعارك الكبرى التى قاتلوا فيها — وكان عتادهم وذخيرتهم وأسلحتهم وفيرة فى أيديهم، أو خلفهم فى مستودعات ونزلات، الى جانب مخازن الجيش فى اسكندرونة ويافا — وكان ينقل أكوام التعيين والمهمات ١٥٠٠٠ جمل بين الدلتا والعريش ثم ينقلها عرب عنازة الى المعسكرات .

الجيش المصرى فى معركة نزيب :

(١) المشاة :

فرقة الحرس — ٣ آلايات (١ و ٢ و ٣) بقيادة الفريق عثمان باشا ٨٦١٧
اللواء الأول — آلايان (٢ و ٢٢) بقيادة أمير اللواء سليم بك ٤٧٣١
اللواء الثانى — آلايان (٤ و ١٢) بقيادة أمير اللواء ابراهيم بك ٥٢١٦
اللواء الثالث — آلايان (٦ و ١٨) بقيادة أمير اللواء حمزة بك ٧٣٩٣
اللواء الرابع — آلايان (٩ و ١٤) بقيادة أمير اللواء عمر بك ٤٥٥١
اللواء الخامس — ٣ آلايات (١٠ و ١١ و ١١) بقيادة أمير اللواء فرحات بك ٧١٦٥

مجموع المشاة ٣٧٦٧٣

وفي ذلك الوقت ، اعتدت قوة كردية على حيوانات كانت ترعى للمصريين ، ولكي يجتنب ابراهيم الصدام وتقهقر إلى حماه ، وأرسل إلى والده يسأله ماذا يكون موقفه إذا هاجمه الأتراك ! وبالرغم من الضغط السياسي على الباشا : ارتأى أن يستعد ، وسارع في إرسال الإمدادات بقيادة ناظر الحربية ، فوصل هذا إلى حلب والحرب وشيكة الوقوع .

(٦) في الثاني والعشرين من شهر مايو ، عبرت طلائع الجيش التركي الفرات ووصلت إلى نزيب^(١) داخل الحدود السورية . واحتلت العداوة التي بين نهر الفرات وأحد أفرعه الصغرى المسمى ساجور وتقدمت القوات التركية فاحتلت قرية تل باشر^(٢) واقترفت فيها الفظائع .

(٧) وفي مساء اليوم التالي ، أوفد ابراهيم — بعد علمه بتقدم الترك — ٤١ رسولا إلى مختلف مراكزه يحملون فيها الحشد العام في حلب . وفي صباح الرابع والعشرين جمع أعيان المدينة وأنباهم بما اقترفته قوات الساطان وطلب معونتهم . وفي اليوم التالي أرسل إلى أروول خمسمائة من عرب الهنادى بقيادة الأميرالاي معيجون بك للوقوف على حركات طلائع الترك أولا بأول . وحشد ابراهيم معظم وحدات الجيش في معسكر بأورطة ، على مبعدة ثمانية كيلومترات شمالي حلب ، بقيادة مساعده الفريق سليمان باشا الفرنساوى . وكانت تحت إمرته ١٨ الآى مشاة و ١٦٠ مدفعا . أما الأتراك فاستمروا في تقدمهم نحو مزار داخل الأراضى السورية ، واضطر عرب الهنادى إلى القهقرة في اتجاه توباش كالأوامر التي صدرت اليهم ، وغار الأتراك على ١٤ قرية تابعة لعينتاب ونهبوها .

(١) تقع نزيب على الطريق الموصل بين بيره جك واسكندرونة وموقعا غربي بيرة جك .

(٢) يقع نهر ساجور بالقرب من عينتاب ويمر بها ويصب الى الفرات ، وهو الحد الفاصل بين أملاك مصر وتركيا في ذلك الحين ، والمرسوم في اتفاقية كوتاهية .

(٣) اتصل ذلك بالقيادة المصرية ، فحول ابراهيم باشا وحدات كثيرة من جيوشه الى حلب ، ولتستمر في مراقبة طلائع الجيش التركى فى عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية^(١) .

(٤) عهد القائد حافظ باشا الى أحد قائديه عبور نهر الفرات ، فانتقل هذا الى الشاطئ الأيمن يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ وفى الحال نهض ابراهيم باشا ببعض التحركات الهامة لتجاشى الخطر .

(٥) فى منتصف ابريل : بدلت وحدات الجيش التركى مراكزها ، واتجهت صوب ساموساته ، وتجمع لواء اسماعيل باشا فى بيره جك (٢١ أبريل) . وبعد أيام وصل هذه المدينة حافظ باشا ، وفيها تسلم كتابا من السلطان يأمره فيه بالتقدم ، فاستولى على ساموساته ، ثم قصد إلى بيره جك (على الشاطئ الأيسر للفرات) .

(١) ليس المقصود بكلمة كلز المدينة ذاتها وإنما المنطقة الخارجية المحصورة بين أقصى الانحناء الشرقى المائل فى نهر الفرات وخليج اسكندرونة ، وهى تعرف بنواحى بيره جك . ويتسنى الوصول من هذا الموضع الى خمسة مواضع مهمة تقع فى البلاد التركية :

(أ) يتسنى الوصول منه بالطريق المار من عتاب ومرعش والمنتهى الى الشمال حتى شمل الأناضول (الطريق الملكى قديما) .

(ب) وبطريق آخر يتجه صوب الغرب ، مارا بكليكا وموانثا ، حتى غرب الأناضول .

(ج) يتيسر الوصول من طريق حلب — الأردن — فلسطين الى مصر ، ويعرف هذا الطريق الهند التجارى أو طريق الحرير .

(د) ويصل الطريق الذى يمر باستقامة نهرى دجلة و فرات والمتممة نحو الجنوب الشرق الى العراق فايران والصين وما إليها .

(هـ) وبواسطة ديار بكر يتسنى الوصول الى القوقاز وأذربيجان .

من هنا تتجلى أهمية بيره جك العسكرية ومضيق كلز ، الذى تخيره حافظ باشا ، ليضرب ضربه ضد ابراهيم .

وفي يوم ٧ يونيو ، قام حافظ باشا على رأس قوة ، للاستكشاف ، مؤلفة من خمسة آليات خيالة و ٣٠٠٠ خيالة غير نظامية ، تؤيدها المدفعية . فقابلته الخيالة المصرية وعبرت ساجور الصغير واتجهت نحو العدو في قولين . وتبادل الطرفان النيران ، واشتبكت قواتهما غير النظامية ثم عاد حافظ باشا أدراجه ، ولم يلحق به إبراهيم عملا بتوصيات أبيه ، التي كان في انتظارها بالرغم من تحرك حافظ باشا .

(١٢) وعملا بتعليمات الأب ، أرسل إبراهيم في يوم ٨ يونيو إلى حافظ باشا كتابا جاء فيه :

إذا كنتم يا صاحب السعادة تلتقيتم الأمر باعلان الحرب فما فائدة الاسترسال في بث الدسائس وتحريك الفتن . وإذا كنتم تودون القتال فهلموا إلى ميدانه بصراحة وإقدام وأمل ألا يفوتكم في هذه الحالة أن تعرفوا أنكم تقاتلون أبطالا لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم — أما الدسائس التي تمضون في تدبيرها فانها ليست مما يطاق احتماله طويلا .

فرد حافظ باشا على هذا الكتاب بعبارة منمقة ، ولكنه حاذر أن يبدي رأيا صريحا .

وفي رسالة لمحمد علي (في ٩ يونيو عام ١٨٣٩) لإبراهيم قال :

إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول . وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عنز علينا أن نوقفه لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمن وذات الشمال — وكلما صبرنا عليه رغبة منا في عدم معارضه رغبات الدول الكبرى زاد عدونا توغلا في بلادنا وزادت الأمور تحرجا وتلك حال ترغمنا على العمل — فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولما كان العدو هو المعتدى فإن الدول ان تاتي علينا التبعة — فنصيحتي اليك أن تبادر عند وصول رسالتى الى يدك بالهجوم على جنود العدو

(٨) لم يستطع إبراهيم قبالة هذه الاعتداءات أن يقف مكتوف اليدين .
ففى ٢٩ (التاسع والعشرين) مايو بارح حلب على رأس سبعة الآى خيالة ١١ بطارية
مدفعية خفيفة ، واتفق مع سليمان باشا أن يكون على أهبة التحرك على رأس المشاة .
وبنما كان إبراهيم فى الطريق ، أخلى الأتراك تل باشرا ، التى احتلوها منذ أيام ، ثم
استحوذوا الترك على عينتاب ، بعد اخلائها من القوات المصرية . ولما فاق تحرش
الأتراك بالأراضى المصريه فوق ما كان مرتقبا . أرسل إبراهيم الى أبيه يصف
تطور الموقف .

(٩) بعد ٤٨ ساعة وصل الى ثغر الإسكندرونه كاتبن كاييه الذى بعثه
المارشال صولت رئيس مجلس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها برسالة الى محمد على باشا
يقول له فيها أنه بالرغم من الحوادث التى وقعت فإن مصالحه ستظل محترمة . وبعد
أن قدّم (١٤ يونيو) كاييه رسالته أسرع فى السفر (٢٠ يونيو) الى مركز قيادة
إبراهيم ، لمراقبة الحوادث ولا تمام مهنته التى يأتى لأجلها من باريز . كذلك حمل
الضابط فولتر رسالة أخرى للسمر عسكر حافظ باشا . وصل كاييه الى طرابلس الشام
وفى ٢٤ أخذ طريقته الى حلب يوم ٢٦ ، عقب انتهاء المعركة الكبرى وهزيمة
العثمانيين فى نزيب .

(١٠) دفع إبراهيم طلائعه الخيالة ، التى أزالته مقاومة الأتراك بسهولة ،
واستخلصت طريق حاب وأمتيه ، فى ٣ يونيو بدأ إبراهيم فى مراقبة الطريقين
المؤدبين الى عينتاب ونزيب . حيث كانت منطقة الحشد التركية .

(١١) فى الخامس من يونيو . استدعى إبراهيم حاميه عينتاب ، ولم يترك
بها سوى كتيبة واحدة ، لحماية قلعتها . وبعد أيام استسلمت هذه القوة لسليمان باشا
القائد العثمانى الثانى . وفى ٦ يونيو حدثت مصادمة بين قوات معجون بك الهنادى
وسليمان باشا . وكانت خسائر الفريقين متعادلة . ثم اتجه معجون بك الى توزيل .

على القيام في الصباح المبكر بالاستكشاف بينما يرسل سليمان باشا في الوقت ذاته اثنين من ياورانه وهما (F. Perrier) وأراجو وراحا ليرتادا الأراضي على ضفة نهر مزار النيني، لكشف طريق يسمع بعمل حركة التفاف حول الجناح الأيسر للجيش التركي وتحويل مواجهته الى الخلف، إذا لم يتسن مواجهته من الأمام .

(١٤) وفي يوم ٢١ يونيو، عبر الياوران كبرى مزار^(١)، وتبعها مجرى النهر في اتجاه كوبرى كرسين — فلاحظا أن الطريق كثيرا من العقبات يتهياً تذليلها بسير المدفعية . وبعد انقضاء ساعة واحدة من قيام الياورين امتطى ابراهيم باشا جواده وسار مع ١٥٠٠ بدوى الى المعسكر التركي لاستكشافه وما لبث أن لحقه سليمان باشا وفي قيادته أربعة آلايات خيالة وبطارتين من المدفعية الراكبة . وتصدت لهم قوة تركية ، وتبادلوا النيران فترة ، ولم يفز ابراهيم ، فعادوا الى مزار . وفيها عرض سليمان باشا على ابراهيم أن يدير الجناح الأيسر للجيش التركي بوساطة السير جنباً ، والتقدم الى خلف الصفوف التركية ، وبذلك يكرهونها على الدوران ، وترك الموقع المحصن ، والقتال في الأرض المكشوفة .

(١٥) وفي الصباح المبكر من ٢٢ يونيو، انتقل الجيش المصرى من معسكر مزار الى الجنوب واجتازت في الحال بعض وحدات المشاة قنطرة مزار، ورابطت فوق التلال المطلة على مزار للمراقبة . ولبثت الخيالة في مكانها مكونة ستارا لتخفى — على قدر الإمكان — عن العدو منظر الحركة وشرعت المدفعية في عبور قنطرة مزار، واستغرق هذا الانسحاب ساعات كاملات . وبعد اجتياز المضيق انتظمت القوة بلا توان استعدادا للسير في ترتيب القتال . ومن ثم أخذ ٢٠٠٠ بدوى مكانهم وابتدأ الزحف .

(١) كان معهما آلاى خيالة .

الذين دخلوا أرضنا وأن لا تكتفى بإخراجهم منها — بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله — وبعون الله إذا وفقت النصر فاستمر في تقدّمك الى مالطيه وخربوط وأورفا وديار بكر .

وهذا أمر صريح للهجوم .

(١٣) وفي يوم ١٨ يونيو زایل الجيش ، تحت امرة سليمان باشا ، معسكر بأورطة ، ووصل في اليوم التالي الى توزل ، حيث عبرت معظم وحدات الجيش نهـر ساجور الكبير . وفي يوم ٢٠ سارت الى قرية مزار في خمسة قولات مشاة وقولين خيالة ، فوصلتها في الساعة العاشرة صباحا . وألفت فيها طليعة تركية مؤلفة من : آلايين مشاة وخمسة مدافع وخمسمائة جندي غير نظامي — ففوجئت وأسرع البدو المصريون ، طلائع القوة ، بالانتقال الى المقدمة التركية غير النظامية وتبادلوا إطلاق النيران . وبعد قليل أخذت القوات النظامية في الانسحاب الى نزيب .

وما كاد الجيش المصري يبرز على المرتفعات (جنوبي مزار) حتى كانت جميع طليعة الجيش التركي قد انسحبت الى نزيب تاركة خيامها وعنادها ، فغنمها الجنود المصرية ، ودخل ابراهيم مزار في الساعة السادسة مساء يوم ٢٠ وقد أصبح على مسيرة ساعتين مشيا من خصومه ولا بد من استكشاف الأراضي ، فلم تك هناك خارطات تفصيلية كما هو الحال في هذه الأيام .

وحالما استقر المعسكر ، حاول سليمان باشا الفرنسي أن يستكشف الأراضي وقوة معسكر الأتراك بيد أنه استحال عليه أن يعرف بالدقة نوع الاستحكامات وتقدير حقيقة قوة العدو .

وكان ابراهيم باشا ينتظر بفروغ صبر عودة سليمان باشا ، إذ كان قد قرر القيام بهجوم في الغد ، وكان سليمان لا يوافقهم . وعلى ذلك ، فعند عودته ، اتفق كلاهما

(١) تقع مزار في الطريق الموصل الى قرية نزيب .

بأنه ليس للعدو أثر في هذه الجهة كما أفادوا بخلو الكوبرى من قوات للدفاع عنه فابتهج إبراهيم لدى سماعه هذه الأنباء السارة وفي الحال أسرع على رأس خياله ووصل الى الكوبرى وجلس على حجر، وأمر باحضار شبكه وأخذ يشجع الضباط والجنود كلما مرت أمامه وحدة من الجند .

أما سليمان باشا فقد كان يراقب حركة مرور الوحدات عند مدخل المضيق الذى يقضى الى الكوبرى خوفا من الضغط والازدحام وكان الطريق الذى يسبق الكوبرى بمسافة حوالى ٩٠٠ مترا يبدأ فى الانحدار بشدة ويأخذ فى الضيق باستمرار الى أن يصل الى الكوبرى — وعرضه يسع فى أضيق نقطة مرور ثمانية جنود — وكانت مياه نهر كرسين فى هذا الشهر (يونيو) شحيحة مما سمح لجند السوارى بعبوره بسهولة وكانت صفته غير مرتفعين .

وبالرغم من الاحتياطات ، حدث ضغط شديد بين الوحدات ، واختل النظام وكان فى استطاعة الأتراك أن يمتطروا نيرانهم على الكوبرى والمضيق ويقلبوا الخطة الجريئة رأسا على عقب بيد أنهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم بدءوا فى تحويل مواقع جنودهم .

واستمر توالى مرور الجند على الكوبرى ساعات طويلة . اجتازته الخيالة والمشاة والمدفعية إلى الساعة الثانية صباحا . وقد أفادت القيادة من التحركات الليلية التى لم يكشف حقيقةتها العدو . وبجهد انتهاء وصول الوحدات ، على الضفة الأمامية ، أخذ سليمان باشا يرتب نظامها على شكل مروحة يمينها ويسارها يرتكز على النهر ، ووضع جزءا من المدفعية على منحدر المرتفعات الأمامية فى تشكيل بطريات فى كافة الاتجاهات ، وخلفها ثلاثة صفوف مشاة ثم الخيالة والعتاد ، ثم ما تبقى من المدفعية خلف الصف الثالث .

(١٧) وفى ٢٣ نشط الجيش المصرى فى الاستعداد للعركة ، واجتمع الضباط بالقائد إبراهيم فى خيمته ، حيث أثنى على ما أبدوه خلال اليومين السابقين . وطلب

ولم يتخذ الجيش في بدء الأمر خط سيره الحقيقي ، بل انحرف كأنه ينبغي حلب وكان سليمان باشا يشرف على سير القولات حتى لا تحدث تغيرات طويلة بين بعضها البعض ، يستطيع العدو أن يستفيد منها بتوجيه قوات كثيفة تربك هذه الحركة ولذلك استنفذ هذا السير مدة عشر ساعات لقطع المسافة بين مزار وكرسين .

بعد وقفة للاستراحة في قرية كورديكالا عاود الجيش السير ، فظهرت وحدات تركية على اليسار ، على مدى ٣٠٠ متر من جانبه الأيسر . وفي الحال أخذ سليمان باشا ثلاث كتائب مشاة وست من الخيالة وتوجه أمام هذه الوحدات ليهدد سيرها . وفي الوقت ذاته أمر باحتلال بعض التلال الصغيرة وأكمة تقوم على يمين القولات فأسرعت بطاريات في احتلال الأكمة وأخذت ثمانى كتائب موقفها تنتظر أية حركة يضطلع بها الترك . علاوة على حماية مسير الجماعات الأخرى ، التي كانت تفد تباعا . ولاح أن غرض الوحدات التركية لم يك سوى الاستكشاف والوقوف على قوة الجيش واتجاه مسيره ، وفي هذه اللحظة كانت المسافة بين كوبرى كرسين والجيش المصرى فرسخين تقريبا ، وكانت خطة القيادة المصرية قد ابتدأت تظهر لعيني كل جندى : وهى ادارة مواجهة الجيش التركى وإكراهه على تغييرها بترك مواقعه المنيعه التى أعدها . ولا ندرى لماذا أغفل القائد العام العثمانى مهاجمة الجيش المصرى من جنبه أثناء حركة التفافه أو على الأقل حراسة كوبرى (هرجون) كرسين والدفاع عنه ولمنع الجيش المصرى من عبوره بأى ثمن لأنه مفتاح موقعهم وقد ألح الضابطان البروسيان مولباخ وفون مولتكه على القائد أن يهاجم المصريين فلم يعبأ بنصيحتهما فعرضا عليه أن يتراجع الجيش التركى الى معسكره الأوصلى فى بيره جك فلم يعمل برأيهما . وكانت الوحدات التركية التى هددت أجناب الجيش المصرى تراجعت بسبب انتهاء واجبها .

(١٦) وكان الليل قد أقبل حينما بلغت القولات المصرية المتقدمة كوبرى كرسين (هرجون) واستعدت لاجتيازه . وعادت قوات البدو وأخبروا القيادة

أولا — ٣ خطوط من المشاة موازية لبعضها ، الخط الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة والخط الثانى على يمين الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة مثلها ، والثالث على يمين الثانى مكون من ثمانية كتائب ، وجميع كتائب الثلاثة الخطوط بعضها خلف بعض .

ثانيا — على يسار خط المشاة الأول وعلى بعد ١٥٠ مترا منه تسع بطاريات (٥٤ مدفعا) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكورة .

ثالثا — على يمين خط المشاة الثالث وعلى مبعده ١٠٠ متر منه ١٠ بطاريات (٦٠ مدفعا) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكور .

رابعا — أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) خلف خطوط المشاة الثلاثة .

خامسا — أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) أمام الثلاثة الخطوط المشاة لمسند الستة الآليات الخيالة التى أمامهم عند اللزوم .

سادسا — الستة آليات الخيالة أمام الأربع بطاريات الأخيرة فى موازاة خط المشاة الثالث .

سابعا — فرقة الحرس المؤلفة من ١٢ كتيبة خلف الأربع بطاريات التى وراء خطوط المشاة الثلاثة بصفة احتياطية .

ثامنا — لواء خيالة الحرس مؤلف من الآلايين أحدهما من لابسى الدروع والآخر من حاملى الرماح خلف الجميع كحرس مؤخرة .

وفى أثناء السير ارتد آلايان من الخيالة إلى الخلف من الجهة اليسرى لحراسة مؤخرة الجيش . وفى بداية المسير للقيام بحركة الالتفاف ، انحرفت القوات قليلا نحو الشمال الشرقى ، فى اتجاه يره جك وبعد أن تقدمت القوة حوالى كيلومتر ، فى ذات الاتجاه ، ولاحظت القيادة أن الجيش التركى لم يتحرك من مواقعه الدفاعية ، أمرت بالالتفاف نصف لفة إلى اليسار . وبذلك صارت خطوط تقدم الجيش

إليهم أن يحققوا النصر ، ويرفعوا اسم مصر ، مثلما رفعوه من قبل . ثم اتجهوا إلى خيمة رئيس هيئة أركان الحرب ، سليمان باشا ، الذى ألقى عليهم أوامره وختمها بالعبارة :

” غدا نلتقى الظهر فى خيمة حافظ باشا ، حيث نختمسى القهوة ... “ .

وانتهى المزيج الأقل من الليل بدون أية حركة فى المعسكرين ، سوى أنه لوحظ أن الأتراك يعملون بجِد ونشاط فى إقامة استحکامات سرّبعة وقتية ، لستر مواجهتهم الجديدة ، على قدر المستطاع .

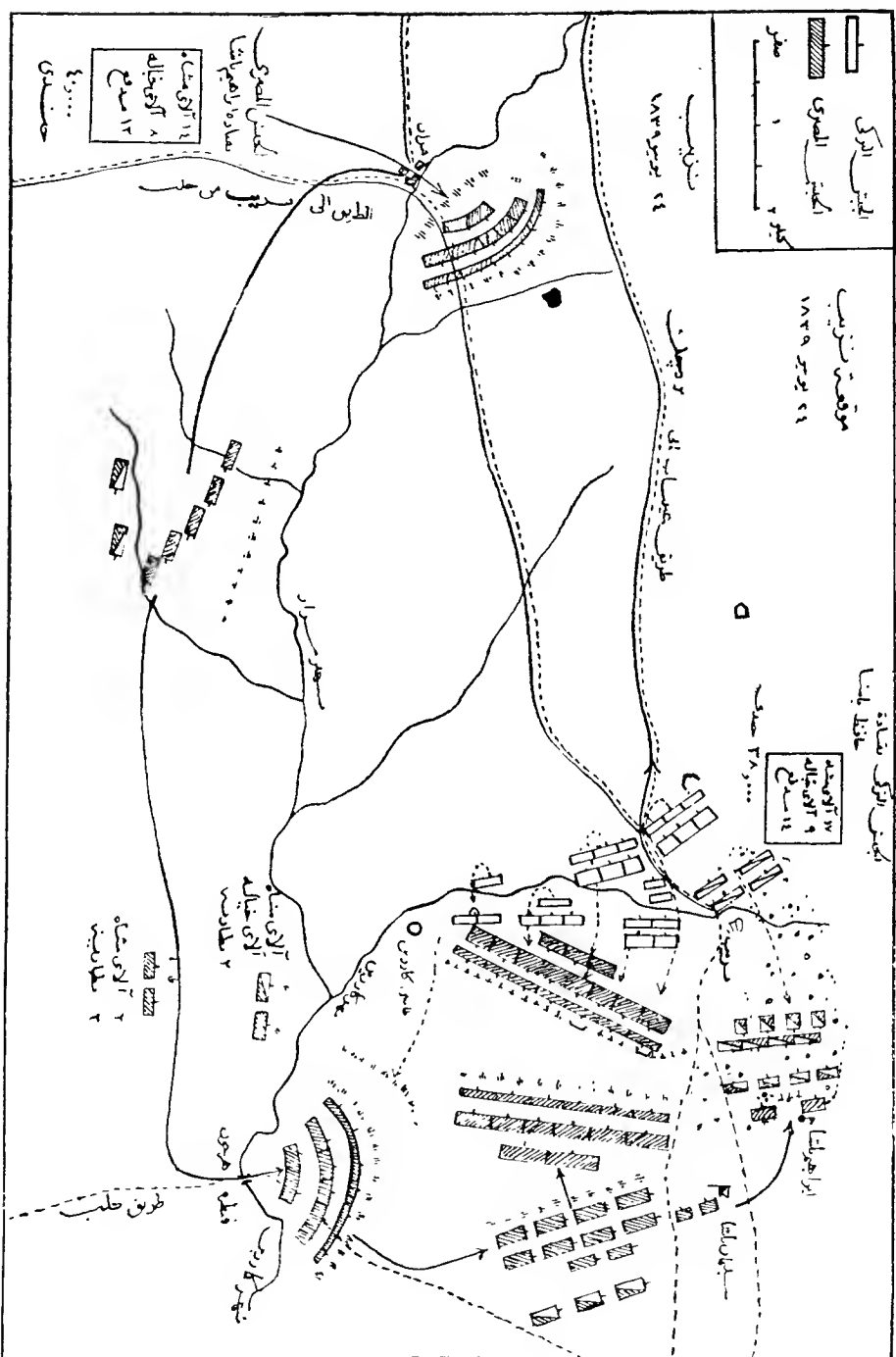
وحوالى منتصف الليل ، انقطع بقية السكون الذى ساد المعسكر بطلقات المدفعية ، وطير العدو خيمتى إبراهيم وسليمان .

واستهل التراشق بالمدافع ، وسط الخيول والجنود ، واختل النظام فى المعسكر ، ولأدت الخيول بالفرار — وكان إبراهيم باشا يحول فى مناحى المعسكر ، حاثا الجنود على الصمت ورباطة الجاش ، وملازمة النظام .

أما سليمان باشا فقد أتجه إلى مدافع الصفوف الأمامية وأمر بتوجيه نيرانها صوب وميض مدفعية الترك ونشر نيران مدفعية فى كافة الصفوف ، وبعد قليل نحدت مدفعية العدو .

وكانت خسائر هذه الاغارة الليلية طفيفة . ولما هدأت الحال أمر القائد العام بالتفتيش ، فظهر أن ما يقرب من مائة جندى وأورطين من الآلى الثالث الحرس المشاة وجميعهم من السوريين المجندين غير موجودين ، فأمر إبراهيم ضباطه بتعقبهم والبحث عنهم : فوجدوهم متجهين صوب معسكر العدو ، فأرجعوهم وادّعوا أنهم ضلوا الطريق ، بخلدوا وغيروا ضباطهم ...

(١٨) فى ٢٤ يونيو لما طفق نور الفجر يلوح فى السماء ، كان قد تم تشكيل الجيش المصرى فى ترتيب السير الآتى مستلا من كوبرى كرسين :



المصرى موازية تقريبا لخطوط الجيش التركى . ثم كررت نصف لفة أخرى ، واتجه الجيش المصرى إلى ربوتين صغيرتين قبالة الجناح الأيسر التركى ولم يحتلها . فأمر فى الحال سليمان باشا باحتلال العليا منهما (تل سليمان باشا) ووضع بطارية من عيار كبير فوقها كما أمر بوضع أربعة الآيات خيالة خلف الربوة الثانية وآلايين من المشاة لسندهم .

أوضاع الجيش التركى :

وكان الجيش التركى ، فى موقفه الدفاعى ، موزعا على النمط التالى : تتألف قوة الميمنة من الحرس — والقلب والميسرة من ثلاثة لواءات مشاة — وفى امتداد الميسرة القوات غير النظامية . وفى الخط الأول ١٤ كتيبة و ٩٢ مدفعا وفى الخط الثانى ١٣ كتيبة ، والاحتياطى أربعة لواءات رديف و ٩ آلايات خيالة و ١٣ مدفعا . وكانت كتائب الخط فى تشكيل مفتوح وكتائب الاحتياطى فى تشكيل قولات .

والآن يتسنى لنا القول بأن معركة نزيب ابتدأت بالفعل وقد انتهت المهدات...

معركة نزيب

بعد أن احتل الجيش المصرى الأكتين ، فطن حافظ باشا الى غلطته فى عدم احتلالهما من قبل . ولكى يحاول إصلاح الخطأ ، بدأ بإطلاق النار على الجيش المصرى ، بينما أمر سليمان بالالتفاف الى اليسار كيما يكون جناح المصريين الأيمن أقرب للجيش التركى من وسطه وميسرته — وأمد ميمنته بأربعة آلايات خيالة وآلاى مشاة من الحرس والآلاى ١٤ المشاة — وكانت هذه الميمنة بقيادة سليمان باشا ، والقلب بقيادة الفريق أحمد المنكلى ، والميسرة بقيادة الفريق عثمان باشا .

فلما شهد حافظ باشا هذه الحركة ، وعلم أن ميسرته هى التى ستتحمل عبء الهجوم تقلل اليها بعض كتائب الميمنة ، بل وقرب الى الميمنة بعض الاحتياطى من الخيالة والمدفعية .

وبدأت المدفعية المصرية بالضرب المبرح، فردت عليها المدفعية التركية، واستمر تبادل النيران ما ينوف على ساعتين، وكانت نيران المصريين منصبة على المدفعية التركية، بينما مدفعية الأتراك انصبّت على صفوف المشاة المصريين، فكانت الخسائر أقل، وقد أسكنت البطارية التي وضعها سليمان باشا فوق تل سليمان عدّة مدافع تركية.

ولما لاحظ سليمان باشا أن الميسرة التركية لم تتأثر، أمر بزيادة إطلاق مدفعية الهاون وبدون انقطاع على الصفوف التركية، وبعد قليل بدأت الميسرة التركية في التراجع، وفزع بعض الجنود، وقد تزعزت معنويتهم، ولا سيما بعد حدوث انفجارين في عربات جبخانة للجيش التركي، بتأثير نيران المدفعية المصرية، ثم تزايد الارتباك في صفوف العدو بعد أن أطلق قائد المدفعية المصرية الأدميرالاي جعفر بك صادق بعض الصواريخ على المشاة والمدفعية التركية.

أزمة دقيقة :

لما تبين سليمان حرج موقف الأتراك، أمر قسما من الصف الأول لميمته أن يتقدم مسنودا من قسم الصف الثاني، وأمر أيضا بطارية عيار كبير أن تنزل من الأكمة وتبعمهم لتسندهم، فاتجهت الجنود صوب خطوط العدو، ولدى اقترابهم منها، قوبلوا بنيران حامية من مدافعه ومن مدافع أخرى كانت مخفية، فتقهقروا بدون انتظام، بل مما زاد الطين بلة أن لاذت بعض الوحدات بالفرار، ومن حسن الحظ أن قلب الجيش وميسرته لم يشعروا بما حصل لليمنة لانخفاضات الأرض وارتفاعاتها، التي أخفت عنهم حرج الموقف، وحدث أيضا، في ذات الوقت، أن ذخيرة المدفعية المصرية أوشكت على النفاد فاندفعت مع المشاة إلى الخلف، فأسرع سليمان باشا لعلاج الموقف السيئ، وأمر المدفعية القريبة منه باحتلال الأكمة مرة أخرى، وأن تفتح نيرانها بشدة على الأعداء وعلى المنسحبين،

ولما لم يطق العدو تلقى هجمات المصريين المتتابعة ، انسحب بقاياها إلى معسكره القديم ، فاقتفى القائد أثرها بمدفعية الخطين الأول والثانى من المشاة ، بينما اتخذ الثالث الاحتياطى للشاة والمدفعية مراكرها على الربوات والقمم المتوجة لموقع المعسكر العثمانى .

وبالاختصار أصبحت هزيمة الترك عامة ^(١) .

أما إبراهيم القائد الملهم فقد اتجه إلى خيمة القائد حافظ باشا فى المعسكر ، ليكتب رسالته إلى أبيه ، وقد جاء فيها :

”أكتب هذه الأسطر تحت خيمة حافظ باشا ، التى لم ينقل العدو شيئا مما كانت تحتويه ، وقد استولينا على الأمتعة والمهمات والمدافع والخزائن ، وأسرننا عددا عظيما من الجنود . وإنى أودّ أن أقضى أثر الأعداء ولكنى لا أجد منهم أحدا — وكان تفرق الجيش العثمانى أشتاتا وفراره بسرعة لم نستطع معها إدراكه بعد معركة دامت ساعتين فقط . كان هجومنا عليه من جميع النقط معا . وكان أحمد باشا المنكلى على قيادة ميمنتنا وسليان باشا على قيادة الميسرة . أما القلب فكنت أتولى قيادته وكانت نيران مدفعينا حامية جدا . وقد أعاد هذا الفوز السريع إلى ما كنت عليه فى سنّ العشرين من النشاط والانشراح والقوة . وسنوافيكم بالتفصيل قريبا“ .

انتهى الأمر ، وحلت الهزيمة بجيش السلطان ، واستولى جنود إبراهيم على نحو ٢٠.٠٠٠ بندقية و ١٤٠ مدفعا بذخائرها ، كما استولى فى اليوم التالى على ٣٥ مدفعا فى حصن ييره جك . وبلغت خسائر الترك نحو ٤٥٠٠ قتيل وجريح ، وأسروهم بين ١٢.٠٠٠ و ١٥.٠٠٠ رجل . وترك حافظ باشا خزينته وتحتوى على آلاف الجنهيات وأوراقه وخططه ورساماته ... وذابت قوات الترك فى الحاميات العسكرية فى الأناضول .

(١) من تقرير سليان باشا الفرنساوى عن المعركة .

(٢) تم هذا فى الدور الختامى من معركة نزيب .

ومما خفف بعض الأثروصول ستة آلايات خيالة وبطاريتين راكبة وآلاى حرس مشاة وآلاى آخر من القوأت المصرية الى شرق نزيب، وكان قد صدر الأمر اليها للقيام بحركة التفاف واسعة حول الميسرة التركية لشد أزرقوأت المشاة التى سبق ذكرها ، وشرعت فى تطويق ميسرة العدو والهجوم عليه ، وقد بدأ الهجوم اللواء الأول الخيالة (بقيادة رستم بك) فردّه الأتراك ، وكاد ينتهى الموقف بمأساة ، لولا أن تداركه اللواء الثانى بقيادة الأميرالاي ابراهيم بك الجوخدار .

فى هذه الساعة الحرجة ، كاد الجيش المصرى يغلب على أمره ، لولا وصول الذخيرة الى بطارياتها وفتح النيران الشديدة على ميسرة الترك ، التى كادت تصل لها الإمدادات بصفة مستمرة ، وكذلك القلب . وقد سبب نشاط المدفعية المصرية الكبيرة العيار رفع معنوية قوأت سليمان باشا بعد أن كاد أمل النجاح يتبدد ، واستأنفوا الهجوم على الأتراك ، ثم الاقتحام بالسونكى ، وفى هذه اللحظة وصل ابراهيم باشا على رأس آلايين من الخيالة الحرس ، جاءا تحت قيادة المنكلى باشا لمعاونة الميمنة المصرية ، وسار الى خلفهما اللواء الثانى الخيالة المؤلف من الآلايين (١ و ١٣) فأكلا الممعة . وهنا بادرت خيالة العدو بالفرار ، وعجلا الآلايان فى سيرهما الى المعسكر التركى فاستوليا على القسم الأيسر منه ، مكتسحين ثراذم العدو المتفرقة فى الطريق .

وللسرعة التى وصل بها ابراهيم فضل إنقاذ الميمنة المصرية مما أصابها من التفكك ، وقد كانت على وشك الانهيار والهزيمة ، وبدأت كفة المعركة تميل إلى المصريين ، مما جعل سليمان يستغل الموقف .

وكان القتال عمّ الجبهة بأسرها ، من الشمال إلى الجنوب ، وانتقل إلى القلب والميمنة التركية حيث قاومه الفريق خالد باشا بكل شدة ، إلى أن أصيب برصاصة قاتلة ، ومن ثم لم تحدث أية مقاومة . بل فزع جنوده بعد إلقاء أسلحتهم . وكانت وحدات الفريق المصرى عثمان باشا تكتسح الأتراك بعدما أدوا واجبهم فى القتال .

ولعل القارئ يذكر أنه في ٢٠ يونيو تقدم إبراهيم باشا إلى مزار ، ثم نزيب ، لملاقاة العدو ، ولم تك لديه أية معلومات دقيقة عن مواقع الجيش العثماني أو تفاصيل عن طبيعة الأرض ، التي ستشعب عليها المعركة . وليس هناك أدنى شك في أن القيادة ارتكبت هذا الخطأ نتيجة لعدم المبالاة والاستهتار بالعدو وكادت تقترب خطأ لهجوم عليه بالمواجهة ، لولا تغييرها للخط في اللحظة الأخيرة أو ارتجال خطة الانتفاذ والسير الطويل المرهق على مرأى من العدو . كل هذا مخالف للقوانين الأولية لفن الحرب . وصحيح أن إبراهيم ترك بعض قواته في مزار ولكن قام كل الجيش بحركته التي وصفناها من غير أن يفكر في حجز قوة كبيرة من جيشه كاحتياطى له إذا لم تنجح خطته التي اعتمد عليها في تحطيم شوكة العدو نهائيا وكانت يقظة سليمان باشا وإشرافه الدقيق على تنظيم الوحدات ، في خلال سيرها ، وتحمل الجنود أعباء السير المرهق ، بدون توقف ، وتحت حرارة تتفاوت بين ٣٥° و ٤٠° عملا رائعا يستحق الثناء والمدح .

ويا ليت هذه المحنة القاسية قد انتهت لدى هذا الحد ، فإن الجيش ما كاد يصل إلى قنطر هرجون حتى أراد إبراهيم أن يهجم على العثمانيين وينتهى منهم ، في ظلام الليل البهيم ، ويعبر نهر كرسين وهدفه الوصول بقواته إلى الضفة الشمالية من النهر ، وهذه جرأة تدهش أى قائد سوى إبراهيم . فقد اعتاد على أن يأتى بالمعجزات ، ضاربا صفح الحائط بقوانين الميدان ، وأحيانا بنفسية الرجال . وهو خير ما يتصف به إبراهيم ، البطل الجبار . .

وخطأ آخر ارتكبه قائدنا المظفر ، فانه في اليوم السابق للمعركة ويوم المعركة لم يؤمن على قواته . وكان يقذف بها كلها بدون حيلة أو حذر . ولولا أن السرعسكر كان أكثر جرأة ، وتناول الموقف بشيء من الصبر لدار رحى القتال دورة أخرى .

وعندما ارتجت صفوف الميمنة المصرية ، وكادت تفقد العنان ، اولا تدخل المدفعية الكبيرة العيار ، التي صبت نيرانها الحامية فوق الأكتين ، على ميسرة الترك

أما خسائر المصريين فبلغت نحو ٣٠٠٠ بين قتيل وجريح ...

وأصبح إبراهيم باشا ، بعد معركة نزيب : سيد الأناضول على الإطلاق ، وصار الطريق قبالة مفتوحا إلى إستانبول .

وقبلما يبلغ خبر هزيمة الجيش العثماني مسامع السلطان محمود كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة ، وصعدت روحه إلى الرفيق الأعلى .

* * *

لم يقف إبراهيم مكتوف اليدين بعد أن أباد جيش حافظ باشا وبعد أن عثر على خطة العدو الحربية ، فقرأ في فقرتها السابعة أن الاستيلاء على مصر ينبغي أن يكون الغرض الثاني من غرض الأتراك ، وتضمنت توليته واليا على مصر بدل والده . فلما أيقن أن السلطان كان ينتوى أن يجعل هذه الحرب ساحة ، زال ما عسى أن يكون لديه من أثر التردد في مواصلة الزحف ، وكان في مستهل أعماله أن استرد عينتاب ، وأعد العدة لمواصلة الزحف على مرعش وملطية وديار بكر .

تحليل معركة نزيب ونقدها

إذا حكمنا بالتأنيج ، ظهرت لنا معركة نزيب في صورتها الختامية كأجد صفحة في تاريخ الجيوش المصرية . يضعها بعض المؤرخين في مستوى معركة أوسترلتر التي قضى فيها نابليون على زهرة الجيوش النمساوية . غير أننا إذا تطالعنا إلى سير المعركة ، وتطور أدوارها ، لألفينا أن أخطاء فنية عديدة قد اكتشفتها من جانبي القيادة المصرية والتركية^(١) .

(١) كان المارشال فيجاو آخر المؤلفين العسكريين الذين تناولوا نقد معركة نزيب في كتابه المعروف عن حالات الجيش في عهد محمد على وأحفاده . وقد اقتبس المارشال معظم الآراء التي تضمنها نقده مما كتبه مورييه وكادلفين وبارو وفردنان برييه ياورسليان باشا . وهذا القائد نفسه وقد رجعنا إليها في نقدنا بعد اطلاعنا على تقارير إبراهيم باشا ونشرات الجيش المنشورة في الوقائع المصرية .

لنطالع ما ارتكبه ابراهيم مرة أخرى من مخالفة لقوانين الميدان المقدسة لدى الجند ! — قبل ابراهيم المعركة متجها بقواته نحو الغرب والى ميسرته نهر كرسين والى خلفه الفرات الكبير . وفى هذا الوضع الحرج لم تك له خطوط تقهقر يرتد عليها عند اللزوم . وقد يرد على هذا النقد معجب بابراهيم قائلا ومتى عرف ابراهيم القهقرى ؟ إن هذه الكلمة لا وجود لها فى عبقريته الشائخة ولكننا — ونحن من المحافظين — نرى أنه ينبغي ألا يهمل القائد التفكير فيما سيحدث أو لا يحدث بيد أننا نحمد العاقبة — بعد أن رأينا خصمه يقف موقفا سلبيا — ولولا هذه السلبية مرة أخرى لما توج النصر هامة أبطال نزيب .

والراهن أن اعتماد إبراهيم اعتمادا كليا على ميمته جعل خطته هشة ، سريعة الكسر ، لو لم يك حافظ باشا قبائله . ولكنها المدفعية مرة أخرى هى التى انتشلت الموقف . فقد كان المدفعيون هم رجالات نزيب ، الذين نحى ذكراهم ، ونحى لهم رءوسنا ، ولا ننسى معهم نشاط سليمان وحشكته فى سرعة إدارة المعركة وتوجيهها .

لقد وقع عبء القتال برمته على الميمنة ومدفعية المصريين . أما القلب والميسرة فكان نصيبهما فى المعركة عادى للغاية ، ولا نستطيع أن نقول بأن قواتهما اشتركا فى اللحظة الحرجة .

ولم يفد حافظ باشا من أخطاء خصمه إبراهيم ، ولو مرة واحدة ، حتى فى أسهل المواقف عندما ابتدأت ميسرة المصريين فى الفتح ومعاونة الميمنة — كانت أمام حافظ باشا فرصة أضاعها بسليته وفقده روح القتال . ولولا ذلك لتسنى له بميمنة القضاء على ميسرة المصريين . لكنه لم يفعل شيئا ولم يفكر فيما يعرف بإصطلاح الهجوم المضاد ، نظرا لأن المفاجأة والجرأة والمبادأة أيضا ، وهى من عناصر نجاح إبراهيم ، غلبت على أمره ، وقضت على جيش السلطان .

والقلب . وفي هذه اللحظة أثبت السرعسكر أنه أضعف من خصمه ابراهيم ولم يفعل شيئا حيال ثبات رجال المدفعية المصرية ، وراحت من يديه فرصتان : الأولى في بداية نزول القوات المصرية في مزار ، والأخرى في أثناء تحركها الطويل الى هرجون .

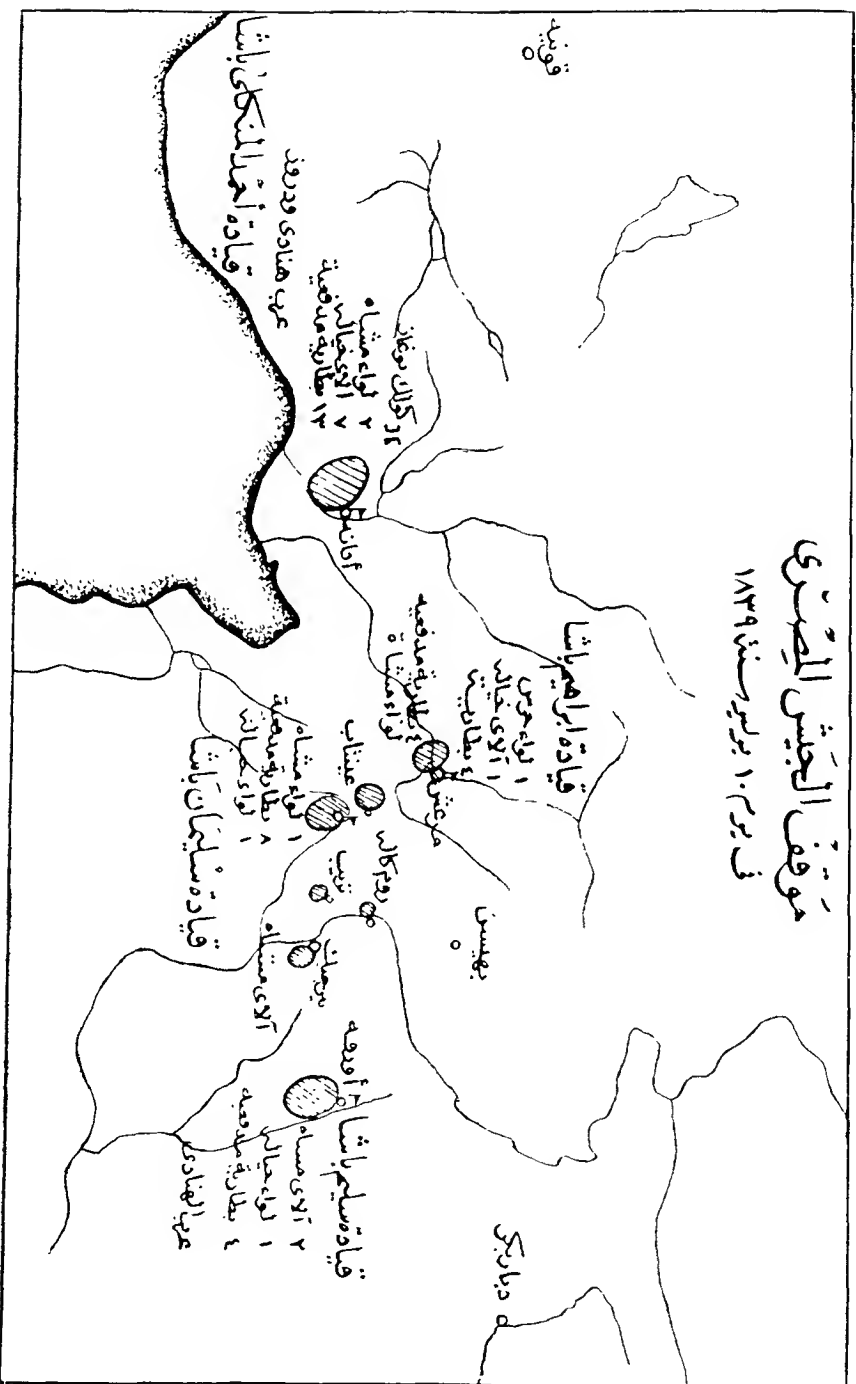
وكان حافظ يؤمن بعقيدة الدفاع كما أمنت بعده بمائة عام (١٩٣٩) رئاسة هيئة أركان حرب الجمهورية الفرنسية بخطة الدفاع في خط ماجينو . ولو أنه قام بعمل مناورة صغيرة فيها شيء من المجازفة لارتد بجيشه الى بيره وقضى على خطة ابراهيم المرتجلة — وكان جيش مصر لا يحمل معه إلا مؤونة يومين ! . . ولكنها جرأة ابراهيم وبطولته أنقذته وقادته الى الظفر الحلو . وكان في مكتة حافظ باشا الرجوع الى وراء الفرات والامتناع به كحاجز ومانع ضد عدوه بيد أنه لم يفعل شيئا من هذا قبالة المفاجأة المصرية .

أليست المفاجأة من أهم مبادئ الحرب الخالدة ، التي اكسبت كثيرا من القادة شهرة الذائعة في التاريخ ؟

لم يحفل حافظ باشا بنصائح ضباطه البروسيين ، وفضل أيسر الخطط ، التي تدور في رأس أى قائد — هذه الخطة هي التي رأيناها قد نفذها ، وهي ادارة صفوف الجنود من الغرب الى الشرق ، وعمل استحكامات خفيفة لم تغن شيئا قبالة الطوفان المصرى .

ويا ليت له لم ينس وضع بعض قواته الخفيفة لدى رأس قنطرة هرجون لكي تقاوم الطلائع المصرية بعض الوقت ، ولكي يفيد في خلاله بعمل شيء هام — لم يفعل شيئا من هذا أيضا بيد أنه قنع بالركود في مواقعه الجديدة وانتظار المكتوب في القدر ، عملا بمواعظ رجاله الموالية والبكاشية حملة القماقم ولا بسى الطراير والقفاطين !!

موقف الجيش المصري في يوم ١٠ برسير سنة ١٨٣٩



ونلخص موقف حافظ باشا في العبارة التي وصفه بها المارشال فيجان وهي :

“Il a maintenu son armée dans une immobilité passive, il a soumis ses Jeunes recrues a l'épreuve la plus rude que puissent supporter des troupes non aguerries, se faire tuer sur place. Dans ces conditions le dénouement était fatal”.

والخلاصة ، فبالرغم عن النصر وعن نتائج نزيب في السياسة الدولية ، فانها لا تعدّ ظفرا عسكريا فنيا لإبراهيم من طراز معارك حمص وقونية ، حتى فيما يعود على المشاة . لأن الفضل في النجاح يعود — ولا مرأى — إلى المدفعية — والمدفعيون من وراء مدافعهم الثقيلة . فكأن المشاة قد اعتمدوا على ما جنوه من شهرة مضت . حينما أدوا واجبهم في سلاح المشاة ، ملكة الأسلحة في معركتي حمص وقونية .

وليس معنى هذا النقد انتقاص من قدر القائد إبراهيم . كلا ، فان أعمال إبراهيم في ميادين الحروب والإدارة قد سجلها التاريخ بمداد الفخار والإطراء . والنقد فن ليس هناك أيسر منه . أما قيادة الجند والظفر بهم في ساحات القتال ففقد لا يجيده إلا طراز فريد من الرجال ، بل أقرب إلى الرسل والقادة والمصلحين ، الذين تبخل بهم الدنيا ولما يظهرون على مسارح العالم إلا نادرا .

خاتمة النصر

في مساء يوم نزيب ، يمت فلول الأتراك المحطمة الى مرعش ، وفتر بعضها نحو الجبال شمال بيره جك ، ومضى حافظ باشا في طريقه الى روم كاله وبهينة ، لعله يجمع أشتات قواته في مالطية .

وكان الجيش المصري قد أنهكه القتال ، فسمح إبراهيم لجنده بالراحة يوما . وفي السادس والعشرين من يونيو غادر قائدنا نزيب تصحبه ثلاثة آلايات من المشاة وبطاريتان وعرب الهنادى ، وقصد بيره جك التي كان يحميها آلاي من

لا يرضى عنها محمد على . وما كان هذا لخوف منه بل لحب فيه — ولهذا انحلت
عرى مقاومته وهو واقف على قدميه وجواده المحبوب يبحث الأرض بحافره على
قيد بضع خطوات منه . وعندئذ أجاب كاييه الى ما طلب ، ورضى أن لا يعبر
جبال طوروس ، وأن تقتصر أعماله الحربية على احتلال مرعش وأورقة . وهما
نقطتان لا غنى عنهما لضمان تموين جيشه . ولم يتحرك من مكانه ، حتى أمر أن يوفد
رسولا ليلحق طلائع جنوده ، ويحول دون زحفهم ^(١) . فعل ذلك إبراهيم وهو أسف
جل الأسف على ما فعل ... فعلاه في ساعة النصر ، لأنه لم يشأ أن يثير المتاعب لأبيه .
وكان رضاه وموافقته بداءة نكوص محمد على قبالة تهديدات الدول الأوروبية ،
التي لا تبغى للشرق سوى الخمول والمتاعب .

* * *

وكانت أهم مراكز الجيش العثماني آنذاك في قونية ومالطية : كان في الأولى
٢٥,٠٠٠ جنسدى وحوالى ٤٠ مدفعا ، وكان في الثانية حوالى ٢٠,٠٠٠ جنسدى
و ٢٠ مدفعا .

أما موقف الجيش المصرى فى أول يوليو، فكان كالاتى :

(١) فى أورفة : ثلاثة آلايات مشاة (٢٦,١٤٩) بقيادة سليم باشا ، وقد
انفصل آلاى منها لحراسة بيره جك ، ولواء خيالة (الآلايان ٢ و ٨) و ٤ بطاريات
مشاة وعرب الهنادى وكتيبة احتلت نزيب وأخرى فى روم كاله (قلعة) .

(٢) فى عينتاب : قيادة سليمان باشا بعد عودته من أورفة وتحت قيادته —
لواءان من المشاة (آلاى الحرس والآلايات ٦ و ١٧ و ٣٤) وأربع بطاريات من
الحرس ومثلها بطارية مشاة .

(٣) فى مرعش — قيادة ابراهيم باشا ومعه الآلايان ٢ و ٣ من الحرس
والآلاى ١١ الرماحين — ٤ بطاريات خيالة (آلاى مدفعية الحرس) .

(١) كادلفين وبارو — تاريخ الحرب بين محمد على والباب العالى .

”هذا محال، لقد كتب هذا الخطاب قبل أن ننال النصر في نزيب، إن هذه الموقعة وما سبقها من تحرش بنا يبطلان هذه الأوامر — ولذلك لن أعمل بها، وسأتحمل تبعه عصيانها“ .

لقد حزن إبراهيم . وحاول كاييه أن يجادله ليقنعه ... فراح يؤكد له معارضة أوروبا في قيام الحرب وأشار إلى أوامر محمد علي ، وإلى تدخل الدول الكبرى . بيد أن القائد أبي أن ينصت إلى هذه الحجج وأجابه بقوله :

لقد درست التاريخ أليس كذلك ؟ فهل سمعت مرة أن قائدا منتصرا وقف عن مواصلة زحفه ، إن كنت قد سمعت بذلك فأنا لم أسمع به .

وحاول هذا الرسول الملحف أن يؤثر على إبراهيم ، ولكن عبثا جاهد، فقد ضاعت خمس ساعات في هذه المقابلة دون أن تحدث المعجزة . وفي فجر اليوم التالي، وقف كاييه على الأرض وأطلق لسانه العنان بينما كان يستعد إبراهيم للخروج من خيمته ، فاضطر آخر الأمر إلى القول : ”لست أريد أن أدعوك إلى الخروج ولكنني أقول لك إنك إذا ظلمت تتحدث إلى عشر سنين طويلة فن تستطيع أن تحولني عن رأيي“ .

ويقول كرايتس كاتب سيرة إبراهيم^(١) — وهنا قدر إبراهيم فأخطأ التقدير، لأنه بقوله هذا كان يحكم على المستقبل .

ولم يك كاييه يجهل فهم عقلية إبراهيم — إذ اعتم في حديثه هذه المرة أن تكون رغبات محمد علي هي المحور الذي يدور عليه كل حديثه — وأن لا يذكر شيئا عن الدول إلا النذر اليسير .

ولم يك في مكنة إبراهيم أن يتغلب على هذه الخطوة ، لأن حبه لأبيه لم يك حبا عاديا . وإنما كان شغفا بل تما بل دينا . ولم يك يستطيع أن يسلك سبيلا قد

(١) الترجمة العربية ص ٢٤٨ — محمد بدران .

وكريت . ولكن أوروبا لم تعامل مصر بمثل العطف الذى عاملت به اليونان فى ثورتها على تركيا . وكان انتصار مصر فى معركة نزيب سببا فى تقلقل التوازن الأوروبى والمسألة الشرقية ، فوقفت الدول الكبرى مواقف متباينة ، تبعا لأطماعها ونزعاتها ، بل لقد جاهررت علنا بالانحطاة بعدائها لمصر وأعلنت وجهة نظرها فى وجهب المحافظة على كيان السلطنة العثمانية .

هذا وبينما رجال الباب العالى يعملون لإصدار فرمان لتحقيق اتفاقية كوتاهية اجتمع ممثلو الدول الخمس فى الآستانة (بروسيا وفرنسا وانجلترا والنمسا وروسيا) وأرسلوا مذكرة الى الباب العالى أعلنوا فيها أن الاتفاق بين الدول الخمس الكبرى أصبح أمرا واقعا ، وأنها تدعو الباب العالى ألا يبرم اتفاقا من دون أخذ رأى الدول .

واتفقت انجلترا وروسيا على تحطيم قوة مصر الخارجية وانتزاع الشام من محمد على وحرمانه من فتوحاته التى أنفقت مصر فيها أموالها ودماء أبنائها تسع سنوات .

وعجل بالمرستون بالاتفاق مع مندوبى روسيا والنمسا وروسيا (ما عدا فرنسا) على الوقوف فى وجه محمد على — وأمضوا معا فى لندن معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وأهم شروطها تلخص فى أنه إذا خضع محمد على ” فى خلال عشرة أيام “ ورد كريت والأماكن المقدسة ببلاد العرب وأدنة والشام أعطته الدولة ولاية مصر وراثية وولاية عكا مدة حياته ، وإلا أخضعته الدول بالقوة ، ونظرت فى أمره من جديد .

رفض محمد على هذه الشروط ، وطفقت الصحافة الفرنسية تندد بالسياسة الانجليزية ، وكادت تشتعل الحرب من جراء المسألة المصرية .

وذهبت فى أثناء ذلك أساطيل الحلفاء وحاصرت سواحل الشام ثم استولت عليها ، وانتشرت الفتى فى الشام ولبنان ، بفضل رجال المخابرات الانجليزية — فاضطر محمد على أن يرسل لابنه أمرا بالانسحاب من الشام .

ولحماية خطوط المواصلات في إينجاسويو — بين مرعش وعينتاب — قلم لواء المشاة (الآلاي ١١ و ١٢) ومعه بطاريتان بتلك المهمة والحراسة ممر الماء داج .
(٤) وفي أدنة — تجمعت تحت قيادة أحمد المنكلي باشا قوة كبرى لمراقبة مداخل مضيق طوروس في اتجاه أركلي وقونية — وكانت تتألف من :

لواءان مشاة (الآلايات ٥ و ١٤ و ٣٠ و ٣١) و ٧ آلايات خيالة (رماحة الحرس والآلايات ١ و ٤ و ٦ و ٧ و ١٠ و ١٣) و ١٣ بطارية وقوة من الهندادى والدروز .

وعلى ذلك يلاحظ أن معظم الوحدات المصرية كانت متجمعة بين عينتاب وأدنة — وكان مركز ثقلها في مرعش — وكانت جبهة أورفا — ملطية ثانوية ، ولاشتراك في ملطية حوالى عشرة آلاف .

وكانت قوات الجيش المصرى في الشام ٣ آلايات مشاة (الآلاي ١٨ في بعلبك و ٢٥ في دمشق و ٣٥ في عكا) وآلاي خيالة (١٢ رماحين) في بعلبك . ولا يخفى أن هذه الوحدات لم تك مرتباتها الحربية كاملة ، فقد نقصت كثيرا . وعلى ذلك لم يتجاوز جيش ابراهيم الرقم ٤٦٠٠٠

بينما كان يجرى هذا في الأناضول وقع حادث هام للغاية — ففى ١٤ يوليو سلم أمير البحر أحمد فوزى باشا ، قائد الأسطول العثمانى ، وعدو خسرو باشا ، جميع سفنه الى محمد على باشا في الميناء الغربى بالإسكندرية . وكان هذا الأسطول يتألف من ٢٠ بارجة تحمل ٢١٠٠٠ بحار و ١٦٠٠٠ من الجنود .

ومن هذا يتبدى أن السلطنة فقدت في أيام ، جيشها وأسطولها وسلطانها !
فياله من موقف حزين عصيب .

* * *

كان يتعين ، بعد إيقاف ابراهيم عن التقدم ، إقرار مصر في حدودها التى استحوذ عليها بمقتضى اتفاق كوتاهية ، أى أن تشمل سورية وبلاد العرب وأدنة

ومن المحزون أن الجيش — في خلال انسحابه من الشام — فقد ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً. وهكذا عاد جيش مصر بعد أن حظى بالمجد والظفر في أربع معارك كبرى . ولو شاء وشاءت السياسة لجعل لمصر حقها الواسع في الحياة .

عاد الجيش الى وطنه — وكان جيشا لم تعرف صفوفه الهزيمة مرة واحدة — على رأسه قائد شاركه في جل أطواره ، لم تنقصه القرينة العسكرية . وكفى محمد على من ذكرى خالدة أنه استطاع في اثني عشر عاما خسر أن يضع تحت إمرة ابنه جيشا مصريا مؤلفا من مائتي ألف جندي في دولة ناشئة لم يتجاوز عدد سكانها الأربعة ملايين .

والراهن أن عمله كان شبيها بمعجزة من المعجزات !

ابراهيم القائد

الآن وقد انتهينا من كتابة هذه السطور . نرى لزاما علينا أن نستوفي البحث في عدة أسطر، عن إبراهيم القائد، تقديرا بل وفاء لهذا الجندي الباسل ، الذي كان المنفذ الفريد لسياسة أبيه ، في إقامة دولته العتيدة .

ولعلنا قد وقفنا على النجاح الذي أصابه ابراهيم في جل المعارك ، التي حاربها ضد قادة جيوش الترك ، واختمر في رؤوسنا أنه قائد من طراز نادر . لقد أكل مشروعات أبيه في خلال حياته وليس كاسكندر الأكبر عقب انقضاء فيليب . وفضلا عن ذلك ، فان سخايا الجندي الكاملة قد تأصلت في ابراهيم كما رأينا .

كانت لابراهيم قدوة عجيبة على ”فلوذة“ جنوده — نعم يجعلهم كالقولاذ في الصلابة والصحود قبالة أعدائهم ، فلا يلينون له ، أو يهزمون أمام إرادته . وقد كان لقوة تأثيره عليهم ، وضربه المثل لهم أكبر ضمان للظفر الذي كل هامتهم ، في كل معركة قاتلوا بشجاعة فيها . لا يرضى أن يعمل أحقر رجل في جيشه ما لا تطاق نفسه هو على عمله . يطيعه الجميع ، ويخشونه أكثر من سواه ، لأن في يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب الجند . كنت تراه في حروبه دائم اليقظة

أصدر إبراهيم أوامره الى جيشه في التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٤٠ بالجلاء ، وقد كان يؤلف من ٥٥,٠٠٠ جندي بصحبته ١٥٠ مدفعا ، وكان يتبع ذلك الجيش نحو سبعة آلاف من الأسرات والأتباع . بدأ الحشد في حلب ، وبعد ستة أيام من خروج إبراهيم باشا من دمشق ، أعيد حكم السلطان .

وفي المزيريب (شرقي بحيرة طبرية) ارتاح الجيش ثلاثة أيام ، ولكن مما يذكر أن البرد كان شديدا . وقد قسم إبراهيم جيشه الى خمسة أقسام : أحدها بقيادة أحمد باشا الدرر ملئ والثالث بقيادة أحمد باشا المنكلي ، والرابع بقيادة سليمان الفرثاوى ، والخامس بقيادته . وعين للقسم الأول طريق شرق الأردن الى غزة والعريش ، والثاني طريق الحج ومعان فالعقبة ومنها الى نخل والسويس ، أما هو وكان قسمه مؤلفا من الحرس وعرب الهنادى والباشبوزق فجعل وجهته غزة ليركب منها البحر الى مصر ، وتمكن إبراهيم بحسن خطته ، ودقة نظام جيشه ، ونشاط ضباطه ، من أن يلعب بقواد الخلفاء الذين كانوا يتربصون له في الطريق ، وأن يفات من بين أيديهم ، حتى قالوا في وصف ارتداده ورجوعه سالما ، أنه ربح أكبر معركة سلمية بالارتداد ، وقد تحمل جيش إبراهيم متاعب جد كبيرة لايحتملها جيش آخر لأنه كان يسير في الصحراء القليلة الماء والزاد ، حتى اضطر الجنود الى التهام لحوم الخيل ، وأن يعيشوا أياما على عشب برية ، وكانوا قبل وصولهم الى السواحل في غزة أو العقبة يكافحون الجوع والعطش وقطاع الطرق .

وفي الخامس والعشرين من يناير ، وصل القسم الأول من جيش إبراهيم الى غزة أما جيش سليمان فانه سار على طريق الحج وكان يحسب أنهم سيرسلون اليه من مصر ، بطريق صحراء السويس ، الزاد والماء ، ولكن خاب أمله .

وصل إبراهيم الى غزة في الحادى والثلاثين من يناير ، وأرسل الى والده يسأله بعض حاجيات الجيش فبعث بها إليه ، ثم غادر آخر جندي غزة في ١٩ فبراير عام ١٨٤١ .

وكان قاسيا ولا سيما حين لم تك السياسة تملى عليه الحلم والعفو، وحين كان لا يخشى
الرأى العام الأوروبي . وكان إبراهيم — فضلا عن ذلك — وثيق الاعتداد بنفسه،
لا يلقى الى النصيحة أذنا صاغية، ولا يحفل بأراء الآخرين، اللهم إلا إذا وجد
في مأزق صعب وأزمة خطيرة . كما أنه في بعض الأحيان يسرف في الوعود إبان
الآزمات التي كانت تمر به، ثم ينسى هذه الوعود بعد ذلك ضاحكا من بساطة
الذين خدعهم بها . وهكذا نرى إبراهيم يجمع بين طرفي النقيض . وكان من رجال
المتناقضات، والحق أن سمته كانت تشهد بالهدوء والطيبة في أوقات سروره،
بيد أنه إذا ما قطب جبينه تبدى على وجهه طابع القسوة والشدة والاستهانة بكل
شئ . وكان أقل الأسباب كافيا لإحداث هذا التغير في سمته من الطيبة الى الشدة
وكان ذلك يبعث الرعب فيمن حوله — وكان صوته قاصفا لارين له ويلوح
في بعض اللحظات كزئير الأسد . ولم يك يستطيع أن يقرب منه دون وجل
إلا القليل من أقاربه، وكان الكل يخضعون لنفوذه . وكانت شخصيته وحدها
خليقة ببعث هذا الاحترام . ولم يك الباعث عليه رتبته ونفوذه وحسب . وكان
يعرف كيف يستغل الرجال فكان يداعبهم ويقربهم إليه إذا اقتضى الأمر .
وكان يعرف كيف يشجع جنوده ويحملهم على مجابهة أشد الأخطار بشجاعة مثلى .
وكان وجوده شديد التأثير في قدرتهم على القتال .

وكان يستطيع أكثر من أى شخص آخر أن يستغل في القتال الموارد القليلة
الموجودة في البلاد . وإذا كان في بعض الظروف يلجأ إلى التخريب — كما حدث
في معارك المورة — فإن ذلك كان في الضرورة القصوى — وكان إبراهيم في ذلك
الميدان أكثر اعتدالا من غيره من القادة .

ففى البلد الذى لم تدله أى أداة إدارية، ولم يك فيه أى فرع من فروع الإدارة
الحكومية المنظمة، استطاع إبراهيم أن يخلق كل شئ وأن يعمل كل شئ بنفسه .
وكانت الثقة تحل أينما ظهر .

كالصقر لا يغفل عن الرقابة ، يدهش الأفراد بسرعة تنقله بين الصفوف ، دون أن يشعر به أحد . لا يحيط به في حله وارتحاله سوى أربعة أو خمسة من رجاله — وكثيرا ما ينام على الثلج في العراء ليضرب بذلك القدوة لغيره — وهو حذب على جنوده يعطف عليهم ويحادثهم ويشجعهم ، ويصغى الى قصصهم ، ويثب في قلوبهم الشجاعة ، ويشاركهم في شعورهم ، ويجلس معهم في مضاربهم . ولكنه لا ينسى قط مقامه . وكان يثني — دوما — على الأمة التي أنجبته ، حتى صاروا يحسبونه درعا يحتمون به من بعض ضباطهم الترك وبلغ من أمرهم أنهم كانوا أحيانا يرفضون تنفيذ أوامره ويقولون أنهم سيرفعون أمرهم الى ابراهيم .

ولما كان ابراهيم يعرف أنه بطبعه حاد المزاج ، سريع الغضب ، فانك تراه أحيانا إذا استنير يمشى ذهابا وجيئة ، ويشم السعوط ويطلب ” الشبك ” كأنه يهدئ بهما أعصابه ، قبل أن يصدر أوامره .

ترى ابراهيم ، في ميدان القتال ، رابط الجأش لا يفارقه هـدوءه إذا دنت ساعة الخطر في الميدان .

لم يسلم خير القادة وأعقلهم من الخطأ ، وقد لامه الكثيرون من الكتاب الأوروبيين أو الحاسدون . ونقول أن ابراهيم لم يك معصوما من الخطأ ، فان له أغلاطه ، ولكنه لم يك بالرجل الحلف ولا الهمجي الجاهل المتلهف على المعالي . وكان يحظى بكل المزايا المرغوبة لقيادة الجند في الشرق .

وصفة القول أن الصفات التي تميز ابراهيم بها تجمع في الشجاعة النادرة ، وفي القوة البدنية الهائلة ، وفي النشاط الجسم والحظ والتوفيق ، وسط الأخطار المحدقة ، والحيلة الواسعة ، والهدوء ، وضبط النفس في أخرج الأوقات وأشد الأخطار ، والقدرة الهائلة على كتم عواطفه ومشاعره .

وطبيعى أن بعض هذه السجايا كانت تنقلب في بعض الأحيان الى نقائصها : فكان في بعض الفترات جريئا مخاطرا في البداية — وهو الذي عرف بشدة الحذر .

المراجع

ايت كان الوقت متسعا للاستعانة فى كتابة هذا الموضوع — بالوثائق المودعة ضمن المحفوظات التاريخية فى قصر عابدين العامر — ولقد كان معجم الأستاذ أسد رستم لوثائق الشام (٤ أجزاء) خير مساعد لنا للوقوف على أهم الوثائق التاريخية التى تتعلق بحروب الشام — فرجعنا لها مع اعداد الوقائع المصرية .

وكانت أمنيئنا أن ننشر فى ملاحق هذا الموضوع صور أهم الوثائق ولا سيما التى تتصل بمنشورات الجيش وتقارير المعارك . . الخ ولكن المجال لم يكن فسيحا فانتفعنا بها فى متن الموضوع كما يتضح للقارئ .

وفىما يلى ثبت بأهم المراجع العربية التى أفدنا منها — ولأصحابها الشكر الجزيل :

(١) أسد رستم .

الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا ٥ مجلدات
بيانات بوثائق الشام وما يساعد على فهم مقاصد محمد على باشا الكبير

(٢) أمين سامى باشا .

(٣) ادوار جوان وترجمة محمد مسعود .

مصر فى القرن التاسع عشر .

(٤) الفريق اسماعيل سرهنك .

حقائق الأخبار عن دول البحار ٣ أجزاء .

(٥) الخورى بوليس قرالى .

فتوحات ابراهيم باشا المصرى فى فلسطين ولبنان وسوريا .

(٦) داود بركات .

البطل الفاتح ابراهيم باشا .

قاد إبراهيم الحملات العسكرية التي تمت في عهد أبيه ، وقد شهدناكم من القادة الأتراك ولآهم السلطان قيادة جيوشه ، بيد أنهم لم يفوزوا من إبراهيم بطائل — ذلك لأنه كان من « عيار » ممتاز نادر .

امتاز بالكفاية والمقدرة والخبرة بأساليب حروب العصابات والحروب المنظمة ، بالرغم من عدم تمسكه بقوانين القتال المدقنة في كتب عصره . بل قل كان يثور عليها ولا يتبعها ، لأن في طبيعته الشيء الكثير مما يضمن النصر ، ويحقق أغراض الحرب .

كان يفكر في الأمر ، ثم يعزم عليه ، ثم يعمل ، واضعا نصب عينيه مواطن الضعف من عدوه ، وبجيشه من تلك الناحية ، فيوجه إليه الطعنة القاتلة . كان يعرف إبراهيم — دواما — مقدرة خصمه ، سواء أكانوا من سكان البوادي أو الأناضول أو أوربا أو بلاد الاغريق ، ولذلك أحرز النجاح في أشتات مشروعاته .

كان لا يقدم على قتال عدوه إلا إذا أكل حشد الجنود ووضع ترتيباته الادارية وشرح لهم خطته ثم يزل عليه بضربته القاصمة ، بينما يشرف أثناء القتال على أن كل وحدة تنهض بتنفيذ نصيبها في المعركة على أكل وجهه — فإذا شاهدها تخيب رجاءه — بادر باصلاح الموقف بما يتطلبه من نقل جنود أو معاونة بالمدفعية أو احتلال موقع دفاعي مؤقت لستر خطة الهجوم المضاد في الوقت المناسب . ولذلك كان يفضل دائما أن يكون في طليعة جيشه ليشراف بنفسه على المعركة ، وليرقب مواطن الضعف من عدوه ، ويوجه إليها ضربته القاضية .

هذه هي صورة لقيادة إبراهيم الكبير ، ولعلنا قد وقفنا في وصف الجانب الهام منها فنكون قد أدينا بعض الواجب في مناسبة مرور مائة عام على وفاته ، رحم الله البطل ، وطيب ثراه ، وأسكنه فسيح جناته ...

المراجع الافرنجية :

- (1) **Cadalvene et Berrault** : Histoire de la guerre de Mehemet Ali Pasha contre la Porte Ottomane en Syrie et en Asie Mineure.
 - (2) **Cadalvene et Berrault** : L’Egypte et la Turquie de 1829 – 1836 2 Vols.
 - (3) **Guemard, G.** : Les Reformes en Egypte 1760 – 1848.
 - (4) **Hamont, P. N.** : L’Egypte sous Mohammed Ali, 1845.
 - (5) **Mengin, F.** : Histoire de L’Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Ali. 2 Vols. 1823.
 - (6) **Moltke, Helmuth Von** : Briefe uber Zustands und Begebenheiten in der Turkie aus dem Jahren 1835.
 - (7) **Mouriez, P.** : Histoire de Mehmet Ali. 1857. 4 Vols.
 - (8) **Paton, A. A.** : A History of the Egyptian Revolution. 1863. 2 Vols.
 - (9) **Phillips, W. A.** : Mehmet Ali; “The Cambridge Modern History Vol. X, Chapter 17.”
 - (10) **Planat, J.** : Histoire de la Régénération de L’Egypte.
 - (11) **Puckler-Muskau, Prince** : Egypt under Mohammed Ali, 1845, 2 Vols.
 - (12) **Rustum A. J.** : The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria (1830 – 1841).
 - (13) **Sabri, M.** : L’Empire Egyptien sous Mohammed Ali.
 - (14) **Shafic Ghorbal** : The Beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali, 1928.
 - (15) **St. John, J. A.** : Egypt and Mohammed Ali, 1834, 2 Vols.
 - (16) **De Vulabellé, A.** : Histoire Moderne de l’Egypte, 1801-1834.
 - (17) **Vingtrinier, A.** : Soliman Pacha, Coll. Sèves., 1860.
 - (18) **Weygand** : Histoire Militaire de Mohammed Ali et ses Fils, 1936, 2 Vols.
-

- (٧) عبد الرحمن الجبرتي .
عجائب الآثار في تراجم الأخبار .
(٨) يوزباشي عبد الرحمن زكي .
الجيش المصري في عهد محمد علي الكبير .
(٩) عبد الرحمن الرافعي .
الحركة القومية ج ٢
(١٠) الأمير عمر طوسون .
صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي .
مقالات هامة في مجلة الجيش المصري .
خرائط ومصوّرات
(١١) كلوت بك وترجمة محمد مسعود .
لمحة عامة في تاريخ مصر ج ١ و ٢
(١٢) كرايتس وترجمة محمد بدران .
إبراهيم باشا .
(١٣) كريم ثابت .
محمد علي .
(١٤) ميخائيل مشاقة .
مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان .
(١٥) محمد رفعت .
تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة .
(١٦) محمد قاسم وحسين حسني .
تاريخ القرن التاسع عشر .
(١٧) محمد شفيق غربال .
محمد علي — سلسلة أعلام الإسلام .



كَمَّلَ طبع كتاب "ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا" بمطبعة
دار الكتب المصرية في يوم الخميس ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٦٧
(٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٨) ما

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

Central Archaeological Library,

NEW DELHI.

39388

Call No. 923.262/962

Author—Jbrahim Basha

Title—Jbrahim Basha.

Borrower No.

Date of Issue

Date of Return

A book that is shut is but a block.

CENTRAL ARCHAEOLOGICAL LIBRARY
GOVT. OF INDIA
Department of Archaeology
NEW DELHI

Please help us to keep the book
clean and marring